منبر الإسلام
العدد ٩ ممتاز ـ السنة ٢٢
رمضان ١٣٨٤ ـ ٤ يناير ١٩٦٥
عدد هدية (امساكية شهر رمضان)

منبر الإسلام

مجلة الثقافة الإسلامية

يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

فى غرة كل شهر عربى

رئيس التحرير

محمد توفيق عويضة

العدد ٩ ـ السنة ٢٢

رمضان ١٣٨٤ ـ ٤ يناير ١٩٦٥

مع العدد هدية « امساكية شهر رمضان »
وخطابا السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى عيد
النصر الثامن ببور سعيد والاسماعيلية

« عدد ممتاز »

بسم الله الرحمن الرحيم

من محتويات العدد

* خطاب السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى عيد العلم العاشر
* زعماء العالم الاسلامى فى القاهرة
* لقاء الأحرار بين القاهرة وبنزرت — **السيد الاستاذ حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية**
* فضل عمر — **فضيلة الشيخ محمد محمد المدنى**
* باب الحديث — **فضيلة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد**
* الاسلام والقومية العربية — **الدكتور احمد الحوفى**
* اعجاز القرآن فى أصول الأحكام — **الاستاذ محمود كمال**
* من حضارة الاسلام — **الاستاذ عبد العزيز الأهل**
* دعوة الميثاق الوطنى من دعوة الاسلام — **الاستاذ حسنى عبد المجيد**
* أثر الصيام فى سلوك الانسان — **الاستاذ احمد غنيم**
* نفحات الرحمن فى شهر رمضان — **الاستاذ عبد الرحيم البلينى**
* فريضة صيام رمضان — **سماحة الشيخ مبشر الطرازى**
* رمضان فى مكة — **الدكتور حسين نصار**
* رمضان فى ليبيا — **الاستاذ محمد أمين هلال**
* من قصص القرآن — **الاستاذ البهى الخولى**
* الصوم ظاهرة حيوية — **الاستاذ احمد الشعراوى**
* من وحى رمضان — **الدكتور محمد مظهر سعيد**

الاشتراكات عن سنة

٥٠ قرشا فى الجمهورية العربية المتحدة
٤٠ قرشا للعمال والطلبة
يضاف الى هذا قيمة البريد
خارج الجمهورية العربية المتحدة
وما يساوى
هذه العملة فى البلاد الاخرى

•

الاشتراكات تدفع مقدما

تقبل كوبونات البريد الدولى
ذات القرشين

العنوان
٣ شارع الأمير قدادار المتفرع
من شارع التحرير بالقاهرة
ت ٣٣٩٥٦

معالم الطريق

نص خطاب
السيد الرئيس جمال عبد الناصر
فى الاحتفال بعيد العلم
العاشر

أيها الأخـوة ..

فى كل مرة معـكم هنـا فى عيد العلم أجىء اليكم حاملا مسئولية جديدة أضعها على كاهل الطلائع المقتدرة ، التى أتاح لها وطنهـا فرصة التفوق فكانت على مستوى الفرصة فشرفت وطنها بالامتياز العلمى وكافأت فى نفس الوقت تضحياته من أجلها .

وفيه أقف هنا فى كل عام لأرى هذا الموكب الطويل من حملة المشـاعل فانى أشعر وكأننى أرى تيار الحياة الخلاق ذاته يشق طريقه متقدما متدفقا فى ثبات واستمرار الى آفاق مفتوحة بغير حدود أو سدود .

رسالة الى المستقبل

ان موكب العلم هنا فى كل عام مسيرة رائعة الى الغد ومن ثم فان كل ما نقوله فى هذا المكان هو رسالة الى المستقبل الذى يحلم به ويخطط له ويناضل من أجله هذا الشعب العظيم بناء الحضارة على طول العصور .

من هنا فان الذين يمرون من هذا المكان كل عام يحملون الأمانة العظمى للأحلام وللخطط وللنضال جميعا .. وأريد أن أقول أمامـكم فى وضوح قاطع يقينى بأن العلم هو الوعاء السليم الذى يستطيع أن يقيم الأحـلام والخطط والنضال وأن يحفظها وأن يصل بها الى حيث تريد الارادة الوطنية لها أن تصل .

المصابيح الكاشفة

ان العلم فى جميع المجالات هوبمثابة المصابيح الكاشفة نوجهها الى كل ما حولنا لتنسج بالنور تطورنا لشكل المستقبل ثم لنخطو بالنور وصولا اليـه

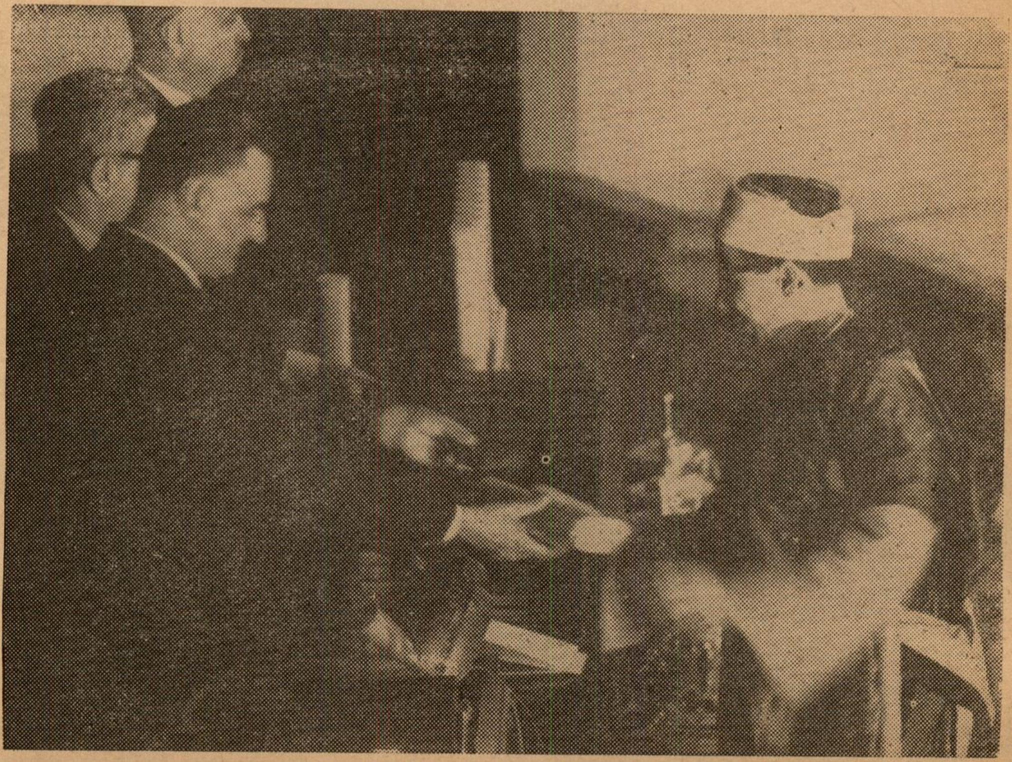

الرئيس جمال عبد الناصر يسلم احد المتفوقين من جامعة الأزهر جائزته

فيغير المصابيح الكاشفة للعلم فى جميع المجالات فان تطورنا للمستقبل وحركتنا اليه تصبح تحسسا أو تخبطا فى المجهول وفى الظلام ٠

ولقد آن الأوان الذى ينبغى فيه أن تستقيم وتستقر نظرتنا العلميـــة الى كل ما يواجهنا ونواجهه ولقد آن ان ندرك أن موقف رد الفعل مهما كانت استجابته مخلصة للحوادث لم يعد كافيا وقد وصلنا بمرحلة الانطلاق ووصلت بنـا الى حيث يتعين علينا أن نتحمل مسئولية المبادأة ، وأن نأخذ موقف الفعل الايجابى وأن نفرض على الظروف أو من فوقها ارادة العمل الوطنى وأهدافه وذلك لايمكن ان يتحقق الا بقيام العلم بدوره كاملا وشاملا بل اننى أقول أكثر من ذلك بأن موقف رد الفعل فى حد ذاته يتحتم أن يكون علميا ٠

الثورة ليست فورانا

ان الثـــورة ليست فورانا عاطفيا وانما الثورة فى اصالتها هى علم يفيد المجتمع ولا يتغير المجتمع بالغضب على ماكان فيه ٠ وعدم الرضا بالاوضاع التى سادته وانما يتغير المجتمع بتحليل علاقات القوى الاقتصادية والاجتماعية فيه واعادة تشكيلها على أسس جديدة لصالح أوسع الجماهير ٠٠ لو كانت الثـــورة مجرد فوران عاطفى لاستطاع البطش ان يطفىء نارها ولكن النار فى الثـــورة الحقيقية تبقى مشتعلة لأن هناك أسبابا حقيقية وعملية تمنحها وقودها الذى لا يفرغ طالما بقيت مسبباتها فى المرحلة السلبية فى مرحلة الانقباض لازالة أسباب التخلف والتعويض فى مجتمع من المجتمعات فان الثورة هى الفهم العلمى للعلاقات الاجتماعية والاصرار على تغييرها ٠

الثورة هى التخطيط

وفى المرحلة الايجابية مرحلة التحرك لبنـاء المستقبل وتحـــرير حوافز الانطلاق والتقدم فى مجتمع من المجتمعات فان الثورة هى التخطيط وليس التخطيط هو وضع كشف للأمانى والأحلام ٠٠ مثل هذا التخطيط ضياع مع الأوهام لا يصل

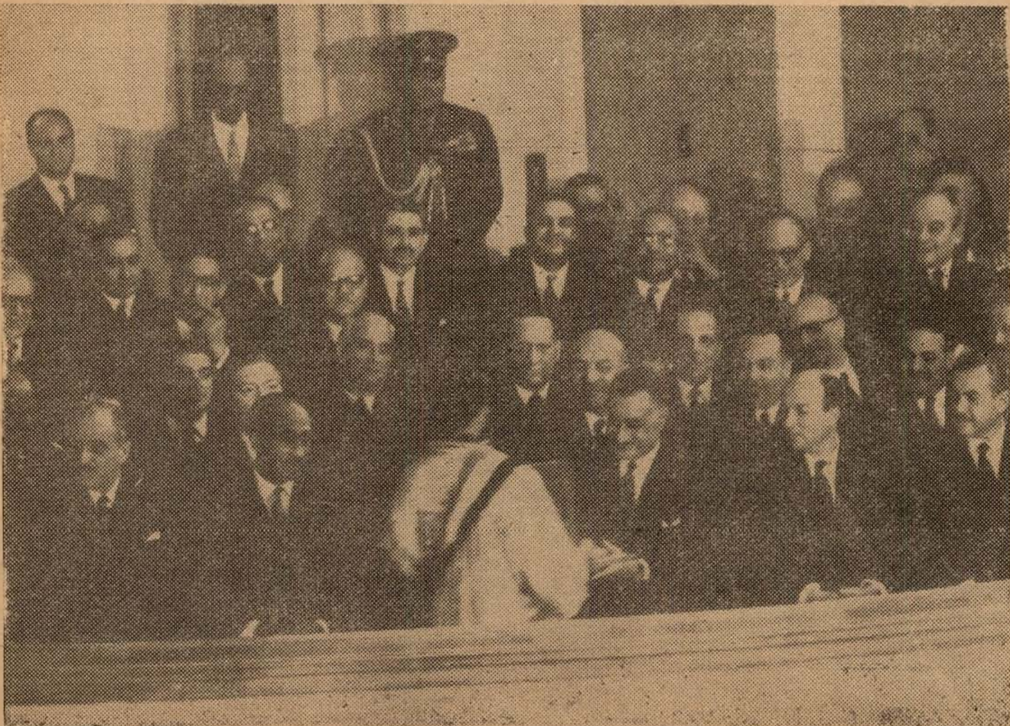

جيل الثورة يحيى الرئيس جمال عبد الناصر

• الاشـــتراكيـــة ليســـت إحســـاناً ..
• الثـورة عـــلم تغـيـير المجتـــمع ..
• التنظيم السياسى هو علم التعبئة السياسية

الى غير الفشل وأما التخطيط الناجح التخطيط العلمى فهو بمثابة التصميم الأصلى لبناء على اتساع وقع فى وطن بأكمله ٠٠ فالبناء الاقتصادى والاجتماعى والثقافى يقوم على حساب دقيق لاحتياجات المستقبل وعلى حساب دقيق لتعبئة الموارد وعلى حساب دقيق لتحقيق المراحل مرحلة بعد مرحلة كما يرتكز فى أى بناء كل طابق على طابق تحته وتقوم الطوابق كلها على أساس متين ٠

الاشتراكية العلمية

واذا كنا قد اخترنا الطريق الاشتراكى للبناء فان الاشتراكية لا يمكن أن تكون الا اشتراكية علمية .. ان مجتمع الاشتراكية ليس جمعية خيرية تنبع معاييرها من نزعة الاحسان لدى كل المتبرعين بجهودهم أو بمالهم فيها، وانما الاشتراكية فكر وسلوك علمى ينبع من الحق السياسى والاقتصادى والاجتماعى لكل انسان حر يعيش ويعمل فوق التربة الوطنية ، وليس الانتاج تجمعا حول نداء صادر الى كل الأيدى أن تجتمع وتضع يدها فى العمل وانما الانتاج العلمى تجمع من حول رسم تفصيلى يحدد لكل يد موقعا من العمل ٠٠ ان التجمع من حول نداء قد يكون زحاما يعطل أكثر مما يمكن وأما الانتاج العلمى فانه يستمد قدرته على الانجاز من أدوار مرسومة طبق خطة شاملة ٠

وليست الخدمات هدايا من المبانى تبعثرها الدولة على رقعة الوطن وانما الخدمات خط مواصلات هندسى علمى يتعين عليه أن ينقل ويحمل مطالب التعليم والعلاج والثقافة ومختلف أنواع التأمين لكل فرد بنفس المنطقة ٠٠ فان التنظيم السياسى هو علم التعبئة السياسية للامكانيات الانسانية وهو لا يختلف كثيرا فى مفهومه العام عن علم التعبئة الاقتصادية للموارد والطاقات الطبيعية والبشرية ٠

الوحدة ليست خيالا

وعلى المستوى القومى فان أمل الوحدة العربية ليس طيفا وخيالا يداعب احلام النائمين فانما الوحدة العربية هى علم التاريخ على الأرض العربية ودروسه وعلم الواقع المعاصر كله ومقتضياته ٠ وعلم البناء الشامل للمستقبل ومتطلباته بل انه على النطاق الدولى الأوسع فان العمل من أجل الحرية العالمية وضد الاستعمار العالمى لم يعد خطابات حماسية أو مظاهرات حاشدة وانما المعركة من أجل الحرية وضد الاستعمار فى النطاق الدولى هى أولا معركة علمية وسياسية واقتصادية واجتماعية أخطر ما فيها علينا أن الطرف الآخر المواجه لنا ما زال يملك حتى الآن من أسباب العلم أكثر مما نملك ٠

• العلم يخسر نفسه من الانعـــزال
• الوحدة العربية ليســـت خيـــالا.. ولكنها علم التاريخ على الأرض العربية

أردت أن أقول لكم ذلك بوضوح ولكنى اريد أن أضيف اليه شيئا أعتبره بمثابة النصف الآخر للحقيقة .

العلم .. يلتزم المجتمع

اذا كنت قد رسمت دور العلم فى جميع المجالات على النحو الذى قمت به فان العلم من جانبه ينبغى أن يستوفى شرطا أساسيا لا يستطيع بغيره أن يحقق أمانته .. تلك هى أن يكون العلم ملتزما ولست انوى بذلك أن أدخل طرفا فى النزاع التقليدى بين العلم للعلم والعلم للحياة ففى اعتقادى أن كل علم مهما كان هو للحياة لكن أريد أن أطالب بما هو أكثر تركيزا وتحديدا من ذلك أريد أن أطالب بان يكون العلم ملتزما ازاء المجتمع وازاء أهدافه .. أعنى أنه من الضرورى أن يقوم العلم فى جميع المجالات بدوره كضوء كاشف أمام حركة المجتمع وعلى طريق مستقبله وليس معنى ذلك أن يقتصر العلم على المشاكل المباشرة والقريبة ولا يتعداها .

اننا لا نخطو الى المستقبل بالأمانى بمجرد تبين مواقع أقدامنا وانما الرؤى البعيدة لها نفس ضرورة الرؤى القريبة لكن المهم ألا يكون هناك انعزال لا يخسر به المجتمع علمه وانما يخسر به العلم نفسه ويضع قيمته .

ان العلم بغير أن يلتزم بالمجتمع يتحول كما قلت أمامكم هنا مرة من قبل الى نوع من ممارسة السحر الذى كان يقوم به بعض الكيميائيين فى العصـــور الوسطى حين تستبد بهم المطامع ويضيع منهم العمر فى محاولة عقيمة لتحويل الحديد الى ذهب .

لترتفع مشاعل النور

أيها الاخوة ان الأديان كانت كلها رسالة علم التى تلقاها الأنبياء بالالهام القدسى ولم يحتكر واحد منهم ما تلقاه ولا استفاد به لنفسه وانما أشاعوا العلم رسالة فى الناس وجعلوا منه قوة تغيير اجتماعى صنعت المعجزات .

أيها الاخوة لقد أردت أن أقول باختصار ان العلم هو مركب الأمانى نحو المستقبل والالتزام الاجتماعى دليله الذى لا يخطىء على الطـريق وليبـــارك الله موكب العلم الذى يجمعكم اليوم هنـــا ولترتفع مشاعل النور على طريق الغـــد والأمل الكبير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

زعماء العالم الاسلامى ...

الجنرال محمد موسى

القائد العام للجيش الباكستانى

وصل الى القاهرة الجنرال محمد موسى القائد العام لجيش باكستان يوم ٦ ديسمبر سنة ١٩٦٤ ، فى زيارة رسمية للجمهورية العربية المتحدة بدعوة من الفريق أول محمد فوزى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة .

(الرئيس جمال عبد الناصر يرحب بالوفد الباكستانى)

فى القاهرة

والجنرال محمد موسى قد خلف الجنرال محمد أيوب خان (فيـلد مارشال رئيس باكستان اليوم) فى منصب قائد عام جيش باكستان عام ١٩٥٨ .. وبذلك اصبح سيادته ثانى باكستانى يضع على كتفيه الأربعة نجوم ويتولى قيادة القوات البرية الباكستانيـة . وقد خدم الجنرال محمـد موسى القـوات العسكرية زهاء ٣٥ عاما وتاريخه خلالهـا حافل بالاعمال الجليلة والتجارب التى مرت عليه سواء فى ادارة العمليات البرية أو القيادة العامة ..

ومن المعروف عنه بعد نظره فى المشكلات التى تواجه الجيش ..

وقبل أن يتولى الجنرال محمد موسى قيادة جيش باكستان كان رئيس اركان الحرب فيه وكانت رتبته آنذاك (لفتننت جنرال) وبقى فى هذا المنصب عامين كان يعمل فيهما تحت امرة فيلد مارشال محمد أيوب خان الذى امرة فيلـد مارشال محمـد أيوب خان الذى

وفى خلال السنوات الست الأخيرة التى تولى الجنرال محمد موسى اثناءهـا قيـادة جيش باكستان حدث بداخل هـذا الجيش تغيرات كبيرة سواء فى المجـال التنظيمى أو العقائدى أو الادارى .

وقد استغرقت زيارة الجنرال محمـد موسى الرسمية للقاهرة ٨ أيام .. فشاهد خلالها معالم المدينة الأثرية والسياحية .. وزار كلية أركان حرب والكلية الحربية .. وزار مصنع الحديد والصلب بحلـوان .. ثم توجه الى رئاسة القوات الجوية حيث زار الفريق أول محمـد صدقى محمود قائد القوات الجوية والدفاع الجوى الذى أهـدى قائد جيش باكستان ((نسر وعلم القـوات الجوية كما أهدى القائد الباكستانى الفـريق صدقى محمود صينية من الفضـة وهدية تذكارية عبارة عن رمز الجيش الباكستانى ..

ثم زار مدينة أسوان وتفقـد سير العمل بمنطقة السد العالى وأبدى اعجابه بهـذا العمل العظيم كما زار خزان أسوان ..

وقد استقبل الرئيس جمال عبد الناصر الجنرال محمـد موسى وحضر المقابلة اللواء سيد جواز واللواء صاحب زيـادة محمـد يعقوب والعميد أكبر خان والعقيد محمد حياه والمقدم حسين أنصارى والرائد منصور احمد أعضاء الوفد المرافق لسيادته .. كما حضر المقابلة القائم باعمال سفـارة الباكستان فى القاهرة والعقيد شورى الله الملحق العسكرى الباكستانى بالقاهرة والفريق أول محمـد فوزى واللواء جمال سلطان .

وقد سلم الجنرال محمد موسى الرئيس جمال عبد الناصر رسالة شخصية من الرئيس الباكستانى أيوب خان .

وقد عاد سيادته الى كراتشى بعد انتهاء الزيارة الرسمية للجمهورية العربية المتحدة .

لقاء الأحرار
بين القاهرة وبنزرت
فى افتتاح مؤتمر الحزب الاشتراكى الدستورى بتونس

السيد حسين الشافعى
نائب رئيس الجمهورية

بسم الله الرحمن الرحيم .. والحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على سيد المرسلين .. سبحان الله الذى اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون .

الحمد لله الذى كرم الانسان وشرفه حينما قال (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) اعترافا من الله جل وعز ان للانسان شرف الانسانية ويؤكد أن الانسان هو الذى يملك القوة الحقة والفعالة فى أن يغير الأمور بارادته الثورية ، وحينما جئنا الى بنزرت لحضور هذا المؤتمر معكم ، تذكرنا على مراحل التاريخ الطويلة هذا الجهاد الذى قام به شعب تونس المناضل فحصل منه بلد يعتز به كل عربى ..

وهانحن فى بنزرت التى جلا عنها المستعمر نجد الدليل العظيم على ان الارادة الثورية تؤكد نفسها حين تثبت ان الوحدة الوطنية هى السلاح العتيد الذى يمكن به تحدى العقبات من استعمار واقطاع وسيطرة ، ولا يمكن لشعب تفرق شيعا وأحزابا أن يقوم بأى عمل ناجح .

ان امامنا فى الوطن العربى معركة الاستعمار يتربص بنا ، وخلق اسرائيل لتكون حاجزا

بشريا يحول دون امتداد الوطن العربى ووسيلة تهدد كيان الوطن العربى ، والأمن والسلام ..

ولذلك .. نحن معشر العرب نرى أن علينا واجبا هو أن نتكتل ونتحرر ونبنى بلادنا .

وحينما نأتى لتونس نحس بالفخر أن قامت دولة فى الوطن العربى فى طريقها للنمو والعزة والقوة ، وهذا كله يضاف للرصيد العربى فنتصدى للاستعمار واسرائيل وتحدياتهما.

أيها الأخوة .. ان بين الجمهورية العربية المتحدة وتونس فى مراحل التاريخ العربى والاسلامى تعاونا لا أول له ولا آخر ، فحيث يطيب المقام لأحد من مصر يأتى لتونس والعكس – وعندنا فى الاسكندرية نصف شعبها من المغرب وتونس ..

أيها الأخوة .. انه ليس من المصادفة أن جاءت قوى الاستعمار واحتلت تونس عام ١٨٨١ ، وضربت الاسكندرية عام ١٨٨١ بالأسطول البريطانى .. وهذا توافق احتلال القطرين العزيزين تونس ومصر عام ١٨٨٢ ، ولم يأت عام ١٩٠٤ حتى عقد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا الذى أعطى للانجليز حرية التصرف فى مصر مقابل تونس لفرنسا كما لو كانت مبادلة استعمارية .. لقد ظللنا نعيش هذه الأيام واذا سمعنا حدثا لتونس ينخلع له قلب مصر وكذلك اذا حدث شىء لمصر كانت تونس معها ..

أيها الأخوة .. لقد مرت هذه الأيام بسوادها وظلامها وهانحن اليوم نسعد باللقاء حضرت لأول مرة الى تونس العزيزة فى عام ١٩٥٧ وفى ٢٠ مارس بالتحديد احتفالا بأول عيد استقلال ، وكان هذا الاحتفال لى عيدين : الأول هو أن التقى بأخوة منع الاستعمار أية فرصة فى أن نلتقى بهم ، والثانى كان احتفالى معهم بأول عيد للاستقلال بعد خروج مصر منتصرة بتأييد العرب بعد عدوان سنة ١٩٥٦ فى بور سعيد . وها أنا اليوم أحضر اليكم عن الاتحاد الاشتراكى العربى ، عن اللجنة التنفيذية العليا وعن اللجنة المركزية ، ورئيسها جمال عبد الناصر .. هنيئا لكم ايها الشعب التونسى الحبيب بعزتكم واستقلالكم ، هنيئا لكم بمؤتمركم وجهادكم الذى تجنون ثماره وتقطفون مع المجاهد الأكبر بورقيبة ثمار كفاحكم ونضالكم . اننا فى هذا المجال سواء فى تونس أوفى الجمهورية العربية المتحدة رواد حرية .. والحرية هى غاية المطاف لكل انسان وشعب ، وما من دعوة أو عمل نريد أن تمتد جذورها الا ويكون مبنيا على الحرية لأن الأحرار يحلقون الى آفاق النجوم ، والعبيد هم الذين يحملون الصخور .. أن الحرية عزيزة المنال لابد لها من عمل متواصل .. فالاسلام العظيم دين العمل الحق والحرية .. اننا حين نقول لااله الا الله محمد رسول الله لا نعبد أحدا ولا شخصا ولا مالا ولا تقاليد بالية ، كذلك نعلن أننا أحرار .. والاتحاد الاشتراكى اذا كان بدأ فى عام ١٩٦٣ من ورائه كفاح متواصل بدا بحركة الضباط الأحرار قبل قيام الثورة ، وقامت هيئة التحرير معبرة عن هذه المرحلة فى كفاح الاستعمار ثم تطور التنظيم ليعبر عن الوحدة التى تعبر عن الحرية .. فجاء الاتحاد القومى يعبر عن الوحدة الشاملة وكنا نتصور فى ذلك الوقت أن جموع الشعب تكون اتحادا قوميا ولكن ظهر الانفصال فى سوريا عام ١٩٦١ تعبيرا عن الحزبية والاقليمية التى لا تريد أن تكون هناك وحدة حقيقية لأنها كانت تعبيرا عن الانفصال ..

لقد كان معنى ذلك ، انه لا تعاون بين الانتهازية والوطنية بين مستغل الشعب ومن يبنون للشعب ، لذلك عدنا الى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية عام ١٩٦٢ بعد الانفصال ، وكان يحدد بوضوح ما هو مفهوم عضوية الاتحاد الاشتراكى لقد اظهرت ان الديموقراطية للشعب ولا ديموقراطية لأعداء الشعب ولا مهادنة مع الرجعية .. وهذه الشعارات أكدت نفسها .

أيها الأخوة .. استمعنا الى كثير من الكلمات وأنه ليس من الممكن أن نطيل أكثر من ذلك ، وفقكم الله والرئيس بورقيبة فى جهاده وقيادته لشعبه ، ووفق الحزب على طريق الاشتراكية والعمل من أجل الوطن العربى .

والسلام عليكم ورحمة الله .

فضل عمر
فيما ترمز اليه بعض

فضيلة الشيخ
محمد محمد المدنى

فى صحيح مسلم عدة احاديث نبوية فى فضل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومن هذه الأحاديث رؤى رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رمز أو تصريح ببعض مزاياه التى تألفت منها شخصيته الفذة ، والتى كان لها آثار بعيدة المدى فى المسلمين على عهد خلافته ، ومن بعد هذا العهد ، الى يومنا هذا ، والى ما شاء الله .

ونحن نورد هذه الأحاديث الشريفة التى تضمنت الرؤى الصادقة لندرسها ونقف على دلالاتها وما ترمز اليه ، أو تصرح به .

● فأول ذلك مارواه مسلم بسنده عن أبى امامة بن سهل أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((**بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون وعليهم قمص ، منها ما يبلغ الثدى ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، ومر عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره**)) قالوا : ماذا أولت ذلك يارسول الله ؟ قال : ((**الدين**)) .

● وحديث ثان رواه مسلم أيضا بسنده عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ((**بينا أنا نائم رأيت قدحا أتيت به فيه لبن فشربت منه حتى انى لأرى الرى يجرى فى أظفارى ، ثم اعطيت فضلى عمر بن الخطاب**)) قالوا : فما أولت ذلك يارسول الله ؟ قال ((**العلم**))

● وروى بسنده عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ((**بينا أنا نائم أريت أنى أنزع على حوضى أسقى الناس ، فجاءنى أبو بكر فأخذ الدلو من يدى ليروحنى فنزع دلوين وفى نزعة ضعف والله يغفر له فجاء ابن الخطاب فأخذ منه ، فلم أر نزع رجل قط أقوى منه ، حتى تولى الناس والحوض ملآن يتفجر**))

● وعن أبى هريرة — فى صحيح مسلم أيضا — بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه

الرؤى النبوية

وسلم قال « **بينا أنا نائم اذ رأيتنى فى الجنة فاذا امرأة توضأ الى جانب قصر ، فقلت لمن هذا ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فذكرت غيرة عمر فوليت مدبرا** » قال أبو هريرة : فبكى عمر ونحن جميعا فى ذلك المجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال **عمر : بأبى أنت يارسول الله ، أعليك أغار ؟**

ان هذه الرؤى النبوية الصادقة واضحة الرمز والاشارة ، بل واضحة الدلالة ، على مقومات شخصية عمر ، وعلى منزلته فى الاسلام ، وعاقبته عند ربه .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يعرض عليه الناس فى قمصهم ، فاذا عمر من بينهم أسبغهم قميصا حتى انه ليجر قميصه من طوله ، وعلماء التعبير يقولون : ان القميص رمز لما يستتر به الانسان من الدين ، وذلك أخذا من تعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أول ذلك بما يتصف به عمر رضى الله عنه من الدين .

وانما كان القميص فى الرؤيا اشارة الى ذلك لأن الانسان وهو مجرد من قميصه وستار جسمه ، انما هو على طبعه الخلقى الحيوانى فالحيوان لايستتر بلباس ، ولا يتزين باخفاء سوآته عن العيون ، أما الانسان فقد ميزه الله باللباس والرياش ، وذلك مظهر من مظاهر تكريمه وترفيعه عن مستوى العجماوات التى تشاركه فى « **الحيوانية** » ، فاذا درج الانسان خطوة أخرى نحو الخلق والفضيلة والسلوك الرفيع ، ارتدى لباسا آخر يميزه ويزيد فى كرامته ، وهو « **لباس التقوى** » ، ولذلك يقول الله تعالى مخاطبا « **بنى آدم** » « **يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير** » فيذكر جل جلاله نعمة الله على أبناء آدم بتمييزهم باللباس والريش ليكون اللباس لهم سترا ويكون الريش فوق اللباس زينة ومتاعا ويذكر بعد هذا أن الانسان انما يسمو حقا ويرتفع قدره ، باللباس المعنوى الخلقى ، وهو التقوى ، لا بمجرد اللباس الحسى المادى .

فعلى هذا المعنى أعتمد الحديث فى تأويل الرؤيا ، فكان قميص عمر السابغ الطويل رمزا لدينه الذى كساه الله اياه ، وجمله بحلته .

ويأتى هنا سؤال فيقال : أكان عمر رضى الله عنه منفردا بالدين ، مميزا فيه الى هذا الحد حتى يرمز لذلك فى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقميص سابغ طويل يجره من ورائه ، بينما غيره ليس لهم الا قمص قصار ، فأين أبو بكر اذن وأين على وأين عثمان وأين فلان وفلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا أعلاما للهدى ، ومثلا الدين والتقوى ؟

والجواب : أن هذه ليست موازنة بين الأصحاب ، وليس النص على عمر بمراد به اخراج غيره من هؤلاء ، الأعلام ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رمز له عن عمر بما يدل على أسلوبه فى فهم الدين وتطبيقه ، فقد كان لعمر رضى الله عنه ، مع شدة تقواه وخشيته من ربه ، وايمانه بدعوة الاسلام ومبادئه ، اسلوب عملى فيما يختص بالدين والتدين :

انه كان يصل الى أهداف الدين ، بطريق مباشر ، فلا يهمه أن يكون المؤمن كثير التعبد والانقطاع عن الأعمال ، وعن الحياة ، بمقدار ما يهمه أن يكون خالص النية ، سليم القصد يعمل أكثر مما يتخشع أو يتعبد .

ولقد روى عنه أنه رأى رجلاً يتخشع فى مشيته ، ويطاطىء رأسه فى مظهر من مظاهر التقوى المدعاة ، فعلاه بالدرة ، ولم يعجبه صنيعه الذى يتنافى مع ما يريده الله للمؤمن من قوة ونهوض ونشاط ، لامن تماوت وتراخ باسم التقوى أو التدين .

انه هو الذى روى الحديث المشهور الذى زعم بعض الناس لشهرته أنه بلغ مبلغ التواتر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم «**انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى**» وهو يتضمن قاعدة ذهبية من قواعد الاسلام ، ويلخص منهج التدين الصحيح فى نظره ، وقد أبدت الآيات الكريمة معناه ، بل هو استوحاها اذ لخص معناها وما تدعو اليه ، اذ يقول الله عز وجل « **انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، الا لله الدين الخالص** » واذ يقول سبحانه « **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** » ويقول «**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** » فيأمر أهل الايمان بأن يكونوا مع الصادقين ، ليكون ايمانهم ذا مظهر عملى تطبيقى فى الحياة لا مجرد ايمان قلبى نفسى ، كما يأمرهم بالتقوى التى هى التطبيق العملى لمبادىء الدين فى السلوك مع الله ومع الناس .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : لاتنظروا الى صلاة امرىء ، ولا صيامه ، ولكن انظروا الى عقله وصدقه .

ويقول : انى لا اخاف عليكم أحد الرجلين مؤمنا قد تبين ايمانه ، وكافرا قد تبين كفره ولكنى اخاف عليكم منافقا يتعوذ بالايمان ويعمل بغيره .

وسأل عمر عن رجل شهد عنده بشهادة ، واراد أن يعرف هل له من يزكيه ، فقال له رجل : انى أشهد له وأزكيه يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : أأنت جاره فى مسكنه ؟ قال : لا ، قال : أعاشرته يوما فعرفت حقيقة امره ؟ قال : لا قال أسافرت يوما معه فان السفر والاغتراب محك للرجال ، قال : لا ، قال عمر لعلك رأيته فى المسجد قائما قاعدا يصلى ؟ قال : نعم قال : اذهب فأنت لاتعرفه !

وقال ذات يوم فى خطبة له : لايعجبنكم من الرجل طنطنته ، ولكن من أدى الأمانة ، وكف عن أعراض الناس فهو الرجل .

ذلك مذهب عمر فى التدين ، وفى حقيقة الدين ، وهو تطبيق لمبدأ « الدين المعاملة » اى السلوك واحسان التعامل مع الله ، ومع الناس .

وقد كان عمر متدينا أعمق ما يكون التدين بهذا المعنى ، اذ كان يطبق العدل فى الحكم ، والأمانة التى استرعاه الله ، أحسن تطبيق ، ويجعل من شخصه قدوة لعماله وولاته .

وهو الذى جاءه قباء كسرى وسيفه ومنطقته وسراويله وتاجه ، بعد انتصار المسلمين على الفرس فى القادسية ، فنظر اليها ثم قال : اللهم انك منعت هذا نبيك ورسولك ، وكان أحب اليك منى واكرم ، ومنعته أبا بكر ، وكان أحب اليك منى واكرم ثم اعطيتنيه ، فأعوذ بك أن تكون اعطيتنيه لتمكر بى ، ثم بكى حتى رحمه من كان عنده وامر عبد الرحمن بن عوف أن يبيعه ويقسمه قبل أن يمسى ، فما أدركه المساء الا وقد بيع وقسم ثمنه على المسلمين !

وروى ابن عباس رضى الله عنه قال : دخلت على عمر فى أول خلافته ، وقد ألقى له صاع من تمر على خصفة من الخوص ، فدعانى الى الأكل ، فأكلت تمرة واحدة ، واقبل يأكل حتى اتى عليه ، ثم شرب من جرة كانت عنده ،

واستلقى على مرفقة له ، وطفق يحمد الله ، يكرر ذلك !

وجاءه وفد من أهل العراق ، منهم جرير ابن عبد الله ، فأتاهم بجفنة ـ أى قصعة ـ فيها خل وزيت ، وقال : خذوا ، فأخذوا ـ أى أكلوا منها ـ أخذا ضعيفا ، فقال ما لكم ؟ أظنكم تريدون حلوا وحامضا ، وحارا وباردا ثم قذفا فى البطون ؟ أما لو شئنا أن نأمر بصغار الضأن فتسمط ، ولباب الخبز فيخبز ونأمر بالذبيب فينبذ ، ثم أكلنا هذا وشربنا هذا ، لفعلنا ، والله انى ما أعجز عن مثل ذلك ولكن الله تعالى قال لقوم عيرهم أمرا فعلوه : **«أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنياواستمتعتم بها »** وانى نظرت فى هذا الأمر فجعلت ان أردت الدنيا أضررت بالآخرة وان أردت الآخرة أضررت بالدنيا ، واذا كان الأمر هكذا ، فأضروا بالفانية !

ولما قدم عتبة بن مرثد اذربيجان أتى بنوع من الحلواء يسمى **« الخبيص »** فلما أكله وجده شيئا حلوا طيبا ، فقال : لو صنعت من هذا لأمير المؤمنين ، فصنع له خبيصا وجعله فى اناءين عظيمين ، وحملهما على بعيرين الى المدينة ، فقال عمر ماهذا ؟ قالوا : الخبيص ! فذاقه فوجده حلوا ، فقال لمن جاء به : ويحك اكل المسلمين عندكم يشبع من هذا ؟ قال : لا . قال عمر فارددهما ثم كتب الى عتبة أما بعد ، فان خبيصك الذى بعثت به ليس من كد أبيك ولا من كد امك ، أشبع المسلمين مما تشبع منه فى رحلك ، ولا تستأثر ، فان الأثرة شر ، والسلام !

وروى عتبة بن مرثد أيضا انه قدم على عمر بحلواء من بلاد فارس فى سلال عظام ، فقال : ما هذه ؟ قلت : طعام طيب ، اتيتك به قال ويحك لم خصصتنى به؟ قلت: انت رجل تقضى حاجات الناس اول النهار ، فأحببت اذا رجعت الى منزلك أن ترجع الى طعام طيب فتصيب منه فتقوى على القيام بأمرك فكشف عن سلة منها ، فذاق فاستطاب ، فقال : عزمت عليك ياعتبة اذا رجعت الا رزقت كل رجل من المسلمين مثله ! قلت : والذى يصلحك يا أمير المؤمنين لو انفقت عليه أموال قيس كلها ، لما وسع ذلك ، قال : فلا حاجة لى فيه اذن ! ثم دعا بقصعة من ثريد ، ولحم غليظ ، وخبز خشن ، فقال : كل ، ثم جعل يأكل أكلا شهيا ، وجعلت آخذ القطعة البيضاء أحسبها سناما ، واذا هى عصبة ، وآخذ القطعة من اللحم أمضغها فلا أسيغها ، فاذا غفل عمر جعلتها بين الخوان والقصعة ثم أتى بقدح فيه شراب قد انتبذ يكاد يكون خلا ، فقال اشرب ، فلم استطعه ، ولم أسغه ، ثم نظر الى وقال : اسمع اننا ننحر كل يوم جزورا ، فأما اوراكها واطاييبها فلمن حضرنا من المهاجرين والانصار ، واما عنقها فلآل عمر وأما عظامها وأضلاعها فلفقراء المدينة ، نأكل من هذا اللحم الغث ، ونشرب من هذا الشراب وندع لين الطعام ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها !

وقال زيد بن أسلم : كنت عند عمر بن الخطاب ، وقد كلمه عمرو بن العاص فى الحطيئة الشاعر ، وكان قد حبسه ، فأخرجه من السجن بعد أن عاهده على أن يكف عن الهجاء ، ثم أنشده :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
القيت كاسبهم فى قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الامام الذى من بعد صاحبه
ألقت اليك مقاليد النهى البشر
ما آثروك بها اذ قدموك لها
لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

فبكى عمر لما قال له « ماذا تقول لأفراخ » فكان عمرو بن العاص بعد ذلك يقول : ما اقلت الغبراء ، ولا اظلت الخضراء أتقى من **رجل يبكى خوفا من حبسه الحطيئة !**

تلك من أنباء عمر التى تفصح عن مذهبه العملى فى الدين أو فى التدين ، ذلك المذهب الذى رمز له فيما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم بالقميص السابغ الطويل الذى يجرجره من خلفه .

ولنا عودة الى بقية الرؤى النبوية ان شاء الله .

باب السنة

عَــوْدٌ

فضيلة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد

كنت ظننت أنى أوفيت على الغاية وجئت بما يحتاج اليه القارىء من طرق أئمة الحديث فى رواياتهم وما يعتبرونه أساسا لقبول الحديث والعمل به ، وأن القارىء لن يحتاج الى شىء بعد الذى جئته به ، بل انه قد كان يخطر لى أحيانا أنى أكثرت ، وان كان الذى أغضيت عنه أكثر مما نظرت اليه ، حتى كتب أحد قراء مجلة « منبر الاسلام » الى مدير التحرير يستدرك على أنى قلت فى صدد بيان الحديث الصالح للاحتجاج به ما نصه « ان الصفات التى يذكرها العلماء للحديث الصالح للاحتجاج به كلها ترجع الى سند الحديث ورجاله الذين أثروه عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم » فقال المستدرك : ان العلماء لم يقتصروا على الصفات التى ترجع الى السند كما قررنا ، بل شرطوا فى النص نفسه شروطا ، منها ألا يخالف العقل ، ومنها الا يخالف القرآن ، وقد كان يكفينى أن أنبه المستدرك الى الرجوع الى بقية الكلام لتتبين له حقيقة ما أردنا ، ولكنى حريص على ألا تبقى شبهة فى نفس قارىء من قراء المجلة ، ولهذا أقدم بين يدى هذا الكلام تصريحا بأننى على أتم الاستعداد لتلقى الاستدراكات والاعتراضات على ما أقول ، وعلى أتم الاستعداد للاجابة عما يوجه الى من النقد أو الاستفسار ، وعلى أتم الاستعداد لاعلان خطئى ان كنت قد أخطأت فانى أعلم أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك ، الا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فانه لايجوز لمسلم أن يترك من كلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ شيئا متى علمه واطمأن قلبه بعد معرفة استكماله لشروط الصحة ، فان رد شيئا بعد ذلك كان مخالفا لقوله تعالى **(وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا)** .

ثم نعود الى أصل الموضوع فنقول : قد كان يكفينى أن أنبه المستدرك الى بقية الكلام ، لأننى قلت فى تعليل اقتصار المحدثين على

شروط الاسناد ما نصه « والسر فى ذلك أنهم أرادوا أولا أن يطمئنوا الى أن هذا الكلام الذى انتهى السند اليه ثابت النسبة الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومتى اطمأنوا الى ذلك ، وارتاحت أنفسهم الى صحة هذه النسبة فقد وجب عليهم الأخذ به ، سواء أكان الحكم الذى يدل عليه معقول العلة أم لم يكن ، فرب علة من علل الحكم خفيت على العالم الدراكة ، ورب حكم خفيت علته اليوم ثم ظهرت غدا ، وهلم جرا ، ونحن نقول هذا على عمومه وان كنا نعتقد أنه ما من حكم ورد فى هذه الشريعة السمحة عن الله تعالى أو عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – الا وهو هادف الى مصلحة المكلفين بأداء هذه الأحكام » هذا ما قلناه بحروفه ، وهو فى الكلمة المستدرك عليها يقع تاليا للعبارة المستدرك عليها بدون فاصل بين الكلامين ، وخلاصة هذا الكلام أنا قررنا أن قصور عقل واحد من العلماء أو قصور عقل جماعة منهم عن ادراك علة الحكم ليس عذرا له يسوغ معه ترك العمل بالحكم ، وأنا قررنا مع ذلك ان أحكام الله تعالى وأحكام رسوله – صلوات الله عليه – جارية على وفق مصالح العباد وهادفة الى منفعة المكلفين ، فضلا من الله ومنة ، سواء أفهم المكلفون هذه المصلحة فى فور التكليف أم خفيت عليهم ، وسواء أزال عنهم الخفاء بعد البحث والتنقير أم استمر الى أن يهيىء الله لهم من يكشف خفاءه .

وبعد ، فاننا نتكلم فيما نبعث به الى مجلة « منبر الاسلام » بلسان علماء الحديث وأئمته الذين أفنوا أعمارهم واستنفدوا جهودهم فى هذه الأبحاث حتى أتوا بما لا سبيل لأحد أن يجحد ما لهم من فضل ، وما كان لنا أن نتكلم فى الحديث بغير لسانهم ولا أن نتزيد عليهم أو ننسب لهم غير ما ذهبوا اليه فان من واجب أهل العلم اذا تحدثوا فى علم من العلوم التى بحثها السلف أن يتحدثوا بلسان أهل هذا العلم وان ينسبوا ما يتحدثون به الى أهله ولا ينسبوا لأحد منهم غير ما قاله هو ، ولهذا لا نرى أنه من الوثاقة فى العلم أن ينسب أحد الى امام من الأئمة كلاما أو رأيا يأخذه من كتاب امام آخر اذا كان الرجوع الى كتاب الامام المنسوب اليه ممكنا ، فرب رأى رجع عنه صاحبه أو قيده بقيود لم يكن أول الأمر قيده بها ويكون هذا الرأى قد تناقله عنه الناس من قبل ، فتكون نسبته اليه بعد الرجوع عنه أو بعد التقييد خطأ .

وهذه مصنفات أئمة الحديث وعلمائه المتقدمين منهم والمتأخرين تنص نصوصا صريحة لا تقبل التأويل على أن المدار عندهم فى صحة الحديث على أن ينقله العدل الضابط عن مثله متصلا من أوله الى منتهاه والا يكون شاذا ولا معللا ، وقد تضمن هذا الكلام الشروط الخمسة التى ذكرناها وفصلنا القول فيها تفصيلا وافيا ، وهى عدالة الراوى ، وضبطه ، واتصال السند ، وعدم الشذوذ ، وعدم العلة ، ولا نجد مدعاة الى ان نعود الى شىء من ذلك اليوم ، فليرجع من شاء الى عدد جمادى الآخرة من « منبر الاسلام » .

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت ، المعروف بالخطيب البغدادى ، فى كتابه « الكفاية ، فى علم الرواية » ص ٢٠ ما نصه : أخبرنى محمد بن أحمد بن يعقوب ، قال : أخبرنا محمد بن نعيم الضبى الحافظ ، قال : قرأت بخط أبى عمرو المستملى ، سمعت يحيى ابن محمد بن يحيى يقول : لا يكتب الخبر عن النبى – صلى الله عليه وسلم – حتى يرويه ثقة عن ثقة ، حتى يتناهى الخبر الى النبى – صلى الله عليه وسلم – بهذه الصفة ، ولا يكون فيهم رجل مجهول ولا رجل مجروح ، فاذا ثبت الخبر عن النبى – صلى الله عليه وسلم – بهذه الصفة وجب قبوله ، والعمل به ، وترك مخالفته .

فقد نص الحافظ أبو بكر فى هذه الكلمة على أن الحديث الذى اجتمعت فيه الشروط الخمسة التى ذكرناها وذكرها هو أيضا يجب قبوله ، والعمل به ، وترك مخالفته ، ولو كان هناك شروط أخرى يجب توافرها لصحة الحديث لكان عليه أن يبينها ، ولم يكن يجوز له أن يحكم بوجوب العمل به وترك مخالفته بعد ايجاب قبوله .

ونريد أن ننبه هنا الى أن أئمة الحديث قد اتفقت كلمتهم على أن الحديث الذى اجتمعت فيه الشروط الخمسة التى ذكرناها صحيح ، وأنه يجب قبوله ويجب العمل به ويجب عدم مخالفته ، ولكنهم اختلفوا فى شىء دقيق وراء هذه الأمور الثلاثة — قبوله ، والعمل به ، وترك مخالفته — وحاصل هذا الاختلاف أنه هل الحكم بالصحة على الحديث المستجمع لهذه الشروط الخمسة من قبيل القطع والعلم الجازم المطابق للواقع ، أم هو من قبيل الظن الغالب على عقل الباحث ؟ ولهم فى ذلك عدة آراء لا محل لذكرها الآن .

فان قلت : فكيف تقول : انهم أجمعوا على وجوب قبول الحديث المستجمع لهذه الشروط ووجوب العمل به وعدم مخالفته ، مع أن منهم من يقول انه لا يفيد الا الظن ؟

فالجواب على هذا أن ننبهك الى شيئين ، الأول ان القطع والظن يرجعان الى ثبوت نسبة الحديث الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فمن ذهب الى أنه يفيد القطع يقول : اذا استجمع الحديث الشروط الخمسة التى ذكرناها وذكرها الأئمة الأعلام من قبل أفاد القطع واليقين والجزم بأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد قاله ، ومن ذهب الى أنه يفيد الظن قال : اذا استجمع الحديث هذه الشروط الخمسة لم يفد الا ظنا غالبا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قاله ، ومع ذلك يجب قبوله ويجب العمل به ويجب ألا نخالفه، وذلك راجع الى الشىء الثانى الذى أردنا أن ننبهك اليه ، وهو أنه يجب على المجتهد اذا غلب على ظنه شىء أن يحكم به ، ولا يجوز له أن يتوقف فى الحكم حتى يصل الى المقطوع به لأنه عسى ألا يصل اليه ، ولهذا تجد علماء الاصول يقولون : ان القرآن الكريم قطعى الثبوت ظنى الدلالة ، يعنون أن ثبوت نسبة القرآن الى الله تعالى مقطوع بها لأنه وصل الينا على طريق التواتر المفيد للقطع ، ولكن دلالة الفاظه على المعانى التى يذكرها علماء التفسير والأئمة المجتهدون ظنية ، ولهذا يختلف العلماء فى المعنى الذى تدل عليه ألفاظ القرآن ويختلف اجتهادهم فى استنباط الأحكام منها، ولو كانت ألفاظه الكريمة قطعية الدلالة على معانيها لما اختلفوا فيها ولما صح هذا الاختلاف. وترى الأصوليين يقولون أيضا : ان الحديث النبوى ظنى الثبوت ظنى الدلالة ، يعنون أن نسبة هذا القول الذى ينتهى السند اليه الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مظنونة ، ودلالة الفاظه على معانيها التى يذكرها العلماء مظنونة أيضا، فاشترك القرآن الكريم والحديث النبوى فى أن كلا منهما يدل على معان يغلب على ظن كل مجتهد أن ما فهمه هو المراد منها ، وينفرد القرآن الكريم بأن نسبته الى الله تعالى مقطوع بها ، ولهذا كان حكم أئمة هذه الأمة على من أنكر نسبة جملة من القرآن الى الله تعالى أنه كافر خارج عن هذه الملة .

قال الحافظ أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ، المعروف بابن الصلاح فى مقدمته فى علوم الحديث ص ١٤ ط الهند سنة ١٣٥٧ ما نصه « وهذا القسم جميعه مقطوع بصحته ، والعلم اليقينى النظرى واقع به ، خلافا لقول من نفى ذلك محتجا بأنه لا يفيد فى أصله الا الظن ، وانما تلقته الأمة بالقبول لأنه يجب عليهم العمل بالظن ، والظن قد يخطىء ، وقد كنت أميل الى هذا ، وأحسبه قويا ، ثم بان لى أن المذهب الذى اخترناه أولا هو الصحيح ، لأن ظن من هو معصوم من الخطأ لا يخطىء ، والأمة فى اجماعها معصومة من الخطأ ، ولهذا كان الاجماع المبتنى على الاجتهادات حجة مقطوعا بها ، وأكثر اجماعات العلماء كذلك » . اهـ كلام ابن الصلاح ، وهو يتضمن ذكر اختلاف العلماء فى افادة الحديث المستجمع للشروط الخمسة القطع بنسبته الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم أو الظن ، ويتضمن أن القائلين بافادته الظن يرون وجوب العمل به ، وتعليل ذلك بأنه يجب على المجتهد العمل بما يغلب على ظنه ، ويتضمن أنه كان فى أول الأمر يرى أنه يفيد الظن ويعتقد أن الدليل على افادته الظن قوى ، ثم ظهر له أن القول بافادته القطع هو الأولى أن يؤخذ به .

وقال الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى فى ألفيته فى مصطلح الحديث :

حد الصحيح مسند بوصله
بنقل عدل ضابط عن مثله
ولم يكن شذ ، ولا معللا
والحكم بالصحة والضعف على
ظاهره ، لا القطع ، الا ما حوى
كتاب مسلم ، أو الجعفى ، سوى
ما انتقدوا ، فابن الصلاح رجحا
قطعا به ، وكم امام جنحا
والنووى رجح فى التقريب
ظنا به ، والقطع ذو تصويب

فقد ذكر الحافظ السيوطى فى هذه الأبيات حد الصحيح ، ولم يذكر فى هذا الحد الا الشروط الخمسة التى ذكرها الأئمة من قبله ، وذكر افادة الصحيح القطع أو الظن بما حاصله أنه اذا قال واحد من أئمة هذا الشأن : هذا حديث صحيح ، أو قال : هذا حديث غير صحيح ، فهل معنى ذلك أنه صحيح - أو غير صحيح - بحسب ما انقدح فى ذهنه وظهر له أنه مستجمع للشروط أو غير مستجمع لها ، أو ذلك يدل على انه يرى انه صحيح النسبة فى الواقع ونفس الأمر فهو جازم بما ذكر وقاطع به ؟ وقد ذكر الحافظ السيوطى أن ابن الصلاح يرى أنه يفيد القطع ، وقد أثرنا لك عبارته من قبل ، وأن الامام النووى يرى أنه يفيد الظن ، وذكر - مع ذلك - أن كثيرا من الأئمة جنح الى القول بأنه يفيد القطع ، ثم قال فى آخر كلامه « والقطع ذو تصويب » وقد عزا الامام الباجى شارح الموطأ القول بافادته القطع الى الامام أحمد بن حنبل، وعزاه ابن خويز منداد الى مالك ، وان كان المازرى قد نازعه فى نسبة هذا القول الى مالك ، ونقله ابن حزم عن داود الظاهرى ، وقد أخذ بهذا القول من الشافعية أبو اسحاق الاسفرائينى ، وأبو حامد الاسفرائينى ، وابن فورك ، والقاضى أبو الطيب الطبرى ، وأبو اسحاق الشيرازى ، وأخذ به من الحنفية الامام السرخسى ، ومن المالكية القاضى عبد الوهاب ، ومن الحنابلة القاضى أبو يعلى ، وابن الزاغونى .

ومن هذا التفصيل ، وهذه الأقوال ، وهذه النقول ، يتبين بأجلى بيان أن أئمة الحديث الذين نتحدث الى قراء « منبر الاسلام » باسمهم لم يصرحوا باشتراط مطابقة مدلول الحديث لما يدل عليه العقل ، وما كان لهم أن يشترطوا ذلك ، ومعاذ الله أن يشترطوا ذلك فى صحة الحديث ، ويدل لما نذهب اليه فى هذا الموضوع .

أولا : أن الأحكام الشرعية التى شرعها الله تعالى ، وشرعها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واتفق الأئمة على أنها مشروعة - لا يلزم فيها أن تكون موافقة لما يفهمه الناس بعقولهم ، بل يجوز أن تأتى على وفق ما تقتضيه العقول ، ويجوز أن تأتى على غير ذلك ، مع اعتقادنا واعتقاد سائر المسلمين أن ما لم نفهم علته هادف الى مصلحة خفيت علينا ، وأنها قد تظهر لعقولنا يوما ما . وليحدثنا هؤلاء الذين يستدركون على أئمة الحديث ماذا أدركت عقولهم من الحكمة فى غسل الاناء اذا ولغ فيه الكلب سبع مرات - أو ثلاث مرات - احداهن بالتراب ، أو أولاهن بالتراب ، أو أخراهن بالتراب ، سواء أقلنا ان ذلك عن نجاسة الكلب وتنجس الاناء بولوغه أم لم نقل ذلك ، واذا كانوا قد فهموا معنى معقولا فمتى فهموا هذا المعنى المعقول ، ولماذا لم يلحق بولوغ الكلب فى الاناء نفث الأفعى سمها فى الاناء وسم الأفعى - فيما يبدو لذوى العقل - أشد فتكا والنفوس منه أشد تقززا واشمئزازا ، والمثل لذلك كثيرة .

ثانيا : أن ذلك من باب سد الذرائع ، وحاصله أن الشىء اذا وقع فى ظن المجتهد أنه يترتب على اباحته شر يحظره ويحرمه ، اتقاء لما عسى أن ينجم عنه ، وقد اعتقد أئمة الحديث أنهم لو جعلوا للعقل سلطانا على الحكم بصحة الحديث لفتح باب من الشر والفتنة ، وكان كثير ممن يدعون النظر يرفضون كثيرا من الحديث بحجة أن عقولهم لم تصل الى ادراكه ،

وفى ذلك ما لا يخفى على ذى بصيرة ، وقد نجم فى هذه الأيام جماعة يدعون الى مثل ذلك ، والله من ورائهم محيط ، وأقلام أهل العلم تبين فساد ما يذهبون اليه ، والله يؤيدهم بنصره ورعايته .

ثالثا : أن هذا أمر غير مضبوط ولا محدود، فانك لا تدرى الى أى حد أنت تارك لعقلك العنان ، وقد علم كل ذى ثقافة ضاقت أو اتسعت أن العقلاء يناقض بعضهم بعضا ، وأن العاقل الواحد ينقدح فى ذهنه رأى ويراه صوابا خالصا ثم يعود فيرى غير هذا الرأى، وقد يسخر من نفسه عندما يتذكر أنه كان يرى الرأى الأول فى يوم من الأيام ، فوقاية لهذه الشريعة الخالدة رأى أئمتها أن يقفوا عند العلم ـ أو الظن الغالب ـ بثبوت النصوص وصحة نسبتها الى من له حق التشريع .

رابعا : أن فيما شرطوه ما يغنى عما يراد لهم أن يشترطوه ، فقد شرطوا ألا يكون الحديث شاذا وشرطوا ألا يكون معللا ، وقد بينا فى كلمتنا السابقة معنى هذين الشرطين بما لا نرى محلا للرجوع الى بيانه الآن ، ولكنهما ـ على اية حال ـ يضمنان الثقة بنسبة الحديث الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

خامسا : أن لهم قواعد دقيقة غاية فى الدقة، فى تعارض النصين ، سواء أكان النصان من القرآن الكريم أم كانا من السنة النبوية أم كان احدهما من القرآن والآخر من السنة ، وهذه القواعد تكفى من أتقنها وعرف أسرارها وتبصره بطرق الجمع بينهما ، ومتى يكون تعارضهما سببا فى تركهما جميعا والبحث عن دليل آخر .

سادسا : أنه قد ورد فى بعض نصوص ائمة الحديث التحذير من أن يرد أحد سنة ثبتت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدعوى أنها تعارض العقل أو تعارض سنة اخرى أو تعارض القرآن الكريم ، واستمع الى الخطيب البغدادى يقول فى « الكفاية » ص ٤٣٣ ما نصه « وكل خبرين علم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكلم بهما فلا يصح دخول التعارض فيهما على وجه ، وان كان ظاهرهما متعارضين ، لأن معنى التعارض بين الخبرين والقرآن من أمر ونهى وغير ذلك : أن يكون موجب أحدهما منافيا لموجب الآخر ، وذلك يبطل التكليف ، ان كانا أمرا ونهيا واباحة وحظرا ، أو يوجب كون احدهما صدقا والآخر كذبا ، ان كانا خبرين ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزه عن ذلك أجمع ، ومعصوم عنه باتفاق الأمة وكل مثبت للنبوة ، واذا ثبتت هذه الجملة وجب متى علم أن قولين ظاهرهما التعارض ونفى أحدهما لموجب الآخر : أن يحمل النفى والاثبات على أنهما فى زمانين ، أو فريقين ، أو على شخصين ، أو على صفتين مختلفتين ، هذا ما لا بد منه ، مع العلم باحالة مناقضته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شىء من تقرير الشرع والبلاغ ، وهذا مثل أن يعلم أنه قال : الصلاة واجبة على أمتى ، وقال أيضا : ليست بواجبة ، أو الحج واجب على زيد هذا ، وهو غير واجب عليه ، وقد نهيت عن الفعل ، ولم أنه عنه ، وهو مطيع لله فيه ، وهو عاص به ، وأمثال ذلك ، فيجب أن يكون المراد بهذا أو نحوه أنه آمر للأمة بالصلاة فى وقت ، وغير آمر لها فى غيره ، أو آمر لها ان كانت متطهرة، وناهيها اذا كانت محدثة ، وآمر لزيد بالحج اذا قدر ، وغير آمر اذا لم يقدر ، فلا بد من حمل ما علم أنه تكلم به من التعارض على بعض هذه الوجوه ، وليس يقع التعارض بين قوليه الا بأن يقدر كونه آمرا بالشىء وناهيا عنه لمن أمر به على وجه ما أمره به ، وذلك احالة فى وصفه » اهـ بحروفه .

ويؤخذ من هذا الكلام عدة مسائل :

(١) أن من المستحيل أن يقع تعارض بين قولين ثبت أن كلا منهما قد قاله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعارضا لا يمكن للعلماء الأثبات أن يجمعوا بينهما بوجه من وجوه الجمع ، ومن باب الأولى يستحيل أن يثبت قول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتصح نسبته اليه ويكون معارضا لكتاب الله تعالى ،

لأنه انما بعث لتبليغ هذا الكتاب ولبيانه ، لا لمعارضته ومناقضته .

(٢) أنه اذا فرض ووجدنا نصين متناقضين بحيث يثبت أحدهما شيئا وينفى الآخر ذلك الشيء ، مثل العبارات التى فرضها الحافظ الخطيب ، وذلك أقصى ما يمكن افتراض وروده — وكان هذان النصان ثابتين ، ونسبتهما الى الرسول — صلى الله عليه وسلم — واحدة ، لم يجز اهدار أحدهما والأخذ بالآخر ، بل يجب على كل من بلغه الخبران أن يعتقد أن عليه أن يعمل بهما جميعا ، وان يجد وسيلة للجمع بينهما : بأن يعتقد أن أحدهما يعمل به فى وقت والآخر يعمل به فى وقت آخر ، أو أن أحدهما وارد ليعمل به جماعة من المسلمين والآخر وارد ليعمل به جماعة آخرون ، وعليه أن يميز الوقتين والجماعتين بصفات تناسب مشروعية الحكم .

(٣) أن العمل على غير هذه الطريقة ليس مما يجوز لمسلم أن يأخذ به .

(٤) أن السنة الثابتة النسبة الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع نصوص القرآن تأخذ هذه الأحكام ، ولا يجوز اهدارها بدعوى أنها تخالف القرآن ، بل يجب الجمع بين النصين بأحد وجوه الجمع التى أشار اليها الحافظ أو ما يشبهها .

(٥) أن المدار فى كل هذا التفكير على ثبوت نسبة الحديث الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الثبوت الذى تطمئن اليه نفس الباحث، بعد بحث حال الرواة ، والمعرفة بأنهم استكملوا شروط العدالة والضبط ، وبعد مراجعة طرق الحديث التى روى بها ، والتأكد من أنه لا شذوذ ولا علة ، اما الحديث الذى لم تصح نسبته لرسول الله ، لتخلف شرط من الشروط التى سقناها ونوهنا بها مرارا ، فلا يلتفت اليه ، ولا يعبأ بمخالفته النص الثابت النسبة ، اذ الضعيف لا يعارض القوى ، وانما يعارض القوى القوى ، والقوى كتاب الله أو الحديث الثابت النسبة الى رسول الله .

وقبل أن نلقى القلم ننقل اليك كلمة عن العلامة عبد الرحمن بن خلدون ذكرها فى مقدمته عن هذا الموضوع (ص ٩٩٩ من النسخه التى حققها الدكتور على عبد الواحد وافى) قال : « ومن علوم الحديث النظر فى الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط ، لأن العمل انما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيجتهد فى الطريق التى تحصل ذلك الظن ، وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط ، وانما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة ، ويكون لنا ذلك دليلا على القبول أو الترك ، وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين ، وتفاوتهم فى ذلك ، وتميزهم فيه واحدا واحدا ، وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها وبأن يكون الراوى لم يلق الراوى الذى نقل عنه ، وبسلامتها من العلل الموهنة لها ، وتنتهى بالتفاوت الى طريقين فيحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل ، ويختلف فى المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ، ولهم فى ذلك ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة ، مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم » اهـ المقصود منه ، والله المسئول أن يرشدنا الى الخير ، وأن ييسر لنا طريقه ، وأن يلهمنا الرشد والسداد فى القول والعمل ، وأن يعصمنا من الخطأ والخطل والزلل ، انه ولى ذلك .

الاسلام والقومية العربية

(٣)

الدكتور أحمد الحوفى

شبهة وردود

لست أستبعد أن بعض المخلصين ممن درسوا القومية العربية ، وعزلوا الدين عن دعائمها ، أرادوا لها السلامة مما قد يعكر الصفو من تعصب أو خلاف .

لكن الذى يدرس الاسلام ، ويتتبع تاريخ المسلمين لا تطالعه الا السماحة فى أعلى صورها ، وأجلى مظاهرها ، ولا يجد فيما يقتضيه الاسلام فى معاملة المسلمين لأهل الكتاب الا ما يكفل الصفاء والوئام والألفة والاخاء والاتحاد .

١ - ذلك بأن الاسلام يجل الديانات السماوية ، بل ان الاسلام لا يصح بغير التصديق بالأنبياء السابقين ، وبما انزل الله عليهم من كتب ، قال تعالى **« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون »** .

وقال تعالى عن موسى عليه السلام : **« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء »** .

وقال تعالى فى شأن عيسى عليه السلام : **« وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون »**

ولهذا يقر المسلمون بنبوة موسى وعيسى ، ويجلونهما ، وينزهون نسب عيسى ، ويكفرون من ينكر رسالتيهما .

ومعنى هذا أن الأسلام لا يتعصب على اليهودية ولا على المسيحية ، ولا يحاربهما ولا يحقد على أتباعهما ، لأنه دين السماحة والتسامح .

٢ - وقد حفل القرآن الكريم بدعوة المسلمين الى السماحة ، فلم يمنعهم من البر بغير المسلمين ما داموا فى سلام معهم وحسن صلة . قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ، ان تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هى الظالمون » .

وأمر المسلمين بالرفق فى الدعوة اليه ، وبمناقشة مخالفيهم بالحسنى . قال تعالى : **« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ، الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون »** .

٣ - وكثيرا ما حض النبى على التسامح ، وحببه الى المسلمين بقوله وبفعله . قال عليه الصلاة والسلام : « من ظلم معاهدا ، أو انتقصه ، او كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير حق ، فانا حجيجة يوم القيامة » .

وأمر بالا يجبر نصرانى أو يهودى على ترك دينه ، فقد كتب الى عامل له باليمن : « من كان على يهودية او نصرانية فلا يفتن عنها » .

وعقد معاهدة مع قبيلة تغلب النصرانية سنة ٩ هـ . وكان الاسلام قد قوى ودانت به العرب ، فلم يستبد بهم ، ولم يرغمهم على شروط يمليها الغيظ والانتقام والغرور بالقوة كما يفعل المنتصر ، بل اباح لهم البقاء على نصرانيتهم . وكذلك صالح أهل نجران ، وتركهم احرارا فى دينهم .

٤ – وكان من الطبيعي ان يقتدى به المسلمون ، فلقد أوصى أبو بكر أسامة بن زيد لما وجهه الى الشام بعدة وصايا ، منها **أن يترك الرهبان احرارا فى ديارهم وصوامعهم . وفى خلافته عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ، ولا قصرا يتحصنون فيه ، وعلى الا يمنعوا من ضرب نواقيسهم ، أو اخراج الصلبان فى يوم عيدهم . وكذلك أعطى عمر ابن الخطاب أهل ايلياء أمانا على انفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وعاهدهم على الا يضطهدوا بسبب نصرانيتهم ، او يضار احد منهم .**

٥ – ثم فتح المسلمون بلادا كثيرة ، وسلكوا مع اهليها مسلك السماحة .

وحرص فقهاء المسلمين على العناية بأهل الذمة ، وكتبوا فى ذلك كثيرا ، ووضعوا دستورا للعهود التى يعقدها الحكام المسلمون مع اهل الذمة ، لا يتعداه المتعاهدون .

٦ – وكان التطبيق العملى لهذه السماحة مفخرة للمسلمين .

فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم ، ويواسيهم فى مصائبهم ، ويعاملهم كل أنواع المعاملات التى يتبادلها المكونون لجماعة يحكمها قانون واحد .

ولما علم عمر بن الخطاب ان الوليد بن عقبة واليه على قبيلة تغلب النصرانية قد توعدهم خشى أن يوقع بهم شرا ، فعزله وولى غيره .

ولم يكن اختلاف الدين مانعا من أن يوظف غير المسلمين فى الدولة ، فقد اتخذ عمر بن الخطاب بعض أسرى قيسارية كتابا له ، وتوسع معاوية فى الحاق النصارى بوظائف الدولة ، وحاكاه بنو أمية ، ثم كثر الموظفون وأطباء الخلفاء فى العصر العباسى وفى الاندلس وفى أصقاع العالم الاسلامى .

ولقد ذكر السير توماس أرنولد أسماء بعض الوزراء والولاة المسيحيين فى الدويلات الاسلامية ، وأسماء الأطباء المسيحيين المقربين الى الخلفاء ، ثم قال : « ان المسيحيين احرزوا ثروات ضخمة ، وتمتعوا بنجاح عظيم فى عصور الاسلام الاولى بفضل ما كفل الاسلام لهم من حرية العقيدة والملكية ، حتى لقد كان منهم أصحاب نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء .

٧ – لم يفرق الاسلام بين المسلم والذمى فى المعاملات العامة ، لأن الجميع سواسية أمام القانون ، فلا تفضيل ولا محاباة .

٨ – لهذا أشاد كثير من المنصفين بسماحة الاسلام وتسامح المسلمين .

فقد شهد البطريق (عيشوبابه) الذى تولى منصبه سنة ٦٤٧ – ٦٥٧ هـ (١٢٤٩ – ١٢٥٨م) بان العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون انهم ليسوا أعداء للنصرانية ، بل انهم يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قديسنا وقسيسنا ، ويمدون يد المعاونة الى كنائسنا وديننا .

وذكر الكونت (هنرى دى كاسترى) أنه ايقن من تتبعه للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عن الغلظة ، وتدل على حسن مسايرة ولطف ومجاملة ، وهو احساس لم يشاهد فى غير المسلمين حينذاك ، لأن الشفقة والرحمة والحنان كانت امارات ضعف عند الأوربيين ، وقال ان هذه حقيقة لا وجه للطعن فيها .

وقال السير توماس أرنولد : لقد عامل المسلمون الظافرون المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة ، واستمر هذا التسامح فى القرون المتعاقبة . ونستطيع ان نحكم بحق ان القبائل المسيحية التى اعتنقت الاسلام قد اعتنقته عن اختيار وارادة حرة ، وان العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا

هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح .

وقال السير ريتشارد وود قنصل انجلترا فى تونس فى تقريره الى وزارة الخارجية البريطانية سنة ١٨٧٨م : من أوهام الناس أن الاسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم ، وينبوعن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة . ثم رد على هذه الأوهام الباطلة ، وفندها .»

وأشار الى أن مبعث الفتن التى سفكت فيها دماء فى المشرق بين المسلمين وغيرهم انما هو أصابع السياسة الأجنبية ، مثل الفتنة التى كانت بين الدروز والموارنة سنة ١٨٦٠م .»

وقال المستر جب المستشرق الانجليزى المعاصر : ان الاسلام ما زال يؤدى رسالته الانسانية ، وقد أثبت أكثر مما أثبت أى نظام آخر مقدرته فاى التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة ، واذا لم يكن بد من وسيط يزيل ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام ، فان الاسلام هو هذا الوسيط .

وذكر لالان بيرنز أنه مما لا شك فيه أن الأسلام أكثر سماحة من المسيحية فيما يتصل بالزهو والتباهى بالأصل والعنصر ، والتعصب للفكرة القومية ، وأنه لا يعبأ بألوان البشرة ، ويحطم الحواجز التى تقام بين الناس وبينه . ويقول: ان الغزاة العرب كانوا يتزوجون بغير عربيات ويزوجون بناتهم لمسلمين من السود ، وهذه حقيقة بعيدة المدى .

ولهذا برىء المجتمع الاسلامى من جرائر العنصرية ومشاكل التعصب .

بين اللغة والدين

وليس معنى هذا ان الدين أهم فى بناء القومية من اللغة ، بل معناه أن الاسلام عقيدة تربط العربى المسلم بالعربى المسلم ، وهو فى الوقت نفسه رباط فكرى وثقافى وأدبى وحضارى وتاريخى يربط العربى المسلم بالعربى المسيحى .

فالعربى من مصر مثلا يتصل بأخيه العربى من سورية أو العراق أو السعودية أو الجزائر أو المغرب أو غيرها بعدة روابط ، يضاف اليها الاسلام ان كانا مسلمين ، ويضاف اليها ما يتصل بالاسلام من ثقافة مشتركة ، وتاريخ موحد ، ومفاخر قومية ، وحضارة عريقة ، ان كان أحدهما مسلما والآخر غير مسلم ، أو كانا معا غير مسلمين .»

وقد ظن بعض الباحثين أن جمال الدين الأفغانى دعا الى القومية القائمة على اللغة وحدها وأهمل الدين ، ولكن الحقيقة غيرذلك فان الفقرة التى ذكرها الأستاذ ساطع الحصرى واستدل بها صريحة فى أن الدين دعامة من دعائم القومية ، وان كانت اللغة أقوى .

قال جمال الدين الأفغانى فى مقال لهباللغة الفرنسية : « انه لا سعادة الا بالجنسية — يريد القومية — ولا جنسية الا باللغة . ان الروابط التى تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان : وحدة اللغة ووحدة الدين . ووحدة اللغة هى الأساس الذى تقوم عليه الجنسية ، واللغة أشد ثباتا وأكثر دواما من الدين ، لأننا نعرف أمما غيرت دينها خلال ألف عام مرتين بل ثلاث مرات ، دون أن يطرأ خلل علىوحدتها اللغوية والقومية ، فنستطيع أن نقول كذلك ان تأثير رابطة اللغة فى هذه الدنيا أقوى من تأثير رابطة الدين . »

ولهذا نصت الدساتير العربية فى مصر والعراق والأردن واليمنوغيرها على أنالدين الرسمى للدولة هو الاسلام .

اليهود والزنوج

أما اليهود فانهم نحو ربع مليون فى الوطن العربى كله ، ونسبتهم الى أهله ضئيلة جدا، مع عزلتهم وانطوائهم .

وهنالك فى السودان زنوج وثنيون لا تزيد نسبتهم على ٣ر٥٪ بالنسبة الى سكان الوطن العربى ، **وهذه الوثنية من آثار الجهل الذى مد الاستعمار فى أجله ، وفى الوقت نفسه عوق الدعوة الى الاسلام أن تبدد ظلماته ، ولكن هؤلاء الزنوج سيتعامون ، وستصل اليهم أشعة الاسلام ، فيعتنقون التوحيد ، ويرتبطون باخوتهم فى الوطن العربى برباط روحى وثيق .**

« للبحث بقية »

وقفات هادئة

إزاء توجيهات القرآن

فضيلة الشيخ
عبد اللطيف السبكي

سنظل بحاجة الى تجديد الوعى لما يجهر به القرآن فى شئون الدين والدنيا ، فان الحوار يدور بين كثير من المثقفين حول أمور تعرض لها الكتاب العزيز .. مما يدل على تأصل الفكرة فى تصحيح العقيدة ، والاطمئنان الى ما تهدف اليه الآيات .. حتى يكون لسان المرء متجاوبا مع ضميره فى الاقتناع والاخلاص فى الايمان .

ومن أمثلة ذلك الحوار :

رقم ١

« **يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم، لايضركم من ضل اذا اهتديم** » آية ـ ١٠٥ ـ المائدة فبعضنا يحسب أن الآية تجعل كل امرىء مسئولا عن نفسه فقط ، فيما يحسن أو يسىء من عمل .

فلا يلزم التناصح ، ولا النهى عن المنكر ، ولا يلزم أحدا أن يستجيب لأحد مادامت المسئولية منحلة ، والأمر شخصيا ، ولا سبيل لأحد على أحد .. هذا ما ظنوه فى الآية .

وهذا فهم بعيد عن وجهة الآية ومرماها .

فان الدعوة الدينية فى القرآن مسئولية مشتركة ، وقائمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يكون ذلك الا بين آمر ، ومأمور ، وناه ، ومنهى ، ولا يكون المعروف مفهوما الا اذا تحمل رسالة من يتولى تبليغه .. ولا يكون

النهى مفهوما الا اذا تحمل رسالة من ينهض بتبليغه كذلك .

وهذه ظاهرة الاخاء فى الدين بين المسلم والمسلم .. بل هـــذه ظاهرة الاخـــاء فى الانسانية العامة ، تقتضى التضامن فى تبادل النصح ، وفى الاستجابة للدعـــوة الخيرة :

ايجابا وسلبا وقد جعل الاسلام هذه الظاهرة خصيصة يطلبها من أهله ، ويمتدحهم بأنهم حاملو لواء الدعوة الرشيدة ، دون سواهم ، أو أكثر من سواهم « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمـرون بالمعـروف ، وتنهـــون عن المنكر ..** »

واذا كان النصح أمانة فى عهـدة المسلم بالقدر المتاح له ؛ فان الاستجابة للدعوة أمانة فى عهدة من وجهت اليه ، واذا قام النصحاء بواجبهم فقد برئت ذمتهم من الأمانة ، وقـد أدوها الى أهلها كما أمرهم الله فى قوله عامة « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها**»

واذا استجاب المستمع لما وجه اليه من أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، فهو ظافر بما وعد الله فى قوله سبحانه « **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعـون أحسنه ، أولئـك الذين هـــداهم الله ، وأولئـــك هم أولـوا الألباب** » .

ومن لم يقم بواجب النصــــح .. أو لم يستمع لدعوة الدعاة فهو خارج على الأخــوة الرابطة بين الناس ، وهو بهذا خائن لأمانـة الله التى الزمه باتباعها، آمرا كان أو مأمورا ، وناهيا كان ، أو منهيا .

وحينما يتخلف كل منهما عن نصيبه فى هذا المجال نكون كبنى اسرائيل فى بلادتهـم على المفاسد ، وانتهاكهم للحرمات ، وانصراف كل منهم الى مايلهيه من شئون دنياه الفاتنة وقد قبح الله فيهم ذلك ، حتى مسخ بعضهم قردة وخنازير ، وسجل عليهم هذا بقوله :

كانوا لا يتناهون عن منـــكر فعلوه ، لبئس ماكانوا يفعلون » .

وفى مقابلة هذا يمتدح الله المؤمنين بقوله : « **الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر** » .

أما اذا قام النصـــحاء بواجب الارشاد وما استطاعوا ، ثم لم يجـــدوا لها حظا من القبول عند الناس أو عند بعض أناس ، فقد قامت معذرتهم عند ربهم

وحينئذ يسقط عنهم الواجب، ويكون شأنهم خاصا بأنفسهم .

وهنا ينطبق عليهم قول الله : ((**عليـــكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم** »·

يعنى : فعلتم ماوجب عليكم نحو غيركم ، فلا حرج عليكم أن تدعوهم لأنفسهم .

وكـان النبى – صـــلى الله عليه وسلم – يحرص كثيرا على نصح النـــاس ، ويحزن لأجلهم اذا ظلوا متخلفين عنه .

وكان الله ســبحانه يخفف عنه الأسى ، ويهون عليه الامر فيقول له :

● الدعوة الدينية فى القرآن مسئولية مشتركة

● واجب النصحاء فى أنفسهم أن يكونوا

« **فان تولوا ، فقل حسبى الله ، لا اله الا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم**»

والمعنى فى هذه الآيات ونحوها: ان أعرض عنك المعرضون يامحمد فلست مسئولا عنهم، وعلى الله حسابهم ، وهو القادر عليهم ، ينفذ فيهم قضاءه ، ويبرز فيهم عدله .

ثم لا ننسى أن واجب النصحاء فى أنفسهم أن يكونوا قـدوة طيبة فى مسالكهم : دينا ، ودنيا .. فان القدوة وحدها تغنى عن كثيـر من الجهود.. وقد حذرنا الرسول من مخالفة ما ننصح به غيرنا، فقال – **ان أخوف ماأخاف**

على أمتي : الأئمة المضلون – وذلك أن خطيئة العالم ، يضل بها كثيرين : ممن يقتدون به في عمله .. وحسابه عسير عند الله **« كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »**

ولا ننسى كذلك أن الناس مطالبون بسماع النصح ، ولو من انسان معوج الشكوك ، فنقبل نصحه مادام حقا ، ولا نعمل عمله اذا كان عمله منكرا .. **والحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولا يضره من أى وعاء خرجت .**

وانما تكون القدوة بالعمل وبالقول فرضا علينا بالنسبة للأنبياء فانهم معصومون من الخطأ فى العمل الدينى ، وليس كذلك سواهم .

رقم ب

« مافرطنا فى الكتاب من شىء » آية ٣٨ الأنعام

يقولون : ظاهر هذه الآية – ان القرآن ذكر كل شىء من أمور الدين ، وامور الدنيا : حتى الصناعات ، والاختراعات ، وضروب العمل فى جوانب الحياة الممتدة فى آفاق التطور .

قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قدوة طيبة في مسالكهم : دينا ودنيا .

ونحن لانجد القرآن كذلك ؟؟ فكيف نفهم الآية ؟

وجوابنا أن بعض أئمة التفسير يقولون : ان الكتاب المذكور فى الآية هو اللوح المحفوظ عند الله حيث يعلم هو – تعالى شأنه .. فقد شاءت حكمة الله أن يجعله سجلا لكل ما تجرى به الاقدار بين خلقه ، أو يقع فى ملكه .. ثم يطلع الله ملائكته على مايشاء من هذا ، وحينما يشاء من الزمن . وهذا كلام مقبول ، ولايكون فى الآية غموض على الافهام ، فلم يفرط الله فى ذلك الكتاب من شىء حسب حكمته ولكن الرأى الاظهر من هذا عند مفسرين آخرين : أن الكتاب هو القرآن الكريم ، لانه موضوع

الحديث غالبا ، وهو الذى يترجح أن يتجه الى التنبيه ، ويتعلق به الامتنان علينا باعتباره مشهودا بيننا . والله تعالى لم يفرط فى القرآن من شىء كما تنطق الآية .. وبيان ذلك من وجهين أحدهما أن أحكام الدين لم تخرج عن محيط القرآن : تفصيلا أو اجمالا .

ففيه هذا ، وذاك .. ثم فيه الامر باتباع السنة النبوية ، والسنة وحى كالقرآن بشهادة القرآن لها « ان أتبع الا ما يوحى الى » .

ووظيفة السنة تفصيل ما أجمله القرآن ، والوفاء بما لم يذكر فيه من جزئيات الاحكام ، أو أدلتها وفى تكافل القرآن مع السنة تبدو قواعد تشريعية كثيرة ، وتتضح وجوه جمة لاستنباط ما تحتاجه من أحكام تقتضيها الحياة ، وتطور الزمن .

وكان حتما أن يكون هذا ، لانها شريعة الخلود ، فلا بد أن تتسع لما يصادفنا من الاحداث على هذا الطريق الطويل .

ووجوه الاستنباط هى وسائل الاجتهاد لدى المجتهدين من الأئمة القادرين .

وقد كلفنا الله بالرجوع الى كتابه ، وسنة رسوله فيما ذكر بهما ، وفيما نجتهد فيه من نصوصهما ، وتوجيهاتهما **« فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول »**

ومن هذا ندرك : أن القرآن بما فيه ، وبما فرضه علينا من متابعة السنة وبما أوجب علينا من الرجوع اليها فى الاجتهاد والاستنباط والتماس الوسائل فى تعرف الاحكام لا يكون تاركا لشىء من أحكام الدين .

وهذا مايقرره الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى قوله : **« تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله »** .

الوجه الثانى

ان القرآن لم يقف بنا عند الجانب الدينى وحده ، بل تعرض للدنيا كثيرا ، وأمر بالسير فيها ، وأن نجوب مناكبها ، لنأكل من رزقها بوسائل العمل ، ولنعلم أخبار السابقين ، ونشهد آثارهم .

وتعرض القرآن كثيرا لذكر العلم على اطلاقه العام . وذكر لنا الحديد وما فيه من بأس شديد ، وحدثنا عن صناعة الفلك - السفينة - على يد الرسول نوح عليه السلام ، كما ذكر لنا صنائع رسوليه داود وسليمان ، وهكذا مما يطول ذكره .

وهذه كلها توجيهات الى نواحي الصناعات والنشاط في مجال الحياة بصفة عامة .

نعم !! ان القرآن لم يشرح لنا طرق الصناعة ولم يدخل مشرحة الطبيب ، ولا معمل التجارب العلمية الخ .

ولكنه دفع بنا دفعا قويا الى هذه المجالات وتركنا بعد توجيهاته نمارس اعمالنا ، ونضاعف نشاطنا بالعقول ، وبالمواهب ، لتعمر دنيانا بجهودنا المطلوبة فاذا تكشفت حياتنا عن شيء افدناه عن طريق العلم ، والابتكار .

فكل ذلك من محتويات القرآن في عباراته ، وفي اشاراته ، وفي ثنايا سياقه بوجه عام .

فاذا راعيت أن القرآن لم يزهدنا في النشاط أيا كان سبيله .

وتذوقت عنايته التثقيفية ، وترغيبه في ذلك كله يتبين لك حقا أن الله لم يفرط في الكتاب من شيء : لا في الدين ولا في الدنيا - سواء : أكان ذلك تصريحا أو تلميحا - فتبارك الله أحسن الخالقين .

رقم ج

« من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل ، فاولئك هم الخاسرون » آية - ١٧٨ - الأعراف وهذه آية تثير نقاشا طويلا بين المتفاهمين .

فظاهرها واضح في أن الهداية من الله ، وأن الاضلال كذلك من الله .

وحينئذ يحار الانسان في موقفه : كيف يكون اتجاهه الى الهداية ، أو الى الضلال بفعل الله تعالى ، ودون قدرة من العبد على مخالفة القضاء الالهى ، ثم يحاسبه الله على ما ارتكب ويعذبه العذاب الاليم .

ان الله حكم ، عدل ، ولا يظلم احدا من خلقه ، فما بالنا نتعرض لسخطه ، وعقابه ، وهو الذى قدر علينا هذا كما قرر القرآن فى كثير من آياته : مثل « **كل أمرىء بما كسب رهين .. كل نفس بما كسبت رهينة الخ .** » فهذه حيرة المستفهمين .

ولكنها حيرة كنسيج العنكبوت .. لا كيان لها .. ولا قوة فيها وذلك أن الله تعالى خلق فى العبد ارادة شخصية يتصرف بها فى أموره العادية ، كالجلوس على هيئة معينة .. أو الحديث فى أمر ما .. أو أكل كذا ، دون كذا .

وهكذا مما ترى نفسك تميل اليه فتختاره ، ولا تميل اليه فتتركه .

وتلك الارادة ، وما ينجم عنها من ميول ، أو زهادة ميزة الانسان على غيره ، وهى مناط التصرفات الاختيارية التى يكسبها العبد حسب ميوله الشخصية .

والله - سبحانه - بمقتضى علمه الازلى الواسع يعلم قديما انك حين وجودك فى الدنيا ستختار بارادتك أن تفعل كذا ، وتترك كذا ، وستقول كذا ، وتعرض عن كذا - الخ ..

وهذا العلم السابق عند الله لايمكن أن يتخلف .. ولا بد انك فاعل ما تعلق به هذا العلم السابق ..

وبناء على استقرار هذا العلم قضى ربك أنك تفعل ما تختاره بعد .

فقضاء الله مبنى على ما يعلمه عنك ، وأنك لن تحيد عنه باختيارك ودون اكراه عليه .

وتقدير الجزاء مبنى على هذا الاختيار الحاصل منك فيما بعد .. فلا ظلم عليك فى الحساب ، والعقاب اعنى انه تقدير سابق ، وسينفذ بعد حصول فعلك ، كما هو الشأن فى الثواب على عملك الاختيارى فى باب الطاعة : فانه مقدر سابقا ، وسينفذ بعد العمل الاختيارى .

ومثال ذلك انك تعلم يقينا أن ابنك سيدخل المسابقة باختياره يوم كذا .. أو سيسافر يوم كذا ، فأنت ترتب على علمك هذا مكافأة

للابن على فرض نجاحه ، أو تقدر له مالا ، وتعده لسفره اذا أخذ فى السفر ، فهذاتقدير سابق على حصول سببه .

والفرق : ان علم الله لا يتخلف ابدا ،فتقدير الجزاء صحيح ، ولا ينقصه شىء ، وهو مرتب على اختيار سيحصل . وأما علمك انت فيجوز أن يتخلف ، فلا يكون الترتيب الذى قدرته للولد نافذا بعد، والخلاصة..أن الله لم يطلب منك فعل الجريمة بل نهاك عنها ، ولم يقدرها عليك ابتداء بل رتبها على اختيارك الشخصى المعلوم له .

أما الفعل الاضطرارى فان الله لا يحاسب عليه ، فاذا سقط انسان فى البحر وهلك فلا عقوبة عليه لأنه غير مختار .

واذا وقع باختيـاره فانه منتحـر ، وقاتل لنفسه باختياره ، فهو يستحق جزاء المنتحر وهذا أصوب ما انتهت اليه بحوث الأئمة قديما .

أما قول الناس : ان العبد مسير لا مخير ، أو قولهم : ان العبد مجبور غير مختار ، فهذا هــروب من المسئولية ، وغفلة عن الارادة الشخصية ،وعن الميول ،وعن نزغات الشيطان وسلطانه على أتباعه ، وأوليائه .

وذلك الاتجاه هو ماتدور حـوله الآيات فى ترتيب الثواب والعقاب على كسب العبد لفعله بمقتضى ميله واختياره .. وان كانت قدرة العبد على فعله هذا مستمدة من جانب الله .

والحمـد لله الـذى عـافانا من الخطأ الاضطرارى كما عافانا من خطأ النسيان ، وما أكرهنا عليه اكراها .

وفى ذلك يقول النبى ـ صلى عليه وسلم ـ **(عفى لأمتى عن الخطأ والنسيان ، وماأكرهوا عليه) .**

ويزيدك ارتيـاحا الى ما سلف : قـول الله تعالى عن الكفار والمنافقين : **« ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم .. ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون » .**

فان الله وصفهم بأنهم كالانعام ، لا يفقهون ولا يعقلون ، بل هم اضل سبيلا من الانعام .

ثم وصفهم فى آيتى ٢٢ ، ٢٣ من سـورة الانفال بانهم كالبهائم صم ، بكم ، لا يعقلون .

ثم قال « **ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .**

فهؤلاء الكفار والمنافقون لاخير فيهم لانفسهم ولا لدين الله ، ولو علم الله فيهم خيرا يجذبهم نحو الايمان لاسمعهم دعـوته سماع قبـول وهداية ، لكنه علم فيهم غير ذلك .

ولو فرض انه اسمعهم اكثر مما سمعوا لأبوا أن يؤمنوا ، وتولوا عن رسوله ، وهم معرضون اعراض المستكبر المسرف فى صلفه ، وجهالته

فأنت ترى فى هذه الآية تصريحا بينا ، بأن الله غضب عليهم ، لعلمه أزلا بأنهم لن يستمعوا بعد وجودهم لدعوة الله الحقة .

فهذا تقدير الله مبنى فى الازل على ما يعلمه حاصلا باختيارهم فيما بعد .

وقد بين الله للناس جميعا طريق الهدى ، وأوضح لهم المعالم ، ودعاهم الى جانبه .

ففريق اهتـدوا ، وزادهم الله ايمانا .. وفريق تمرد ، فهـو مكب على وجهه والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وهو لا يهدى من هو مسرف كذاب .

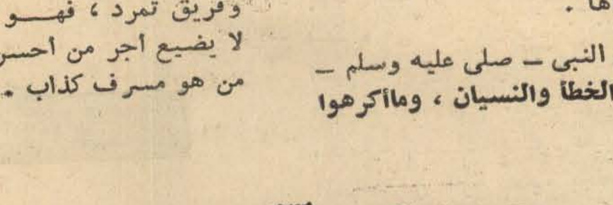

إعجاز القرآن فى أصول الأحكام

الربا

الأستاذ محمود كمال

كنت أقرأ فى مجموعة « المحاضرات العـــامة للموسم الثقافى الثانى ـ سنة ١٩٦٠ » التى ألقاها بعض رجال الفكر والقـانون والأدب ، بقاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى « مساهمة منهم « فى نشر الوعى ٠٠ ٠٠ وفى نشر تلك القيم الأخلاقية التى تخلق النفوس الكبيرة فى المجتمع البشرى » ، واذا بى أجد من بينهـــا محاضرة للأستاذ الدكتور عفيفى محمود الأستاذ المساعد فى كلية العلوم بجامعة القاهرة ٠ فى ذلك الوقت عن « علم الأجنـــة فى القرآن » تضمنت قوله أنه « قد أزيح الستار عن حقيقة علمية هامة اكتشفها علم الأجنة اليوم ٠ بينما أشار اليها القرآن منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، بل وأمرنا الله سبحانه وتعالى أمرا صريحا

بأن نسبق غيرنا فى استجلائها اذ يقول جل وعلا « **فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب** » كما تضمنت قوله أن القرآن قد أثبت أن « صفة الذكورة والأنوثة . . . تقرر فى النطفة الأمشاج بعد الاخصاب مباشرة » وذلك فى آية « **أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** » وأن هذه الحقيقة قد أثبتها علم الوراثة أيضا منذ قرن مضى .

كذلك ورد فى هذه المحاضرة أن « كل هذه التطورات الجنينية منذ ساعة الاخصاب الى تخلق العظام والعضلات تشير اليها جميعا آية واحدة جامعة فى سورة (المؤمنون) هى قوله تعالى « **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين** » .

ولمناسبة هذه المحاضرة القيمة عن حقائق علمية لم تكن معلومة للناس من قبل ، وانما وصل اليها العلم — علم الأجنة — منذ قريب ، بالقياس الى عمر القرآن الكريم الذى **نزل على النبى منذ ١٣٨٤ سنة** ، عدت بالذاكرة الى سنوات طويلة مضت ، حيث كنت قد اطلعت على كتيب صغير للمرحوم الدكتور عبد العزيز اسماعيل (باشا) وكان فى الصف الأول من جهابذة العلماء والأطباء ، تعرض فيه الى الآية الكريمة سالفة الذكر « **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . . . الخ** » قائلا ان العلم قد تقلبت نظرياته مختلفات من جيل الى جيل ، فى شأن تطور الجنين فى بطن أمه . ثم استقر فى نهاية المطاف على صحة الكيفية التى نزل بها القرآن .

فالمعنى الذى نخرج به من الاستشهاد الوارد فى المحاضرة والكتيب آنفى الذكر ، **هو اعجاز القرآن** ، اذ أنه قد حمل آياته البينات بعض الحقائق العلمية التى كانت مجهولة للعالمين وقت نزوله . ولم يكن محمد أو غيره من خلق الله يعلم عنها شيئا وقتئذ . وبذلك فان القرآن يكون قد سبق العلم — بمدى واسع بعيد — الى اثبات تلك الحقائق وابرازها الى عالم الوجود مما يقطع بأنه من عند الله عالم الغيب والشهادة ، وبأنه هو المعجزة الكبرى الباقية على مدى الدهور والأجيال .

وانى وان كنت قد استشهدت — فى مناسبة هذا المقال — على اعجاز القرآن ، بما أقره الطب فى نهاية المطاف بالنسبة لخلق الجنين وكيفية تكوينه فى بطن أمه ، غير أن ذلك لم يكن الا لمصادفة اطلاعى على تلك المحاضرة الشيقة .

ولكن الواقع ، كما هو معلوم ، هو أن اعجاز القرآن لا يقتصر على ما ورد فيه خاصا بالنواحى العلمية وحدها ، وانما يتعداها الى ما ورد فيه خاصا بالنواحى الكونية ، والنواحى الأخرى المتعددة التى تمت الى طبيعة الحياة بسبب .

ولقد أثارت هذه الحقيقة ، فى نفسى تساؤلا عما اذا كان ما تضمنه القرآن من أصول الأحكام فى الأحوال الشخصية والمعاملات وغيرها ، يعتبر أيضا من قبيل الاعجاز الذى نزلت به آياته البينات عن الحقائق الكونية والعلمية وما اليها .

والاجابة على هذا التساؤل هى أن الاعجاز ماثل فى تلك الأحكام ، بلا ريب « كما هو ماثل فى غيرها ، لأنها قد برهنت ، فى كل الظروف ، على أنها ثابتة فى أصولها ، صالحة للناس كافة ، كأفراد وجماعات ، كما هى ملائمة للانسانية كلها فى الوقت ذاته ، وذلك على خلاف الأحكام الوضعية التى هى من صنع الانسان والتى تكون دائما خاصة لا عامة ، بمعنى أنها تكون خاصة بأمة بذاتها ، اذ أن كل أمة تشرع لنفسها ما يلائمها من قوانين . ومع ذلك فانها تكون دائمة التغير كلما تطورت الظروف بحكم طبيعة الحياة .

ولنضرب لذلك مثلا بأحكام الشريعة الاسلامية فى « الطلاق » مقارنة بأحكامه فى بعض الشرائع الأخرى ، وسيكون واضحا أمامنا ، أن أحكام القرآن فى أصولها ، تبدو قشيبة رغم قدمها ، وكأنما هى قد نزلت على

وصول الله توا ، كما تبدو ثابتة ليست متغيرة ، عامة ليست خاصة بأمة بذاتها فقط . بينما تبدو القوانين الوضعية متغيرة بين الحين والحين وهى فى الوقت نفسه خاصة بأمة دون غيرها ، وليست عامة للأمم كلها .

ليس هذا فحسب ، بل انه مما يلفت النظر خاصة ، أن تلك القوانين تنحو متدرجة شيئا فشيئا ، وزمنا بعد زمن ، نحو الأصول التشريعية التي نزل بها القرآن .

ولكى يكون استدلالنا على تلك القضية واضحا مفهوما ، يجب أن نذكر ، فى ايجاز ، نبذة عن تاريخ بعض الشرائع التى نجعل منها محلا للمقارنة بينها وبين الشريعة الاسلامية فى « الطلاق » .

ففى فرنسا ، كانت الكنيسة الكاثوليكية ، التى ساد مذهبها أغلب بلاد أوربا ، تجعل رابطة الزواج أبدية لا تنفصم الا بالموت ، فلم يكن مسموحا للزوجين بالطلاق ، وانما كان مسموحا لهما بالانفصال الجثمانى فقط ، وما لم يعودا الى حياتهما الزوجية معا . فانه كان محظورا عليهما التزوج مرة أخرى .

وكان زنا الزوجة هو السبب الوحيد الذى يبيح للرجل طلب الحكم له بالانفصال (لا بالطلاق) كما كان سوء معاملة الرجل للمرأة هو السبب الوحيد الذى يبيح لها الحق فى هذا الطلب أيضا .

وقد ظل هذا المبدأ قائما الى أن نشبت الثورة الفرنسية . التى اعتبرت الزواج عقدا مدنيا لا دينيا ، ونصت على ذلك فى دستور سنة ١٧٩١ .

ثم الغى نظام الانفصال الجثمانى من التشريع الفرنسى **وأبيح الطلاق ، ولكن ذلك النظام أعيد** مرة أخرى فى قانون نابليون ، مراعاة للشعور الدينى الكاثوليكى . وترك للأفراد الخيار بين طلب الانفصال وطلب الطلاق ، **ولكن طبيعة الانفصال فى ذاته قد تغيرت** . فبعد أن كان أبديا أصبح قابلا للتحول الى طلاق بناء على طلب ذوى الشأن بعد مرور ثلاث سنوات باستثناء حالة زنا الزوجة .

ثم الغى نظام الطلاق باتفاق الزوجين ، بقانون سنة ١٨٨٤ ، واقتصر الأمر على الطلاق بحكم المحكمة بناء على الأسباب التى يحددها القانون .

ثم حددت شروط الطلاق بالقانون الصادر فى سنة ١٩٤١ ، رغبة فى تضييق نطاقه ، بقصد حماية الأسرة .

وأسباب الطلاق هى كما يلى :

أ) زنا أحد الزوجين .

ب) الحكم على الزوج بعقوبة جنائية .

ج) القسوة ، وسوء المعاملة ، والاساءة البالغة .

والحكم بالطلاق اجبارى فى الحالتين الأولين ، اختيارى فى الحالة الأخيرة .

على أن بند القسوة وسوء المعاملة والاساءة البالغة يضم بين دفتيه أسبابا متعددة ، متنوعة للحصول على حكم بالطلاق ، ومن ذلك : الاخلال بالمبادىء الدينية والخلقية . وقذف أحد الزوجين فى حق الآخر . والامتناع عن المعاشرة الزوجية . واخفاء الرجل ما عنده من العجز الجنسى ، واخفاء المرأة عيبها الذى يحول دون انجاب الأطفال . وهجر منزل الزوجية اختيارا والامتناع عن الانفاق . ونقل مرض معد ، والغيبة .

واما القانون الايطالى — فلا يبيح الطلاق ، ولكنه يبيح الانفصال الجثمانى . وينظم كيفية الحصول على حكم قضائى به للأسباب المعينة فيه ، ومنها الزنا ، والهجر المتعمد والقسوة والاساءة البالغة . والحكم بالأشغال مدة تزيد على خمس سنوات .

والقانون اليونانى — يبيح الطلاق ويحدد أسبابه بما يشابه الأسباب الواردة فى القانونين سالفى الذكر .

وهذه القوانين الثلاثة تعترف بعدة المرأة ، على خلاف بعض القوانين الأخرى كالقانون الانجليزى ، وعندها أن العدة تنتهى بانتهاء

٣٠٠ يوم • وبالولادة • (يراجع مؤلف الدكتور جميل الشرقاوى) •

***

ومن هذا نجد أنه لا فرق يذكر بين هذه القوانين بعضها وبعض سوى أن القانون الايطالى لا يزال مقيما على التحريم اكتفاء بالانفصال الجثمانى • ولكن الاباحة آتية • لا شك فى ذلك عندما تضعف قبضة الكنيسة بازاء التطورات الاجتماعية •

***

والظاهرة التى نرغب فى جعلها بارزة للعيان ، هى أن القانون الفرنسى كان قد حرم الطلاق ، ثم أباحه ، ثم حرمه ، ثم عاد فأباحه• واستقر فى النهاية على اباحته مع تحديد أسبابه فى نصوصه •

وكذلك فعل القانون الايطالى بالنسبة للانفصال الجثمانى • لأنه لم يكن يبيحه الا لعلة الزنا فقط ثم انتهى الى اباحته للأسباب الواردة فيه وهى تكاد تكون هى نفس الأسباب

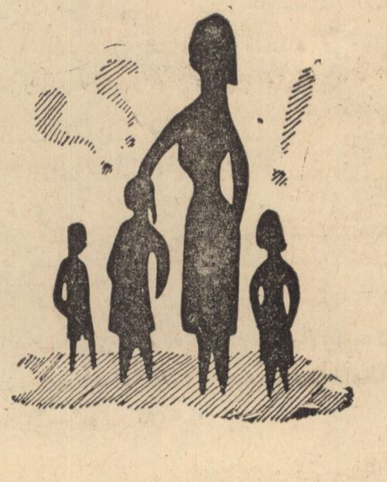

الواردة فى القانون الفرنسى خاصة بأحكام الطلاق •

ولما كانت الشريعة الاسلامية تبيح الطلاق من اول الامر منذ مئات السنين ، دون أن تحيد عن هذه الاباحة أو تعدل فى مبادئها العامة شيئا ، مع التحذير من اساءة استعمال الحق فيها ، لأن « **أبغض الحلال عند الله الطلاق** » فان معنى ذلك هو أن الشرائع التى جعلناها هنا محلا للمقارنة بالشريعة الاسلامية فى أحكام الطلاق• قد انتهت أخيرا الى اعتناق المبدأ الاسلامى ، بعد اذ مرت تشريعاتها فى مراحل عديدة من التجارب برهنت على أن الاباحة هى أصلح الأحكام التى تلائم الأمم والانسانية فى كل زمان ومكان •

وبعد ..

فان تلك الشرائع قد قطعت ، فى صدد أحكام الطلاق ، مراحل من التشريع بحكم التطورات الاجتماعية ، على مدى الأزمان ، كما ذكرنا من قبل ، انتهت بها الى درجة من الارتقاء بحيث شملت كثيرا من القواعد الأصلية المتفقة فى أساسها مع الشريعة الاسلامية وجعلت من الممكن أن نعقد هذه المقارنة بينها جميعا •

ورغم أنه لا يزال هناك كثير من أوجه الخلاف الجوهرية فى أحكام الطلاق ، غير أن الانتهاء الى هذا التقارب للشريعة الاسلامية ، يعتبر شيئا له دلالته على أن أصول الأحكام فى القرآن هى التى يجب أن تسود فى مختلف البيئات • فى مختلف الأزمان •

وهذا هو دليل الاعجاز المستمد من أصول الأحكام فى القرآن الكريم •

***

وأنه وان يكن موضوع هذا المقال خاصا بالبرهنة على اعجاز القرآن فى الأحكام • عن طريق الاستدلال بما استقر عليه التشريع فى بعض البلاد الأجنبية الأخرى • التى لا تدين بالاسلام من حيث الأخذ ببعض مبادىء الشريعة الاسلامية فى الأحوال الشخصية • كما حدث

بالنسبة للطلاق • غير أني مع ذلك أود أن لا تفوتني فرصة الكلام على الشريعة ، مهما تكن المناسبة دون أن أبدي رأيا في مسألة من مسائلها ، متى كان ذلك ممكنا ، وعلى الأخص اذا كانت تلك المسألة موضوع حديث ومناقشة في الوقت الحاضر • لمناسبة الشروع في ادخال بعض تعديلات على القوانين الشرعية القائمة •

والمسألة التي أعنيها تتعلق بالاتجاه بالتشريع الى عدم اباحة الطلاق للزوج بكلمته ، وايجاب أن يكون بحكم القاضي • رغبة في الحد من الحرية الممنوحة للأزواج بحكم الشريعة ، خوف اساءة استعمالها دون بصيرة أو روية •

ولقد أبدى بعض المحققين رأيهم في هذه المشكلة ، ومنهم الدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج ، والأستاذ محمد قطب ، وقد اخترتهما من بين الآخرين ، لكونهما يمثلان المعارضة والموافقة المترقبة •

ذلك أن الدكتور تاج يعارض هذا التعديل بشدة في كتابه « الأحوال الشخصية في الشريعة الاسلامية » وعنده أنه لا يليق أن تطرح أسباب النفور والكراهية بين الزوجين ، وأسرار البيوت وخباياها ، علنا في ساحات المحاكم • اذ في ذلك اهدار للكرامات • واساءة بالغة للمرأة والرجل والأمة والآداب العامة على سواء •

وأما الأستاذ قطب فلا يرى مانعا منه ، وان كان لا يؤمن بجدواه في كثير ، اذ أن الاحتياطات التي يريدها المصلحون الذين يتصدون لهذه المشكلة منصوص عليها في القرآن • فلا حاجة اذن الى الالتجاء في شأنها الى القضاء ، ويرى أن حل هذه المشكلة انما يكون بنشر الوعي ورفع المستوى الثقافي والروحي لمجموع الشعب •

والرأيان على صواب فيما أورداه من أسباب، ولكنهما لم يعرضا حلا قاطعا في الموضوع لامكان الحد من آثار المشاكل العائلية الناجمة عن اساءة استعمال الأزواج لحقهم في الطلاق•

وفي رأيي أن أصلح الحلول هو التوسط بين التأييد والمعارضة ، بايجاب التحكيم في ذاته ، كوسيلة للاصلاح ، ومحاولة للتوفيق بين الزوجين المتنافرين ، نزولا على حكم الآية الكريمة « **وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا** » بشرط أن تكون مأمورية القاضي – في حدود سلطته الادارية – محصورة في اختيار حكمين من أهل الزوجين ، متوافرة فيهما صفات العدل والرشد ورجاحة العقل • واسناد مأمورية التوفيق اليهما ، حتى اذا ما انتهيا الى نتيجة ايجابية أو سلبية ، رفعا الأمر اليه ، بما يفيد ذلك ، دون زيادة أو نقصان ودون اثبات أية تفصيلات عن موضوع النزاع وأسبابه ، الذي أدى الى ذلك التحكيم ، وعلى القاضي حفظ هذا الاخطار كسند اداري فقط •

وقد اخترت هذا الرأي لأن الملحوظ هو أن الناس ، وان كانوا يعلمون أن الصلح خير ، وان التحكيم قد حض عليه القرآن ، ليقف منازع الشر عند حد ، ويصون البيوت الآيلة الى الانهيار على رؤوس الزوجين • والأطفال والأولاد الصغار ، غير أنهم لا يلجأون الى تلك الوسيلة اختيارا ، بل ولا يفكرون فيها مجرد تفكير الا في القليل ، فاذا ما جعلنا التحكيم اجباريا بأمر من القاضي وقيدناه في الوقت نفسه بتلك القيود ، وألزمنا المحكمين باتباع الأساليب العرفية دون الرسمية ، وجعلنا اخطار القاضي قاصرا على ذكر نتيجة التحكيم• بعبارة كونها ايجابية أو سلبية فقط ، ثم قصرنا عمل القاضي على حفظ ذلك الاخطار كسند اداري • نكون قد حققنا حكمة القرآن في التحكيم ، ووفقنا بين الآراء المؤيدة والمعارضة وحفظنا أسرار البيوت ، وحافظنا على كرامة الأسر والعائلات •

والله الهادي الى سواء السبيل •

مالا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين

الفصل الثامن

بعض آثار هذه الخلافات المحزنة

فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى

رأيت فى الفصل السابق بعض أسباب الخلافات التى أوهنت روابط المسلمين ظاهرا وباطنا .

والآن نعرض بعض آثارها الضارة قديما وحديثا :

١ ـ سئل بعض المتعصبين من الشافعية عن حكم الطعام الذى وقعت عليه قطرة نبيذ ، فقال عفا الله عنه : يرمى لكلب أو حنفى !

٢ ـ ويقابله قول متعصب آخر حنفى لمن سأله :

هل يجوز للحنفى أن يتزوج المرأة الشافعية ؟

فقال : ان ذلك لا يجوز . لأنها تشك(١) فى ايمانها ، والايمان لا يصح الا اذا كان مقطوعا به .

ويفتى حنفى آخر بأنه يجوز للحنفى أن يتزوج الشافعية ، لا على أنها مؤمنة ، بل بقياسها على الكتابية « اليهودية أو النصرانية » التى تجوز للمسلم بالاتفاق .

٣ ـ ومن ذلك ما ستراه فى الفصل ١٢ « مقدمة كتاب المغنى » .

وحاصله أن بعض طلاب العلم فى مسجد لاهور بالهند ، سئل عما اشتهر عندهم فى الأفغان من أن مصليا منهم رأى رجلا يصلى بجواره ، يشير بأصبعه السبابة عند النطق بكلمة التوحيد فى التشهد ، فضربه عليها حتى كسرها .

فقال : نعم حصل ذلك ، ولما سئل عن السبب ، قال : لأنه فعل فعلا محرما ، وهو تحريك اصبعه فى التشهد ولما سئل عن دليل هذا التحريم ، قال : الدليل ما هو مدون فى كتاب الفقه للشيخ الكيدانى . الخ ما ستراه هناك .

واذا علمنا أن الاشارة بالاصبع السبابة عند النطق بشهادة التوحيد هى سنة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعلم مدى ما يجره التعصب الجاهل على المسلمين من المصائب.

٤ ـ ومن ذلك أن بعض الأحناف من الأفغانيين أيضا سمع رجلا يصلى بجواره مأموما يقرأ الفاتحة ، فضربه بيده على صدره ضربة قوية وقع منها على ظهره .. كما ستراه فى الفصل ١٢ أيضا .

« ملاحظة مهمة » مما يدل على يقظة بعض العلماء الموفقين ، أن أبا اسحاق الشاطبى ، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ ، نبه لهذا الخطر وحذر منه فى كتابه الموافقات ، فقال فى جزء ٢ صفحة ٢٧٣ طبع منير :

« ان تعويد الطالب على أن لا يطلع الا على مذهب واحد ، ربما يكسبه ذلك نفورا وانكارا لكل مذهب غير مذهبه ، ما دام لم يطلع على أدلته ، فيورثه ذلك حزازة فى الاعتقاد فى فضل أئمة أجمع الناس على فضلهم ، وتقدمهم فى الدين ، وخبرتهم بمقاصد الشارع وفهم أغراضه » انتهى .

ويؤيد كلام الشاطبى قول بعض متعصبى المالكية : ان من حلف على أن جميع ما فى

(١) يشير بذلك الى أن الشافعى يجيز أن يقول المسلم : أنا مؤمن (ان شاء الله وبدل أن يحمل المفتى الحنفى قول الشافعى (ان شاء الله) على قصد التبرك كما صرحوا به حمله هو على الشك وأصدر فتواه بتكفير ملايين المسلمين بدون حق وقد جاء فى الألوسى جزء أول عند تفسير قوله تعالى : « أبى واستكبروكان من الكافرين » ما حاصله : قال الشافعى والاشعرية ، أن العبرة بالايمان الذى يوافى العبد فى آخر حياته أن يأتيه الموت وهو منصف به ، ولذا يصح عندهما أن يقول الشخص . أنا مؤمن ان شاء الله بالشك ، ولكن ليس هذا الشك بالايمان الذى عليه الشخص عند هذا القول ، بل فى الايمان المقارن للموت ، وبيان ذلك أنه لا يعلم ان كان الله سيبقى الايمان معه الى أن يموت أو يسلبه منه قبله ، نسأل الله السلامة ، وقد ورد فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكثر من دعاء (يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : لا آمن مكر الله ولو كانت احدى رجلى فى الجنة . وأما مايروى من خبر من قال أنا مؤمن ان شاء الله فليس له فى الايمان نصيب فهو موضوع مكذوب باتفاق المحدثين .

كتاب موطأ مالك من الأحاديث صحيح لا يحنث .

أما من حلف على أن جميع ما فى البخارى ، ومسلم ، من الأحاديث صحيح ، فانه يحنث فى يمينه ...!

فما معنى هذا ؟ والحكم بالحنث لا يكون الا بدليل شرعى من كتاب ، أو سنة ، فأين هذا الدليل ؟

الحق أنه ليس هناك دليل ، اللهم الا التعصب البغيض الذى أخذ يعمل عمله فى تقطيع أواصر المسلمين ، حتى جعلهم شيعا وأحزابا ، كل حزب بما لديهم فرحون .

نسأل الله الهداية لما يجمع كلمة المسلمين على حكم الله وحده .

٥ - ومن مساوىء التعصب للمذهب والتنطع فيه ، ما جاء فى شرح البخارى للحافظ بن حجر فى « باب وجوب القراءة للامام والمأموم » .

قال : ان الأحناف يرون أن قراءة الفاتحة واجبة فقط على الامام والمنفرد، أى أنها ليست فرضا عليهما ، فاذا تركاها صحت صلاتهما ، ولكنهما يرتكبان ذنبا ، لتركهما واجبا .

أما المأموم عندهم فانه يحرم عليه القراءة مطلقا ، فاتحة أو غيرها .

ثم قال : واذا تقرر ذلك فلا ينقضى عجبى من امام أو منفرد ، يتعمد ترك قراءة الفاتحة لسبب أنها واجبة فقط، وعلى ذلك يصلى صلاة يريد أن يقرب بها الى الله تعالى ، والحال أنه فى هذه الصلاة مرتكب ذنبا .

ولا حامل له على ذلك الا اشباع شهوة المبالغة فى تحقيق مخالفته لمذهب ليس مذهب امامه . وهو مذهب الشافعى الذى يقول ببطلان صلاة من لا يقرأ فاتحة الكتاب .

وهذا بلا مراء أبشع صورة للتعصب البغيض .

٦ - ومن هذا النوع من التعصب الكريه ما قاله متعصب آخر من مشاهير علماء الأحناف ، ذلك هو الشيخ الكرخى .

حيث قال ويا سوء ما قال :

« كل آية أو حديث تخالف ما قرره علماء مذهبنا فهى اما مؤولة أو منسوخة » .

يا لله للمسلمين ...! أليس معنى هذا هو أنه يجب أن يكون قول علمائه هو المتحكم ، والمهيمن على كتاب الله ، وسنة رسوله ، فان وافقاه قبلا ، والا وجب تأويلهما لردهما لقولهم .

وان لم يكن تأويلهما حكم عليهما بالاعدام وهو النسخ .

هل هذا هو ما جاء نصا فى القرآن الكريم من قوله تعالى : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » آية ٥٩ من سورة النساء .

أليست الآية نصا فى أن الذى يحكم فى الخلاف انما هو كتاب الله ، وسنة رسوله ، فما وافقهما فهو الصحيح ، وما خالفهما فهو المردود .

هذا هو الميزان الذى وضعه الله سبحانه.

ولكنه التعصب الأعمى اذا انطلق من عقاله قلب موازين القسط ، نسأل الله تعالى الهداية الى الصراط المستقيم .

٧ - ومن جرائر هذه الخلافات والتعصب لها أن بعض المسلمين يفسد صلاته عامدا بدون وجه يسوغ له ذلك ، ومن ذلك ما مر فى رقم « ٥ » من الفصل السابع .

حيث قال الشاطبى : ان من عيوب المحافظة على المندوب ، أو المسنون ، أن يعتقد العامى وجوبه .

وقد خرج بعض المأمومين الشافعية من صلاة الصبح يوم الجمعة لما لم يقرأ الامام آية السجدة ، ولم يسجد لها .

وقد رأينا هذا الذى قاله الشاطبى قديما فى عصرنا هذا .

فطالما صلينا الصبح فى المساجد الكبيرة ، التى كانت تدرس بها العلوم الدينية ، وطالما رأينا مأمومين من الشافعية اذا صلوا خلف امام مالكى ، أو حنفى ، لم يقرأ آية السجدة ، فى الركعة الثانية فى صبح يوم الجمعة ، ولم يسجد لها يخرجون من الصلاة .. ويعيدونها مع امام شافعى .

ولا معنى لهذا عند أمثال هؤلاء الا أنهم يعتقدون أن صلاتهم فسدت ، لعدم السجدة، ولا ريب أن هذا خطأ شديد فى دين الله .

والذى جعل هذا الجرم يستفحل هو مشاهدة العلماء له وسكوتهم عليه .

٨ ـ ومما حصل أيضا فى عهدنا هـــذا ، وفى مسجد كبير من مساجد القـاهرة ، أن عالما كبيرا جدا ، كان يشغل منصبا هاما فى الدولة يحضر ومعـــه طلابه صلاة الصبح فى هذا المسجد وتقام الجماعة ، ويؤم المصلين الامام الراتب ، ويأتم جميع من فى المسجد بهذا الامام الا فضيلة الشيخ ، وطلابه ، فانهم يستمرون فى أماكنهم ، حتى ينتهى الامام من صلاته ، ثم يقيم هو وطلابه جماعـة أخرى ، ولا سبب لذلك الا أن الامام شافعى ، ربمـا خالف بعض المندوب عندهم •

فهل هذا الصنيع يعتبر مظهرا حسنا من مظاهر المسلمين الذى يدعو اليه دينهم !

٩ ـ ومن هذا القبيل ما حدثنى به العـالم الثبت الشيخ محمود عبد الوهـاب فايد ، المدرس بالأزهر قال : صليت بالنـاس اماما فى مسجد كبير بالأرياف صلاة المغرب ، ولم أجهر بقـراءة البسملة فى الفاتحة ، وبعـد الفراغ من الصلاة واذا بأحد من يدعى العلم ينادى بالناس : أعيدوا صلاتكم أيها الناس، لأن صلاتكم هذه بطلت •

وأسرع المؤذن باقامة الصـلاة ، وأقيمت الجماعة ثانيا ، فشككت فى نفسى ، فأعـدت الصلاة خلفـــه مع الناس •• وبعـد الصلاة ذهبت اليه وقلت له : هأنذا قد صليت خلفك ثانيا ، ولكن أحب أن أعلم الخطأ الذى استوجب بطلان الصـلاة فقال : لأنك لم تبسمل أول الفاتحة ، فقلت لقد قرأتها سرا ، وقد جاءت السنة بقراءتها سرا ، كمـا جاءت بالجهر بها، فالكل جائز بل قال امام من الأئمة الأربعة وهو الامام مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ : بأن قراءتها مكروهة ، ولا أظـن أن عاقلا فضلا عن مسلم يقول : ان صلاة الامام مالك كلها باطلة !

والذى قطع به العلماء أن الامام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ لو صلى خلف مالك ولم يسمع منه البسملة فانه لا يترك الصلاةخلفه لذلك ، بل الذى ورد عنه ـ رضى الله عنه ـ أنه لما سئل عن امام حنفى توضأ ، وبعـد الوضوء مس فرجه، فهل تصح صلاة الشافعى خلفه ؟ فكان جوابه الصادق « وكيف لا أصلى وراء أبى حنيفة ؟ »

١٠ ـ ومن هذا القبيل ما حدث منذ خمس سنوات فى قرية كفر الجرايدة من أعمـال محافظة كفر الشيخ • حينما صلى امام بالناس صلاة العشاء ، وقرأ البسملة سرا أيضا ، وفى هذه المرة لم يسلك مخالفة طريق الحكمة التى سلكهـا الشيخ محمود فايد ، بل خـرج متفيهق من بين الصفوف أثناء الصلاة وأعلن أن صلاة الامام بطلت ، فتبعه بعض المصلين، وأقاموا جماعة أخرى فى المسجد نفسه •

ولما قضت الجماعتان صـلاتهما • تجادل الامامان بشدة ، فسرعان ما التقى الجمعان ، وحميت المعركة ، وفى بيت الله الذى تخشع فيه الأصوات للرحمن •

ولا سبب لذلك الا ما حشاه المتأخرون فى كتبهم من روح التعصب والجهل بسـنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم •

هذا ما كان من بعض أسـباب الخلاف وبعض آثاره • فاليك ما قاله العلماء قديمـا وحديثا نقدا لمسلك المتأخرين ، ونعيا على المتعصبين ، وايضاحا لوجه الصواب فى هذه المسائل كلها ، ولبيان أن دين الاسلام حق كله ، وأنه يسر لا حرج فيه ، وأنه فى حصن حصين من أن تنال منه همزات الشياطين ، وستمر بك مرتبة على الوجه الآتى :

١ ـ كلام الشيخ محمد عبده فى تفسير المنار •

٢ ـ كلام الغزالى فى الأحياء •

٣ ـ كلام الحافـظ بن حجر وغيره من شراح الأحاديث •

٤ ـ من مقدمة كتاب المغنى للسيد رشيد رضـا •

٥ ـ كلام شيخ الاسلام ابن تيميـة فى مجموعة الرسائل الكبرى •

٦ ـ كلام ابن تيمية فى الفتاوى •

٧ ـ نبذ جاءت متفرقة لبعض كبارالعلماء تؤيد رأى السلف •

ثم رأينا أن نختم هذه الرسالة بفصلين فيما لا يصح أن يكفر المسلم أخاه المسلم لأجله •

الأول للقاسمى •

والثانى للغزالى فى كتابه « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة •

الروح والنفس

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

تبين من الاستعمالات القرآنية أن الانسان ليس جسما فقط ، ولا نفسا فقط ، ولكنه مركب من جسم ونفس ، ما دام لا يستطيع أن يعيش الا اذا تنفس وتغذى وتناسل ومشى على قدميه وغير ذلك مما يقتضى أن يكون له بدن.

وهو الى جانب ذلك مركب من روح .

فالانسان اذن يتألف من عناصر ثلاثة هى البدن ، والنفس ، والروح . وكثيرا ما يلتبس الأمر بين النفس والروح ، اذ يستخدمان بمعنى واحد وليس هذا هو الحال فى الاستعمال القرآنى ، لأن الفرق بينهما يبلغ من الوضوح حدا لا يقع معه أى التباس .

والمعانى القرآنية للروح المستمدة من الآيات التى وردت فيها هذه اللفظة لا تخرج عن أمور أربعة :

الأول : أن الروح من قبيل الغيب الذى يعسر على المرء ادراكه على الحقيقة ، ومن الخير الايمان بوجوده دون محاولة معرفته .

والثانى : أن الروح سر الحياة ومبدؤها ، وأن الله تعالى هو الذى يهب هذه الحياة ويخلقها ، سواء منذ خلق الانسان ، أم فى حالة خلق عيسى عليه السلام .

والثالث : أن الروح هو جبريل ، وقديسمى بالروح فقط ، أو بالروح الأمين ، أو بروح القدس .

والرابع : أن الروح هو القرآن ، أو الوحى .

ويحسن أن نبدأ بالمعنى الأول لأن اقراره والاتفاق عليه يحل مشكلات كثيرة تورط فيها المفسرون والفقهاء والفلاسفة والصوفية وغيرهم من علماء المسلمين .

يقول الله تعالى فى سورة الاسراء ، آية ٨٥ **« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا »**

نزلت هذه الآية ردا على اليهود الذين أرادوا احراج النبى ، فقد أخرج البخارى عن ابن مسعود قال : كنت أمشى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوكىء على عسيب ، فمر بنفر من يهود ، فقال لبعضهم : لو سألتموه ؟ فقالوا : حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه ، فعرفت أنه يوحى اليه حتى صعد الوحى ثم قال : **« الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا »** .

الروح اذن من أمر الله ، وكل ما كان من أمر الله فلا سبيل الى معرفته بالطرق الانسانية للمعرفة ، مصداقا لقوله تعالى : **« انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »** . ولو شاء الله أن يكشف الحجاب عن الروح لأجاب اليهود ، وصحح لهم اسرائيلياتهم .

ان المقصود بالروح هنا جبريل الذى كان ينزل بالوحى على محمد . وقد يكون المقصود الوحى فقط ، أى القرآن الذى هو كلام الله . ولكن القرآن كان ينزل على النبى وحيا بطريق جبريل ، فلا جرم أن يكون جبريل ملازما للوحى . والعلة فى ذلك أن الاتصال بين الله والانسان ليس مباشرا ، بل بواسطة ، كما جاء فى الآية : **« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب »** .

ومن الواضح فى القرآن أن الذى كان ينزل بالوحى هو جبريل . ففى سورة البقرة : **« قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله . الى قوله تعالى : من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين »** .

ـ ٢ ـ

وحيث قد بدأنا الحديث بآية من سورة الاسراء ، فقد يحسن بهذه المناسبة أن نشير

الى استهلال السورة ، التى سميت بالاسراء نسبة اليها . يقول سبحانه وتعالى : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير** » .

والآية لا تفصل أمر الاسراء والمعراج أكان ذلك بالجسد أم بالروح . وقد رويت أحاديث من طرق شتى والمعنى واحد ، فحواه أن النبى - عليه السلام - أخبر أنه ركب البراق من مكة حتى بيت المقدس ، فربط الدابة ، ثم دخل وصلى ركعتين ، وخرج فجاءه جبريل وعرج به الى السماء ، الى آخر الحديث .

وقد اختلفت الفرق الاسلامية فى أمر الاسراء والمعراج . فالملاحدة والطبائعيون أنكروا المعراج انكارا تاما . ومعظم المعتزلة والروافض أنكروا المعراج ، وقالوا انه « رؤيا » رآها النبى فى منامه ، وذكر ما رآه لأصحابه، ولكنه لم يغب بجسده عن مكة . وزعم هؤلاء أنه عرج بروحه دون جسده ، اذ عندهم أن الانسان هو الروح .

وزعم قوم من المعتزلة انه أسرى به الى بيت المقدس على ما فى ظاهر الكتاب ، وأنكروا ما وراء ذلك .

أما أهل السنة والجماعة فهم مجمعون على أن النبى أسرى به من مكة الى بيت المقدس ، ثم عرج الى السماء حتى بلغ سدرة المنتهى ، وكل ذلك ببدنه وروحه .

وموضع الشاهد فى ذكر هذه القصة أن المصطلح القرآنى لم يضف الروح الى الانسان ، وأن آية الاسراء خلت من ذكر الطريقة التى أسرى بها ، ومع ذلك فان تطور المصطلح فيما بعد جعل الشراح يقولون بالروح والجسد ، ولو أن بعضهم قال ان الاسراء والمعراج كان بالنفس ، أو بالنفس والبدن .

- ٣ -

قلنا المقصود بالروح جبريل ، كما دلت الآيات على ذلك .

وهو من الملائكة ، أو كبير الملائكة ، وكان موكلا بالوحى .

وحين اتهم كفار العرب محمدا بانه ينظم القرآن من عنده ، أو يتعلمه من أحد النصارى وكان يسمى « قينا » ، نزلت الآيات من سورة النحل ترد على هذه المفتريات ، وتقرر أن القرآن القرآن انما ينزله الروح القدس . وهذه هى الآيات :

« **واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون** » .

« **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** »

« **ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** » .

وقد وصف الروح فى الآية السابقة بأنه « روح القدس » ، كما وصف فى آية أخرى من سورة الشعراء بأنه الروح « الأمين » .

« **وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** » .

وفى الأحاديث الصحيحة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - حين سئل عن الوحى وكيفيته ، أجاب بأنه الذى ينزل به « ملك » ، وفى روايات أخرى انه جبريل ، مصرحا باسم هذا الملك .

ففى الحديث المشهور عن عائشة أن النبى كان بغار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء الى آخر الحديث الذى نزلت فيه أول الآيات وهى « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ...** » . وفى الحديث عن جابر ابن عبد الله الأنصارى ان النبى قال : « **بينا أنا أمشى اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت ، فقلت زملونى . فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر قم فانذر ...** »

وعن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله فقال : « **يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه**

وسلم – أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول ... » .

وفى حديث الايمان والاسلام عن أبى هريرة أن النبى كان بارزا يوما للناس : « فاتاه رجل، فقال : ما الايمان ... » الى آخر الحديث الذى انصرف فيه الرجل واختفى ، فقال النبى : «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

وهذا يؤيد ما ذكرناه من قبل من أن أحدا من البشر لا يمكن أن يشهد عيانا أمور الغيب ، كالله والملائكة .

– ٤ –

الروح ، أو روح القدس ، أو الروح الأمين، موكل بالوحى . واتضح من الحديث أن النبى سمى الذى كان ينزل بالوحى « ملكا » ، وصرح باسمه فى بعض الأحاديث قائلا انه جبريل . وقد تبين من آيه٩٧ من سورة البقرة أن جبريل هو الذى كان ينزل بالوحى على قلب النبى باذن الله .

وقد ورد اسم الروح مقرونا بالملائكة فى ثلاث آيات . فى سورة المعارج الآية ٤ ، سورة النبأ آية رقم ٣٨ ، وسورة القدر آية رقم ٤ . ويدل افراد «الروح» بالذكر الى جانب الملائكة، مع أنه أحدهم ، على أن الروح – أى جبريل – كبير الملائكة ، أو على أنه المخصوص بالوحى .

فى سورة المعارج يقول تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

ان تصوير الملائكة والروح فى هذه السورة جاء بمناسبة العذاب فى الآخرة ، يوم القيامة ، ولن يكون هذا العذاب من الله مباشرة بل بواسطة الملائكة . ونحن نجد هذه الصورة ذاتها فى سورة النبأ التى تفصل أمر البعث ، يوم ينفخ فى الصور فيبعث الناس بعضهم الى جهنم وبعضهم الآخر الى الجنة ، بعد حسابهم على أعمالهم ، وذلك على يد الملائكة . وهذه هى الآيات الخاصة بالملائكة والروح :

«جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا »

واقترن الروح بالملائكة فى سورة القدر ، وهى سورة خاصة بتنزيل القرآن ، فلا غرابة أن يأتى ذكر الروح بمعنى الوحى ، أو جبريل الموكل بالوحى ، فى هذه السورة . **وليلة القدر مباركة لنزول القرآن فيها ، ولذلك عظمت على غيرها فقال تعالى انها خير من ألف شهر . وفى هذه الليلة : « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر » .**

– ٥ –

ذكرنا فيما سبق من مباحثنا عن الانسان فى القرآن أن خلقه مر بعدة أطوار ، الطبيعى والبيولوجى والنفسى . الأول لخلقه من طين ، والثانى تخليقه نطفة ثم علقة ثم جنينا ، والثالث تكوين نفسه وتبيين طريق الخير والشر له .

ولم نتكلم عن الطور الروحى . وقد حان الوقت لنتكلم عنه الآن .

ان الخلق الروحى غير الخلق النفسى ، لأن الروح – كما رأينا – لا تنسب لغير الله ، على حين أن النفس خاصة بالانسان . وفى سورة السجدة ذكر لهذه الأطوار كلها متميزة بعضها عن بعضها الآخر . ففى الآيات من ٧ الى ١٣ :

« (٧) الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين)) .

(٨) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين.

(٩) ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون .

(١٣) ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

ولا يخرج ما جاء فى سورة «ص» عن ذلك ، سوى تفضيل الانسان على الملائكة ، وأمر الله لهم بالسجود له واذعانهم لهذا الأمر ما عدا ابليس وفى ذلك يقول تعالى : **((اذ قال ربك**

للملائكة انى خالق بشرا من طين • فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين •• »
ان سر الحياة يرجع الى القدرة الالهية •

ولا يزال العلم عاجزا حتى اليوم عن تفسير هذا السر • ان الذى يفسره العلم هو تطور الكائنات الحية وتنوعها ، أما انتقال المادة من طورها غير الحى الى الطور الحى فلم يستطع العلم تعليله • ولو اهتدى العلم الى العلة الصحيحة لاستطاع أن يخلق الحياة فى الكائنات غير الحية • ولما كانت الحياة فى الكائنات الدنيئة تتسلسل بانقسام الخلية الواحدة ، وفى الكائنات الراقية تتسلسل باتحاد الذكر بالأنثى ، وكان الانسان أرقى المخلوقات ، فان تناسله يتم بالتزاوج بين الذكور والاناث • ولا يمكن أن تنجب أنثى بغير أن يتصل بها ذكر ، كما هو معروف • فاذا حدث حمل عند امرأة بغير أن يتصل بها رجل ، فهذه ظاهرة خارقة للعادة ، خارجة عن المجرى الطبيعى ، وتعد من جملة المعجزات الدالة على قدرة الله تعالى • وهذا ما حدث للسيدة مريم حين حملت السيد المسيح عليه السلام •

أما كيف تم هذا الحمل ، فانه بأمر الله ، انه كلمة الله ، أو روح الله • ولا يخرج هذا الاتصال عن القاعدة القرآنية العامة التى تقضى بأن الله لا يتصل بالبشر الا عن طريق الوحى أو من وراء حجاب •

ففى سورة النساء آية « **••• انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ••• »**

ففى سورة النساء آية « **••• انما** من روحه ، تماما كما حدث فى خلق الانسان حين سواه الله ونفخ فيه من روحه ، وهذا نص الآية : « **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا** » • وكذلك جاء فى سورة التحريم الآية ١٢ : « **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا** » •

وفى سورة مريم تفصيل لهذا النفخ ، وأنه كان عن طريق جبريل • ولننظر ذلك فى الآيات من ١٦ وما بعدها :

« (١٦) واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا •

(١٧) فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا •

(١٨) قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا •

(١٩) قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا •

(٢٠) قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » •

– ٦ –

وكان عيسى ابن مريم نبيا • وقد أيده الله تعالى بالبينات والمعجزات باذنه تعالى، عن طريق روح القدس •

ففى سورة البقرة ٨٧ : « وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » •
ونجد هذه الآية نفسها بألفاظها فى رقم ٢٥٣ •

وفى المائدة رقم ١١٠ ذكر لثمرة هذا التأييد بروح القدس ، من احياء الموتى وغير ذلك • يقول الله تعالى :

« اذ قال الله ياعيسى ابن مريم أذكرنعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس : تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الاكمة والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ••• »

* * *

صفوة القول ان المصطلح القرآنى عن الروح والنفس يدل صراحة على أن الروح لا تضاف الى الانسان بل الى الله • وأن النفس هى التى تنسب الى الانسان • فان قيل كما جرى العرف ان الانسان ذو روح ، فان ذلك استعمال لا ريب أنه غير قرآنى ، وأن الروح فى هذه الحالة ترادف النفس ، أو أن الروح تقال فيما يقابل المادة ، ومن هنا جاءت المذاهب المادية والمذاهب الروحية •

من حضارة الإسلام

معارج الارتقاء

الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

صفات موروثة ـ صفة الكمال ـ بداية رفيعة ـ نظرية الأسماء ـ القلم والكتابة ـ القدر المفروض ـ الحروف العربية

صفات موروثة :

فى باب « دعوة الخير » أول هذا البحث تحدثت عن استعانة الاسلام فى دعوته بالاخلاق التى أمتاز بها العرب ، وأوضحت أن الأزمنة والطباع لم يكن فى مقدورها أن تلد صفات أسمى من الشجاعة والجود اللذين ينصر كل منهما الآخر ويشد من أزره ويدفع فيه القوة والبقاء •

وكانت طباع المروءة والكرم جبلة فى العرب عامة أى تكاد تنتظم أفراد الجيل كله ، ومن لم تنتظمه فى سلكها نبذ ورمى بهجاء موجع لأنه لم ينطبع كانطباع أهله ولم يتخلق بمكارمهم • ولو لم تكن المروءة كذلك لما عدت من مفاخر ذلك الصنف من الناس ، اذ لامفخرة لقوم الا اذا شاعت فأظلتهم جميعا بأجنحتها وغمرتهم بلجتها • أما أن تطلق مفخرة على الجيل بمفخرة واحد من أبنائه فانها لن تنصرف على ذلك الجيل كله الا بمتعسف من المجاز • ولم يكن حاتم الطائى وحده العربى المعطاء ولكن الاعرابى المجهول صاحب الحطيئة الذى هم يذبح ابنه لقرى ضيفه كان معطاء كذلك بل كان أكرم من حاتم ، وانما اشتهر حاتم لاتساع غناه وبعد مداه •

وكذلك كانت الشجاعة ـ والفروسية أحد مظاهرها ـ تقليدا عربيا فى البادية كلها ولولاها ما حصل ذلك الجيل على رزقه من الوحش والحيوان والطير وما حمى كيانه ومروءته عن كل عدوان مادى أو روحى وما اشتعل أدبه وفكره بالعواطف الثائرة والحيوية الجياشة •

وهكذا كونت هاتان الصفتان ذلك الفرد العربى وأمته العربية كلها تكوينا قويا • ولكنى أعود هنا فاقول ان هذين الخلقين لم

يكن لهما أن يكونا فى الفرد الممتاز أو الأمة الممتازة الا معظم الكيان ، فظل الفرد وظلت الأمة بهما ناقصين عن بلوغ الكمال لأن شيئا مكتسبا من الصفات التى تنتمى الى العقل الانسانى وترقق الطبـــاع وتلين النفوس لم تضف اليهما •• وحتى يمكن أن يســـود الكريم الشجاع فلابد له من أن يكون قـد بلغ فى الانسانية والعقل مكانا ما ، وكلما كان مكانه فيهما أرفع كانت سيادته أقوى وأوسع ، ولذلك لم يتهيأ للعرب قبـــل الاسلام ـ مع سمو الصفات الطبيعية فيهم وغلوها أحيانا ـ أن يسودوا غيرهم من الأمم، بل كان الغلو فى الصفات المطبوعة أحيـانا سببا فى الخراب ان خرج الكرم الى الاسراف ، وفى الهلاك والاذلال ان جاوزت الشجاعة حد الأعتدال •

صفة الكمال :

وقد وقع فى عرف عرب الجاهلية الأميين أنفسهم أن العربى يظل ناقصا ان لم يمح أميته ويعرف القراءة والكتابة ، فاذا محـا العربى أميته مع الكرم والشجاعة أطلقوا عليه اسم الرجل الكامل ، وقد تتبعوا باهتمـــام من بلغ بالصفة الأخيرة حد الكمال فعدوهـم فردا فردا عرفانا بمكانهم وتنبيها بأسمائهم لما صاروا اليه من علو الشأن ، غير أن هـؤلاء الكملة فى جيل العرب القديم كانوا قليلا من الرجال ونادرا أقل من النساء •

ويعنى هذا أن هذه الصفة المكتسبة تصعد بصاحبها الى القمة ، وحيث يكون الكـرم وتكون الشجاعة وراثة وتقليدا ـ ومن الممكن أن يشيعا فى جيل بكامله ـ تظل الكتـــابة والقراءة مكانا عالى الرتبة والقيمة لأنه لاينال الا بجهـد وكسب • ثم لا يمكن ان يشيـع فى الجيـل كلـه الا بمثـل الطـرق والوسائل التى اهتدت اليها الدول الحديثة فى محو الأمية ، وقد تكون أحيانا بالقهـر والالزام •

ومن العجيب أن يقع فى حساب فطـرة العرب الأميين أن عدم القراءة والكتابة نقص وعيب وأن يكون عرفانها حسنا وكمالا ، بل مما تدهش له العقول فى لغة أولئك الأميين أن يرادف لفظ الكتابة فيها لفظ العلم ترادفا عفويا أو عقلانيا ، وكأنما كان ذلك ـ فى هذه الفطرة الرشيدة ـ ارهاصا للدعوة القادمة التى بدأت دعوتهـــا من قمة هذا الكمـال المكسوب •

وقد أقرت الرسالة الجديدة فى بدايتها ما وقع فى الفطرة والادراك اللغـوى من أن الأمى لايكمل الا بالكتابة مهما اتصف بشتى صفات المكارم كفاعل الصالحات لاتقبل منه الا بالايمان ، وأقرت أن الكتابة سبيـل تحصيل العلم والارتفاع فيه درجات وقدجاء ذلك فى قول الكتاب الكريم « أم عندهـم الغيب فهم يكتبون » وفى مفهـوم قـولـه « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله •• » حيـث يستفاد من قسوة الاعرابى الأمى مجـافاته للعقل وترقيق العلم للقلوب تليينه للنفوس •

بداية رفيعة :

ومن هنا ـ أى من القمة ـ بدأ الاسلام أول بدئه على الاطلاق : بدأ بالقراءة والكتابة فى آيات سورة العلق الأولى « اقرأ باسـم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » فكان ذلك ايذانا للعرب بانتقالهـم الى الكمال واعلانا دينيا عاما الى الدخول فى دور جديد ذى تيار جارف يخلـق فى شـواطىء الحياة مدا عاليا من العلم الخالد ويحض دائما على الترقى فى مراتبه والتوسع فى نواحيه •

وكان هذا الاعلان الدينى أشبـه بالأذان الذى ارتفع من هذا المكان نفسه من أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام يدعو الناس لحج البيت واذن فقد بدأت مرتبة الاسلام بمرحـلة الانسان الكامل الذى جعل صفة الكمـال قاعدته الأولى التى بنى عليها •

ولم يكن الأمر بالقراءة لادراك صـور الحروف وتصور رسوم أبجديتها ـ فقد لا يأتى ذلك بغير معرفة شكلية تافهة دل عليها

أنف أعرابى موهوب دفعوه فى زمن عمربن الخطاب ليتعلمها ففر منها هاربا - ولكن كان الأمر بأن تأخذ القراءة سيرتها وتتعالى فى درجاتها لادراك أسرار الخليقةوصلتها بالخالق وصفاته وما بينهما من واسطة ، وهى كلها أركان العلم التى أمر بها فى أول الآيات النازلة طرا .

وكذلك كانت البداية . وقد نتج عنها فى العالم كله ما لم ينتج عن أية بداية او نهايه ، فقد كان بالعالم معارف وعلوم تتقدم فى تؤدة وبطء ولكنها لم تعم ، ولم يستمتع العالم بالعلم والمعرفة القديم منها والمبتكر الا بعد الدعوة الاسلامية التى أشعلت ثورة الحضارة، ولا ضرورة بأن تكون حجة هذا الكلام من أرض المسلمين فقد عصوا أكثر مما اطاعوا وتخلفوا أكثر مما تقدموا، وانما الحجةفى كل ماتخلف عن هذه الدعوة من رواج للمعارف واطراد رقى العلم بسبب الثورة التى أشعلها الاسلام فى الأرض ، ولو كانت هذه الحجة فى أرض أعداء الاسلام .

ونداء الثورة الذى دعا الى اجلال الخالق ونبه الى مراحل خلق الانسان الذى لايتم كماله الا بتعليمه ووساطة القلم الذى هو أداة هذا التعليم لم يكن الا نداء لخلق حركة فكرية واسعة تسير بالعلوم والمعارف الى النمو والتقدم وذلك للرباط الوثيق بين العقل والعلم من ناحيه وبين القلم والكتابة من ناحية أخرى اذ أن الكتابة هى أعلى مرحلة وصل اليها الانسان فى تقييده أفكاره بل وفى تنقيتها وتخليدها .

وربما كان هذا فى البداية تقريرا قوليا للكتابة والقراءة ، ثم ما لبث النبى - صلى الله عليه وسلم أن نفذه من فوره تنفيذا عمليا اذ اتخذ له عددا من الكتاب يكتبون الوحى ويدونون القرآن ويستملون منه الكتب ، ثم ما لبث الاسلام أن وضع هذا العمل وضعا مساويا للحرية التى هى أعظم أقدار الحياة :

وقد تحقق هذا من جهتين : تحقق فى فداء الأسير من أهل مكة فى وقعة بدر - ان لم يكن له مال - اذاعلم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة فكأن محو الأمية قد اشترى بالحرية والاطلاق وتحقق فى محو جهالة الحر الذى تزيده الكتابة حرية وانطلاقا ، وهو تقدير يزن الحصول على العلم أو أوائله بأنه مساو للحرية والحفاظ عليها والانطلاق بها وهو أعلى من أوزان الغنائم المادية كلها .

وقد مضى الاسلام فى تحقيق هذه المعادلة مؤكدا اقتران العلم والحرية والسلطان بحيث ينال المتعلم من مراتب الحريات ودرجات السلطان ما يتساوى مع درجة علمه وفقهه ، **وجعل جزاء من يصعد فى درجات العلم أن يعتق لوكان عبدا وأن يكون اماما ولوكان أعجميا** وقد تأثر السادة الأولون بهذا الروح فى اعتاق **مواليهم الذين يفك الفقه والعلم رقابهم واتسعت** حلقة السباق فما كادت الطبقة الأولى من الصحابة تغيب حتى تولى الموالى المعتقون فى كل البلدان مراتب الفقه والفتوى .

نظرية الأسماء :

وحين نظر الاسلام للانسان من القمة التى كانت سبب تكليفه واستخلافه وقرر أنها فى العلم الذى وهبه من الله كان له قول فى تعليم الأسماء ، ويفهم مما ساقه القرآن - مشابها للتوراة والانجيل - أن هذا التعليم كان بخلق ضرورى فى آدم والقاء فى روعه . وسواء أكان هذا مفتقرا الى سابقة ليتسلسل أو غير مفتقر فان القول بالتوقيف لايتنافى مع القول بالاكتساب والتدرج والتكيف فى الأزمنة متى صرف الأمر الى آدم وذريته ، ومهما جاوز الباحثون رأى التوقيف بنظرياتهم فانه لايخرج عن الأصل الذى هو اعداد الانسان للكلام ووضع الكون حياله وادخاله فى كيانه .

وهذه الأسماء التى عرضت فى أقوال التوراة والقرآن لم تكن الا للمسميات المدلول عليها ضمنا ، ولها اعتبارات فى الاشتقاق والعرف والاصطلاح ، ومعنى ذلك أن تكون علامات للأشياء من لفظ أو صفة أو فعل ودليلا يرفعها الى الذهن ويفيد معناها مفردة ومركبة كما يفيد الروابط بين أجزائها .

واذن فقد خلق الانسان مستعدا للكمال باستعداده لادراك ذوات المدركات من

المحسوسات والمعقولات والمتخيلات والموهومات وادراك أسمائها وأنواعها وخواصها ، ومن المعقولات ادراك البدائه التى تتخذ طريقا للاستدلال الصحيح والموجبات الصادقة التى تقوم عليها أصول العلوم وقوانين الصناعات وتركيب الآلات .

وقد وضح سر التكليف من تعليم آدم الأسماء وحقائق الأشياء ثم من تركيبه بما ذخر فيه من قوة النطق بمنفاخ الرئتين والفم وتاثير النفس فى البدن ، فلم تكن خلقة الانسان هكذا وتلقيه العلم بلا حكمة . وانما كان جمعه للأمرين دليل شرفه وامتيازه. وكما كان التعليم شرطا فى شرف التركيب والتكوين كان هذا الشرف والامتياز سببا فى ضرورة الخضوع والتعبد لمن منح التركيب ووهب التعليم وانقذ طبيعة الكون من الجمود والظلام باستخلاف الانسان فى الارض واستعماره فيها .

وقد جرى القرآن شوطا بالغا فى التنبيه الى السمع والأبصار والأفئدة مشيرا الى أنها الأدوات المخلوقة فى الانسان ليدرك بها البدائة ثم يحصل بها العلوم المكتسبة بالنظر فيها ، وقد استفاد بعض نابهى المفسرين من قوله سبحانه « ثم انشأناه خلقا آخر » أن المراد من وراء نفخ الروح فى البدن واحداث الحياة فيه انما هو الادراك والنطق وتحصيل المعلومات وجمع الكمالات .

القلم والكتابة :

وكما كان القول والتعبير بالضرورة منة الخلقة على الانسان كانت الكتابة منة ضرورية أخرى عليه ، ومع أنها كانت أرقى درجات الاكتساب لتدوين الأقوال فضروريتها تتبين فى أنه لم يكن بد منها لتخليد العلم وبقائه قديما وحديثا وفى كل ما يأتى من زمان .

وقد أوضح ذلك اخوان الصفا فى رسائلهم قائلين : انه لولا الكتابة لما بقى العلم ، ولما كان بقاؤه ذاتيا فقد اضطرت الحياة الانسانية الى ايجاد آلات . وكما كان اللسان والفم للقول كان القلم والألواح والأحبار والأوراق للكتابة ، بيد أن القلم صار أرجح من اللسان وغدت الكتابة تقييدا للمآثر على مر الأيام والدهور .

وهم يوضحون هذا الاضطرار بأنه لما كانت الأصوات لاتمكث فى الهواء — الذى هو جسم سيال — الا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل احتالت الحكمة الالهية بأن قيدها بالقوة الصناعية التى هى الكتابة ، وذلك أن القوة المفكرة استعانت بالقوة الصناعية أن نقشت حروفا خطوطية بالقلم تحاكى معانى حروف لفظية ثم الفتها ضروب التأليف حتى صارت كتابا مكتتبا وأودعتها وجوه الألواح وبطون الطوامير .

ومع أن هذه الصفات التى قالها اخوان الصفا للحروف لاتنطبق الا على بعض حروف اللغات التى تهتم بتصوير المعانى بها كالهيروغليفية والصينية مثلا فانه صار فى الاصطلاح فى غير اللغات التى لاتصور حروفها المعانى أن يعبر الحرف عن صوت ثم تتألف من الحروف المجتمعة أصوات كلمات تدل على المعانى .

وقد رجح القلم على اللسان لأنه أبقى العلم مقيدا مفيدا يبعث الماضى للغابر والأول للآخر والغائب للحاضر . ومع أن المخترعات الحديثة نقلت الأصوات والصور فان آلة الكتابة — فى مختلف صورها — لم تتقهقر عن مكانها بل ازدادت قوة لاحتياج المخترعات اليها ولأنها لا تجد من الكلفة والتعقيد ما تجده آلات نقل الصور والأصوات ، وبذلك فان الكتابة تعتبر أرقى مرحلة فى سلسلة التصنيع والايجاد .

وقد أكد حاجة الانسان للكتابة والتزام صناعتها توافقها مع خلق الأناة والتعقل والاحتيال فى الابتكار والتصنيع وارادة التوضيح فى قوة والافهام فى بلاغة . وابن خلدون ينسب تأكيد الحاجة الى الكتابة فى الدولة الاسلامية الى ذات اللسان العربى والبلاغة التى امتاز بها فى العبارة عن المقاصد فصار يؤدى كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية فى أكثر الأحيان . وهذا فى الأدب وأمثاله أما فى العلم فقد صار جديرا أن يقال: انه لولا أن القلم يدون أجزاء كل كشف رياضى أو كيمياوى ، أو هندسى حتى يتم الكل من

هذه الأجزاء لما رأينا تقدم العلوم كما نرى اليوم .

القدر المفروض :

وقصر الأمر على محو أمية العين الباصرة والوقوف عند ادراك الكلام المعتاد ليس مراد الاسلام بالكتابة والقراءة فان الفطرة تستغنى عن كتابته بما وهبت من القدرة على ادراكه وتفهمه دون تعمل أو تكلف ، وانما المراد محو أمية العقل والفهم والانتقال من الطباع الموروثة الى المعالى المكسوبة ـ لدى الرجل والمرأة على سواء ـ ولعله المقصود من قوله سبحانه فى سورة الجمعة « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة »

وكما أنه لا يخرج كل من يعرف القراءة والكتابة عن الأمية ان لم يفقه ما يقرؤه أو يكتبه على وجهه فان القرآن يسلك كل من يتناول ما يقرؤه أو يكتبه بالكذب والأنتحال فى سلك الأميين وذلك حين يقول « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى .. » وحين يقول .. « كالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .. »

والتقييد بلزوم القراءة فى الصلاة فيه الزام كل مسلم من أمى وقارىء أن يعمل قلبه ولسانه حتى يعى مالا يمكن أن تؤدى الفريضة الا بحفظه وقراءته والاستماع له منه حيث انه كلام ليس من انشاء مؤدى الفريضة ولا صياغة اذ لا تقبل الفريضة الاستقلال الكلام صنعة اذ لا تقبل الفريضة الاستقلال لكلام يأتى به المتعبد من لدن نفسه ـ وكل انسان مقتدر عليه ـ فليست العبرة بالقدرة على اختراع الكلام وانشائه وانما هى بالحفظ والقراءة والاستماع ـ وهى أركان التعليم ـ لكلام يجبر عليه ولا سيما اذا كان مما يعجز الانسان عن الاتيان بما يشبهه أو يماثله .

ووقوف الانسان عند حظ قليل أو كثير دون الطلب والدأب والتهدى الى المعرفة والخير لا يقبل الاسلام أن يعده به عارفا عالما متهديا الى الخير ، وقد أمر النبى ذاته ـ وقد اغترف من بحور العلم الالهى ما اغترف ـ أن لا يقف عند حد فى الطلب والمعرفة فقال له سبحانه « وقل رب زدنى علما » اذ لا حد للعلم يقف الانسان عنده حتى لو كان نبيا أوحى اليه .

ومن الحتم على المسلمين جميعا أن تنفر منهم فرق للتعلم والتفقه ـ ولا يسقط هذا الفرض العين عن جماعتهم الا اذا نفرت هذه الفرق ـ فاذا تعلمت وتفقهت رجعت كل فرقة الى قومها لتعلمهم ، مع انبغاء ان يكون المتعلم مستقيما غير مترفع على الناس وغير منبسط فى البلاد دون الرجوع الى قومه بما تعلمه ، ذلك الأمر الذى يفعله كثير من سفهاء عصرنا من المتعلمين الذين ينفرون للعلم أو يبعثون له ثم لا يعودون فلا يكتسب بهم قومهم علما ولا نفعا .

ولعل هذا ينطبق تمام الانطباق على القرار الذى أذاعه الاعلان العالمى لحقوق الانسان فى عصرنا هذا بعد الحرب العالمية الثانية والذى يقول : لكل فرد الحق فى ان يشترك اشتراكا حرا فى حياة المجتمع الثقافى وفى الاستمتاع بالفنون والمساهمة فى التقدم العلمى والاستفادة من نتائجه .

غير أن هذا فى الاسلام ألزم وأكثر ايجابا ، اذ هو لم يترك للفرد أن يكون حرا فى تحصيل العلم والاستفادة به فحسب بل ألزمه أن يتعلم وأن يستفيد بعلمه ويفيد به وحين ألزم الاسلام الفرد اذا تعلم أن يعود الى قومه بما تعلمه عمل من جانبهم على رفع مستوى الأمم كلها واشاعة العلم بينها جميعا .

الحروف العربية :

وكان الأمر بالقراءة واكساب لفظ الكتابة معنى الفرض فى القرآن وتشريف القلم فى بدء الوحى ايذانا بانطلاق الحروف العربية التى كانت فى شكل خطوط بدائية وزوايا ـ فيما كان يدعى بالخط الكوفى ـ الى ناحيتين من التحسن والاجادة :

ناحية داخلية فى الحروف ذاتها اذ رققت الخطوط وذللت عرائكها فاتخذت أشكال الأقواس التى هى أتم خلقا وتكوينا وأوضح فى العين وأجمع ، ثم تفرعت الى أصول وأنواع واصطحبت فى العصور المختلفة حركات ونقطا موضحة بذلت الأمة العربية فى النهوض بها

جهودا عبقرية أكسبتها جمالا وثباتا ، وما تزال تتنوع وتتفرع من حيث لم تخرج عن طابعها الأصيل ، وكأنما هى تجبر أهل الفن على التزام أشكالها الأصيلة الأولى ٠

وحسنا ما اتخذه العرب وما اختاروه من حروف ذاتية لهم ، كما كان حسنا أن ينحنى عليها المسلمون اتقانا وتحسينا حتى صار للكتابة العربية رسمها الفريد بها ، وكذلك كانت دليل القوة الخلقية والفكرية والتفوق القومى التى امتاز بها العرب والمسلمون ٠

أما من الناحية الخارجية فان تلك الحروف الحبيسة فى الجزيرة العربية والتى كادت لا تكون الا تجارة محتكرة فى أيدى تجار اليمن والحجاز مع صناديق السلع والبضائع ، قد انطلقت مع الاسلام عابرة أسوار الجزيرة مع عقيدة التوحيد الأخيرة وجيوشها الغازية متخذة شكل السيادة على حروف اللغات المجاورة والبعيدة ، ثم ما لبثت أن وأدت كثيرا منها وأخضعت أممها فتحولوا عن حروفهم الى التعبير بها ، حتى اذا استمكنت لم يكن فى استطاعة الحركات الشعوبية التى تخلصت من اللسان العربى أن تتخلص منها كما لم تتخلص من العقيدة ، وكأنما صارت الحروف العربية ألصق بالعقيدة الاسلامية حين حازت الشرف الأول فى تدوين القرآن والحديث بها وكان هذا الكسب أقدر مرسخ لها وعامل على تثبيتها ٠

ولما كانت الكتابة العربية ـ بالأشكال المختلفة التى اتخذتها حروفها ـ خاتم الكتابات فى اللغات عند الأمم ـ سوى ما يقال من أن اليابان تحاول اليوم خلق حروف لها ـ فانه لايتصور أن يزول استمكانها بعد المزايا الجميلة التى اكتسبتها والعصور الطويلة التى عاشتها والحضارات الرائعة التى دونت بها فخلدتها ٠ ولذا فقد أخفقت ـ كما ستخفق ـ كل المحاولات الطائشة التى بذلت لهجر حروف اللغة الأم الى الحروف اللاتينية٠

وفى بعض البلدان العربية منيت المحاولة بنكبة مريرة حين حاول بعض المفتونين بالردة والشعوبية أن يجربوا كتابة شعر وفصول بالحروف اللاتينية وتشمير السافين فى أول المخاضة حتى ينخدع الناس فيخوضوا ولكن الناس لم تخدعهم الفتنة فتركوهم وحدهم يبتلعهم التيار ٠

ولم يكن الانتصار على الحملة المسعورة الا لأن الحرف العربى قد أصبح ذا قداسة وارتفع من الدلالة على المادة الصوتية الى العقلية اللغوية فمتى جار عليه جائر فقد هتك حرمة العقل واللغة والقداسة معا ٠

وفى طريقة تكوين الكلمات العربية باجتماع الحروف ـ وهو ما يدعى بفن رسم الحروف ويدعى فى مدارسنا بالاملاء ـ قيل ان الصحابة الذين دونوا المصحف الامام راعوا سر اللغة وفقهها ولا سيما فى كتابة الحروف الممدودة والأسماء التى تتردد بين الأفراد والجمع والاعتدال والامالة وفتحوا بطريقتهم فى الكتابة أبواب القراءات الصحيحة بل وأبواب علم الصرف أيضا وقد هجرت ـ فى غير المصحف ـ هذه الطريقة الى ما ابتغته العصور المختلفة من التسهيل والتيسير

ولكن العلم والبحث ما يزالان يؤكدان أن طريقة الأوائل ـ ولا سيما الذين كتبوا المصحف الامام ـ كانت طريقة أهل الدراية باللغة والولاية عليها من كل المتاخرين ٠ ولا يعنى هذا أن نرجع الى طريقتهم فى كل ما نكتبه ، وانما طريقتهم لوح محفوظ لمن اراد أن يعرف كيف كان العرب يطابقون بين أسرار لغتهم ومظاهرها على ألسنة الحروف ، كما أنها شاهد عدل على أن الذين كانوا أولا فى الزمان كانوا أيضا أولا فى الدقة والفهم والعرفان ٠

وكما كانت الحروف العربية خاتم حروف الكتابة فى اللغات كانت حروفها المنطوقة أتم الحروف عددا اذ بلغت فى النطق ثمانية وعشرين وهى كل ما يستطاع أن يكون له نطق مستقيم من الأصوات دون الحروف التى تتخذ شكل الأصوات المبهمة أو التى تكون بين حرفين صوتيين كما فى بعض اللغات ٠ كما تنفرد العربية بالنطق بحروف الاطباق وهو مالايقدر عليه كثير من اللغات ٠

دعوة الميثاق الوطنى من دعوة الإسلام

الأستاذ حسنى عبد المجيد

الواقع أن الدين الاسلامى الحنيف جاء ليخلد ويستقر ويثبت فى نفوس المؤمنين الذين هم عليه مقبلون .. الواقع أن رسالة الدين الاسلامى العظيمة .. انما خلقت وصنعت جماهير المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها .. بما حوته هذه الرسالة من تعاليم أعزت الانسان وكرمته تكريما ! وبما أوجدته من أصول وأسس صحيحة فى المعاملات بين الناس حتى أخرجت للعالم أجمع مجتمعا جديدا حمل القيم والعقائد التى نبعت كلها .. من واقع مطالب الانسان الفرد وأحاسيسه وآماله وانسانيته .

والانسان وسط هذه التعاليم يعرف دائما مكانه منها عالما كان أو جاهلا .. فهو بعلمه واطلاعه وادراكه وتأملاته يحدد « مركز وجوده » وترتفع وتسمو انسانيته دائما بما ملأ قلبه من ايمان وعقيدة . والجاهل بشئون دينه . والذى لم ينل حظه من العلم ، ينظر حوله فيتلقى علومه وايمانه وعقيدته بما يعكسه الناس عليه من معاملة تحمل الانسانية والتكريم . أو الجحود والتحريم ، فالفقير مثلا وهو يكافح حياته .. ووراءه عشيرة حية نابضة لها حق فى الحياة . وحق فى التعليم وحق فى العلاج وحق فى العمل. عندما لا يجد أمامه الا بابا مغلقا أوصدته المعاملات السائدة فكيف يتسلل الايمان القوى الى قلبه وكيف يطالبه المجتمع أن يكون مؤمنا صالحا .. وكيف أتوقع منه خلقا كريما فى عالم سادت فيه معايير اسقطت كل القيم وتركت الفقير على فقره ، والعاجز على عجزه ، دون رفق به أو ترفق .. عن جرير ان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال « ان الله ــ عز وجل ــ ليعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق (الحمق) ، واذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق. ما من أهل بيت يحرمون الرفق الا حرموا الخير كله » .

واذا كان الرسول العظيم فى هذا الحديث الصحيح قد وضع الخير كله فى كفة ميزان وعادلها بالرفق . فانما لأن الرفق بالانسان والحيوان والنبات فيه علو وارتفاع بالقيم الانسانية التى يجب أن تسود . ويجىء فى الميثاق فى بابه الخامس :

« كذلك فان الملايين من العمال الزراعيين عاشوا فى ظروف أقرب ما تكون الى السخرة تحت مستوى من الاجور يهبط كثيرا ليقرب من حد الجوع . كما أن عملهم كان يجرى من غير أى ضمان للمستقبل . لم يكن فى طاقتهم الا أن يعيشوا سنين حياتهم خلال بؤس الساعات وقسوتها الرهيبة » .

وفى هذا المجال يحضرنا قول ابن القيم : « ان الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد . وهى عدل كلها . ومصالح كلها . ورحمة كلها .. فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمة الى ضدها ، وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث ، فليست من الشريعة وان دخلت فيها بالتأويل . فالشريعة عدل الله فى عباده . ورحمته بين خلقه . وظله فى أرضه ، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسله أتم دلالة وأصدقها .. »

ويقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا » . صدق الله العظيم ..

فالاسلام يحوى من الأهداف الانسانية الرفيقة ما يجعله قادرا على انقاذ البشرية جمعاء . وهداية معاشها بما يقننه من أصول وشرائع وبما ينشره من أخلاقيات . آن الأوان ان تأخذ سبيلها الحق فى مجتمعنا الاشتراكى الانسانى ..

ولعل أوجب شعور . استوجب الخلق والاصرار عليه بعزم وايمان .. هو شعور الانسان العربى المعاصر بحقوق الآخرين .. عندما يحس بحق نفسه وحق أولاده . ويقول الله ــ تبارك وتعالى ــ « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » . صدق الله العظيم .

فاختزان المال . والضن بحقوق الناس .. يدفع الانسان الى القسوة وشح النفس .. وبالتالى الى عزل السواد الأعظم من الناس أصحاب الحاجة ليعيشوا تحت تيار خلقه أصحاب المصالح والمنافع . وهنا يقول الميثاق :

« ان مئات الألوف من عمال الصناعة والتجارة لم تكن فى قدرتهم أية طاقة على تحدى الرأسمالية المتحكمة المتحالفة مع الاقطاع . وأصبح العمل سلعة من السلع فى عملية الانتاج يشتريها رأس المال المستغل تحت أحسن الشروط موافقة لمصالحه »

ماذا يتصور الناس من عملية العزل المستمرة لحقوق الملايين . وما هى النتائج الرهيبة المترتبة على حرمان الملايين من معظم حقوقها أو كلها . وكيف يتصور المجتمع السليم أن هذه الأعداد الضخمة من سواد الشعب . يمكنها أن تلعب دورا انسانيا على قاعدة أخلاقية بهدف زيادة الانتاج ، وكيف يتخيل القادرون المسيطرون أن هذه الملايين ستساندهم فيما لو حلت بالبلاد نازلة أو كارثة .. فالعزلة فى الحقوق هى عزل لانسانية المواطن وبعزل انسانية المواطن انما يحكم عليه المجتمع بأنه قد أصبح غير ذى جدوى وبمعنى أصح فان المجتمع قد أسقط عضويته وجنبها الى حين أو الى الأبد الأمر الذى لا يستقيم مع المنطق أو يسايره العقل أو يرضى به الاسلام العظيم ..

يقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه « علم أصول الفقـــه » ومن استقرأ آيات الأحكام فى القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية فى العبادات وما يلحق بهـــا من الأحوال الشخصية كالمواريث لأن أكثر أحكام هـــذا النوع تعبدى لا مجال للعقل فيه ولا يتطـــور بتطور البيئات ، وأما فيما عدا العبـــادات والأحوال الشخصية من الأحكام المدنيـــة والجنائية والدستورية والدولية والاقتصادية فأحكامه فيهـــا على الأغلب ـ قواعـــد عامة ومبادىء أساسية **ولم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية الا فى النادر لأن هـــذه الأحكام تتطور بتطور البيئات والمصالح »** •

ومعنى هذا أن ولاة الامـور فى كل زمان ومكان ، عليهم أن يسنوا القوانين النابعة من المتطلبات الانسانية الجماهيرية وبخاصة تلك التى ضاعت معالم وجودها الانسانى لأسباب ونكسات لا مجال لسردها فى هذا المجال •• فالمشروع اذن هو الصالح العام • والصـالح العام بصراحة ووضوح هو اعادة التوازن بين أفراد مجتمعنا الاشتراكى الانسانى، ويقول الميثاق فى بابه الســادس :

« ان التخطيـــــط الاشتراكى الكفء هو الطريقة الوحيدة التى تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية المادية والطبيعيـــة والبشرية بطريقة عملية وعلمية وانسانية لكى يحقـــق الخير لجموع الشعب وتوفر لهم حيـــــاة الرفاهية » •

فكان تحقيق « الخير للمجموع يحتم أن يتم بطرق علمية • وبأسلوب تطبيقى عمـلى وفى اطار الحقوق الانسانية وبذا تضـمن اعادة الكيان الانسانى للملايين الضائعة • الملايين التى قال عنها الرئيس جمال عبد النـاصر فى خطاب ٢٦ مارس سنة ٦٤ :

« كانت تحس بالضياع ما تريده يبتعـــد عنها ولا ترغب فيه يفرض عليها » •

والتخطيط الاشتراكى الكفء ، انمـا يعنى ببساطة وفى ظل تعاليم الاسلام العظيم هـو حسن اسـتغلال ثروات البلاد الموجـــودة والكامنة والمحتملة « دور العلم هنا واضح » ثم هو فى الوقت ذاته ضمان توزيع الخدمات الأساسية باستمرار ورفع مستوى ما يقـدم منها بالدخل • ثم مد هذه الخـدمات الى المناطق التى افترسها الاهمال والعجز نتيجـة لطول الحرمان الذى فرضته أنانية الطبقات المتحكمة المستغلة على ملايين الشعب المناضل الذى عدم كل الوسائل فى أن يبعد عن نفسه غائلة شقاء العيش فى الدنيـــا •• واذا كان الرســـول الكريم يقول فى حديثـــه : **« اللهم انى أعوذ بك من الجـــوع فانه بئس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة فانها بئست البطانة »** • اذا كان الرسول يقرر أن الجوع ضياع الدنيا والخيانة ضياع الدين •• فبأى شىء آخر نصف مجتمعنا قبل ٢٣ يوليـــو عندما عاشت الملايين على الطـــوى •• وخان آلاف القادرين ملايين العاملين حتى أصبحوا وكأنهم مواطنين من غير هذا الوطن ••

فهذا المجتمع الاشتراكى الجـــديد الذى تعيشه اليوم هو فى جوهره احياء للـــدين الاسلامى الحنيف وتثبيت لدعائمه وشرائعه• لأن هذا المجتمع الجديد كما يقول الميثـــاق فى بابه السابع :

« الذى يبنيه الشعب العربى فى مصر على دعائم الكفاية والعدل • يحتاج الى درع واق فى عالم لم تصل مبادئه الأخلاقية الى مستوى تقدمه العقل » •

ودعامة الكفاية •• أى زيادة الانتاج بغير عدل يعنى المزيد من احتكار الثروة والعـدل ، أى توزيع الدخل القومى بغير زيادة فى طاقة لا تنتهى الى غير توزيع الفقر والبؤس • وانمـــا كلتاهما معا الكفاية والعدل يدا بيد ليصلوا الى غايته • فالجهود المضنية التى بذلنـــاها

فى السنوات الأخيرة والتى نادينا فيها بضرورة اقامة اقتصاد سليم فى واقعها الى الى الاعتراف والاحساس بآدمية الانسان ، والارتفاع بانسانيته على قواعد أخلاقية جديدة تحكم معاملاتنا فى اطار الدين الاسلامى الحق .. والذين ينظرون الى العبادات المختلفة على أنها شعائر أو أعمال لا وحدة فيها فهم قوم خاطئون • افتقدوا الرفق وافتقدوا الرحمة والخير .. لأن العبادة التى أمرنا بها الله تعالى من خلال القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة هى عبادة ايجابية حية نابضة فليست الصلاة والصوم الا مرحلة من مراحل الايمان نهدف منها ونأمل أن تعكس الصلاة والصوم مثلا على المسلم كل اخلاقيات المعاملات .. فيما يملك وبالنسبة لما لا يملك .. تعكس عليه الصلاة كل احساس بالحق وكل تقدير للواجب ووحدة العبادات متصلة متماسكة والصلاة مثلا تنهانا عن الفحشاء والمنكر والبغى .. والصلاة لا بد وأن تؤدى باخلاقنا الى كمال فى الفعل وكمال فى الاحساس بالحق والواجب والا فقدت الصلاة بهاءها وهكذا تقودنا العبادات الى حتمية من حتميات الحياة وهى تقويم المجتمع .. ومجتمعنا الاسلامى حاضره غير خاف على أحد بعد أن سادت فيه ضلالات كادت تودى بنا • انحدرت الينا مع مواريث عصور وأزمنة هجرت كتاب الله وسنة رسوله .. والى جانب هذه الموروثات تسربت ضلالات أخرى عكست آثارها المريضة على مجتمعنا الاسلامى فى كافة صور حياته ووجوده.. وأصبحت الأرض الاسلامية اليوم فى أمس الحاجة الى مناهج تربوية تعيد للدين وجهه الكريم ، وتقوم على أصول الاسلام الصحيح ومن الواضح أنه كان من المستحيل فى مجتمع ما قبل ٢٣ يوليو أن ننادى بمبادىء الاسلام كما ينبغى • ومعاملاتنا كانت قائمة على البقاء للاقوى وعلى آحاد الناس التى تملك ملايين الأرزاق متحكمة فيها مستغلة هذه الطاقات البشرية والمادية لصالحها فكأن باب العيش الصحيح هو فى أصله الارساء الصحيح للحقوق الضائعة والضمان الأكيد لرد انسانية المواطنين اليهم فى كافة أبعادها ، ويصور الرئيس عبد الناصر فى خطابه فى مجلس الأمة فى ٢٦ مارس سنة ١٩٦٤ المجتمع المصرى أصدق تصوير حينما يقول :

« كان المجتمع المصرى كله فريسة لمتناقضات تضغط عليه من الخارج وتتصادم فيه من الداخل، وترجه رجا عنيفا يكاد يهدم كيانه • وكان المجتمع يدور حول نفسه يبحث عن طريق وكل طريق أمامه يبدو مسدودا ويريد مخرجا وكل باب يصادفه يجده محصنا بأقفال من حديد » •

وفى اطار هذه الصورة الصحيحة للمجتمع الذى عشناه .. دعنا ننقب عن تعاليم الله وشرائعه فى العدل والكفاية .. فى الرحمة ، فى الأخلاقيات .. فى المعاملات .. فلا نجد من هذه التعاليم الا قشرة هشة لا جذور لها ولا أحبال تمسكها • خذ مثلا قول الرسول العظيم :

« كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ..

هذا الدستور الحى النابض يمنحنا آفاقا لا نهاية لها لتشريع كل ما يحفظ ويصون حقوق الانسان فى مواجهة الاحتكار والاستغلال والتحكم .. وفى مواجهة سوء توزيع المال ، ومن أثرة الأقوياء ومن تجاهلهم لحاجة البائسين ، وجحودهم على العاملين ..

ويقول الميثاق فى بابه السابع :

« ان مجتمع الرفاهية قادر على أن يصوغ قيما أخلاقية جديدة لا تؤثر عليها القوى الضاغطة المتخلفة من العلل التى عانى منها مجتمعنا زمانا طويلا • كذلك فان هذه القيم لا بد لها أن تعكس نفسها فى ثقافة وطنية

حرة تفجر ينابيع الاحساس بالجمال في حياة الانسان الفرد الحر » ٠

فحياة الانسان اذن ورفاهيته أصبحت هى الهدف المأمول وأصبحت هى المدخل العملى لتقويم وجوده والاحساس بهذا الوجود لأن رسالة الدين الاسلامى الحنيف فى جوهرها ثورة انسانية تستهدف شرف الانسان ورفاهيته وسعادته فهو لا يتصادم مع حقائق الحياة ومتطلباتها فى مجتمعنا الحالى٠ ورسالة الدين الاسلامى رسالة تقدمية تؤكد دائما حق الانسان فى الحياة ، فى الحرية وتنير بحق وعن جدارة الطريق أمام الميثاق حينما يحدد كرامة الانسان ووجوده فى أهداف صريحة ناصعة ٠ فالميثاق يسجل حق المواطن فى الرعاية الصحية بحيث لا تصبح هذه الرعاية علاجا ودواء .. مجرد سلعة تباع وتشترى وانما تصبح حقا مكفولا غير مشروط ٠ وفى الحق الثانى وهو حق المواطن فى العلم بقدر ما يتحمل استعداده ومواهبه٠ ثم خلق المواطن فى العمل .. العمل الذى يتناسب مع كفايته واستعداده ٠٠ وأخيرا حق الانسان وكرامته اذا ما كبر سنه أو نزلت به جائحة أو نازلة فله الحق كل الحق فى تأمين يحجز عنه هذه النوازل ٠٠ فكان الميثاق فى هذه المبادىء .. وفى اطار هذه الحقوق يضع حقا واضحا لحقى وحقك ٠٠ وبالتالى يربط بين المواطنين جميعا برباط واحد هو رباط الاخاء فلا نفور ولا حقد ولا حسد ولا انتهازية ولا اعتداء ٠٠ وبذا يصبح قول الله تبارك وتعالى :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » ٠صدق الله العظيم ٠

والتعارف هنا لا التنافر هو أساس العلاقات الاجتماعية والانسانية التى تدفع المواطنين الى التحاب والتآخى ٠ وفهم الحق ووعى الواجب دون صدام أو احتكاك ٠٠ والتعارف هنا فى رأيى ولكى يتوفر لا بد وأن يصبح الناس جميعا فى اطار منصف من الحقوق وفى اطار كريم من الحياة والا حل التنافر بينهم ، ولما جاز انطباق هذه الآية عليهم ولأصبح هؤلاء القوم غير جديرين بقوله تعالى : « **لتعارفوا** ٠٠٠ »

وأخيرا وليس آخرا ، يحضرنا قول الرسول العظيم :

« مثل المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ٠

والجسد الواحد معناه جسد متناسق يعمل كله وحدة حية نابضة يربط الأجزاء ويلمها ويجمع فيما بينها رباط الرحمة والود والتراحم ذلك الرباط الذى كان مفتقدا فى مجتمع ما قبل ٢٣ يوليو ■

الأرض المقدسة

بيان صادر عن
جمعية التضامن
الخيرية بنابلس

فضيلة الشيخ
مشهور ضامن بركات
مفتى نابلس والقضاء

ويشمل البيان :

عن الأرض المقدسة . الاستعمار وفلسطين والمبشرون . جمعية التضامن الخيرية ومعهد نابلس الديني . فى رحاب الأزهر الشريف والمجلس الاسلامي الأعلى . التعارف سبيل الى جمع الكلمة . فلسطين فى مؤتمرات القاهرة . المعركة مع اسرائيل والاستعمار . منهج الاصلاح . العلم بالعلم . معنى القوة . كلمة أخيرة ..

الموضوع : الأرض المقدسة :

ان بلاد الأرض المقدسة ، بلاد الاسراء والمعراج ، قد نزل فى شأنها قول الله تعالى فى أول سورة الاسراء : ((سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله)) وذلك ليذكرنا بمكانة المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، وقداستهما ، وبما لفلسطين من حق على العرب والمسلمين ، فى مشارق الأرض ومغاربها، وللحفاظ عليها واستعادة ما سلب منها ، وبذل التضحيات فى سبيل ابقاء هذه البلاد المقدسة عربية اسلامية .

ولا غرو اذا كان لبلد المسجد الحرام هذه العناية الالهية ، فقد بزغت منه شمس الهداية الاسلامية ، والى كعبته يتجه المسلمون فى عبادتهم لله رب العالمين ، بعد أن كان الاتجاه من قبل الى المسجد الأقصى ، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، وبلد مهبط أنبياء الله ورسله ، ومرقد جد الأنبياء الخليل

بيت المقدس

ابراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . وفى جوار المسجد الأقصى ، مهد المسيح عليه السلام ، الذى ترنو اليه أنظار المسيحيين من انحاء العالم ، وكان لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الموقف الخالد، الذى سجله التاريخ فى الحفاظ على هذه الأماكن المقدسة وحرمتها اسلامية ومسيحية. كما كان لصلاح الدين الأيوبى فضل المجاهدين الأبطال الذين ذكرهم التاريخ بالفخر والاعتزاز ، وعمل على تطهيرها من ارجاس الاستعمار الصليبى وأعوانه .

الاستعمار وفلسطين والمبشرون :

ثم انقضت تلك الحقبة من الزمن الذى رفع فيه منار الاسلام ، وقامت الحرب العالمية الأولى ، ووضعت فلسطين تحت الانتداب البريطانى البغيض ، وعمل الانكليز على ايجاد حالات سياسية واقتصادية فى فلسطين ، تكفل تحقيق وعد بلفور باقامة دولة اسرائيل ففتحوا باب الهجرة الصهيونية الى فلسطين على مصراعيه ، كما مهدوا لليهود سبل امتلاك الأراضى ، واقامة المدن والمستعمرات ، وجلب الأسلحة ، والسماح لهم بالتدرب العسكرى ، **وحارب الانتداب عرب فلسطين اجتماعيا ودينيا واقتصاديا ، بوضع القوانين الجائرة ، وتقييد الحريات ، والسماح للمبشرين ببث سمومهم ، ونشر مفترياتهم ، وممارسة نشاطهم التبشيرى على أوسع نطاق ، لتحريف كلام القرآن عن مواضعه ومحاربة الاسلام فى عقر داره، ولقد لجأوا الى تطبيق البرنامج الثقافى الاستعمارى بسائر أشكاله والوانه ، الذى كان عاملا من عوامل الانحلال الاجتماعى ، والفساد العقائدى ، وضعف روح الدين فى النفوس .**

كما أقاموا جامعات فى بعض الدول العربية والاسلامية بعد أن علموا مكانة الأزهر العلمية والثقافية وخدماته الجلى لأبناء العالم الاسلامى ، لتكون جامعاتهم المركز الثقافى والتبشيرى الذى يناهض جامعة الأزهر . وهذا الموقف من الاستعمار والمبشرين معروف

ومدون فى محاضر مؤتمر المبشرين ، فليرجع اليها من اراد المزيد .

ولقد عمل الاستعمار البريطانى بكافة وسائله لصرف الأمة أفرادا وجماعات ، عن الاعدادين الروحى والمادى ، وعدم الاقبال على طلب العلم الشرعى فاهمل الشئون
على احمد على ـ منبر الاسلام ـ ٢٨-١٢-٦٤
الدينية ، وحارب علماء الدين والأئمة والوعاظ والمدرسين فى مختلف الميادين وكان لذلك أثر لا يخفى .

ولما وضعت الحرب أوزارها ، وانتهت جولة الاستعمار بتسليم الساحل الذهبى ، وقلب العروبة النابض فلسطين الى الصهاينة ، وانكشفت بذلك أوراق الاستعمار الملوثة بالدماء ، وظهرت خيانة العملاء ، كان لا بد من اصلاح ما فسد ، وهدم ما أقام من أصنام فى البلد ، واتجهت أنظار كثير من الواعين المخلصين ، الى شتى نواحى الخير والاصلاح فى هذا العهد المبارك ، ورأى بعض أهل الخير والغيرة على العلم وأهله ، أن يستجيبوا الى أمر الله تعالى ورسوله : **« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »** ، ويذكروا قول النبى صلى الله عليه وسلم : **«من بات ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»**

جمعية التضامن الخيرية ومعهد نابلس الدينى :

ولما كانت مدينة نابلس ـ معروفة منذ القدم بعلمائها الفطاحل وأئمتها الأعلام وكونها مركزا للوافدين اليها من طلاب العلم . فقد رأى ذلك النفر الكريم أن يعيدوا اليها مجدها التليد ، فى العلوم والمعارف والعناية بالشئون الدينية

ويعملوا على تخريج عدد كبير من طلاب العلم ليكونوا دعاة الى الله ناشرين دينه القويم وتعاليمه السمحة ، فانشأوا جمعية أهلية ، أسموها « جمعية التضامن الخيرية بنابلس » . وفى هذا العام أقامت الجمعية بناء ضخما يتألف من ثلاثة طوابق ، يضم المسجد الكبير ، والمعهد الدينى ، وغرف النوم ، وقاعة المحاضرات .

وقدبدأ نشاط المعهد الدينى فى نابلس منذ سنوات فى دار للاوقاف ، واقبل عليه عدد وافر من طلاب المدن والقرى ، وتخرج فيه أكثر من مائة طالب ، التحقوا بمعاهد الأزهر وكلياته ، لاتمام تحصيلهم العلمى ، وحاز معظمهم على شهادات الامتياز ومكافآت مالية فى عيد العلم .

فى رحاب الأزهر :

ولما اتسع نشاط المعهد قررت الجمعية الاتصال بادارة الازهر الجليلة وانتدبت عنها كاتب هذه الكلمة ليبحث مع المسئولين فى الأزهر دعم نشاط المعهد ومساعدته بمدرسين اكفاء ، ومعادلة شهادته بشهادة اتمام الدراسة الثانوية الازهرية ، كى يتاح لخريجيه الالتحاق بكليات الجامعة الازهرية ، وقد حضرنا الى الجمهورية العربية المتحدة ، فلقينا منهم ترحيبا صادقا ، وعطفا كريما ، على رسالة المعهد الدينى ، فى بلد أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، وقرر فضيلة الامام الاكبر شيخ الجامع الازهر ايفاد مدرسين الى المعهد فى نابلس ، كما وافق سيادة نائب رئيس الوزراء ووزير الاوقاف وشئون الازهر على هذا القرار ، ثم احيل الأمر الى السيد الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية الذى قام بدوره بعمل يذكر فيشكر .

وانى اذ أذكر هذا الفضل بالشكر والتقدير لصاحب الفضيلة الامام الاكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الازهر ، والى سيادة احمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف الأكرم ، والى سائر المسئولين المحترمين ـ لأذكر

والى سائر المسئولين المحترمين ـ لأذكر بالتقدير والاكبار ، النهضة العلمية والعمرانية فى الجمهورية العربية المتحدة ، وأنوه بما تم انشاؤه من كليات جديدة بجامعة الازهر ، للطب والهندسة والزراعة والتربية والادارة والمعاملات ، وغير ذلك من المعاهد والاقسام ، وأرجو الله تبارك وتعالى أن يكون هذا المعهد الجديد امتدادا لرسالة الازهر ملاذ العالم الاسلامى وحامل مشعل النور الى أرجاء عالمنا الكبير .

واخص بالتنويه تلك الخطوة التى خطاها الأزهر فى عهده الجديد بانشاء كلية ومعاهد خاصة للبنات ، وأرجو للخريجات أن يكن القدوة الصالحة فى العلم النافع والخلق الكريم ، ويقمن بواجبهن فى الوعظ والارشاد : وتشعر المرأة بالمسئولية مع الرجل لاصلاح البيت والمجتمع ، وهى تملك ولا ريب اذا تلقت العلم النافع ، أن تنشر رسالة الاصلاح على أكمل وجه ، وتصلح من حال المرأة فى هذا المجتمع الذى غزاه الاستعمار فى كل شأن من شئون حياته ودخل عليه من كل باب ، كى يفسد على المرأة خلقها ودينها وتعود الى الجاهلية الأولى . ومما يدعو الى التقدير والاعجاب تلك الجهود المباركة التى تقوم بها الجمهورية العربية المتحدة فى مجال المساعدات المادية والأدبية للدول الافريقية والاسيوية ، واقامة المعاهد الدينية لمقاومة تغلغل اسرائيل والاستعمار والتبشير .

وانه لمن دواعى الغبطة والاعتزاز ، أن تخرج وفود العلماء ، وعلى رأسهم الامام الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، لتأدية رسالة الاسلام فى الأقطار الاسلامية ، وفى افريقيا وآسيا بصورة خاصة ، للوقوف على أحوال المسلمين، ونشر الثقافة الدينية ، وحماية العقيدة الاسلامية من أضاليل المبشرين ومكائد المستعمرين .

وقد تم انشاء المعهد الدينى فى قطاع غزة كما أقيم فى القاهرة المعاهد النموذجية ومعهد للقراءات ، وكان كل ذلك بفضل الله تعالى ثم بهمة القيادة الحكيمة الممثلة فى سيادة الزعيم العربى الرئيس جمال عبد الناصر وحكومته الواعية .

وقد أتيحت لى الفرصة أن أزور هذه المعاهد والكليات وادارة شئون القرآن ومعهد القراءات ، وأن أزور الجامعة الأزهرية التى يدير شئونها العالم الكبير صاحب الفضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى، صاحب الجهاد المبارك قديما وحديثا ، فى خدمة الدين ورفع لوائه فى العالمين ، وقد وجدت من فضيلته كل تعضيد ومساعدة .

كما أتاحت الفرصة أن أزور المجلس الأعلى للشئون الاسلامية وسكرتيره العام السيد / محمد توفيق عويضة الذى يعمل جاهدا على نشر الكتب العلمية والبحوث الدينية ، وقد تفضل فأهدى المعهد الدينى بنابلس مكتبة علمية كبيرة تضم المصحف المرتل، والتسجيلات المرتلة ، وغيرها من المؤلفات القيمة ، فجزاه الله عن الاسلام خير الجزاء ، وأجزل للعاملين المخلصين عظيم الثواب .

التعارف سبيل الى جمع الكلمة :

واذا كان النهوض العلمى ، قد رفع من شأن الأمم والدول ، فان الجمهورية العربية المتحدة ، أصبحت محط أنظار العالم ، فى المضمارين الثقافى والسياسى ، وفى طليعة الدول ، التى تسير نحو الاكتفاء الذاتى ، وكان للاجتماعين السابقين لملوك ورؤساء الدول العربية والاسلامية ، ولاجتماع مؤتمر عدم الانحياز ، لثمان وخمسين دولة ، الذى دعا اليهما سيادة رئيس الجمهورية العربية المتحدة أثر بالغ الأهمية ، فى اتجاه العالم نحو اقرار السلام، وتحرر الشعوب من الظلم والاستعباد، وفى تبادل المنافع والمصالح ، وتوثيق الروابط والتعارف بين شعوب الأمم ودولها ، للتعاون على البر والتقوى ، وتطهير العالم من رجس الاستعمار وأعوانه ، الأمر الذى دعا اليه القرآن الكريم ، وحرص عليه منذ أربعة عشر قرنا حيث قال : ((**يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**)) .

وان هذا التعارف ، الذى أشار اليه القرآن الكريم ، يهدف الى جمع الكلمة وتوحيد الصف ، من أجل النهوض بالحياة الاجتماعية ، وتوفير العيش الكريم ، ومقاومة الظلم والفساد ، وحل قضايا الشعوب المنكوبة .

فلسطين فى مؤتمرات القاهرة :

ومن الجدير بالذكر أن قضية فلسطين قد احتلت المكان الأول ، والقسط الأكبر فى المحادثات التى جرت فى مؤتمرى الذروة لملوك الدول العربية ورؤسائها ، الذين تصافحوا فيما بينهم ، ووضعوا الخلافات جانبا ، واتخذوا

الوسائل الفعالة الموحدة ، لمحو الظلم ، ورفع الاصر الواقع على شعب فلسطين ، واعادة الوطن السليب الى أصحابه الشرعيين ، وفى مؤتمر دول عدم الانحياز المنعقد فى شهر أكتوبر سنة ١٩٦٤ ، أحرزت الدول العربية نجاحا ملموسا فى اقناع عدد كبير من الدول الاوربية والامريكية والاسيوية والافريقية، بأن لعرب فلسين حقوقا يجب أن تصان ،ومطالب يجب أن تنفذ ، وقد أذيع على جميع أنحاء العالم القرار التاريخى الذى ينص على تأييد استعادة حقوق الشعب العربى الفلسطينى فى وطنه ، استعادة كاملة ، واعلان تأييد الشعب الفلسطينى فى كفاحه للتحرر من الاستعمار والعنصرية .

المعركة مع اسرائيل والاستعمار :

وبعد : فان هذا النجاح الذى أحرزته الدول العربية ، لن يوصلنا الى هدفنا المنشود، اذا بقينا عند حد القرارات والاجتماعات . فاذا أقضت هذه القرارات حين اذاعتها مضجع الاستعمار ، وخفضت رأسه أمام قوى الحق والعدل والسلام ، وسكت مرغما لفترة قصيرة فانه حين تهدأ الزوبعة ، وتجمد القرارات سوف يحاول أن يرفع راسه ، ويهيىء نفسه، ويحاول أن يحقق سياسته ، ويعاود تفرقته ودسائسه ، اذ أن هدف الاستعمار أن يقضى على عزة الشرق ، ويرد المسلمين عن دينهم ، حيث يعلم أن الاسلام مصدر تلك القوة وسراجها المنير الذى يضىء للناس معالم المجد والرفعة ، وصدق الله العظيم القائل : **« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .**

وان اسرائيل صنيعة الاستعمار وربيبته ، التى لا يفتأ يمدها بكل القوى المادية والادبية ، لتبقى شوكة فى جنب العرب ، وركيزة للاستعمار، وخطرا دائما يهدد العرب أجمعين . ولن يزول ذلك الخطر الا بتعاون العرب والمسلمين واتحادهم على تقويض تلك الدويلة المزعومة ، واعادة فلسطين المحتلة الى ذويها حرة عزيزة ، بعد أن طهرت من رجس الصهيونية ودنس الاستعمار .

فمهمة الدول العربية وشعوبها ، لا تزال شاقة ، وعليهم أن يمضوا فى تطبيق القرارات، ويستغلوا الظروف ، ويعدوا أنفسهم ليوم المعركة الفاصلة ، اعدادا ثوريا صحيحا موحدا ومنظما ، واعتبار المعركة مع اسرائيل والاستعمار ، معركة الأمة العربية والاسلامية جمعاء ، محققين بذلك نداء القرآن الكريم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . ومستجيبين لنداء سورة الصف ، فى الدعوة الى توحيد الصف ، الى المنطق السليم ، والنظام الحكيم ، حيث يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

منهج الاصلاح :

ولعل خير خطة تتبع ، وأفضل نهج يحتذى، هو أن يسير الاصلاح فى شتى المجالات والميادين جنبا الى جنب مع خطوات الاعداد ، لوحدة شاملة تجمع العرب والمسلمين وترفع رايتهم ، وحدة ترفع من مستوى الأمة العربية والاسلامية روحيا وماديا . وحدة تقيم المصانع والمؤسسات ، والمعامل والمنشآت ، ودور العلم والبحث ، وتوفد البعثات ، وتستقبل رجال الفكر والعلم ، وتضع المناهج الموحدة ، التى توجه الابناء الوجهة العلمية والخلقية لخير الأمة ومستقبلها ، وترسم خطة عملية للاكتفاء الذاتى بسائر القطاعات .

وان ما شاهدته فى الجمهورية العربية المتحدة من دور للعلم ومن مصانع ومؤسسات تعاونية وكثير من نواحى الاصلاح الزراعى والصناعى والاجتماعى ، لأمثلة حية للامة التى تبغى حياة العزة والكرامة ، وتقضى على الاستعمار وآثاره .

واذا كان الاستعمار قد خدعنا ونال من كرامتنا ، وحال بيننا وبين تقدمنا حينا من الزمن ، فان الفرصة لا زالت سانحة ، لان نعمل ونعمل ، دون كسل أو ملل ، ونستجيب الى أمر الله تعالى : **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .**

العلم بالعلم :

ولنذكر للعظة والاعتبار ــ أمر أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، للقائد الكبير خالد ،

حين ادلهمت الأمور على المسلمين ، وأحاطهم الاعداء من كل جانب .

يا خالد : احرص على المـوت ، توهب لك الحياة .

قابل الأعـداء : السيف بالسيف ، الرمح بالرمح ..

ولو أننا قدرنا وجود أبى بكر بيننا فى هـذا العصر ، ورأى تكالب الاستعمار ، وظهـور آلات الدمار لقال لنا :

أيها العرب : أيها المسلمون : أيها القادة : أيها المسئولون : قابلوا أعداءكم العلم بالعلم ، السيف بالسيف ، البندقية بالبندقية ، المدفع بالمدفع ، الدبابة بالدبابة ، الطائرة بالطائرة ، الغواصة بالغواصة ، الصاروخ بالصـاروخ ، القنبلة الذرية بالقنبلة الذرية ، القمر الصناعى بالقمر الصناعى ..

معنى القـوة :

أيها العرب : أيها المسلمون : أيها القادة : أيها المسئولون : ان قول الله تعالى اليـكم : **« واعدوا لهم ما استطعتم من قـوة »** يشمل سائر القوى . اذ ان القوة « الرمى » فهى تتناول حديث الأسلحة وقديمها ، كمـا تتناول سلاح العلم والمعرفة ، وما يتعلق بهما من تهذيب عملى واصلاح جذرى .

أيها العرب : أيها القادة : أيها المسئولون فى كل مكان :

ان فلسطين بلد المسجدالأقصى ، بلد الاسراء والمعراج ، الذى باركه الله بنص الكتـاب العزيز ، ان فلسطين المقدسة ، لن تعود الـى اهلها الا بالاعداد بقوة الايمان ، وقوة الوحدة ، وبمثل قوى الاستعمار العالمى .

وانه من حق الأرض المقدسة ، التى ضمت المسجد الأقصى ، ومهد المسيح عليه السلام ، ان يهب العرب والمسلمون جميعا لنجدتها ، ويعبئوا سائر الطاقات ، لمواجهة عدو لدود ، سوف يستعمل كافة طاقاته ، ذلك العـدو الباغى ((اسرائيل)) أداة الاستعمار وصنيعته ، التى يستخدمها فى حماية مصالحه ، وتنفيذ سياسته ومؤامراته .

وعليكم أيها المؤمنون بالله ورسـوله ، أن تثقوا بوعد الله وتأييده للعاملين المخلصين ، مصداقا لقوله المبين : **« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »** .

نعم .. اننا حين نقدر هذا التوجيه الكريم ، ينطلق من وحى كتابنا الالهى ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وينطلق من واقع تاريخنا المجيد ، نعلم حق الأرض المقدسة علينا ، نعلم أن الخير كل الخير ، فى هذا الاعداد ، وفى الجهاد فى سبيل الله ، وفى العودة الى ديننا ، وتاريخنا ، وامجادنا ، الى معيننا الصافى ، فى كتاب ربنا ، الذى انقذ العالم من الضلالة ، والجهالة الى نور العـلم والهداية ، وهدى الأمة المجـاهدة فى سبيله واعزاز شريعته الى طريق النصر والهـدى والرشاد ، فقال : **« والذين جاهدوا فينـا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين »** .

وقال سبحانه : **« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز »** .

كلمة أخيرة :

وانى اذ أعلن نجاح المهمة والحمد لله رب العالمين ، أتقدم باخلص الشكر ، لكل من أسهم فى ذلك ، وأسأل المولى جلت قدرته ، أن يوفق رئيس الجمهورية العربية المتحدة ورجـال الحكومة الاخيار ، وسائر ملوك ورؤسـاء دول العرب والمسلمين لرفع منار الاسـلام والعروبة ، وان يكلل المساعى الحميدة ، لعمل الخير وخير العمل .

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد .

رمضان في مكة

الدكتور حسين نصار

ذكر أبو عبد الله محمد بن احمد المقدسي البشاري ، من رجال القرن الرابع الهجري ، في كتابه ((أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)) ان عجائب العالم الاسلامي خمسة ، هي : رمضان في مكة ، وليلة الختمة بالمسجد الأقصى ، والعيدان بصقلية (وكانت تحت حكم المسلمين اذ ذاك) ، ويوم عرفة بشيراز ، ويوم الجمعة ببغداد .

ولكنه اقتصر على هذا القول ، ولم يفصل القول في تفاصيل تلك الاحتفالات . فلم يعط رمضان مكة غير فقرة موجزة لا تغني شيئا ، ولست أعرف أحدا من رجال عصر البشاري تحدث عما ذكر لنلجأ اليه في تفاصيل ما أوجز .

ويمضي قرن وآخر ، وفي أوائل الربع الاخير من القرن السادس ، يأتي الى مكة رحالة من أعظم رحالي العرب ، ان لم يكن أعظمهم ، فوصف احتفال المكيين برمضان ، فلم يترك شاردة ولاواردة الا سجلها . فكان نعم الواصف المصور ، الذي اضطر من جاء بعده الى الاعتماد عليه . وبالرغم من ذلك لا يقارن عملهم بعمله . أعني الرحالة الأندلسي محمد ابن أحمد بن جبير الكناني .

وعلى وصف ابن جبير ، وابن بطوطة ، اعتمد في الصورة التي أحاول ان ارسمها هنا لاحتفالات المكيين برمضان ، التي عدها البشاري من العجائب المذكورة .

كان أهل مكة يستعدون لرمضان قبل حلوله بالاعتناء بالمسجد الحرام فيجددون له الحصر ، ويوفرون له الشمع والمشاعل .

ثم يأتي اليوم الذي يخرجون فيه للتطلع لرؤية الهلال الوليد .

ويبدو أنهم لم يكونوا يقومون باحتفالات خاصة في هذا الخروج ، فلم يعن أحد بوصفه ، **غير أنهم كانوا يؤذنون بالصيام بقرع الطبول** ، وكانوا يحتفلون بصبيحة اليوم الأول من شهر رمضان وغيره من الشهور العربية . اذ كان الافراد يتصافحون ، ويهنىء بعضهم بعضا ، ويتغافرون ، ويدعو بعضهم لبعض . وكان أمير مكة يخرج مع طلوع الشمس مرتديا ملابس بيضاء ، واضعا عمامة رقيقة ، متقلدا سيفاه يفسح له الطريق حرسه السوداني بأيديهم الحراب ، ويتقدمه القراء ، ويحيط به القواد . فاذا ما انتهى بازاء المقام الكريم وقف ، وبسط له مصلى من الكتان فصلى ركعتين . ثم تقدم الى الحجر الأسود فقبله ، ثم يشرع في الطواف حول الكعبة ، وقد علا في قبة زمزم مؤذن صبي مرتد افخر الثياب . فعندما يكمل الأمير شوطا ويقرب من الحجر ، يندفع الصبي رافعا صوته بالدعاء ، والتهنئة بالشهر ، ثم يختم بثلاثة أو أربعة أبيات من الشعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والأمير . فاذا ما طاف الأمير شوطا آخر ، تكرر المشهد مرة أخرى ، مع تغيير الدعاء والشعر ، الى ان يفرغ من الطواف سبعا . فيتفرق الجمع .

ويأخذ الناس في الصيام وتتغير حياتهم ، وتعظم قيمة الشروق والغروب . فتتطلع الأنظار اليهما وتترصدهما وتتبع الشواهد عليهما . ويلجأ اهل مكة الى الفرقعة ، يضربونها ثلاث ضربات عند الفراغ من اذان المغرب ، ومثلها عند الفراغ من اذان العشاء . وهى عود مخروط أحمر ، وقد ربط فى رأسه حبل من الاديم المفتول رقيق طويل ، فى طرفه عذبة صغيرة ينفضها ممسك الفرقعة بيده فى الهواء ، فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه . وتستعمل فى غير رمضان فى صلوات الجمع وحدها .

ويتولى التسحير المؤذن الزمزمى فيقوم فى وقت السحور داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور ، ومعه أخوان صغيران يجاوبانه . وقد نصبت فى أعلى صومعة المسجد خشبة طويلة ، فى راسها عود كالذراع ، وفى طرفيه بكرتان صغيرتان ، يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران ، لا يزالان مشتعلين مدة التسحير . فاذا جاء الامساك . حط المؤذن القنديلين من أعلى الخشبة ، وبدأ بالأذان ، وثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان . فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد ، يبصر القنديلين ، فاذا لم يعد يبصرهما علم ان الوقت قد انقطع .

وكان الحرم يتلألأ نورا ويسطع ضياء كل ليلة ، وتتفرق الأئمة فيه لاقامة التراويح . ويجتمع الحنفية والحنبلية والزيدية كل وراء امامه ، ويصلونها صلاتنا لها . أما المالكية فكانوا يجتمعون على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة . وأما الشافعية فكانت لهم طريقتهم الخاصة فى الأداء . كانوا كلما فرغوا فى صلاتهم من تسليمتين ، طافوا حول البيت سبعا فاذا اكملوها ضربوا الفرقعة ايذانا بالعودة الى الصلاة ، وصلوا ، فاذا ما فرغوا من التسليمتين طافوا ، الى أن يكتمل لهم عشرون ركعة . ثم يصلون الشفع والوتر ، وينصرفون .

وكانوا يحتفلون بالعشر الأواخر من ليالى رمضان احتفالا كبيرا ، وخاصة الليالى الوتر منها ، لتوقعهم ليلة القدر فيها . فكانوا يختمون القرآن فيها . ويتولى ذلك منهم احد أبناء أكابرهم . ويحضر الختمة القاضى والفقهاء والكبراء . فاذا ختم نصب له منبر فخطب عليه . فاذا فرغ استدعى أبوه الناس الى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات .

وقد وصف ابن جبير احتفالهم بتلك الليالى فأجمل وابدع . قال عن احداها : وكان المختتم فيها غلاما لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة . أعد له أبوه ثريا مصنوعة من الشمع ذات غصون ، انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، واعد لها شمعا كثيرا . ووضع فى وسط الحرم ما يشبه المحراب المربع ، اقيم على قوائم أربع ، وربطت فى أعلاه عيدان نزلت منها قناديل ، واسرجت فى أعلاها مصابيح ومشاعل . وثبت فى دائر المحراب كله مسامير غرز فيها الشمع ، فاستدارت بالمحراب كله . واوقدت الثريا . ووضع بمقربة من المحراب منبر ، مجلل بكسوة مختلفة الألوان .

وحضر الغلام فصلى التراويح وختم ، وقد انحشد أهل المسجد الحرام اليه رجالا ونساء ، وهو فى محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدق به . ثم برز من محرابه ،

فبدا رافلا فى أفخر ثيابه ، مكحل العينين ، مخضوب الكفين الى الزندين . فاستوى على المنبر ، واشار على الحاضرين مسلما . وقعد بين يديه القراء ، فابتدروا القراءة على لسان واحد . فلما اكملوها عشرا من القرآن ، قام الغلام فخطب . وبين يديه فى درجات المنبر نفر ، يمسكون الشمعدانات فى أيديهم ، ويرفعون أصواتهم قائلين : يا رب ، يا رب ، عند كل فصل من فصول الخطبة . وفى أثناء ذلك يأخذ القراء فى القراءة ، فيسكت الخطيب الى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته ، التى ختمها بتوديع الشهر المبارك ، وترديد السلام عليه . ثم دعا للخليفة ، ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء ثم نزل . وانفض ذلك الجمع العظيم .

وأعظم تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين ، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى . فقد استعدوا لها قبل ذلك بيومين أو ثلاثة . وأقيم ازاء حطيم امام الشافعية خشب عظام ، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة ، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضا . ووصلت بالحطيم المذكور . ثم عرضت بينها ألواح طوال ، مدت على الاذرع المذكورة ، وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات . وكانت الطبقة العليا منها خشبا مستطيلة مفروزة كلها مسامير نصب عليها الشمع ، والطبقتان تحتها الواح مثقوبة ، وضعت فيها زجاجات المصابيح .

وتدلت من جوانب هذه الالواح قناديل كبار وصفار ، يتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من النحاس ، قد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل ترفعها فى الهواء . واوقدت فيها المصابيح ، فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نورا .

وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة ، وقد وضعت بيد كل منهم كرة من الخرق المشبعة بالزيت . فأشعلوها ووضعوها فى رؤوس الشرفات . وصفت الشمعدانات على الكراسى ، وغطى جدار الحجر المكرم كله بالشمع ، فجاء كأنه دائرة من النور الساطع .

وتقدم القاضى فصلى فريضة العشاء ثم قام وابتدأ بسورة القدر ، وكان أئمة الحرم فى الليلة قبلها قد انتهوا اليها . وتعطل فى تلك الساعة سائر الأئمة من صلاة التراويح ، تعظيما لختمة المقام ، وحضروا متبركين . ولما ختم القاضى قام خطيبا مستقبل المقام والبيت العتيق . واذ فرغ من خطبته عاد الأئمة الى اقامة تراويحهم . وانفض الجمع فرحين بما قدموا من صبر ، مستبشرين بما يأتى من خير .

وتنقضى أيام رمضان ، وتبقى ذكريات رمضان ، حية حلوة محببة الى كل مسلم مشارك فى رمضان .

١٧

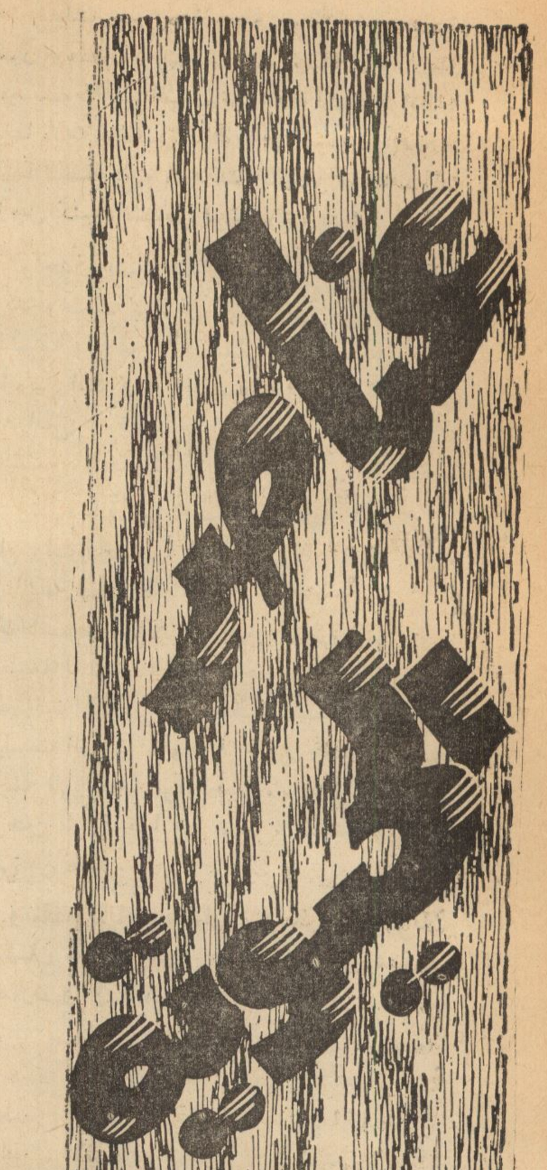

الطمــوح :

لقد تحدثنا فيما سبق عن الحرية كمظهر من مظاهر تكريم الله للانسان وتزويده بالامكانيات التى يحقق بها خلافته فى الأرض ، وهـذه الحرية فى حقيقتها أساس للمسئولية والتكليف كما أنها أساس لاندفاع الانســان الى الامام واقتحامه جميع الميادين التى يكمل بهـا شخصيته ويزاول نشاطه العام فى هذا الكون الفسيح ، والاسلام حين يطلق العنان للانسان لينطلق الى الخير كان متجـاوبا مع الفطرة الأصيلة والقوى الكامنة التى زوده بها كبشر له خصائصه ومميزاته وله أهدافه وغاياته ، والانسان بطبعه نزاع الى الكمال طموح الـى الغايات العليا ، وقد قوى الله فيه هـذا الاستعداد ووجهه وجهة الخير ، ووضح له معالم الطريق السوى حتى يصل الى غايتـه بسلام ، وحتى لا يتجاوز الحدود فيعتـدى على حقوق الآخرين .

الطموح يدفع الى الامام ويحبب فى المعالى ويسوق الى الكمال ، والشخص تحت تأثير هذه القوة لا يكاد يصل الى درجة من السمو الا وجد فوقها مراتب أسمى ، فهو دائما فى حركة ونشاط وتجديد وحيوية وأمل وعمل : وأساس ذلك هو الايمان بكمال الهدف وشرف الاتجاه نحوه ، والاسلام ، وهو دين الكمـال والسمو ، يمجد كل معنى فاضل ويدعو الى كل غاية نبيلة ، ليتحقق للأمة هـذا الوصف الكريم « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

وقد كانت تربية النبى صلى الله عليـه وسلم قبل بعثته على منهاج يتضح فيه سمو النفس وبعد الهمة والنزوع الى الكمال ، لأن الله أدبه فأحسن تأديبه ، نزل الى الميـدان يحطم الطواغيت ويغرس فى النفوس معـانى الخير والفضيلة وحب الكمـال ، ورفض العروض المقدمة اليه من المـال والسلطان ، وتفرغ لتنفيذ السياسة التى وسمها لأمتـه التى انتدبت لاقامة دولة الحق والخـير والسلام .

وتوالت التشريعات بالدعوة الى الأخذ بأحسن الامور واكمل الصفات : فى القول والعمل والفكر والرأى والخلق والمعاملة والحكم والسياسة « **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن** » « **فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** » « **ادفع بالتى هى أحسن** » . وخلق فى نفس أصحابه الشعور القوى بالسعى الى الكمال وعدم القناعة بالدون اذا امكن الوصول الى القمة ، حتى عندما يتوجهون الى الله بالدعاء قال لهم « **اذا سألتم الله فاعظموا الرغبة ، واسألوا الفردوس الأعلى فان الله لا يتعاظمه شىء** » كما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة . وحبب فى القوة بجميع صورها ، ناعيا على القاعدين عن طلاب المجد والكمال فيقول « **المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وان أصابك شىء فلا تقل : لو انى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان** » رواه مسلم عن ابى هريرة .

وكان لهذا النمط العالى من التربية أثره فى نهضة الأمة ومتانة بنائها وسعة سلطانها وقوة نفوذها ، فرأينا اسلافنا الأماجد يتعشقون الحرية والاستقلال . ويأبون حياة الذل والاستعباد . ويتنافسون فى نيل شرف الجندية وحماية الوطن وصيانة الحرية ، ورأيناهم يتسابقون الى التبرع لمشروعات الخير والاصلاح ، ويتبارون فى حوز وسام الشرف بكثرة البذل والعطاء ، حتى رأينا الاعرابى الذى تلح به الحاجة والمسكنة يعتنق الاسلام ويأبى ان يأخذ نصيبه من الغنيمة ويقول : يارسول الله ، ما على هذا اتبعتك ولكن على أن أرمى فى عنقى فأموت شهيدا فى سبيل الله ، كما رواه النسائى .

ورأيناهم مقبلين على العلم راحلين الى العلماء ، ناشرين لواء الثقافة والحضارة فى كل مكان يحلون به ، مقبلين على التجارة العلماء ، فاشرين لواء الثقافة والحضارة فى كل ميدان من الميادين . ان عقبة بن نافع لم يقنع بانتصاراته فى الارض فطلبها فى البحر وما وراء البحر ، وعمر بن عبد العزيز عندما سئل عن منهج التقشف الذى سلكه فى خلافته وقد كان من قبل يحيا حياة مترفة ، يبين عن طموحه ويقول : ان لى نفسا تواقة وقد نالت أكرم منزلة فى الدنيا وهى الخلافة ، ثم تاقت الى أكرم منزلة عند الله فهى خير وأبقى .

والامام الشافعى فى رحلاته وتطوافه بالبلاد يطلب العلم وسهره وبحثه وتنقيبه لاستنباط المسائل يستعذب هذه الآلام لأنها تكمل نفسه الطموحة وتكمل الأمة بتوفير ما تحتاجه من الثقافة والمعرفة ويقول فى ذلك :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى
من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلى طربا لحل عويصة
احلى واشهى من مدامة ساق
وألذ من نقر الفتاة لدفها
نقرى لألقى الرمل عن صفحاتى
أأبيت سهران الدجى وتبيته
نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى

انه الطموح لا يكون أمنية أو انفعالا يعتلج فى النفس ويقف عند هذا الحد ، بل لا بد له لينتج من متابعة السعى وكثرة العمل ، حتى لا يكون ضربا من الأمانى الباطلة والآمال الكاذبة . كان ربيعه بن كلب يخدم النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يكافئه فقال له : يا ربيعة سلنى فأعطيك ، ولم يشأ ربيعة ان يطلب متاع الدنيا فهو على كثرته قليل ، وافصح عن همة عالية وطموح كبير فقال للنبى : أسألك مرافقتك فى الجنة ، فأمره النبى بالعمل من اجل هذه الغاية الكبيرة فقال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود - أى بالصلاة وكثرة الاتصال بالله عن طريق العمل الصالح .

ان كل تعب يهون فى طلاب المجد ، والله سبحانه يعين عليه ويمهد الطريق اليه ان خلصت النية قال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » ويقول الشاعر :

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

ويقول آخر :

ومن تكن العلياء همة نفسه
فكل الذى يلقاه فيها محبب

ويقول آخر :

تهون علينا فى المعالى نفوسنا
ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر

واذا كان آباؤنا قالوا من قبل :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا
وانا لنرجو فوق ذلك موضعا

فالواجب علينا فى فترة النهوض الا نقل منهم طموحا وشرف نفس وبعد غاية ، ولنكن دائما متعلقين بالمثل العليا ، فان لم ندركها كنا على قرب منها ، واذا لم نحققها جميعا حققنا منها ما يتصل بها وكفى بذلك شرفا ، يقول الشاعر الحكيم :

وصد النسور فان تعذر
صيدها فاقنع بريشه

ولا ينبغى أبدا أن نقعد عن الكمال ما دام فينا عرق ينبض .

فلم ار فى عيوب الناس شيئا
كنقص القادرين على التمام

ويرحم الله القائل :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة
بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم
وجهنم بالعز أطيب منزل

ان الاسلام فى حيويته يدعو الى الطموح ، والطموح صفة فى النفس العالية تتعانق مع الاستعدادات الفطرية ، وهى اذا التزمت الطريق السوى ، هدت الى أشرف الغايات .

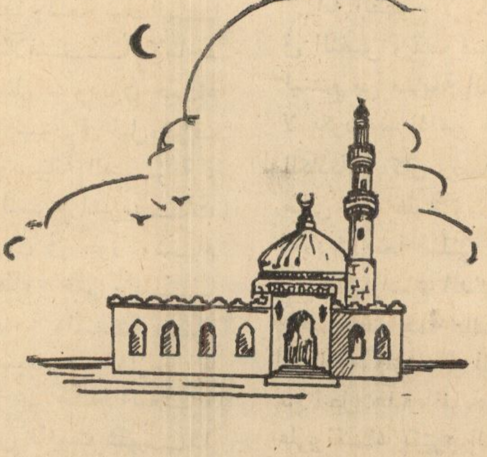

فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٤٥ ، اجتمع ممثلوا خمسين دولة وهى الدول التى اعلنت الحرب على المانيا واليابان حتى اول مارس سنة ١٩٤٥ والتى وقعت تصريح الأمم المتحدة الصادر فى أول يناير سنة ١٩٤٢ وذلك لاقرار ميثاق جديد لمنظمة دولية تضمن استقرار السلم ودوامه وتفتح عهدا جديدا يسوده الوفاق والسلام ودخل الميثاق فى دور التنفيذ فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٤٥ حينما أودعت الدول الخمس الكبرى وغالبية الدول الموقعة على الميثاق وثائق التصديق لدى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

ونص الميثاق الجديد على ضرورة اتخاذ الأمم المتحدة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التى تهدد السلم ولازالتها وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الاخلال بالسلم وتتذرع بالوسائل السلمية وفقا لمبادىء العدل والقانون فى كل المنازعات الدولية . كما ألزم الدول الأعضاء بالامتناع عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة . وبذلك وضعت الجماعة الدولية ـ لثانى مرة فى تاريخها وبطريقة أعم وأشمل ـ دستورا جديدا لجماعة عالمية متطورة تحافظ على حقوق الدول المشروعة بالوسائل السلمية وتقضى على الصور المختلفة لاستخدام القوة فى المجتمع الدولى .

ولم يقتصر الميثاق الجديد على العناية بضرورة وضع حد للحروب واعلان عدم مشروعيتها كوسيلة لاستخلاص الحقوق تقرها القواعد الدولية التقليدية وانما عنى كذلك بتحقيق التعاون الدولى وتشجيعه وتنسيقه فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأحكم الربط بينه وبين المنظمات الفنية الدولية والتى أطلق عليها اسم الوكالات المتخصصة وأخذ بضرورة اشراف الأمم المتحدة على هذه الهيئات. وذلك أن اهمال هذه الأوجه المختلفة من النشاط يجعل الأساس الذى يستند اليه السلم العالمى ضعيفا وتتحكم فيه بالتالى جماعة الدول التى ترغب ولو بالقوة فى الابقاء على الأوضاع القائمة تحقيقا لمصالحها الخاصة .

ومن جهة أخرى عالج الميثاق مشكلة الاستعمار وقدر مبدأ المحاسبة الدولية عن ادارة البلاد غير المستقلة وأخذ بالتنظيم الدولى لادارة المستعمرات فقرر نظام الوصاية الدولى للأخذ بيد الشعوب التابعة ووضعها تحت رعاية المجتمع الدولى واشرافه الى أن تنال حريتها . وبذلك أخضع النظام الاستعمارى وهو ظاهرة مزمنة فى العلاقات الدولية أقرتها القواعد الدولية التقليدية ونظمتها - الى حكم القانون بدلا من فوضى الحكم الاستعمارى ، فى محاولة منه للوصول الى تصفية هذا النظام نهائيا وتخليص الانسانية منه .

وهكذا وضعت الأمم المتحدة قواعد جديدة اساسها التضامن الاقتصادى والاجتماعى والسياسى بين الدول ، تضامن يدفعها الى ضم جهودها تحقيقا للصالح الجماعى المشترك فى تهيئة دواعى الاستقرار والرفاهية الضرورين لقيام علاقات سلمية بين الأمم تؤسس على احترام المبدأ الذى يقضى بالمساواة بين الشعوب وبحقها فى تقرير مصيرها .

ومن الطبيعى أن يثير أى نشاط ايجابى للأمم المتحدة فى هذه الميادين بعض الدول التى تتعارض مصالها مع هذا التطور ، فتكتلت لعرقلة أعمال الأمم المتحدة ولوضع الصعوبات فى طريقها وسعت هذه الدول بمختلف الطرق للسيطرة على الأمم المتحدة بطريقة منعتها من انماء سلطانها على النحو الذى كان مقدرا لها ، فلم تستطع أن تضع موضع التنفيذ نظام الأمن الجماعى والتعاون الدولى الذى رسمه الميثاق .

ومع التسليم بذلك ، فانه من الصعب تجاهل الدور الكبير الذى قامت به الأمم المتحدة وبخاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار انهيار فكرة توافق الدول الكبرى التى بنى عليها الميثاق وظهور الصراع المذهبى بين دول الكتلة الشرقية ودول الكتلة الغربية . فقد قامت الأمم المتحدة بفضل قرار الاتحاد من أجل السلم وبفضل مجهود الدول الآسيوية الافريقية ، بتطوير أحكام الميثاق بطريقة مكنتها من القيام بدور ايجابى فى محيط العلاقات الدولية . فاستطاعت أن تغير من القواعد الثابتة وأن تضع خطوطا عريضة لمستقبل أكثر ايجابية وفعالية :

١ - فقد قامت الجمعية العامة باصدار توصية بزيادة عدد أعضاء مجلس الأمن من أحد عشر عضوا الى خمسة عشر عضوا وذلك حتى تمثل كل من آسيا وأفريقيا فى المجلس بما يتفق مع أهمية هاتين القارتين المتزايدة وتحرر معظم أقاليمهما .

٢ - أصدرت الجمعية العامة عدة قرارات خاصة بفلسطين آخرها قرار صدر العام الماضى بضرورة تعويض اللاجئين واعادتهم الى ديارهم.

٣ - ومن أهم ما قامت به الأمم المتحدة استجابة لمطالب العصر وتحقيقا لأمل الشعوب فى التحرر والأستقلال هو اصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٠ تصريحا خاصا بمنح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة دون قيد أو شرط دعت فيه الدول المسئولة عن ادارة الأقاليم غير المستقلة ، الى أن تتخذ التدابير الفورية اللازمة فى الأقاليم المشمولة بالوصاية أو الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتى أو أية أقاليم أخرى لم تنل استقلالها بعد ، لتصل جميع السلطات الى شعوب تلك الأقاليم وفقا لارادة هذه الشعوب وللرغبات التى أعربت عنها بحرية ، دون تمييز بسبب الجنس أو العقيدة أو اللون وذلك حتى تتمكن من التمتع بالاستقلال الكامل والحرية التامة .

وأعلنت الجمعية العامة فى هذا التصريح :

١ ـ أن خضوع الشعوب للاستعباد الأجنبى أو سيطرته أو استغلاله يعتبر انكارا لحقوق الانسان الأساسية ويناقض ميثاق الأمم المتحدة ويهدد قضية السلام والتعاون فى العالم •

٢ ـ لجميع الشعوب الحق فى تقرير مصيرها ، ولها بمقتضى هذا الحق أن تحدد بحرية نظامها السياسى وأن تسعى فى كل هذه الحرية الى تحقيق نموها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى •

٣ ـ يجب ألا يتخذ تخلف الاقليم فى الميدان السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو التعليمى ذريعة لتأخير الاستقلال •

يوضع حد لجميع الأعمال المسلحة أو أعمال القمع ، الموجهة ضد الشعوب غير المستقلة ، حتى تتمكن من أن تمارس فى سلام وحرية حقها فى الاستقلال التام وتضمن سلامة اقليمها الوطنى •

٤ ـ كل محاولة تستهدف التقويض الجزئى أو الكلى للوحدة القومية أو سلامة اقليم اى بلد ، تعتبر منافية لأهداف الأمم المتحدة ومبادئه •

وفى ٢٧ نوفمبر ١٩٦١ أصدرت الجمعية العامة قرارا تبنته ثمانية وثلاثون دولة أفريقية وآسيوية ومن بينها الجمهورية العربية المتحدة ، بانشاء لجنة خاصة بتصفية الاستعمار مارست عملها بنشاط فى الأقاليم التى لا تتمتع بالحكم الذاتى وأصدرت عدة توصيات خاصة بها •

وعادت لجنة تصفية الاستعمار فى ٩ ـ ابريل ١٩٦٤ وأكدتها فى قرار جديد بعد ان رفضت انجلترا تنفيذ القرار السابق كما أصدرت الجمعية العامة فى ١٩٦٢/١٢/١١ القرار الذى أعطى للجنوب المحتل حق تقرير المصير وأدان الوجود العسكرى البريطانى فى عدن وعادت لجنة تصفية الاستعمار فى ٩ ابريل سنة ١٩٦٤ وأكدت هذه التوصية بعد أن رفضت انجلترا تنفيذ قرارها السابق •

ويلاحظ فى النهاية أنه بالرغم من المحاولات المتعددة التى تبذلها بعض الدول وبخاصة الدول الكبرى لاضعاف الأمم المتحدة ومعالجة الأزمات الدولية عن طريق المفاوضات خارج نطاق الأمم المتحدة ، فان وجود الأمم المتحدة وتقويتها أمر ضرورى فى الفترة الحرجة التى تمر بها العلاقات الدولية حاليا • والجمهورية العربية المتحدة من جانبها أعلنت دائما مناصرتها للأمم المتحدة وتمسكها بمبادئها وأهدافها • تم هذا فى باندونج وفى مؤتمر بلجراد للدول غير المنحازة وفى ميثاق العمل الوطنى وفى منظمة الوحدة الافريقية وأخيرا فى مؤتمر القاهرة الأخير لدول عدم الانحياز • فالدول الصغرى لها مصلحة كبرى فى الابقاء على الأمم المتحدة باعتبارها وسيلة فعالة لحمايتها وللمحافظة على استقلالها خاصة بعد أن أصبح لهذه الدول الأغلبية داخل الجمعية العامة مما غير من ميزان القوى وجعل من الدول الصغيرة قوة تحسب لها الأطراف المتنازعة حسابا كبيرا

هذا وقد أعلن الرئيس عبد الناصر فى الخطاب الذى ألقاه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٠ : « أنه ليست هناك مشكلة تتعلق بوطننا ، الجمهورية العربية المتحدة ، أو تتعلق بأمتنا العربية أو تتعلق بالقارتين اللتين تمتد بينهما حدودنا ، افريقيا وآسيا ، أو تتعلق بما هو خارج ذلك من القضايا العالمية ، الا ونحن على استعداد كامل لأن نقبل فيها ميثاق الأمم المتحدة ومبادئها وقرارات الأمم المتحدة وأحكامها ، قضاء عادلا فيها برضاء طيب ونية حسنة »

واذا كان العالم يحتفل فى هذه الأسابيع بمرور تسعة عشر عاما على مولد الأمم المتحدة فكله أمل فى أن يوفق المجتمع الدولى فى معالجة القصور الذى تضمنه ميثاقها وفى ان تفتح أبوابها للصين الشعبية لتدخل فى عضوية الأمم المتحدة وبذلك يتحقق لهذه المنظمة وصف العالمية بالمعنى الصحيح ولتعالج الشعوب على اختلاف الوانها وثرواتها مشاكلها فى مودة وأخوة ترسى لنا دعائم سلم دائم وتعاون فعال يعزز التضامن بين شعوب العالم أجمع •

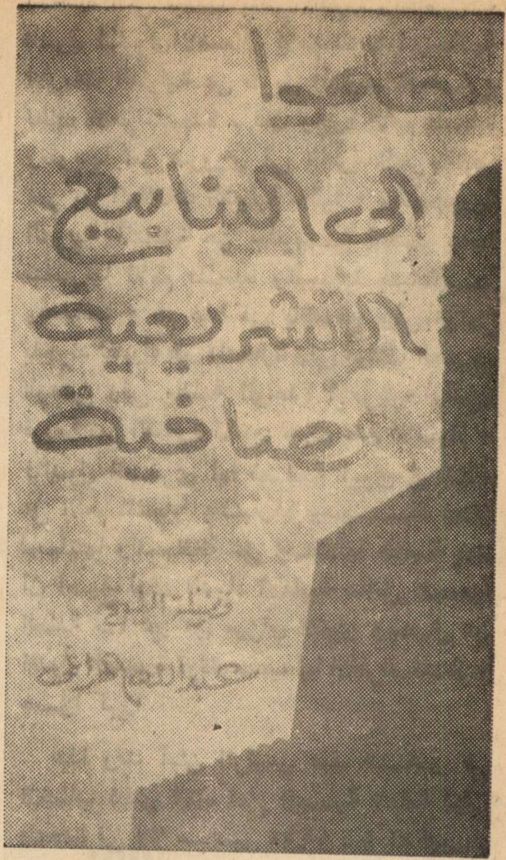

مما يؤلم نفــوس الغيورين على الشريعة الاسلامية ان يرى بعض اتباع الائمة ينكر أحدهم على الآخر تصرفا من التصرفات ويشدد عليه اللوم والتعنيف . بل قد يصل الجدل بينهما احيانا الى التضارب وتكون المصيبة عظيمة والكارثة فادحة حينما يتشيع لاحدهما من هم على شاكلته فيتفاقم الحجاج بل قد يؤدى احيانا الى نزاع شديد بين طائفتين تنتمى كل منهما الى مذهب من المذاهب الاربعة

ومن تعمق مع الانصاف فى وجهات نظر الائمة ، وادرك المقصــد الحقيقى لكل واحد منهم فى أصول الشريعــة الاسلامية واسرارها أيقن أن لا خلاف بين فقهاء المسلمين فى ان الشريعةالاسلامية انما جاءت لمصالح العباد جلبا ، ولدرء المفاســد دفعا . فما هو مصلحة مطلوب جاءت الادلة بطلبه، وماهو مضرة منهىعنه تضافرت الادلة على منعه وهذا الاصل هو المحــود الذى تدور حوله الائمة عند اجتهادهم فى طلب حكم من الأحكام الشرعية ، ولايستطيع معرض او متعصب او كائد للشريعة أن يثبت أن اماما من الائمة حاد عن هذا الاصل ، ولتوضيح هذاالمحود والقاء الضوء عليه يحسن أن نجمل ما احتوت عليه الشريعــة من التكليفات ، ونحصرها تحت كليات . وعند ذلك نرى أنها تارة تتصل بالعبادات التى تنظم العلاقة بين الانسان وربه ، والعبادات اغلبها تعبدى لا مجال للعقل فى كثير منها لان احــكامها غير معللة فى جملتها فلا يستطيع المجتهد ان يثبت نوعــا من العبادة باجتهاده استنادا الى قياس او استحسان أو نحــوهما بحجــة التشابه بيـن المنصوص عليهمن العبادات وبينمايريد ان يقيسه عليهبل عليه أن يقف عندالنصوص . وبجانب التكاليفالتعبدية يوجد نوع آخر من التكليفات ياخذ المجتهد نصيبا فيهاعند ناهله للبحث ،واستكمال شروطالاجتهادوهذاالقسمفسيح المدىواسع الأطرافوهوقسم المعاملات ، وأحيانايطلقعليه العلماء قسم العادات ، والاساس فيه الالتفات الى المعانى والبواعث التى شرعت من أجلها الاحكام ، وهذا أساس اتفق عليه المجتهــدون اذ المقصــود للشارع بالتكاليف تنظيم المجتمع على وجه صحيح تنبت فيه أشجار تظلله بظل المودة والألفة ، وتفسح للفضيلة ومكارم الاخــلاق مجالا واســعا وزيادة فى ايضاح هذه الاسس وتدعيما لاركانها ، وتوضيحا لنواحيهــا نرى من المصلحة تسليط أضواء المباحث والقواعد التى شد أركانها ، وقوى بنيانها الامام الشاطبى فى كتاب الموافقات فى الجزء الثانى . اذ يقول : ان الالتفات فى العــادات والمعــاملات الى المعانى والغــايات ويوجه هذا الراى بادلة ثلاثة يفصح كل منها عن المقصود الذى يريده وهو أن العقل من حقه أن يبحث فى المعاملات والعادات عن المقصود الذى يريده الشارع من تكليف العباد به لانه من المعلوم أن الشارع لا يقصد من امره ونهيه لعباده الا تحقيق المصلحة لهم لانه غنى عنهم وعن عبادتهم . فلا يضره عصيانهم ، ولا تنفعــه طاعتهم اذ يقول تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما اريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون» وأول الادلة التى ساقها الشاطبى على اثبات نظريته قوله:

« ان الاستقراء والتتبع لجزئيات التكاليف الشرعية تثبت لنا أن كل امر بفعل او نهى عن فعل تتبعه مصلحة تعود الى المكلف بالفائــدة له ولمجتمعه وبنى جنسه . فالاوامر الصادرة من الشــارع بحسن المعاملة بين افراد المؤمنين بل بحسن المعاملة فى جميع الاحوال ماعدا حالة الحرب انما تثمر ثمرة يانعة تعود على المجتمع بالاستقرار والمودة والمحبة والامن . فلو نظرنا الى فائدة القصاص فى المجتمع رغم أنه يلزم منه التعدى على النفوس وازهاق الارواح ، وقتل النفس . الا ان فائدة المجتمــع وصلاحه تستلزم وجوده فلو لم يشرع القصاص ، ولو لم يقتل المتعدى على غيره لســادت الفوضى ، ولشمل الاضطراب المجتمع فاختل نظــامه ، وفسد العمران ، ولكن الشــارع الحكيم قصد اصلاح المجتمع ، وســعادة افراده ، فالزم ولى الامــر وأباح له ، واوجب عليه ان يقتل الجانى ، ويستحل دمه لان قتل الفرد فيه حياة الجماعة وفقدانه من المجتمع فيه وجود صالح مســتقر لغيره ، والآية الكريمة تفصح فى بلاغة عظيمة عن هذا المعنى اذ يقول تعالى « ولكم فى القصاص حياة » .

ولقد أدرك فصحاء العرب والبلغاء هذا المعنى ، وعبروا عنه بعبــارة غاية فى الدقة ونهاية فى الاحكام فقالوا : « القتل انفى للقتل » . ويوجه الشاطبى هذه القاعدة توجيها عمليا آخر يستند فيه الى الواقع فى النصــوص المتعلقة بتشريع المعــاملات اذ يرى البــاحث فى هــذه النصوص ان الشــارع الحكيم يبين فى النص الوارد فى الأمر او النهى بيان الفائدة والغاية والمصلحة التى من اجلها جاء الامر او النهى . فمثــلا نرى فى قول الرسول عليه السلام فى النهى عن ادخار لحــوم الاضاحى ثم اباحتها « انما نهيتكم من أجل الدافة »

والدافة هم الاعراب الذين يدخلون المدينة فى مواسم الحج لاجل انتفاعهم من الحجاج ومثل هذا التعليل كثير فى الاحكام الشرعية .

وآخر الأوجه التى دعم بها الشاطبى هذه القاعدة نظرة بعيدة منه الى احوال المجتمع فى الفترات التى لم يكن فيها تشريع سماوى يسير عليه الناس وتنتظم به حياتهم ، ويكمل مجتمعهم اذ يرى الناظر الى احوال بعض الامم القديمة كقدماء المصريين والهنود والفرس والرومان ، وغيرها من الامم ان الصالح العام قد روعى فى التشريع الوضعى لبعض هذه الامم . فهناك فترات استقامت فيها احوال الناس ، وكانت فيها حضارات راقية ، وحياة مستقرة . الا أن هذه الفترات لا تعتبر قواعد ثابتة ، واسسا مكينة يحكم بها فى جميع الازمان . فماهى الا وردة فى واحة يحوطها فضاء لانبات فيه ، وظلام لا ضوء فيه ، فلا تقاس هذه الفترات بالمقياس الثابت الذى يضمن للمجتمع الصلاح والبقاء .

والقاعدة التى دعمها الشاطبى بما سبق من الادلة يجمع عليها الفقهاء الا انهم يختلفون أحيانا فى تحديد وسيلة الحصول على اثبات المصلحة التى قصدها الشارع من الحكم ، فان التكاليف الشرعية انما جاءت لتكوين مدنية اسلامية فاضلة اساسها العدل والمساواة والفضيلة ونرى بعد ذلك الائمة يختلفون فى تطبيق هذا الاصل ، وتفسير المصلحة التى رعاها الشارع ، فبعضهم يرى ان الشريعة قد اشتملت على بيان كل مافيه مصلحة للناس ، وفى نصوصها المصلحة الكاملة ، وما لا يؤخذ منها بالنص يحمل على النص بطريق القياس ، وليس للمجتهد أن يتعرف المصلحة اذا لم يكن لها من الشرع شاهد بالاعتبار ، وهذا رأى الشافعى ، ومن اجل هذا القصد حمل الشافعى حملة شعواء ، وشدد النكير على من يعتبر مصلحة ليس لها من الشارع شاهد ، متعللا بان هذا النوع من اعتبار المصلحة استحسانا فهو ينكر الاستحسان لأنه فى نفره لا دليل من الشارع عليه . فكل حكم نشا عن طريق الاستحسان لا يعتبره الشافعى لانه يشبه القول بالهوى .

ومع انكار الشافعى للاستحسان سلك ابوحنيفة طريق الاستحسان فى اثبات كثير من الاحكام . حتى لقد عرف عنه انه اكثر منه ، ولقد كان أصحابه ينازعونه فى القياس . فاذا قال استحسن لم يلحق به احد ، ومهر فيه واثبت به كثيرا من الاحكام ، وبجانب هذه النظرة التشريعية من الشافعى وجدت نظرة أخرى من الامام مالك واحمد . فقد اعتبرا المصلحة فى الفقه أصلا قائما بذاته ، وقررا أن نصوص الشارع لم تات فى احكامها الا بما هو المصلحة ، وماكان بالنص عرف به ، ومالم يعرف بالنص فقد عرف طلبه بالنصوص العامة فى الشريعة وذلك مثل قوله عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » وقوله تعالى « ماجعل عليكم فى الدين من حرج » فعلى هذين الرأيين يستطيع الفقيه ان يحكم بان كل عمل فيه مصلحة لا ضرر فيه أو كان النفع فيه أكبر من الضرر مطلوب من غير ان يحتاج الى شاهد خاص لهذا النوع من النفع ، وكل أمر فيه ضرر ولا مصلحة فيه ، واثمه اكبر من نفعه فهو منهى عنه من غير أن يحتاج الى نص خاص . بل لقد زاد بعض الحنابلة والمالكية فخصص النصوص القرآنية والنبوية بالمصالح اذا كان موضوع هذه النصوص من المعاملات الانسانية لا من العبادات ولاشك ان الأخذ بهذا المنهاج الذى سلكه فقهاء المالكية والحنابلة يجعل الشريعة الاسلامية خصبة منتجة متكفلة بجميع حاجات الناس فى كل عصر وفى كل مكان فلا تعجز عن اصدار حكم فى كل مايجد فى العالم من حوادث . وقد أصل المالكية برايهم اصلا أطلقوا عليه « المصالح المرسلة » وطبقوه على جزئيات كثيرة . فاثبتوا به احكاما لحوادث لم تثبت بالادلة التى اعتمد عليها غيرهم من الفقهاء ، وقد انبرى فقيه من فقهاء المالكية لتقريب وجهة النظر بين هذه الآراء وبين الوسائل التى سلكها كل فقيه فى اثبات المصلحة التى من اجلها يثبت الحكم الشرعى . فقال : ان الفقهاء جميعا اعتبروا المصلحة ، ويعتمد المالكية فى ذلك على اصل عندهم يعرف بالمصالح المرسلة وهى المصالح التى ليس لها نص خاص يشهد لنوعها بالاعتبار وقد أدعى القرافى من المالكية أن الفقهاء جميعا أخذوا بها واعتبروها دليلا فى الجزئيات ، وان أنكر أكثرهم كونها اصلا فى الكليات . وقد قال فى ذلك « المصلحة المرسلة غيرنا يصرح بانكارها ، ولكنهم عند التفريع نجدهم يعللون بمطلق المصلحة ، ولا يطالبون أنفسهم عند الفروق والجوامع بابداء الشاهد لها بالاعتبار بل يعتمدون على مجرد المناسبة . وهذا هو المصلحة المرسلة » .

وكلام القرافى هذا قيم من حيث دلالته على ان الخلاف بين الآخذين بالمصلحة ، والمشرطين قيام شاهد باعتبارها خلاف نظرى ظاهرى ، وهو يقرر اخذهم برعاية المصلحة عند تقرير الاحكام ، وتعليل الفروع ، وذلك هو الموافق لما سبق فى بداية البحث من اتفاقهم جميعا على اصل مقرر من ان الشريعة الاسلامية انما تريد بالناس اليسر لا العسر وأن مصلحة العباد هى اساس ماشرع الله لهم من المعاملات . وذلك الذى تعضده سيرة الصحابة والخلفاء الراشدين . فقد قاموا بعد رسول الله بامور لم تكن فى عهده ، فجمعوا القرآن الكريم فى المصحف ولم يكن ذلك فى عهد الرسول لأن المصلحة تقاضتهم ذلك الجمع . اذ خشوا أن يزول القرآن بموت حفاظه وقد رآهم عمر يقتلون فى حرب الردة فخشى ذهاب القرآن بموتهم فاشار على أبى بكر بجمعه فى المصحف ، واتفق الصحابة على ذلك وارتضوه . كما اتفق اصحاب الرسول من بعده على حد شارب الخمر ثمانين جلدة مستندين فى ذلك الى المصالح المرسلة اذ رأوا أن الشرب ذريعة الى الافتراء وقذف المحصنات بسبب كثرة الهذيان ، واتفق الخلفاء الراشدون على تضمين الصناع مع ان الاصل انهم معتبرون أمناء على ما فى أيديهم ولكن ظهر أنهم لو لم يضمنوا لاستهانوا بالمحافظة على امتعة الناس واموالهم وفى الناس حاجة شديدة اليهم فكانت المصلحة فى تضمينهم ليحافظوا على ما تحت أيديهم . ولذلك قال على فى تضمينهم « لا يصلح الناس الا ذاك » وكان عمر ابن الخطاب يشاطر الولاة الذين يتهمهم فى أموالهم لاختلاط اموالهم الخاصة باموالهم التى استفادوها بسلطان الولاية ، وذلك من باب المصلحة المرسلة ايضا ، لأنه رأى فى ذلك صلاح الولاة ومنعهم من استغلال سلطان الولاية بجمع المال وجر المغانم من غير حل ، وحكى عنه أنه أراق اللبن المغشوش بالماء تاديبا للغشاش وذلك من باب المصلحة العامة لكيلا يغش الناس ، وقد نقل عنه أيضا انه حكم بقتل الجماعة بقتلهم الواحد اذا اشتركوا فى قتله ، لأن المصلحة تقتضى ذلك اذ لا نص فى الموضوع ، ووجه المصلحة أن القتيل معصوم الدم ، وقد قتل عمدا فاهدار دمه داع الى نقض اصل القصاص واتخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة الى السعى بالقتل اذا علم أنه لا قصاص فيه .

وهذا باب واسع فيه مرونة وتيسير على الحاكم عند اصدار الاحكام التى يقضيها الصالح العام .

الأستاذ أحمد غنيم

حكمة الصيام :

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وقال صلى الله عليه وسلم : « الصيام جنة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق وان سابه أحد أو قاتله فليقل انى صائم انى صائم » .

شرع الله الصيام لا لمجرد الحرمان من الشراب والطعام ولا لمجرد أن يذيق الانسان نوعا من الآلام ولكن لحكمة عالية وغاية سامية ليهذب طباعه ويقوم أخلاقه ويحسن تأديبه ليغرس فيه كثيرا من الآداب الفاضلة والصفات الكريمة ليجعل منه ملكا كريما ينفع المجتمع ويسعد به العمران .

شرع الله الصيام ليربى فى الانسان عاطفة الرحمة فانه اذا ذاق ألم الجوع ولهيب العطش أدرك ما يعانيه الفقراء البائسون والعجزة المحتاجون من عسر وضيق وشدة وبلاء فيدفعه ذلك الى البر والاحسان وينمى فى قلبه غريزة العطف والحنان ويخلق منه جوادا لا يبخل يرى الجائع فيطعمه والعارى فيكسوه والفقير فيعطيه والمسكين فيواسيه ومن هنا تتبين الحكمة فى فرض زكاة الفطر عقيب شهر الصيام فان النفوس فى ذلك الوقت تكون أسرع الى الاجابة وأقرب الى الامتثال فقد صهرها الصوم وعالج طباعها الحيوانية وسما بها الى مستوى الملائكة .

شرع الله الصيام ليبصر الناس بعظيم ما اسبغ عليهم من نعمه وافاض عليهم من جوده وكرمه ويذكرهم بما يسره لهم من الاطعمة الطيبة والأغذية المشتهاة ولولا الصيام لما عرفوا هذه النعمة الجزيلة وتلك المنة الكبيرة فانه لا يدرك لذة الصحة من لم يذق ألم المرض ولا يعرف حلاوة الغنى من لم يتجرع مرارة الفقر ولا شك أن ذلك يدفعهم الى القيام بواجب شكره ويبعثهم على تقديره حق قدره فيزداد ايمانهم ويقوى يقينهم وتصفو نفوسهم وتنأى عن المعاصى سائر جوارحهم وجدير بمن يصلون الى هذه المنزلة ان تسعد بهم أسرهم وتسعد بهم امتهم ويسعد بهم المجتمع الذى يعيشون فيه .

شرع الله الصيام لرياضة النفوس وتربيتها التربية الصالحة وتعويدها الصبر على المكاره وتدريبها على تحمل المشقات فتهون امامها الصعاب ولا تقف فى سبيلها العقبات وتستقبل الحوادث بقلب جرىء وعزم لا يلين وما احوج المسلمين فى هذا العصر الى التحلى بمثل هذه الصفات النبيلة كيما يتمكنوا من الوقوف أمام أعدائهم وامام ما يدبرونه لهم من مكايد مستعينين بقوة الصبر وقوة الايمان حتى تكون لهم الغلبة ويتحقق لهم النصر والظفر والله مع الصابرين .

شرع الله الصيام ليربى فى الانسان صفة القناعة والاكتفاء بالميسور فلا يرغب فى متاع المتنعمين ولا تمتد عينه الى زينة المترفين . يؤثر الكفاف ويجتنب التبذير والاسراف يبذل ما بيده ويزهد فيما عند غيره ولو أن الناس عرفوا هذا السر العظيم ووقر فى نفوسهم لما كان ما نسمعه فى هذه الأيام من جشع التجار وكثرة الاختلاسات والتحايل على الاستئثار بسلع التموين .

شرع الله الصيام ليعود صاحبه العفاف ويعلمه كيف يجاهد نفسه وكيف يقوى على مقاومتها ويقف أمام رغباتها ليعلمه كيف يقهر شهوته ويكبح جماحه ويمنع عدوانه ليجعل من الصائمين امة من خير الأمم يسود بين أفرادها التراحم والتعاطف والتعاون والتآلف لا يتباغضون ولا يتحاسدون لا يجور بعضهم على بعض ولا يبغى أحد منهم على اخيه وبحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «**الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار**» ويقول : «**من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ ما ينبغى له أن يتحفظ كفر ما قبله**» .

ما ينبغى أن يكون عليه الصائم :

ولا يغيب عن البال ان الصيام الذى يؤتى هذه الثمار وتكون له تلك الآثار الطيبة انما هو الصيام الصحيح الذى يتمسك صاحبه بما رسمه الدين للصائم من فضائل وآداب رسم الدين للصائمين ان يكونوا فى شهر رمضان مثلا عليا يقضون أيامه صياما ولياليه سجدا وقياما يسعون الى المساجد فى ظلمة السحر وفى شدة المطر لا يعرفون الكسل ولا يعذبهم الملل يحلو لهم التعب فى سبيل الله وتهون عليهم الشدائد فى طاعة الله يسبحون الله بكرة واصيلا ولا ينامون من الليل الا قليلا يصدق فيهم قول الله تعالى : «**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**» . رسم الدين للصائمين فى هذا الشهر ان تكون كل جوارحهم مسخرة فى طاعته حريصة على مرضاته فقلوبهم عامرة بذكره والسنتهم ناطقة بحمده وشكره وايديهم مبسوطة فى وجوه البر واقدامهم ساعية الى عمل الخير (يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض **ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من انصار**) .

رسم الدين للصائمين فى هذا الشهر ان يكونوا قدوة طيبة ونبراسا يهتدى به يجتنبون معاصى الله ولا يعتدون على احد من خلق الله لا يأتون منكرا ولا يشهدون زورا يصونون السنتهم عن الغيبة والنميمة ويبتعدون عن النزاع والخصومة يحسنون الى من يسىء اليهم ويصفحون عمن يعتدى عليهم متمسكين بقول الله تعالى : « **وسارعوا الى مغفرة من**

ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقــــون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . تلك هى صفات الصائمين الراشدين فمن كان فى صيامه متحليا بهذه الصفات فأخلق به أن يكون صيامه مقبولا وأن يكون عمله عند الله مشكورا ومن لم يكن بهذه الصفة فليس لله حاجة فى أن يدع طعـامه وشرابه .

التفاوت الكبير بين صائم وصائم :

ومن شاء الموازنة بين صــــائم وصائم فليتصور رجلين دخلا سوقا واحدة واتجرا فى تجارة واحدة أما أحدهما فانه كان يقظا متنبها لكل ما يناله من الربح حريصا عليه لا يسرقه منه سارق ولا يسلبه منه سالب ، وأما الآخر فقد غره ما يتدفق اليه من الربح الوفير والكسب الغزير فكان منه التهاون فى حفظه والاهمال فى حراسته فعدا عليه فريق من أعدائه حساد الخــــير وأضداد النعم واغتنموا منه تلك الغفلة فأغاروا عليــــه من كل جانب وتخطفوه من كل ناحية وتركوه فارغ الكفين صفر اليدين يعض أصابعه أسفا وحسرة على ما ضيع من الغنم ثم سرعان ما انفضت السوق وخرج الأول فرحا مسرورا قرير العين مغتبطا بكسبه سعيدا بما أوتى من حظ جزيل وخرج الآخر حزينا كئيبا خاسرا لم ينل الا التعب والعناء ولم يجن ثمــــرة الا البؤس والشقاء .

هذان الرجلان هما مثل رجلين دخل عليهما شهر رمضان فأحسنا استقباله ورحبا به خير ترحيب وشمرا فيه عن ساعد الجد للعمل والطاعة يصومان نهاره ويقومان ليله يسعيان فيه الى المساجد لأداء الصلوات وشهود الجمع والجماعات واستماع النصائح والعظات ولـكن بينهما من ناحية أخرى تفاوتا كبيرا وفروقا شتى ، أما أحدهما فقد عرف ما يناله فى شهر الصيام من الأجور الكبيرة والدرجات الرفيعة والرحمة والرضوان والعتق من النــيران وعرف أن له أعداء وحســادا من الشياطين يودون افساد عبادته ويحاولون احباط عمله فوقف فى وجوههم موقف الحذر يقودونه الى المعصية فلا ينقاد ويزينون له القبيح فيجدونه صعب القياد ، فسلمت له طاعاته وضوعفت حسناته وصار عند الله من المقربين حقيقــا بقوله تعالى : « **أولئك هم الوارثـون الـذين يرثون الفردوس هم فيهــــا خالدون** » .

وأما الآخر فقد خدعه صيامه وقيامه وركوعه وسجوده وذكره ودعاؤه فغفل عن نفسه وأهمل حراستها فوثب عليه الشيطان بخيله ورجله وخيل اليه أن ما قدمه من خير كفيل بنجـاته جدير برجحان كفة حسناته فوقع المسكين فى شبكته وبات أسيرا فى قبضته يلعب به كيف شاء ويصرفه كما شاء يأمره بالمعصية فيجده سميعا ويدعوه الى القبيح فيلبيه سريعــا يحسن له الغيبة فيغتاب والنميمـــة فينم والكذب فيكذب وقول الزور فينطق به فلا يلبث الا وقد أفسد عليه الشيطان كل صالحاته وزاده سيئات فوق سيئاته وضيع صيامه وقيامه وضاعف ذنوبه وآثامه وتركه جديرا بقول الله تعالى : « **وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « **رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع وقائم ليس له من قيامه الا السهر** » .

أسلافنا الأولون فى رمضان :

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم من أحرص الناس على اغتنام هذا الشهر واتخاذه موسما لأعمال الخير ، يحدثنا رواة الســيرة أن الواحد منهم كان اذا أقبل عليه رمضان يظل نهاره صائما حتى اذا جاء وقت الافطار اكتفى بأكل لقيمات يقمن صلبه ثم يسرع الى المسجد يحيى ليله كله بالذكر والدعاء والصلاة وتلاوة القرآن . يروى مالك عن السائب بن يزيد رضى الله عنهما يقول : **كان النــاس يقومون على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شهر رمضان بعشرين ركعة يقرأون فيها نحوا من مائتى آية** . ويحدثنا عن عبد الرحمن الاعرج انه قال كان القارىء يقوم بســورة البقرة فى ثمانى ركعات واذا قام بها فى اثنتى عشرة ركعة رأى الناس انه قــد خفف . ويحدثنا عن عبد الرحمن بن أبى بكر انه قال سمعت أبى يقول كنا ننصرف فى رمضان من

القيام فنستعجل الخدم بالسحور مخـافة الفجر . ورب قائل يقول اذا كانوا بهذه الصفة فمتى كانوا يفرغون للعمل لمعاشهم ومتى كانوا يفرغون لنشر دينهم وأنى يتسنى لهم الجهاد والوقوف فى وجه أعدائهم . والتاريخ كفيل بدفع هذه الشبهة فقد اثبت انهم وهـذه صفاتهم قد خاضوا البحار وجابوا الصحارى والقفار وفتحوا المدن والامصـار وهزموا الاكاسرة والقياصرة ودانت لهم اكثر أنحـاء المعمورة فى فترة وجيزة من الزمن واكبر أسلحتهم وعتادهم ذلك الايمان الراسخ وتلك الروح القوية التى بعثها فيهم تعاليـم الدين الفاضلة وتشريعاته الحكيمة وخليق بنـا أن يكون لنا فى هؤلاء الاسلاف الامجاد خير قدوة فنتخذ من ديننا وتوجيهاته اقوى سلاح ندافع به عن عقيدتنا ونذود عن أوطانـنـا ونحمى حريتنا واستقلالنا حتى تكون لنا الكلمة العليا والقوة الغالبة .

نبنى كمـا كانت أوائلنـا

تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

والله لنا خير معين ولله العزة ولرسـوله وللمؤمنين .●

الله والإنسان في القرآن

الدكتور اسحق موسى الحسيني

أصدر الدكتور توشيهيكو ازوتسو أستاذ الفلسفة فى جامعة طوكيو فى اليابان - كتابا باللغة الانجليزية عنوانه : « الله والانسان فى القرآن » بحث فيه موقف الاسلام من طائفة من المسائل الدينية كالجنة والنار ، والايمان والكفر ، والدنيا والآخرة ، والعبادة ، والملائكة ، والانس والجن ، والاسلام ، والوحى ، والوعد والوعيد ، والله ، وما الى ذلك من الفاظ أساسية ينهض عليها الاسلام دينا وعقيدة .

وابتدع المؤلف أسلوبا لغويا ، هو تتبع تطور الدلالة اللغوية - semanties - لهذه الألفاظ فى القرآن الكريم والشعر الجاهلى والاسلامى ، واستخراج المعنى الاسلامى الدقيق لكل منها ، بما أضاف الى الدلالة الجاهلية أو بما نقص عنها .

وخلاصة ما قدمه أن للمعانى الاسلامية أصولا فى الحياة الجاهلية بما شملته من مثل عليا وعقائد اسرائيلية ومسيحية ، وأن الاسلام طور هذه الأصول من بداية الرسالة الى عصور الازدهار الفلسفى . ودليله على ذلك أن جميع الألفاظ القرآنية عرفها العرب فى جاهليتهم ابتداء من لفظة « الله » الى « الملائكة » .

والمنحى اللغوى الذى سنه المؤلف طرقه بعض الباحثين الغربيين لماما ، وفى بعض الألفاظ ، ولكن المؤلف وسعه ، وربط بين أجزائه ، وجعله منهجا قائما بذاته . وهو بذلك أول دراسة من نوعها للاسلام ونظره الى المسائل الدينية المختلفة .

ومما أعطى هذه الدراسة لونا خاصا أن المؤلف ليس من أهل الكتاب ، فهو - كسائر بنى قومه - شنتوى بوذى ، بعيد كل البعد عن عقائد أهل الكتاب ، مخالف لهم فى الأصول والفروع .. ومثله لا يستطيع أن يستسيغ معنى « الوحى » الذى نهضت عليه الرسالات الدينية من بدايتها الى ختامها ، ولا يستطيع أن يعقل معنى « الله » الواحد الأحد فاطر السماوات والأرض ، ولا يستطيع أن يدرك معنى « الملائكة » و « الجنة والنار » و « الثواب والعقاب » ، وما الى ذلك من معان متشابهة فى الديانات السماوية من ناحية ، وفاقدة النظير فى الديانة الشنتوية البوذية من ناحية أخرى .

وقد كانت الدراسات السابقة لدراسته هذه تنهج نهجا مخالفا كلية . فقد اعتمد الباحثون قبله الكتب الدينية ، وتتبعوا ما ورد فيها من تشابه وتخالف ، وقرروا على ضوء ذلك مواطن الاتفاق والافتراق ، أو الوصل والفصل .

* * *

ومع أن المؤلف حاول أن يلتزم المنهج اللغوى فى دراسته ، وأن يكون موضوعيا ، الا أنه غلب عليه أحيانا النظر الفلسفى والسياق المنطقى ، فجاءت النتائج متناقضة ومتهافتة ، لتناقض المنهجين اللغوى والفلسفى .

ومن ذلك — مثلا — دعواه بغير حق أن تصور المسلمين « لله » اختلف باختلاف فرقهم . فأهل السنة قرروا أن الله لا يدرك الا من وراء حجاب ، وأن الوسيلة الوحيدة الممكنة لادراكه هى « العلم » ، وأن « آيات الله » هى التى تكشف عنه .

أما المتصوفة فقد قررت أن الوسيلة لادراكه تعالى انما هى « المعرفة » ، أى الاتصال المباشر الذى ينتهى الى « الوحدة » التى تشبه الوحدة الجامعة بين المحب والمحبوب. وهو يقول :

حقا ان الله فى نظر المسلم يبقى دائما هو الله الذى ذكر فى القرآن الكريم ، سواء أكان متصوفا أم كان سنيا ، ولكن « صفة » الله تختلف باختلاف الاثنين .

ثم يزعم المؤلف « أن الاختلاف فى التصور فى الحالتين كان أساسيا وعميقا بحيث ذهب أهل السنة الى اعتبار اله الصوفية مختلفا عن الههم » .

وحاول المؤلف أن يميز أيضا بين تصور الفلاسفة لله وتصور أهل السنة له ، على النحو الذى أثبت فيه الاختلاف بين المتصوفة وأهل السنة .

وخطأ المؤلف واضح ، اذ أن اختلاف النظر أو التصور للمرئى الواحد لا يدل البتة على اختلاف المرئى ذاته . ولو طردنا قياسه لاختلفت ذات السيد المسيح عليه السلام باختلاف تصور الطرق المسيحية لطبيعة المسيح ، ومنهم من قال بالطبيعتين ، ومنهم من قال بالطبيعة الواحدة ، ومنهم من نفى الاثنين واقتصر على نبوته عليه السلام .

ومن جهة أخرى فان المسلمين جميعا ، على اختلاف فرقهم ، استندوا فى ادراك الله تعالى الى كتابه الكريم . والفاظ القرآن واحدة ودلالتها الأصيلة واحدة ، لا يمكن أن تختلف، واختلاف المفسرين لا يمكن أن ينهض دليلا على اختلاف « ذات الأصل » .

ويبدو ان المؤلف لم يفطن الى حقائق أساسية خليقة بأن تجنبه الزلل . ويشتد عجبنا لعدم فطنته حين نعلم أنه ترجم القرآن الكريم الى اللغة اليابانية .

وأولى الحقائق أن فضل الاسلام على ما سبقه من ديانات ظاهر فى اعتباره « الله » تعالى اله جميع الناس ورب العالمين ، لا رب المسلمين وحدهم ، ولا رب أصحاب الكتب السماوية وحدهم . وظاهر كذلك فى اعتباره اله جميع الانبياء منذ بداية النبوة الى ختامها. ومن هنا توحدت الرسالات السماوية بوحدة المرسل . فالانبياء جميعا مرسلون من قبل اله واحد أحد ، لا فرق بينهم ولا تفاضل .

والحقيقة الثانية ان الاسلام قضى على الوثنية وعبادة المخلوقات البالغة غاية الخساسة ، ووجه الأنظار الى الكمال المطلق الذى لا كمال بعده ، وبذلك رفع الانسان من حالة تذرى بانسانيته وتفقدها كل معنى . ونذكر أنا شاهدنا فى بلد المؤلف الفاضل نفسه متحفا للاديان جمع من أنواع الالهة الحقيرة نوعا لم يسع القائمون على المتحف الا ستره لخساسته وحقارته ، الى جانب عدد كبير من الحيوانات كالقطط والكلاب والقردة وما اليها . فالاسلام أنقذ الانسان من هذه الهوة السحيقة ورفعه الى حيث ينبغى من الرفعة .

والحقيقة الثالثة أن الاسلام لم يحدد ذات الله ، لأن الله سبحانه وتعالى أعظم من أن يدركه البصر . « ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . « انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شيء علما » .

الحقيقة الرابعة أن الاسلام وصف الله وصفا يجعل المتأمل فيه نفسه جزءا من كل ، ونقطة من بحر فى الوجود الروحانى الأعظم .

وليتأمل المؤلف الفاضل هذه الآيات البيات :

١ ــ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم .

٢ ــ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم .

٣ ــ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

٤ ــ ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون .

٥ ــ الا أن لله من فى السموات ومن فى الأرض . وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء أن يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون

حقا ان الاسلام ــ كما يقول المؤلف ــ وجه نظر المؤمن الى البينات القاطعات التى تدل على وجود الله ليتأتى ايمانه بدليل قاطع لا برواية ولا بسحر وخوارق ، وهذه مرحلة فى التطور الدينى لا تخفى على المتبصر فى تاريخ الأديان . فقد كان الاقناع يأتى عن طريق النبوءات التى تشبه الأحلام ، ثم تليها المعجزات الخارقة ، ثم التمس المؤمن الحكمة، ثم جاء الاقناع بالنظر والتفكير .

لقد استعرضنا جميع الآيات التى ذكر فيها اسم الله ــ وما أكثرها فى القرآن الكريم ! ــ فوجدنا صفات لله وبيانا لأفعاله بتفصيل لا مزيد عليه ، ولم نجد ذكرا «لذاته» الا فى آيات معدودات يغلب عليها الرمز ، ليتسع الأفق أمام المؤمن على أوسع مدى وأعلى مقام .

وليس بعد هذا ما يسوغ للمؤلف الفاضل أن يزعم أن اختلاف التصور يؤدى الى اختلاف « ذات المتصور » . فالله فى أقدم العصور وفى أحدثها هو هو « نور السموات والأرض » « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار » .

نفحات الرحمن في شهر رمضان

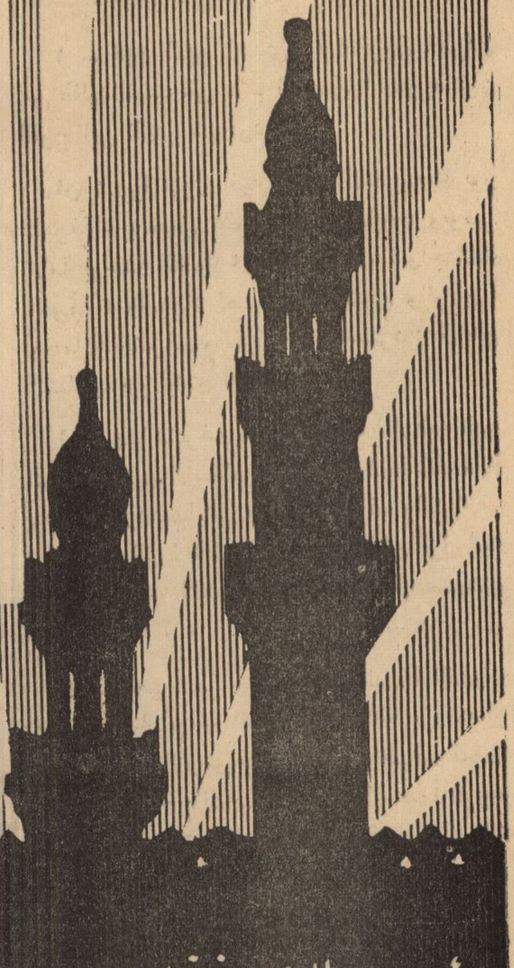

أيها القارىء الكريم :

ان الله سبحانه وتعـالى اختص بعض الأوقات بالنفحات والبركات ، وميـز بعض الأزمان بالخيرات والمبرات ، وشمل فيهـا عباده المؤمنين بالرحمة الواسعة ، والمغفرة الشاملة ،و الجود العميم ، والفضل العظيم .

قدر من اللهجرى بذلك ، وارادة منـه سبقت به ، لترد تلك الأوقات المباركة عليهم ورود العافية على الأبدان السقيمة ، وتمـر بهم مرور الشفاء على الأجساد العليلة ، وتكون العاقبة السلامة من الآصار ، والبـراءة من الآثام ، والنقاوة من لوثة المعاصى .

الأستاذ عبد الرحيم فرغل البلعينى

وهذا فضل من الكريم ، ولطف من الوهاب العظيم — وكم لله تعالى من الطاف بعبـاده ، يمحو بها السيئة ويمنح المغفرة ، ويذهب بها الذنب ، ويسدى العفو .

قال عليه الصلاة والسلام :

« لله فى بعض الأزمان نفحات ، فتعرضوا لنفحاته » . اى تعرضوا لنفحاته بالتوبة والانابة ، والدعاء والضراعة ، والطـاعة والعبادة .

فمن تعرف الى الله فيها بصدق واخلاص ، وتقرب اليه بخشية واحسان ، رفع ذكره ، ووضع وزره ، وذكره فيمن عنده ، وجعل له القبول فى الأرض .

وقد جعل الله تعالى فى طلعة رمضان رحمة للمؤمنين وبركة ، وخيرا للمسلمين ونعمـة ، وسعادة للموحدين وهناءة .

ترى الأمة الاسلامية يمن الطالع فى طلوعه ، وتبصر بشائر الخير فى نوره ، وتلمح دلائل العز فى ضيائه ، وتذوق لذة القرب من الله فى زمانه .

قال عليه الصلاة والسلام :

« لو يعلم الناس ما فى رمضان من اليمن والبركة لتمنوا أن يكون حولا كاملا » .

أيها القارىء الكريم :

يجيىء هذا الشهر ، فيحيى تعاليم الاسلام واحكامه ، ويعيد للدين قوته وشبابه ، ويبعث فى القلوب علومه ومعارفه .

ومن أجل ذلك تشرق فى المساجد وجـوه الصائمين بانوار الطاعة ، وتتزاحم فيهـا صفوف المؤمنين بدافع الاخلاص ، وتنحنى رؤوس الراكعين بوازع الخضوع .

واذا آى الذكر الحكيم تعطر الكون وتشيع فى النسيم ، واذا الحكم المحمدية تشرح القلب وتنير اليقين ، واذا صيحة الأذان تطرق السمع وتشفى السقيم ، واذا المسلم الصادق تهذب ثقافة الدين نفسه ، وتسكن نوازع الخير قلبه ، ويعود نقيا من الشوائب كقطرة المزن ، صافيا من المساوىء كفطرة الوليد ، صريحا فى قوله وعمله ، وسلوكه وحاله .

ولله در القائل حين رأى هلال رمضان :

بدا على الأفق غض الحسن نشوانا
يلوح حينا ويرخى الستر أحيانا
اغر تستشرق الأبصار طلعته
وتجتليـــه الأمانى أينما كـانا
كأنه خنجر فى الأفق منصلت
يفصـــل الدهـــر أياما وأزمانا
أفديه من زائر رقت شـمائله
أرخى القنـاع وحيانا فأحيـانا

لقد اختص الله هذا الشهر بكثير من المزايا ، وجمله بنخبة من المكارم ، غدا بها درة فى جبين الدهر ، وتاجا على مفرق الأيام .

١ — **فهو شهر** ابتدىء فيه نزول القرآن من عالم الغيب الى عالم الشهود ، ومن مكنون اللوح الى ظاهر الوجود .

ان شهرا تنزل فيه كتاب الله يبعث نور المعرفة ، ويحمل مشعل الهـداية ، ويوصى الأمة بوحدة الكلمة ، وبناء الصف ، واجتثاث الفرقة ، والجهاد لصيانة الدين والوطن ، وحماية الشرف والكرامة ، واسترداد الوطن السليب من أيدى الغاصبين .

ان شهرا تشرف بتنزيل كتاب الله فيه ، لهو شهر دستور الاسلام الذى كفل للامة السعادة والعزة ، ودفعها الى مواطن الشرف والكرامة .

قال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهـدى والفرقان » .

٢ — وهو شهر جعلت فيـه ليـلة القدر ، تتفتح فيها أبواب السماء للدعوات ، وتتعطر فيها رحاب الأرض بالبركات ، وتطوف فيهـا الملائكة الكرام بالتحيات ، ويتنزل فيها الروح الأمين بالخيرات ، فهو شهر محفوف بالبركة ، والبر عامر بالفائدة .

قال تعالى : ليلة القدر خير من ألف شهـر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر .

٣ — وهو شهر وقعت فيـه غزوة بدر الكبرى ، التى اذل الله فيها الشرك وحزبه ، واباد الكفر واهله ، واظهر فيها قوة الاسلام

حتى تهيبه الأعداء ، ووقفوا أمام أهله موقف الحذر والحيطة .

وكذلك تكون عاقبة الحق حينما يشتط أعوان الباطل فى اطفاء نوره ، وقطع سبيله ، فان الله يمد أهله بروح من عنده ، ويحقق لهم الآمال والأهداف .

ولقد صدق الله العظيم فى قوله : **« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . وقوله : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .**

٤ – وهو شهر فتحت فيه مكة المكرمة ذلك الفتح الذى استكمل به المسلمون عزهم ، وحققوا مجدهم ، وبلغوا به غايتهم . فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وهوى عرش الشرك من عليائه ، وارتفعت الوية التوحيد فوق مشارف مكة ، ودوت فى انحائها كلمة التوحيد . والذى نزل بعده قول الله تعالى :

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » .

كان ذلك اليأس من النيل من دين الاسلام واضعافه ، حين صارت للمسلمين قوة ، وتكون لهم جيش كامل العدد والعدة ، قوى البأس والشوكة ، ينازل الأعداء فى جدارة وثبات .

وكذلك يكون الحال عندما يعيد التاريخ نفسه ، ويدور الزمان دورته الأولى ، ويكون للمسلمين جيش كامل فى كل ما يتطلبه النزال والجهاد ، والنضال والكفاح .

وكان من فضل الله علينا أن أوجدت لنا الثورة فى الجمهورية العربية المتحدة ذلك الجيش القوى ، وزودته بالأسلحة الكافية ، التى هى من صنع أيدينا ، ومن انتاج مصانعنا ، وهى بحمد الله متنوعة لا نقص فيها .

وقد صرنا اليوم بهذا الاكتفاء فى الأسلحة اللازمة ، نملك الضربة القاصمة ، التى لا قيامة للاعداء بعدها ، « وان غدا لناظره قريب » ..

٥ – وقد بين الشارع الحكيم أن الصدقة على الفقراء والمساكين عظيمة الفائدة ، محمودة العاقبة ، كثيرة الأجر .

قال الله تعالى : **« ان المصدقين والمصدقات ، وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم » .**

وقال عليه الصلاة والسلام : **« تصدقوا فان الصدقة فكاكم من النار » وقال : « انما يستظل المؤمن يوم القيامة تحت ظل صدقته »**

لكن السنة بينت ان الصدقة فى شهر رمضان أعظم فائدة ، واحمد عاقبة ، وأكثر أجرا .

يدل على هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة »

وقد ضمن الله اخلاف الصدقة فى قوله جل شأنه :

« وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

وعدها الرسول صلى الله عليه وسلم أحب الأعمال الى الله حيث قال :

« أحب الأعمال الى الله سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تطرد عنه جوعا ، أو تقضى عنه دينا » .

وأقول : ان هذه الارشادات الى البذل والانفاق ، التى حفل بها كتاب الله وسنة رسوله ، غفل عنها أغنياء المسلمين فى شهر رمضان ، فأكلوا والناس جياع ، وعددوا الأطعمة على موائدهم دون التفات الى قوم مزق الفقر أحشاءهم ، واذاب البؤس نفوسهم ، فيمدون أيديهم اليهم بالزاد القليل الذى لا يضر بهم شيئا .

ولعل هذا الشهر الكريم يوقظ نفوس البخلاء ، فيتخلقوا فيه بالسخاء الذى يبعث الحياة فى نفوس المحتاجين ، ويشعرهم بأنهم يعيشون فى الوجود كما يعيش الناس .

ولم أر مثــلَ جمع المــالِ داء
ولا مثــل البخيــل به مصابا

فلا تقتلنك شهوته وزنهــا
كمــا تزن الطعــام أو الشرابا

وخــذ لبنيك والأيام ذخـرا
واعط الله حصــته احتسابا

فلو طالعت أحداث الليــالى
وجــدت الموت أقربهــا انتيابا

٦ – وقد أرشدنا الرسول الأمين الى تلاوة القرآن فى كل وقت ، ليقف المسلم على حكمه وأحكامه ، ويقبس من نوره وضيائه ، ويهتدى بهديه وارشاده .

قال عليه الصلاة والسلام : **« اقرءوا القرآن فانه يأتى يوم القيامة شافعا لأصحابه »**

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتــلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الاترجة (فاكهة مثل التفاح) ريحها طيب وطعمها حلو ، ومثــل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل الثمرة لا ريح لها وطعمها حلو . ومثل الفاسق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاسق الذى لا يقرأ القرآن مثــل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر » .

ولكن السنة أرشدت الى الاكثار من تلاوته فى شهر رمضان ، ليشتغل به الصائم عن الغيبة والنميمة ، والكذب والافتراء ، واللغو واللهو .

يدل على هذا حديث ابن عباس الذى تقدم قريبا .

٧ – **والتهجد** فى جزء من الليل بصلاة النافلة قربة الى الله تستتبع الأجر ، وتعود بالخير .

ولذلك أمر الله به نبيه صلى الله عليــه وسلم بقوله :

« يأيها المزمل قم الليل الا قليلا .... »

وأثنى على من تهجد من المؤمنين بقوله جل شأنه :

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » .

لكن السنة دلت على أن جزاء القيــام فى رمضان مغفرة تمحو السيآت ، ورحمة تذهب التبعات .

قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : **« من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .**

وقال : **« ان الله تعالى فرض عليكم صيام رمضــان ، وسننت لكم قيامه ، فمن صامه وقامه ايمانا واحتسابا خرج من ذنوبه**

٨ – ومن أظهر ما اختص به شهر رمضان ان جعل الله تعالى فيه فريضة الصوم . تلك الفريضة التى عدها الرسول صلى الله عليــه وسلم من قواعد الاسلام ودعائمه ، لما فيهــا من اصلاح الأخلاق ، وتهذيب النفوس ، وتنقية القلوب ، والسمو بالصائم الى رتبة الملائكة الاطهار . قال الله تعالى :

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم، ولعلكم تشكرون .

وبعد فهذه نبذة من المزايا والخصائص التى جعلت عمارة لشهر الصيام بيناها للمسلمين، راجين لمن استفاد منهــا الأجر الجزيل ، والثواب العظيم . والله الهادى الى الحق

الوقف على النفس ومن بعده للخيرات

المستشار عبد الستار آدم

بمناسبة استفسار بعض قراء المجلة عما اذا كان يجوز للشخص ان يقف ماله ـ كله أو جزءا منه ـ على نفسه مدة حياته ومن بعده على الخيرات ٠٠ وذلك فى ظل قوانين الغاء الوقف الأهلى ٠٠ رأينا أن نتحدث فى هذا الشأن مع السيد الاستاذ عبد الستار آدم المستشار بالمحكمة الادارية العليا والذى كان الى عهد قريب مستشارا قانونيا لوزارة الأوقاف واشترك فى وضع وصياغة كثير من قوانين الوقف ٠٠ وقد تفضل سيادته بالاجابة على اسئلتنا الآتية :

س : ما هو الفرق بين الوقف الأهلى والوقف الخيرى ؟

ج : الوقف شرعا ـ طبقا للرأى الراجح فى مذهب الحنفية ـ

هو حبس العين عن أن تملك لأحد من العباد والتصدق بمنفعتها ابتداء وانتهاء أو انتهاء فقط ٠٠ فالحالة الأولى ـ وهى التصدق ابتداء وانتهاء ـ تكون اذا وقف الشخص من أول الأمر على جهة بر لا تنقطع ، كما اذا وقف على الفقراء أو على المساجد ٠٠ ويسمى الوقف حينئذ **وقفا خيريا** ٠٠ والحالة الثانية ـ وهى أن يكون التصدق انتهاء فقط ـ تكون اذا وقف على من يحتمل الانقطاع واحدا أو أكثر مما لايعتبر الصرف اليه صدقه ثم من بعدهم لجهة برلا تنقطع كما اذا وقف على نفسه وذريته ومن بعدهم على الفقراء أو على المسجد ويسمى الوقف حينئذ وقفا أهليا فاذا مات الواقف وانقرضت ذريته وآل الوقف الى جهة البر صار الوقف خيريا ٠

ولقد كان نظام الوقف الأهلى مثارا للشكوى من زمن بعيد وتعالت الأصوات بنقد نظامه فى جملته وتفصيله وعلى مر الزمان اتسع نطاق الشكوى حتى عمت فطالب كثير من المصلحين بالغائه لكثرة عيوبه ٠٠ وفى سنة ١٩٤٦ حاول المشرع اصلاح بعض هذه العيوب فأصدر القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٤٦ ٠٠ولكنه كان اصلاحا جزئيا ٠٠ فلما قامت ثورتنا المباركة كان من باكورة أعمالها المجيدة الغاء الوقف الأهلى فصدر القانون رقم ١٨٠ لسنة

١٩٥٢ **بالغاء نظام الوقف على غير الخيرات المعدل بالقانون رقم ٣٤٢ لسنة ١٩٥٢ ٠٠**

وقد نص هذا القانون فى مادته الأولى على **أنه :**

« لايجوز الوقف على غير الخيرات »

وفى مادته الثانية فقرة أولى على أنه :

« يعتبر منتهيا كل وقف لا يكون مصرفه فى الحال خالصا لجهة من جهات البر »

ونصت المادة ٣ منه على أن :

يصبح ما ينتهى فيه الوقف على الوجه المبين فى المادة السابقة ملكا للواقف ان كان حيا وكان له حق الرجوع فيه ٠ فان لم يكن آلت الملكية للمستحقين الحاليين كل بقدر حصته فى الاستحقاق ٠٠ » وعلى ذلك فقد الغى الوقف الأهلى واستراح الناس من عيوبه وأصبحت الأموال الموقوفة وقفا أهليا ملكا لواقفها أو للمستحقين على التفصيل المبين بالقانون المذكور ٠

هذا ويلاحظ أن ما ألغى هو الوقف الأهلى فقط أما الوقف الخيرى فلم يلغ ولا زال قائما لأنه نظام مشروع كان ولايزال مصدرا للخير ومنبعا غزيرا يفيض على جهات البر المختلفة

س : ماهى مقومات الوقف الخيرى ومن يستفيد منه

ج : قلنا ان الوقف الخيرى هو الذى يرصد ابتداء وانتهاء لجهة بر لا تنقطع كالوقف على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والمساجد والزوايا والمقابر والقناطر والمصاحف وكتب العلم ٠٠ وما الى ذلك من جهات البر والخير ٠

ومن المتفق عليه أن الواقف اذا حدد جهة معينة من هذه الجهات صرف ريع الوقف على الجهة أو الجهات التى عينها ٠٠أما اذا لم يحدد الواقف مصرفا لوقفه الخيرى كان مصرفه على الفقراء الا اذاجرى العرف بالتسوية بين الغنى والفقير فى الانتفاع بالوقوف كوقف المساجدوالمقابر والسقايات والقناطر والمصاحف وما الى ذلك مما لايختص بالفقراء بل ينتفع به الغنى والفقير اتباعا للعرف وتنفيذا لارادة الواقفين التى دل عليها العرف وليس فى عباراتهم ماينافيه اذ الأغنياء والفقراء متساوون فى الحاجة الى الانتفاع بهذه الأشياء عرفا ٠

وبهذه المناسبة أود أن أشير الى انه قد صدر القانون رقم ٢٤٧ لسنة ١٩٥٣ بشأن النظر على الأوقاف الخيرية وتعديل مصارفها على جهات البر والقوانين المعدلة له وجعل لوزارة الأوقاف ولاية النظر على الأوقاف الخيرية كما خولها حق تغيير مصارفها وشروط ادارتها ٠

س : هل يجوز ـ الآن وفى ظل قوانين الغاء الوقف الأهلى ـ للشخص ان يقف ماله ، كله أو بعضه ، على نفسه فقط مدة حياته ومن بعده يؤول مباشرة على جهة بر لا تنقطع ٠

ج : هذا سؤال وجيه جدا ٠٠ بل هو سؤال الساعة اذ سبق أن وجهه لى كثير من المسلمين فى الجمهورية العربية المتحدة واخبرنى أحدهم أنه يملك عقارا وليس له وارث بالجمهورية بل أن وريثه الوحيد يعيش خارجها فى بحبوحة من العيش ويريد أن يقف هذا العقار على الخيرات على أن يؤول للخيرات بعد وفاته لحاجته الى غلته مدة حياته لانه مورده الوحيد وسألنى عن السبيل الى ذلك ٠٠ كما سألنى نفس السؤال أحد أخواننا المسلمين فى البلاد الاسلامية الذى يملك عقارا مبنيا (عمارة) فى الجمهورية العربية المتحدة ويريد أن يقفها على نفسه مدة حياته ومن بعده على خيرات حددها تقربا الى الله سبحانه وتعالى وانه ليسعدنى أن أجيب على سؤالكم لكى ينشر فى مجلة الاسلام الغراء لكى ينتفع بالاجابة عليه أكبر عدد من المسلمين قراء هذه المجلة فأقول بادىء بدء أن وقف الشخص على نفسه مدة حياته ومن بعده على جهة بر لا تنقطع ليس وقفا خيريا اذ هو فى الواقع ليس مرصدا على الخيرات ابتداء وانتهاء ولذلك فهو وقف أهلى غير جائز طبقا لصريح نص

المادة الأولى من القانون رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ التى نصت على انه لا يجوز الوقف على غير الخيرات .

الا أن المشرع رأى – تشجيعا للراغبين فى الوقف الخيرى – اصدار القانون رقم ٢٩ لسنة ١٩٦٠ الذى صدر فى ٩ من فبراير سنة ١٩٦٠ ونص فى مادته الأولى على أنه :

« يجوز للمالك أن يقف كل ماله على الخيرات وله أن يشترط لنفسه الانتفاع بالريع كله أو بعضه مدى حياته . واذا كان له وقت وفاته ورثة من ذريته وزوجه أو أزواجه أو والديه بطل الوقف فيما زاد على الثلث .

« وتكون العبرة بقيمة تلك مال الواقف عند موته ويدخل فى تقدير ماله الأوقاف الخيرية التى صدرت منه قبل العمل . بهذا القانون وبعده الا اذا كانت أوقافا ليس له حق الرجوع فيها .

ويكون تقدير مال الوقف من اختصاص لجنة شئون الأوقاف المنصوص عليها فى القانون رقم ٢٧٢ لسنة ١٩٥٩ ..

وقد جاء فى المذكرة الايضاحية لهذا القانون انه قد لوحظ على اثر صدور هذه القوانين (يعنى قوانين الغاء الوقف الأهلى والنظر على الأوقاف الخيرية وتعديل مصارفها) انه علق باذهان بعض الناس لبس من عدم أمكان الوقف على الخيرات ، لذلك كان من الضرورى رفع هذا اللبس وتشجيع الراغبين فى الوقف فأعد هذا القانون .

وهذا القانون فى الواقع يؤدى الى نفس الغرض الذى يؤديه الوقف على الشخص نفسه ثم من بعده على جهة بر لا تنقطع ..حتى أن بعضهم قد فسره بانه أجازه للوقف على النفس ثم من بعد الواقف على الخيرات .. بيد أن هذا التفسير غير صحيح قانونا لأن القانون رقم ٢٩ لسنة ١٩٦٠ المشار اليه – وان كان يؤدى الى نفس الغرض الذى يؤدى اليه الوقف على النفس فقط – الا انه لايمكن القول بانه اباح الوقف على النفس وانما هو جعل الوقف ابتداء على الخيرات وانتهاء على الخيرات أيضا فهو وقف خيرى من تاريخ انشائه وانما اجاز المشرع للواقف ان يشترط الانتفاع بالريع كله أو بعضه مدى حياته على أنه عند موته ان كان له وارث من ذرية او زوجة أو ازواجه أو والديه بطل الوقف فيما زاد على الثلث .. أى أصبح **الوقف صحيحا فى الثلث ويعود الثلثان ملكا** للورثة المذكورين وذلك حتى لايضار هؤلاء الورثة من وقف جميع أموال مورثهم .. وانى أشير على السائلين جميعا فى هذا الشأن ان يتبعوا أحكام القانون المذكور وهو يؤدى الى الغرض الذى يقصدوه من انتفاعهم بالريع مدة حياتهم وأيلولة هذا الريع بعد ذلك لجهة البر التى يحددونها .. والله تعالى يجزيهم خير الجزاء على قصدهم النبيل .

س : المجلة تشكر لكم هذا الحديث

ج : انا فى الواقع الذى أشكر مجلة منبر الاسلام والقائمين على اصدارها الذين أتاحوا لى هذه الفرصة للاجابة على سؤال يهم الكثيرون معرفة الاجابة عليه .

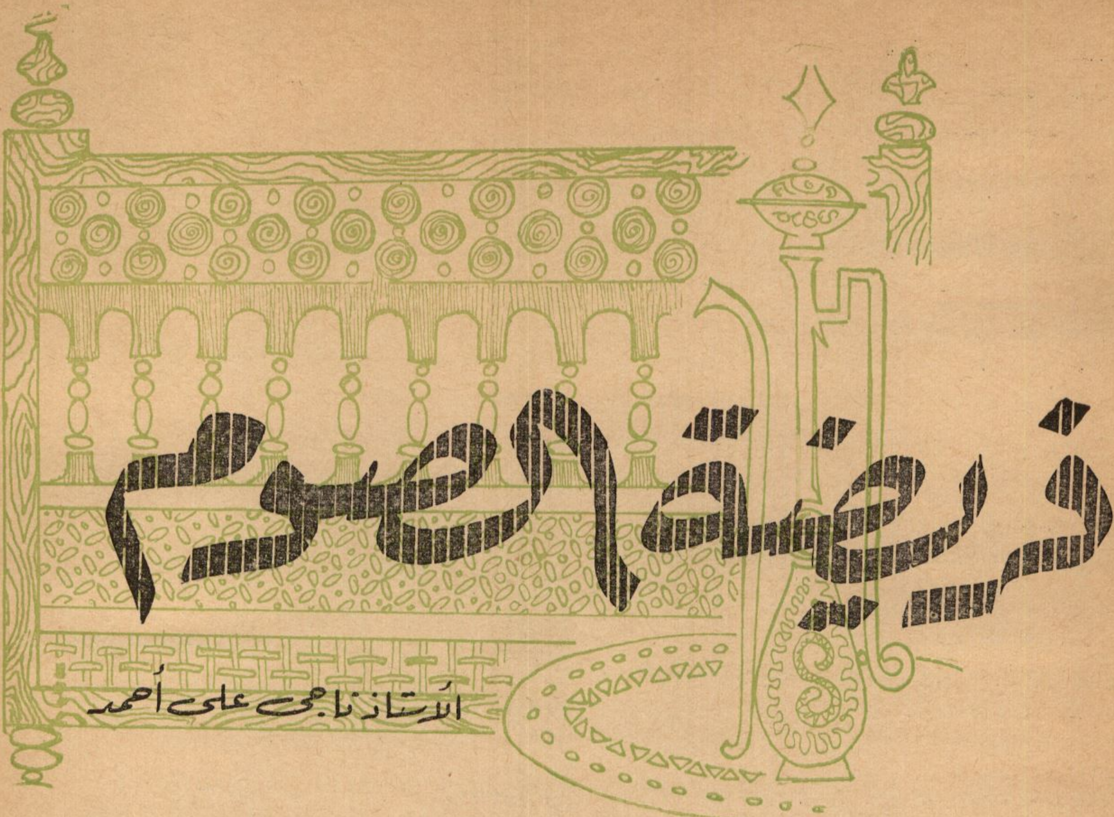

فى رفقة الصوم

الأستاذ ناجى على أحمد

على فترة من الرسل ، وفى صحراء مجدبة ٠٠ ظهر نبى الانسانية محمد – صلى الله عليه وسلم – فى عالم فتكت به العداوات والخلافات ، وعبثت بانسانيته الأهواء والشهوات ٠ فكانت شريعته نورا وهاجا ٠٠ بدد هذا الظلام ، وأنار للناس طريق الهدى والرشاد وأخذهم بيد حانية الى حياة حرة ، كريمة ، يسيرون فيها على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات ، والتكافل فى البأساء والضراء ، فلا سادة ولا عبيد ، ولا عصبية ولا حمية ، يسعى غنيهم فى حاجة فقيرهم ، وينصر قويهم ضعيفهم ٠ لأنه مهما تباينت الأجناس ، واختلفت الألوان ، وتقادمت الأزمان ، فان الأب واحد ، والأم واحدة ٠

بل ان الحكمة الالهية .. كانت أبعد مما يتصوره العقل : فلم تجعل الأب من جنس والأم من جنس آخر ٠ حتى لا تعطى الفرصة للابناء ٠ فيقول قائلهم : هذا نزع الى جنس أبيه ، وذاك نزع الى جنس أمه ٠

بل جعلت الأم من جنس الأب ، فخلقت حواء من ضلع آدم ٠٠ مبالغة فى وحدة الجنس ، ولما للشعث الانسانى من التفرق والتمزق ٠٠

* * *

ولكن هيهات للشيطان أن يهدأ روعه ، أو يغمض جفنه ، أو تنفد حيله ٠٠ فى الوقيعة بين بنى الانسان ، واغوائهم بشتى الزخارف ومختلف الشهوات ٠

وكيف لا ٠٠ وهو عدو للانسان من أول يوم وجد فيه الانسان ٠

قال تعالى « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ٠٠ ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » ٠

ولما جاهر الشيطان بالعداء لبنى آدم ، متحديا كل القوانين ٠ كما جاء فى القرآن الكريم حكاية عنه ٠

« لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا » ٠

كان لابد وأن يقابل هذا التحدى بتحدد مثله ، وأن يصدر الحكم الأبدى الذى لا نقض فيه ولا ابرام .

« قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » .

* * *

ثم أرخى الله له العنان فى اغواء من شاء بما شاء .. مبينا له أن لى عبادا من هؤلاء مهما زينت لهم الحياة الدنيا ، ومهما تحايلت عليهم بكل حيلك .. فلن تستطيع اغواءهم ، ولا سلطان لك عليهم .

« واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا .. ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا » .

ويروى أن الله ـ عز وجل ـ لما لعن ابليس سأله النظرة . فأنظره الله الى يوم القيامة . فقال : وعزتك . لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح .

فقال الله تعالى : « وعزتى وجلالى . لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه)) .

ومن هنا .. شرعت التكاليف : من صلاة ، وصيام ، وحج ، وزكاة .. بمثابة العهد والميثاق بين الله وبين عباده ليكونوا دائما على ذكراه ، فيتجدد هذا العهد كلما مرت بالعباد فترة من الغفلة والنسيان . فتقوى صلتهم بالله ، وتندثر صلتهم بالشيطان .

* * *

ولقد نزلت آية فى القرآن الكريم ، كانت خيبة أمل للشيطان .. فلقد ورد أنه بكى عندما نزلت . وهى قوله تعالى :

« والذين اذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين .

أيها الأخ المسلم :

لولا تسلط الشيطان على بنى آدم لكان الحال غير الحال .

انظر الى قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

((ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى الجسد » .

ثم انظر الى قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

« لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السماء » .

ثم ان للشيطان حيلا يدخل بها على الانسان ليفسد عليه عبادته . تدل على أنه فى غاية المكر والدهاء .

كما قال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ :

جلس قوم يذكرون الله تعالى ، فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ، ويفرق بينهم فلم يستطع ـ لأن ذكر الله سلاح المؤمن .. لقول الله سبحانه وتعالى :

« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » .

اذن .. فماذا يصنع الشيطان مع هؤلاء الذين لم يمكنه التسلط عليهم أثناء ذكرهم لله ـ نظر الى رفقة أخرى بالقرب من الرفقة

الأولى ، فوجدهم يتحدثون بحديث دنيوى . فجاء اليهم ، وأفسد بينهم ، فقاموا يقتتلون . فقام الذين يذكرون الله فاشتغلوا بهم ، يفصلون بينهم ، وبذلك تفرقوا عن ذكر الله.

***

واذا عرفنا ذلك . فلنعرف أن من أقوى الأسلحة التى يحارب بها الشيطان : هو فريضة الصوم . لذلك كان الصوم شريعة للأديان السابقة ، كما هو شريعة لنا . قال تعالى :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

وانما كان الصوم من أقوى الأسلحة التى يشهرها المسلم فى وجه الشيطان لأنه غذاء للروح ، والغذاء قوة ، وكلما قويت الروح ، تغلبت على الشهوات النفسية .. كالأنانية والحسد ، والمكر والخديعة ، ونوازع النفس الخبيثة .

واذا تخلصت النفس من هذه العوائق ، والعلائق : اتجهت الى بارئها ، وتهيأت لمناجاته .

لذلك يقول الله تعالى ـ بعد أن ذكر أحكام الصوم فى الآيات المحكمات ـ :

« واذا سألك عبادى عنى ، فانى قريب . أجيب دعوة الداع اذا دعان . فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى ، لعلهم يرشدون » .

فقد ورد أن اعرابيا سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله .. أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه .. **فنزلت :**

وكأن انتظام الآيات على هذا الترتيب ينبه على أن الانسان اذا أتقن صومه على النحو الذى جاءت به هذه الآيات .. فقد تهيأ لمناجاة الحق ..

ولئن كان هذا من قبيل التربية النظرية عند ذوى العقول القاصرة .. فهناك أساليب من قبيل التربية العملية .. جاءت به الآيات المحكمات الاخرى . وهو قوله تعالى :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » .

لما أراد الله مكالمة موسى ـ عليه السلام ـ هيأه لهذا المقام الرفيع ، وأعده لتلك المنزلة السامية . ترى بماذا هيأه .

أمره بصوم ثلاثين يوما حتى يتهيأ لخطاب الله له ، وحتى يقوى على تحمل الأنوار الربانية التى ستحيط به من كل جوانبه .

وفى أثناء صومه ، وجد موسى ـ عليه السلام أن لفمه رائحة يكرهها الانسان .. فاستعمل السواك ليزيلها . فأوحى الله اليه :

« أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، وأمره أن يزيد على الثلاثين عشرة أيام من أجل ذلك فتم ميقات ربه أربعين ليلة .

ففاضت عليه الأنوار الالهية ، وكلمه ربه بلا واسطة .

« قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » .

وبهذا نعلم أن أصفى العبادات للروح ، وأكثرها تربية للنفس .. انما هو الصوم . اذن .. فمرحبا بالصوم .. مهذبا للنفوس مرحبا بالصوم مطهرا للقلوب ، مرحبا بالصوم رمزا لوحدة الصف الاسلامى فى مختلف الأقطار .

مرحبا بالصوم مذكرا الغنى بالفقير .. والقوى بالضعيف .

مرحبا بشهر الركع السجود .. مرحبا بشهر التضرع والتبتل .

مرحبا بشهر أوله رحمة ووسطه مغفرة ، وآخره عتق من النيران .

١ ـ ماذا وراء الصورة ؟

اذا ذكر آدم ـ عليه السلام ـ بادر الى الذهن صورة التمثال الذى نفخ الله فيه من روحه ، وسجدت له الملائكة الا ابليس ، وما تلا ذلك من أن الله تعالى غضب على ابليس ، وطرده من رحمته ، وقال : **«ويئادم ، اسكن أنت وزوجك الجنة »** حتى تنتهى الصورة بما هو معروف من هبوط الجميع الى الأرض : **« قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين »** ٠

فاذا كان بعد ذلك من تفصيل فهو سرد الآيات التى تلم بأجزاء القصة المعروفة منذ أن نزل القرآن الى اليوم ٠٠ ولكن ما مراد الحق ـ سبحانه ـ من ايراد هذه القصة ؟ ٠٠ هل هو مجرد الأخبار بما كان ؟ أو ثمت أمور دقيقة تفهم من التأمل فى نصوص الآيات ، ولازم معناها ؟٠٠

ان سعة علم الله تعالى تدعونا الى التماس ما قد يكون وراء المعنى المتبادر الى الذهن لأول وهلة ، فثمت اشارات الى الروح ، والملائكة ، وشأن مع ابليس ، وخلق للانسان من تراب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، وكل تلك أمور لم ترد عفوا فى القصة ، والله تعالى يقول :

« ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم » ، فمجىء تلك الاشارات مفصلة على علم يدعونا الى تتبع مراميها ، واستنباط ما يمكن استنباطه من حقائقها ٠٠

٢ ـ تقويم الانسان ٠٠

وعلى هذا نقرأ قول الله تعالى : **« اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »** فنرى معناه القريب واضحا من ظاهر اللفظ : ان الانسان كائن مادى ، أو حسى يتضمن صفة علوية هى روح من أمر الله ولكنه من قبيل تفسير العبارة بمرادفها ، أو من قبيل تفسير الماء بالماء ، فاذا ذهبنا نتدبر لازم المعنى ، تبين بسهولة أن المراد بهذا التقويم أن يختلط سر الروح ، بخصائص

الطين ، وأن ينشأ من تلاقيهما أو تفاعلهما في هذا الكيان البشرى ضرب من الحياة ، فيه سر السمو والنزوع الى الله ، وفيه طبع الانجذاب الى الأرض والركون الى متعتها الحيوانية ..

وقد يدعو المقام الى أن نسأل : أين الطين في الانسان ؟ وما معنى الروح ؟

أما الطين فهو هذا اللحم والدم والعظم والشعر والعصب الذى يتكون منه جسم الانسان .. وصلته بالطين انه يتألف من العناصر التى يتألف منها تراب الأرض ، فاذا قبضت قبضة من تراب الأرض ، ثم أخذت قطعة من جسم أى انسان ، ثم حللت كلا منهما الى عناصرها الكيماوية ألفيت العناصر في الاثنين متماثلة .. قد تختلف « نسبة » العناصر بعضها الى بعض في كل منها ، ولكن العناصر نفسها هى هى لا تختلف .. ذلك أن الانسان يتغذى بالنبات ، ولحم الحيوان.. والنبات انما يتغذى من تراب الأرض ، يمتص منها عناصرها المعروفة ، فيؤلف منها أنسجته وخلاياه وثماره ، فاذا اتخذه الانسان طعاما ، فقد انتقلت اليه عناصر الأرض بهذا الطعام ، وقامت بها أبنية جسمه .. وكذلك الحال في الأطعمة الحيوانية ، فالحيوان يتغذى بالنبات ، ففيه عناصره ، فاذا أكل كل منه الانسان تحولت العناصر اليه .. فاذا مات الانسان والحيوان والنبات ، بليت أجسامهم وتحللت الى عناصرها الأولى ، أى عادت ترابا الى الأرض كما بدأت ، وهكذا يصدق قول الله تعالى : « **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** »

أما الروح الذى نفخه الله تعالى في آدم ، فقد عقد له الامام ابن القيم فصلا قيما في كتاب « الروح » لاحظ فيه أن القرآن الكريم لم يذكر الروح مرة واحدة مرادا بها اجراء الحياة الحيوانية في البدن ، ثم عرض استعمالات الروح ، وناقش معنى كل منها في نصها الكريم ، وخلص من مناقشاته وموازناته الى المراد بالروح الذى نفخه الله تعالى في آدم ، وورثنا خصائص عنه ، هو سر من لدنه ـ سبحانه ـ يكون به للمؤمنين من صفات القوة ، والعزة ، والعدل ، والصدق ، وحب الخير والحق ، ونحوها ، ما يتم به التأييد ، والنصر ، وامضاء أحكام الله وأوامره ، وذلك أخذا من قوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه» ويطول بنا ايراد مناقشات الامام وتدليله القوى على ما اختاره ، فليرجع اليه من أراد في كتاب « الروح » ، والنفس الى ما ذهب اليه الامام الكبير أميل ، لأن الحياة الحيوانية أمر مشترك بين الانسان والحيوان ، فليس له من جلالة الشأن ما يستحق أن تسجد له الملائكة حين يجريه الله في كيان آدم ..

٣ ـ خصائص التقويم :

ويبقى أن نسأل : كيف يأتلف من هذين العنصرين وحدة معنوية يتم بها تصرفه في الأرض ؟ وبعبارة أخرى : ما هى الخصائص الأدبية التى يسهم بها كل من جانبه المادى وحظه الروحى في اقامة كيانه الباطن المؤلف من صفات وأخلاق ..

وقد تولت القصة في آية أخرى بيان خصائص طينة الانسان بقوله تعالى : « **واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** » . **فالأوصاف الحسية لهذه الطينة تؤول الى صفات معنوية تماثلها في طبع الانسان .**

❊ فهى من حمأ مسنون ، أى من طين أسود منتن الرائحة .. والنتن يؤول في الطبع الى خسة تنقبض لها النفوس القويمة ، وتنكرها الفطر السوية ، ولا نعنى بها مايكون من الانسان في بعض أحيانه من غدر ، وكذب وخيانة ، ونفاق ، ونحوها ، فتلك مظاهر الخسة ، وليست هى الخسة نفسها ، انما نعنى الحالة النفسية التى تقابل حالة الطين حين يتحول عن طبيعته ، فيفسد ويكتسب ريحا منتنة تلزمه أينما كان .. وفساد

هؤلاء ، فساد النفس حين تتحول عن جوهر الروح ، فتغدو غير صالحة لامداد صاحبهـا الا بصفات الخسة التى تنقبض منها النفوس انقباضها من كل نتن حسى ..

✻ وأما ما يستمده الطبع من أن الطيـن « صلصال » فيمكن ادراكه من أن الصلصـال مأخوذ من الصلصلة ، وهى الصـوت ، جاء فى لسان العرب : « جاءت الخيل تصـل عطشا ، اذا سمعت لأجوافها صـليلا ، أى صوتا » وقال الطبرى : « الصلصال هو الطين اليابس لم تصبه نار ، فاذا نقرته صـل ، فسمعت له صلصلة » . واناء الصلصـال على هذا هو المتخذ من الـطين الجاف الذى لم تنضجه النار ، فلا يكون متماسكا كأناء الخزف الذى جعلته النار صـالحا لكثير من أنواع الاستعمال .

والانسان على هذا الاعتبار ليس سوى اناء متخذ من صلصال هذا الحمأ ، فاذا ظهـرت عليه صفات طينته ، فهو فارغ أجوف ضعيف تافه لا يتماسك لمهمـات الأمور ، ومثله فى الناس كثير من أولئك الذين يشبهون الطبل الأجوف بالادعاء العريض الزائف : يقـولون ما لا يفعلون ، ويحبون أن يحمـدوا بما لم يفعلوا .. وحسب المرء تفاهة أن ينوء كاهله بحمل المكارم، فلا يكون حظه منها الا شقشقة اللسان ، وثرثرة الجبان ، وفيهقة الادعيـاء الذين لا يقيمون لله سنة فى قول أو عمل .

وهذا مبحث عميق فى فلسـفة النفس الانسانية نكتفى منه فى هذا المقام بأن نقرر أن جبلة الانسان الحيوانية سلبية محضة من حيث قدرتها على الامداد بالفضائل ، فاذا خلى الانسان الى هذا الطبع ، ولم يكن له مدد من سواه ، عجز عن أن يمده بخصائص الايثار ، واقامة العلاقات بينه وبين سواه حبا وبغضا على أساس الموالاة والعداء للحـق ، وبذل النفس فى سبيل الله ، ونحو ذلك ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، واذ لا يجد من فطرته الحسية سوى تلك السلبية التامة فحظه منها هـو من حظها من الحمأ المسنون ..

✻ وأما خصائص الروح ، فهى الأحياء .. فاذا كانت فى الحيوان فهو بهـا حى ، ذو حركة يغدو بهـا ويروح .. واذا كانت فى الخلق ، فهو بها أيضا حى .. وحياته ليست حركة فى عالم الحس ، انما هى « ايجابيـة » فى تحقيـق الخير ، وشـوق الى الحق ، وايرادات متعلقة به ..

وقد منحنا الله فضله فنفخ فينا من روحه، فكان للانسان الى جانب بشريته السلبيـة موهبة روحية تعود عليها بكل خصـائص الحياة ، اذ تطهرها وتحيى فيها ما شاء الله من صفات الحق والخير ، وحين يذكر القـرآن الكريم أن الله تعالى ينزل المـاء على الأرض الميتة فيحييها ، وتنبت من كل زوج بهيج ، لا يريد ارشادنا الى آيات قدرته وحكمته فقط .. ولا ايراد البرهـان على امكان البعث فحسب .. بل يريد الى جانب ذلك تنبيـه المؤمن الى وجوب احياء قلبه ، أو أرض بشريته بخصائص الروح التى بعثها فى فطرتنـا وأنزلها علينا فى كتابه ، ومنه قوله ـ جل ثناؤه ـ :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهـم لذكر الله وما نزل من الحـق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم **الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون، اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون »** .

واذن ، فالسبيل الى أن يؤلف الانسان من عنصريه الحسى والروحى وحدة معنوية فاضلة هو أن يحيى نفسه بما سلك الله فى فطرته من ينابيع الحياة ، وأن يستنبت فى بشريته كيانا من صفات الحق وفضائل الخير ونور الهداية ، وذلك بدوام التفكر فى ايات الله، واجالة ذكره فى ضميره .. فمـن هدى الى ذلك وأعين عليه فهو البشر الحى ، ومن أصم أذنيه عن ذلك ومر كبهيمة الأنعام ، فهـو الميت ، وان سجلته دفاتر الاحصاء فى عالم الأحياء وليس لموت النفوس أو حياتها معنى الا هذا حين يرد فى مثل قوله تعالى :

« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات

ليس بخارج منهـــا ؟ كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون » .

٤ ـ آفاق التقويم :

ونعنى بالتقويم ذلك الكيان الروحى الذى سوى عليه الانسان فكان كما أخبر الله تعالى فى قسمه : « **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم** » .. لقد خلقه الله من طين ، ونفـخ فيه من روحه ، فاذا هو بشر سوى يمثـل الأوصاف والحقائق التى أسلفنا .. ولقـد ذكرنا أن للانسان بازاء الحق والخير ناحيتين .. احداهما سلبية ميتة ، هى طبيعة الطين، والاخرى ايجابية حية ، هى حقيقة الروح .. فاذا أمدت الأولى بمدد من الأخرى ، حيت وربت وأثمرت ما شاء الله من فضائل ..

✻ هذا هو تقويم الانسان ، وهو غير تقويم الملك الذى خلق من نور ، وغير تقـويم الشيطان الذى خلق من نار ، وغير تقـويم الحيوان الذى لا مجال فى فطرته لعنصر الهى يبث فى كيانه خصائص الامتياز ، فيحب فى الله ويكره فى الله ، ويبذل نفسه فى سبيله .. ومن حق هذه العناية أن نسال : لم منح الانسان هذه الكرامة ، وميز بهذا التقويم ؟. أهو أمر ارادة الله جزافا ـ حاشاه ـ أو هو تأهيل لمهمة أو رسالة كريمة يحققها فى هذه الأرض ؟..

ولا مجال فى ذلك للظن أو للاجتهـاد ، فقد تكفلت القصة بالاجابة عن ذلك بقـوله تعالى : « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعـل فى الأرض خليفة** » .. فالخلافة عن الله فى الأرض هى مهمة هذا الانسان . وحين نعرض أقوال الأئمة فى أمهات كتب التفسـير عن الخلافة والخليفة نرى أرجحهم الذى يقول : ان الخليفة هو آدم وبنـوه .. ونرى الامام القرطبى يقول عن حقيقة الخلافة : انها امضاء أحكام الله وأوامره فى الأرض ..

وهى مهمة جليلة تعلى من قدر الانسان ، وتجعلنا ننظر اليها على أنها محور خلق الانسان وتقويم خصائصه بل تجعلنا ننظر على ضوئها الى بقيةاجزاء القصة واشاراتها ، فقد قلنا انها نصوص واشارات مفصلة على علم فلعل لها صلة بتلك المهمة الجليلة ..

✻ ولا يعجزنا أن نرى فى الروح التى أمد بها الانسان أنها موهبة روحية تجعـل له استعدادا للفهم عن الله ، والتلقى عنـه ، والاتصال به ، وهناك نصوص كريمة يمكن أن نستأنس لفهمها بهذا المعنى « **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التـواب الرحيم** » ، « **ويٰآدم اسكن أنتوزوجك الجنة فكلا من حيث شئتماولا تقربا هذه الشجرة** » « **ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** » . وتلقى ذلك وفهمه لا بد له له من موهبة روحية .

✻ وهناك اشارة الى الجن اذ فسق أحدهم عن أمر ربه ، وقام يعارض أو يحـاج الله ـ عز شأنه ـ ويقسم ويتوعد أن سيفعل كذا وكذا بآدم وبنيه ، ومضى يوسـوس الى آدم وزوجه فى الجنة بما وسوس به ..

✻ وثمت اشارة عن الملائكة اذ أمرت أن تسجد لآدم ، فسـجدت ، واذ أمر آدم أن يتصـل بهم لينبئهم بما يعلم من أسـماء الأشياء فاتصل بهم وأنبأهم بما أمر به ..

✻ وهناك اشارة الى أن الانسان لم يجهز لأداء مهمته بمواهب الروح فحسب ، بل جهز بمواهب العلم الطبيعى الذى يلائم بين واجبات الخلافة وطبيعة الأرض ، ويحقق لها الوسائل الى ما تريد من مقاصد وغايات ، وذلك قوله تعالى :

« **وعلم آدم الأسـماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتـم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم** »

✻

فنحن بهذا بازاء **آفاق متعددة** اتصل بهـا الانسان واتصـلت به : « أفق الروح » .. وأفق الملائكة .. وأفق الشياطين .. وأفق المادة او الأرض التى خلق منها ، وامد بموهبة

تنظيمها ، وجعلت ميدانا لرسالته فى قوله تعالى : « انى جاعل فى الأرض خليفة » .

* ونخلص مما تقدم بالحقائق الآتية :

١ ـ ان الله أراد أن يجعل للانسان مهمة جليلة فى الأرض ، هى امضاء أحكامه وأوامره ..

٢ ـ انه تعالى ـ ترشيحا لذلك ـ وهب للانسان أحسن تقويم ، وقدر له من المواهب وآفاق المدارك ما يتلاءم مع مطالب تلك المهمة وتبعاتها وشرفها ، فليس فى مواهبه شىء يزيد مثقال ذرة أو ينقص عن مقتضيات الوفاء بحقوق تلك الخلافة .

٣ ـ أن الله بين للانسان آفاق الكون التى تتصل بمهمته ، هى الآفاق التى وردت فى القصة ، فان آدم ـ عليه السلام ـ ما كان ليتصل بها الا لأن لها اتصالا مباشرا بالمهمة التى أسندت اليه .

٤ ـ أن مواهب الانسان اذ قدرت على ما تؤدى به مطالب الخلافة وتبعاتها ، جاءت مفصلة على قدر الآفاق التى قدر له أن يتصل بها ، فما من أفق منها الا له أفق من المدارك يلائمه ويقابله ..

ولا معنى لذلك الا أن الانسان كائن جليل القدر ..

جليل القدر، اذ أسندت اليه أقدس رسالة يؤديها فى الأرض ، ولم يترك هملا بدون رسالة ..

جليل القدر اذ نفخ الله فيه من روحه ..

جليل القدر اذ جعل مجال نشاطه الفكرى والروحى ، والحسى ، آفاق السموات والأرض ما ظهر منها وما بطن .. واذ وهب من قوى المدارك ما يجعل لوجوده العظيم أثرا جليلا فى تلك الآفاق ، أو ما يجعله يحيا بكافة مواهبه فيها .

*

* ولسنا نعلم وراء ذلك الشرف الذى أراده الله للانسان شأوا من الكرامة يطمح اليه طامح .. ولكنه شرف مقدور بما يبدو من الانسان من الاهتمام به ، والعمل بمقتضاه ، وتنظيم حياته وسيرته فى الأرض على أساسه ، فاذا هو أدى الذى عليه ، ونهض بحق ما أنقى اليه ، وتعرض لكل أفق بحسبه، وأعطاه من نفسه كل حقه ، فقد أنصف نفسه ، وكان عندما أراد له الله من كرامة.. واذا أرادها مأكلة وشهوة وملهاة ، أو اتصل بأفق دون سواه ، وعطل بعض مواهبه دون بعض ، فقد أغلق من نوافذ نفسه ، وغير خلق الله فيه ، وانسلخ عما أراد ـ سبحانه ـ له من كرامة .

٥ ـ قصة تكوين ، أو سيرة حياة ؟

ولعل من حقنا بعد ما قدمنا من قصة آدم ـ عليه السلام ـ أن نعتبرها قصة « **تكوين الانسان** » لا سيرة رجل عاش فى هذه الأرض يتصرف فى مختلف شؤونها ، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، ويخالط الناس ، يصادقهم ويعاديهم ، وينفعل بما لهم من خير وشر ، وينصح لهم وينهاهم ، ويبلغهم عن الله ، ويلقى منهم ، ويلقون منه.. فان ما مضى الى الآن ليس سوى نصوص كريمة يقرر فيها الله تعالى عناصر تكوين الانسان ـ أبى البشر ـ عليه السلام ـ وخصائص ذلك التكوين ، وما يتضمن من مواهب وملكات فكرية وروحية ، وما تقرر للانسان من رسالة خطيرة فى الأرض، وليس شىء من ذلك يعتبر قصة حياة ، أو سيرة لانسان ما ..

على أن ما بقى من نصوص القصة يؤيد ما ذهبنا اليه ..

* ففى قوله تعالى : « **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم** » .. اشارة الى شىء من الفرق بين مواهب الانسان ومواهب الملك، فللملائكة علومهم اذ قالوا : « **لا علم لنا الا ما علمتنا** »، وقد يشارك الانسان الملائكة فى العلم بالله تعالى على وجه من الوجوه ، ولكنه اذ قدر له

أن يحيا فى الأرض، يأكل من ثمرها ، ويرتفق بثروتها وقوانينها فى البر والبحر والجو ، أوتى من علم ذلك ما لاضرورة بالملائكة اليه .. فذلك تقرير لعلم الانسان وموازنة خفية، ذات فوائد علمية دقيقة ، وليس شيئا من قبيل السير المعروفة ..

* وفيما يقص الله من محاجة ابليس : « **رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين** » « **لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله** » ، بيان لأن للخير أعداء يضيقون به ، وأن فى فطرة الانسان نصيبا أو حظا للشيطان يتخذه لتزيين ما شاء من الشر ، وايضاح لرءوس الفتن التى يضل بها الانسان عن مهمته وعن آيات الله فيه ..

* **وفى قوله تعالى : « فوسوس اليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد** وملك لايبلى » اشارة الى غريزة حب البقاء أو « **حفظ الذات** » حيث عمد اليها الشيطان فجعل يستثيرها فى نفس آدم حتى زين له الأكل من الشجرة ، وأوقعه فى المعصية ..

فهو بيان لبعض مداخل الشيطان الى نفس الانسان .

* **وفى قوله تعالى : « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوءاتهما** اشارة الى بدء ظهور أعضاء التناسل ، وما يصحبها من غريزة الجنس ، فقد كانت هذه السوءات مستورة بنص الآية الكريمة : « **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** » .

فهى - اذن - قصة التكوين والنشوء ، وظهور قوى الانسان الغريزية لأول مرة ، وبعد أن يستكمل آدم - عليه السلام - ذلك كله - فى الملأ الأعلى يؤمر بالهبوط الى الارض ، لتبدأ البشرية تقلبها فى الرشد والغواية ، ومعه قوله تعالى :

« **فأما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » .

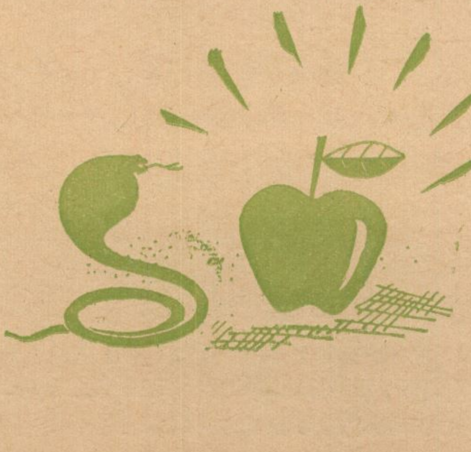

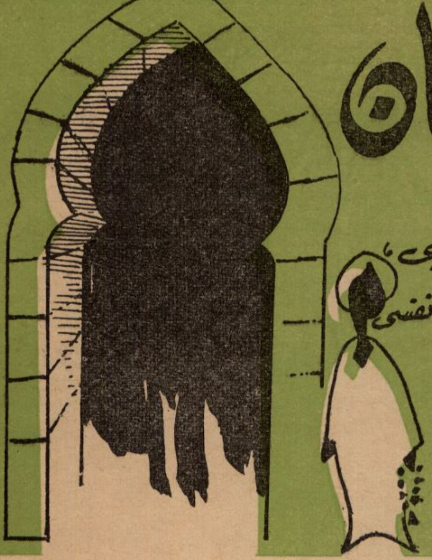

فرضية صيام رمضان

الصيام تعويد للصائم على التقوى، واختبار روحي وتمرين خلقي وتهذيب نفسي

الاستاذ مبشر الطرازي الحسيني

فرض الله العليم الحكيم صيام رمضان على المؤمنين كركن من أركان الاسلام الخمسة لما فيه من فوائد روحية وصحية وخلقية واجتماعية ، لحياة البشر فى المجتمع ، وفى ظل دينه الذى يؤمن به ٠

والدليل القطعى على فرضية الصيام هو قول الله – عز وجل – : « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون أياما معدودات** » الآية ٠ قوله « كتب » بمعنى فرض باتفاق آراء المفسرين ، وهو من قبيل قوله تعالى : « **كتب عليكم القتال** » **وقوله « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ، ان ترك خيرا الوصية** » ٠

كما تدل على فرضية الصيام نصوص الأحاديث الصحيحة التى وردت فى كتب الصحاح ، منها وأوضحها دلالة ما رواه الامام أحمد والنسائى فى صحيحيهما عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال :

« **أتاكم رمضان ، شهر مبارك ، فرض الله عليكم صيامه** » ٠

قلت : ان الصيام ركن من أركان الاسلام، والدليل عليه نص ما جاء فى حديث جبريل الذى رواه الامام مسلم فى صحيحه عن عمر ابن الخطاب – رضى الله عنه – أن جبريل قال « يا محمد أخبرنى عن الاسلام ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » ٠٠ وكان جبريل قد دخل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه بصورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه من الصحابة أحد ، وقد كشف عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد ما ذهب حيث جاء فى ختام الحديث ما نصه : « يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » ٠

والصيام مصدر صام ، وهو فى أصل اللغة الامساك ، ويطلق على الامساك عن الكلام أيضا ، ومنه قوله تعالى مخاطبا لمريم ابنة عمران – عليها الصلاة والسلام – : « **فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا** » ٠

وفى الشرع عبارة عن الامساك - مع النية - عن الأكل والشرب والجماع ، فى وقت مخصوص محدود ، وهو من طلوع الفجر الى غروب الشمس .. هذا .

وكان نزول هذه الآية بحكم فرضية الصيام على المؤمنين فى شعبان السنة الثانية من الهجرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التحية - بعد ما صرفت القبلة الى الكعبة .

ويستنبط من نص هذه الآية وهو : **« كما كتب على الذين من قبلكم »** ان الصيام قد كتب على الأمم التى مضت قبل الأمة المحمدية كاليهود والنصارى ، من لدن آدم - عليه الصلاة والسلام - الى عهد هذه الأمة .

ومما يذكر هنا ، أن المماثلة المفهومة من قوله تعالى « **كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** » انما هى المماثلة فى أصل الوجوب ، فلا يفهم من نص الآية فرضية الصيام على الأمم المتقدمة فى شهر رمضان صراحة ، وانما المفهوم من النص ثبوت فرضية الصيام على الأمم المتقدمة ، ولا يفهم فى أى شهر كان ، وبأى عدد من الأيام كان .

وبالاجمال - ان الله العليم الحكيم أراد تعميم هذه العبادة على الأمم كلها ، ولو فى شهور مختلفة وأيام متعددة .. فما خلت أمة الا وقد فرض الله - سبحانه - عليها الصيام وذلك لما فى هذه العبادة من المنافع الروحية والصحية والخلقية والاجتماعية ، الأمر الذى لا يختص بأمة دون أمة ، وعصر دون عصر .

ومما ينبغى التنبه عليه : أن فى تعقيب قوله تعالى « كتب عليكم الصيام » بقوله « كما كتب على الذين من قبلكم » ما يدل على وحدة الاديان فى الأركان ، مع ما فيه من التأكيد لفرضية الصيام ، والتحريض على تأديته ، والله هو الموفق .

ومعنى قوله تعالى « لعلكم تتقون أياما معدودات » تتقون ما حرم عليكم أيام صيامكم وتتقون ما لا ينبغى لكم وأنتم صائمون ، وفى هذا اشارة واضحة الى أن الصيام وسيلة ذات أثر الى التقوى ، لما فيه من كسر النفس وقهرها ، والتغلب على شهواتها ، والى هذا يشير ما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة** (مؤونة الجماع من المهر والنفقة) فليتزوج ، **فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فانه له وجاء - أى كسر لشهوته -** .

كما أن فى الآية رمزا بارزا الى أن من حكمة الله - سبحانه - فى فرض الصيام وتشريعه ، تعويد المؤمنين على التقوى ، فان المؤمن اذا صام صوما نزيها ، واتقى ما حرم عليه حين صيامه ، واتقى سائر المحرمات فى سائر أوقاته حق التقوى ، واستمر عليه فى أيام معدودات ، وهى أيام شهر رمضان ، تعود على التقوى ، وربما يؤدى به ذلك الى أن يصبح من الصالحين المقربين الى الله - عز وجل - فان التقوى هى الهدف الحقيقى من فرضية الصيام ، على أساس انها اختبار روحى ، وتمرين خلقى وتهذيب للنفس ، وهذا هو سر فضل الصيام على غيره من الأعمال الصالحة فى المجازاة ، فقد جاء فيما رواه الامام البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « كل عمل ابن آدم له ، ضعف ، قال الله تعالى الا الصوم فانه لى وأنا ضعف ، قال الله تعالى الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى » .

أقول : فكأن الحديث يشير الى ما جاء فى القرآن المجيد من أمثال آية « **انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** » ، اللهم وفقنا بالصيام لما يرضيك واجعلنا من الصابرين المتقين .

قلت فيما سبق فى تفسير الآية : ان الصيام كان فريضة على الأمم المتقدمة أيضا كعبادة قديمة من لدن آدم - عليه الصلاة والسلام - الى عهد هذه الأمة ، وأقول : لكن المفسرين والمؤرخين لم يذكروا شهر صيام تلك الأمم ولا أيامه الا تحت عنوان « قيل » ، الذى يدل على ضعف القول ، والواقع - كما

صرحت به أنفا – أن المماثلة فى الآية فى أصل الفرضية ، ولا يفهم منها أن الصيام كان فريضة على الأمم المتقدمة فى شهر رمضان .

وأما الأمة المحمدية – وهى خير أمة أخرجت للناس – فان صيامها انما هو فى شهر رمضان ، وذلك بنص الآية وهى قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، وكذلك بنصوص الأحاديث الصحيحة التى تعين فرضية الصيام فى هذا الشهر ، بحيث أن الصيام فى غير شهر رمضان لا يجزىء عن الغرض أداء وذلك باتفاق من الأئمة الأربعة ، بل وباجماع المسلمين فى عهد السلف والخلف .

ومن الأخطاء الفاحشة فى هذه المسألة الخطيرة ما زعمه المرحوم موسى جاد الله – من كبار علماء التتر فى روسيا من أنه يجوز الصيام فى غير شهر رمضان ، اذا ما صادف الشهر أيام طول النهار وشدة الحر .. وقد ألف رسالة باسم « أوزون كو نلرده روزه » ، أى « الصيام فى الأيام الطويلة » . ونشرها فى أنحاء روسيا ، كما قرأها على الناس فى جامع موسكو ، حيث أثار بهذا الرأى الباطل فتنة بين المسلمين ، ولا سيما فى الجيل الناشىء من الشعوب الاسلامية فى تلك القارة ، وكان ذلك سنة ١٩١٦ م ، ولما اطلعت على الرسالة وأنا طالب فى جامعة أبى القاسم خان فى طشقند ، رددت على رأيه وأبطلته عن أساسه ، وقد نشر الرد فى مجلة « الاصلاح » التى كان يديرها صاحبها المرحوم الزعيم الوطنى الاسلامى عبد الرحمن السياح فى آخر عهد نيقولاى .

وكان زعم العالم التترى مزدوجا حيث زعم أيضا أن رحمة الله تعم الكافرين . فقد كان يؤول آيات الخلود فى جهنم بالمكث الطويل .

ولهذا كان ردى أيضا مزدوجا ، ولم يرد على بشىء ، لأنه رأى نجاته فى الصمت والتسليم ، فقد قام بالرد عليه أيضا فى هاتين المسألتين كثير من علماء التتر فى موسكو وأوفا وقازان وغيرها ، مع ما كان ضده – بكل شدة – من شعور المسلمين فى أنحاء البلاد .

التقيت بموسى جاد الله فى أفغانستان سنة ١٣٥٠ الهجرية بعد ما خرج من روسيا مهاجرا ، والتقيت به ثانيا فى القاهرة سنة ١٩٤٩ الميلادية ، حينما كان فى مستشفى مبرة محمد على وقد توفى فيه .. ولا مراء فى أن العالم حتى المجتهد قد يخطىء وقد يصيب ، وكان من حسن حظه انه رجع من رأيه الخاطىء الى ما هو الصواب – عفا الله عنه – .

هذا ، وقد ثبت أن وقوع صيام رمضان فى الفصول المختلفة انما هو من حكمة الله – سبحانه – فان الصائم يتعود بهذا على التحمل والتجلد والصبر فى جميع فصول السنة ، حتى ولو صادف رمضان أطول الأيام ساعة وأحرها جوا .

ولا شك أن الله العليم الحكيم الذى فرض صيام رمضان على عباده المؤمنين كان يعلم فى الأزل مصادفة هذا الشهر للأيام الطويلة بما فيها من الحر الشديد فى بعض السنوات .. ولما فرض عليهم مع علمه هذا .. فقد علم أيضا أن عباده يتحملون مزيد مشقة الصيام فى مثل هذه الأيام – فان الله تعالى – لا يكلف نفسا الا وسعها ، كما أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر – وذلك بهدايته وتوفيقه وعنايته ، فيثابون مزيد الثواب ، كما ينالون فوائد ترويض النفس وتهذيبها فى أكمل ما يكون من الترويض والتهذيب ، مع التعود على الصبر فى الفصول المختلفة من السنة ، ولا سيما فانهم من الأمة المحمدية التى لا تخلو عن الأسفار والجهاد فى فترات الحياة ، الأمر الذى يستوجب عليهم مثل هذا التعود . فسبحان الله العليم بشئون خلقه ، والحكيم فى تشريعه وحكمه .

وفى الختام – أهنىء اخوانى المسلمين ، بحلول شهر الصيام ، وأسأل الله – عز وجل – أن يوفقنا واياهم لطاعته وعبادته ، انه قريب مجيب .

حديث السيف

بطولات إسلامية !

الدروس المستفادة من موقعة الجسر

للأستاذ محمد فرج

(١) كان القتال دائرا فوق أرض فارس بين العرب والفرس .

وكان النصر فى أكثر المعارك الى جانب العرب حتى ان رستم جمع مجلس الحرب وسأل أعضاءه « أى العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ » فأجابوه جميعا « انه ذو الحاجب بهمن جاذويه » فاسند اليه رستم قيادة جيوش الفرس ثم أمر الجالينوس وهو قائد فارس له خطره أن ينضم الى بهمن ويعمل تحت امرته حتى يتحقق لهم النصر على القوات العربية .

واجتمع تحت قيادة بهمن ثمانون ألفا وعشرون فيلا فسار بهم حتى نزل بقس الناطف قرب الكوفة على شاطىء الفرات الشرقى .

وكانت جموع العرب فى السقاطية والحيرة يقودها أبو عبيد الثقفى وسارت هذه الجموع لملاقاة الفرس ونزلت عند المروحة قرب البرج والعاقول على الشاطىء الغربى للفرات فى مواجهة جيش الفرس .

وبعث بهمن الى أبى عبيد يسأله أن يعبر أحد الطرفين النهر الى الضفة الأخرى « اما ان تعبروا الينا وندعكم والعبور واما أن تدعونا نعبر لكم » .

وعرض أبو عبيد الرسالة على أصحابه فأشاروا بعدم العبور لما فيه من خطورة اذ يصبح الجيش العربى خلال عبوره هدفا واضحا ظاهرا للعدو يستطيع أن يصيب أفراده وان يوقع به خسائر فادحة .. وازادوا بان طلبوا أن يسمح للفرس بالعبور .. ولكن أبا عبيد رفض أن ياخذ برأى أصحابه قائلا « لا يكون أجرأ على الموت منا بل نعبر اليهم » واغضب رأيه أصحابه فناشدوه أن يبقى فى مكانه لأن فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة الى كرة وقالوا له « ان العرب لم تلق مثل جنود فارس منذ كانوا وانهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الدهاء والعدة بما لم يلقنا به أحد وقد نزلنا منزلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة الى كرة » ولكن أبا عبيد ظل على رأيه وهو يقول « لا أفعل جبنت والله اذن » فرد عليه سليط ابن قيس » انا والله أجرأ منك نفسا وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم وأشار البعض أن يكون العبور ليلا دون أن يعرف الفرس بموعده حتى تتحقق المفاجأة ورفض أبو عبيد هذا الرأى .. وموقف أبى عبيد موقف غريب لا يتفق وفن الحرب فان العسكريين منذ أقدم العصور اتفقوا على قيام هيئة استشارية للقائد تسمى مجلس الحرب أو هيئة أركان حرب وتقدم الرأى والمشورة للقائد بعد دراسة ظروف المعركة وعوامها .. واتفق القادة جميعا على احترام رأى الهيئة والأخذ به الا أن أبا عبيد شذ عن هذه القاعدة وانحرف عن هذا العرف وأبى أن يستمع الى رأى المخلصين من رجاله العالمين بفنون الحرب وخدع المعركة وأصول القتال وأدى تمسكه برأيه الى هزيمة المسلمين هزيمة منكرة فى الموقعة التى دارت بينهم وبين الفرس والتى اتفق على تسميتها بموقعة الجسر .

ورغم الهزيمة المرة التى لحقت بالمسلين فى هذه المعركة فان الجسر تتميز بأربعة دروس مستفادة لابد أن يزاح عنها الستار وأن تسلط عليها الأضواء ونحن نسعد بان نوضح هذه الأمور فى هذا المقال ..

الدرس الأول ..

المفاجأة فى استخدام السلاح :

فقد فوجىء المسلمون بسلاح جديد فى المعركة لم تكن لهم به دراية أو معرفة اذ استخدم الفرس الفيل .. وجعلوه فى المقدمة لينشر الرعب والفزع فى صفوف المسلمين فتنهار معنوياتهم وتضعف عندهم الرغبة فى القتال .. وكان الفيل أبيض اللون ضخم الجثة على ظهره قبة من الديباج الأحمر يضرب بخرطومه يمنة ويسرة فيشتت المسلمين ويخل بنظامهم ويوقع فى صفوفهم الاضطراب وينشر بينهم الخوف .. وأيقن أبو عبيد أن قتل الفيل سيرفع روح المسلمين المعنوية ويحفزهم على القتال ويدفع بهم الى خوض المعركة فى ثقة وقوة وانه فى ذات الوقت سيصيب معنويات الفرس فتنهار لأن معنوياتهم كانت ترتبط الى حد كبير بوجود الفيل فقرر أبو عبيد أن يقتله وخاف عليه رجاله فقالوا له « انا نخاف عليك » فقال « ان ربى ينصرنى » ثم سأل « هل لهذا الفيل من مقتل ؟ » فأجابوه « اذا قطع خرطومه فهو يموت « فقال » انى حامل على هذا الفيل ومن حوله من الفرس « فقالوا له » دع عنك هذا الفيل ولك فى غيره سعة « فأجاب » يا معشر الناس انى لحامل على هذا المخلوق فانظروا ان قتلته وهزمت من حوله فانا أميركم وان قتلت فأخى الحكم أميركم فان قتل فولدى وهب اميركم فان قتل فولدى مالك فان قتل فولدى جبر فابو محجن فالمثنى » ..

وتقدم أبو عبيد الى الفيل وحاوره ثم ضرب خرطومه بسيفه فقطعه وهو يرتجز

يا لك من ذى اربع ما أكبـرك
يا لك فى يـوم الوغى ما أنكرك
انى لعـال بالحسام مشـفرك
وهالك وفى الهـلاك لى درك

وأهاجت الضربة الفيل فهجم على أبى عبيد وألقاه على الأرض ووقف فوقه حتى مات .

الدرس الثانى ..

الانسحاب المنظم دون خسـائر

هاجم الفرس العرب بشدة وقتل من العرب كثيرون .. قتل الحكم .. ثم وهب ثم مالك .. القـادة الذين عينهم أبو عبيد قبل وفاته .. ثم قتل كثيرون من بنى ثقيف وأدرك ثقفى يدعى عبد اللهبن مرثد أن كفةالفرس راجحة وأن المسلمين فى موقف يحتاج الى شجاعة ورباطة جاش وشاهد المسـلمين يفرون من ارض المعركة وقد أحاطت بهم قوات الفرس من كل جانب فبادر الى الجسر الذى كان المسلمون يعبرون من فوقه النهر وقطعه ليمنع فرارهم وقال « أيها النـاس موتوا على ما مات عليه امراؤكم أو تظفروا » وفى هذه اللحظات ضغط الفرس على المسلمين فانسحبوا ناحية الجسر وسيوف الفرس تاخذهم من وراءهم ولما وجـدوا الجسر مقطوعا جزعوا وتواثب كثيـرون منهم الى الفرات ونجح بعضهم فى اجتيازه وغرق البعض وهلك من المسلمين أربعة آلاف وهرب ألفان وبقى فى أرض المعركة ثلاثة آلاف .

وكان الموقف حرجا وقاسيا وعصبيا وكان لابد من اجراء سريع يحمى المسلمين .. وتقدم المثنى بن حارثة فتولى القيادة وقدر موقفه وقرر الانسحاب ووضع خطة للانسحاب دون أية خسارة .. وقامت خطته على الأسس التالية :

١ - شد الجسر واعادته الى مكانه لاستخدامه فى العبور .

٢ - تشكيل قوة ضـاربة تحمى المسلمين أثناء العبور وتمنع تدخل الفرس فى العملية .

٣ - وضع نظام للعبور بحيث لا يحدث تزاحم عند الجسر .

٤ - القوة الضاربة تمنع الفرس من عبور الجسر وتعبر هى الجسر فى النهاية .

٥ - تتجمع القوات المنسحبة فى الحيـرة لاعادة تنظيمها .

ودعا المثنى عروة بن مسعود وقال له « انطلق الى الجسر تقف عليه وحل بين العجم وبينه » ثم كون قوة ضاربة تولى هو قيادتها وقال للناس « يا معشر العرب انا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا ولا تفـرقوا انفسكم » .

واستطاعت القوات العربية أن تعبـر الجسر وأن تتجمع فى الأماكن المحددة لها ليعاد تنظيمها من جديد استعدادا لمعركة أخرى قادمة .

الدرس الثالث ..

الحشد العربى

دارت المعـركة بين طرفين .. المسـلمين .. والفرس .

وكان كل من الطرفين يسعى الى حشد أكبر عدد من المقاتلين حتى يضمن النصر فى المعركة وكان عـدد المقاتلين فى جانب الفرس ثمانين ألفـا .. وكـان عدد المسلمين عشرة آلاف وأصبح واضحا أان التفوق العددى فى جانب الفرس .. وهذا أمر له خطورته اذا اضفنا الى قوة الفرس عشرة من الفيلة .

وبالرغم من أن التفوق المعنوى قبل المعركة كان فى جانب المسلمين الا أن ظروف المعركة جعلت هذا التفوق فى جانب الفرس .

وحدث خلال المعركة أمر ذو أهمية كبيرة كان له أثر كبير فى سير العمليات فقد مر بأرض المعركة حرصلة بن المنذر الطائى وهو عربى نصرانى وكان متجها الى الحيرة فى بعض شئونه ورأى ما أصاب العرب فتحركت فيه الدماء العربية والمشاعر القومية وهاجت فيه عروبته وعز عليهم أن ينهـزم قـوم يتفقون معـه فى العـروبة والقومية وأن يكتب النصر لقوم يختلفون عنه لغة وتاريخا وقومية ومسكنا ودما فانحاز الى جانب العرب المسلمين وقاتل معهم قتالا جبارا وبعث الى نصارى النمر ونصارى بنى تغلب يستحثهم لنصرة اخوانهم العرب فخفوا جميعا لمعاونة العرب المسلمين فى محنتهم فشاركوهم مشاركة فعالة وخاضوا معهم غمار معركة كبـرى فى البويب وعاونوهم فى احراز النصر الكبير على الفرس فى هذه المعركة ..

الدرس الرابع ..

موقف القائد العام لجيوش المسلمين

كان عبد الله بن زيد أول مسلم شهد الجسر وقدم الى المدينة ودخل المسجد حيث كان الخليفة عمر بن الخطاب فانشد وهو يبكى :

نعيت الى أهل المدينـــة فتية
على مثلهم تبكى النساء الكواعب
نعيت الى الأنصار فتيانها التى
بها كانت الأحياء طـرا تحـارب

وسأله عمر فى لهفة « ما عنـدك يا عبد الله .. اخبرنى بأمر الجيش ؟ » فقال « يا أمير المؤمنين انعى اليك أبا عبيد وأولاده .. فتلقى عمر الخبر سـاكتا دون أن يبدو عليه الجـزع وذكرت بعض المراجع أنه بكى وضج الناس من حوله بالبكاء وعاد الى المدينة كثير من المسلمين الفارين من المعركة ودخـلوها منكسى الرؤس خزيا وعارا ونزل بعض منهم البوادى خشية ان يلقوا أهلهم فيعيرونهم ورأى عمر حال هؤلاء وهؤلاء فرق لهم ورحمهم وجعل يدفع عنهم برم الناس بهم وسخطهم عليهم وظل يقول « اللهم كل مسلم فى حل منى .. انا فئة كل مسلم من لقى العدو ففظع بشىء من أمره فانا لـه فئة .. يا معشر المسلمين لا تجزعوا أنا فئتكم وانمـا انحزتم الى . يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز الى لكنت له فئة » .

وسمع عمر معاذ القارىء - وهو أحد بنى النجار وهو ممن فروا من المعركة - يبكى كلما قرأ قوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » فقال له « لا تبك ، انا فئتك وانما انحزت الى » .

وهكذا خفف القائد العام لجيـوش المسلمين روع الناس ودفع جزعهم وكان بالمقاتلين رحيما عطوفا بارا .. وكان موقفه هذا من عوامل ارتفاع مستوى المعنويات لدى رجاله المقاتلين فاقبلوا فى المعارك التى دارت بعد الجسر أقوياء على عدوهم حتى كتبوا للاسلام وللمسلمين النصر المبين والمجد العظيم .

ان جيش المسلمين الذى هزم فى الجسر استخلص من أسباب الهزيمة عوامل النصر فى معاركه التالية وأدرك أخطاءه وعرف تكتيك عدوه وفهم وسائل خداعه فأعد للأمر عدته وأعاد تنظيم نفسه واستطاع أن يحرز نصرا مؤزرا فى البويب وسوق الخنافس وسوق بغداد وصفين .. واستطاع أن يقضى على درلة الفرس وأن يجعلها قطاعا من الدولة الاسـلامية وأن ينشر فيها الاسـلام كدين وعقيدة .

موقف الإسلام من الرق

الأستاذ محمد محمد الشرقاوى

لو لم يكن الاسلام دينا فاض من نبع الغيب ، وأحاطته العصمة من كل جوانبه .. لكان نظاما انسانيا على مستوى كافة الانظمة البشرية التى تمخض عنها العقل والاختبار والتجربة فى كل زمان ومكان .. ان لم يفقها

فالواقع ان الاسلام لم يبتدع الرق ابتداعا ، وانما ورثه عن الانسانية فى عهودها الغابرة .. كان تركة مثقلة بالوان الرق والاستعباد ، مطبوعة بطابع التاله الكاذب .. وقد قدم الاسلام فى شرعته السمحة حلولا متنوعة لتلك المشكلة المعقدة التى زادتها الايام الغازا والتواء

وقد كان الاسترقاق شائعا فى سالف العصر .. تسمع قرع عصاه فى كل افق ، وتبصر وثاقة فى كل زاويه من زوايا العالم القديم .. تجده فى فارس والهند والصين وفى مصر القديمة والسودان وفى اليونان والرومان وبلاد العرب .. بل ان « ارسطو » المعروف فى عالم الثقافة باسم « المعلم الاول » راى أن الرق امر طبيعى ، وأن بعض الناس خلقوا فقط .. ليكونوا اذلاء مسترقين بحكم الفطرة ، تحت سيطرة سادتهم الاثينيين .

ويروى لنا التاريخ صورا يندى لها جبين البشرية خزيا وعارا .. ويحاول أن يبرأ منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب .. وذلك حين يقول ان السيد كان مطلق التصرف فى عبيده ومواليه .. يفعل ما يشاء بمن يشاء .. فله حق السجن والجلد .. بل والقتل احيانا ، وبلغ الامر عند الرومان الى حد ان قوانينها تجعل للدائن الحق فى حبس مدينه الحر ، واسقاط حريته وتجريده من آدميته ، اذ يظل فى خدمته الى أن يستوفى دينه .

ثم جاءت الشرائع السالفة فلم تحاول اعلان الحرب على الرق فى اى شكل من اشكاله .. وانما دعت الى الرحمة والرافة وحسن المعاملة مع القريب والبعيد وخوفت من عاقبة التجنى وظلم الانسان لاخيه الانسان .

وبقى الرق على ماهو عليه سواء فى ذلك رق الحروب او رق النخاسة وانبرى رجال من أقطاب الكنائس امثال القديس « اغسطين » فسوغوه واعتبروه جزاء عادلا للخطايا التى يقترفها العبيد ، ودعا البعض الى حرمان الرقيق من شرف الانتماء الى الكنائس عن طريق الوعظ والهداية باسمها ..

ثم اسدل الستار على الفصل الاول من ماساة العبيد التى شهدتها الانسانية على مسرح القرون القديمة والوسطى واختفت من صفحة الوجود قصة الذئب والحمل التى مثلها الانسان مع أخيه الانسان .. ثم دقت نواقيس البشرى مؤذنة بحلول عهد سعيد : عهد الحكومات المتحضرة .. فاشرأبت الاعناق ، وتراقصت الامانى لهذا الوليد الجديد فماذا كان ؟..

كان أن اصدرت فرنسا سنة ١٩٥٨ م قانونا يبيح الرق سمى « القانون الاسود » ونسجت انجلترا على منوالها وهذا القانون يخول لرعاة العهد الجديد أن تمتد أيديهم الى الزنوج لانتزاعها من مهدها ، وتجريدها من اوطانها فى المستعمرات النائية وأهمها المستعمرات الافريقية ، ليجعلوها بعد ذلك نهبا موزعا بين المناطق المفتوحة حديثا فى أمريكا وغيرها ودليلنا ماتراه اليوم فى الامريكتين من الاجناس الملونة التى خلقت مشكلة التمييز العنصرى التى تشكل خطرا داهما فى تاريخنا المعاصر .. فهذه المشكلة أساسا ترجع الى اختطاف الزنوج بقوة الحديد والنار لتعمر غير وطنها ، وتقطن فى غير بيئتها .. ثم يكون جزاؤها اخيرا الحرمان من ابسط الحقوق المدنية بعدم مساواتها مع اخوانهم البيض ، واستمر الاسترقاق الانجليزى يستمرىء سرقة الجنس البشرى ، حتى القرن التاسع عشر .

والاسلام الحنيف بشرعته العادلة ، وانسانيته العارمة يقف من هذه الظاهرة الانسانية موقفا وسطا — كما هو شانه دائما — فى تقنيناته الخاصة والعامة فلا هو يفاجىء التقاليد المتبعة بمصادرة هذا النظام مرة واحدة فى حياة تعتبر الحروب فيها جزءا لايتجزأ من طبيعتها شاء الانسان أم لم يشأ .. ولا هو يستغل هذا النظام الى اقصى ابعاد الاستغلال فى ارضاء شهوة التحكم والتسلط .. ولكنه يحصر الرق فى اضيق موارده ثم يفتح فى نطاقه المحدود منافذ عريضة للتحرر والانطلاق والافلات من قيود السخرة والعبودية ليتخلص الاسلام ماواتته الفرصة من الرق الذى أملته ظروف الحياة املاء لااختيار فيه ، ولا مفر منه وفى الحديث الشريف « من أعتق عبدا اعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار .

فالدين الاسلامى يمنع النخاسة والاسترقاق بالمعنى الذى جرى به العرف القديم .. بمعنى انه لايقر اصطياد الزنوج ولا اختطاف الناس بهذه الاساليب الاستعمارية التى استهدفت عمارة الكون على حساب الحق والحرية ، ولا يسمح بالرق مضطرا الا فى حالة واحدة .. هى

حالة حرب عدوانية مع عدو بعد اعلانه بقيام الحرب ضده ، وحينئذ يكون الاسرى المحاربون وحدهم هم الارقاء .. فلا اختطاف لصغير ، ولا اختلاس لكبير ، ولا سخرة ولا تسخير ، فى خدمة او تعمير فهذه وأمثالها أساليب ظالمة برىء منها الاسلام بقدر ماتهفت عليها المستعمرون

ومن وجهة نظر العدل المجرد نجد الرق جزاء وفاقا لما اقترفته يد المحارب .. فالمفروض أنه امتشق الحسام ضدنا ، وصحت ارادته على النيل منا ، بعد سبق اصرار وتبييت نية ، ولولا أن المقادير امكنتنا منه لامكنته منا ، وحينئذ ماكنا ننتظر منه غير الابادة والفناء ، وهو وان لم ينل من بعضنا منالا .. فقد نال من البعض الاخر .. فقتل من قتل ، واصاب من أصاب .. فلو امكنا سيف العدالة من رقبته ، لما كنا متجنين ولا ظالمين ، والشر بالشر والبادى أظلم » فوضع الاسير فى يد غريمه باسم الدين محقونادمه مملوكه منافعه ورقبته .. مع العفو عنه كلما سنحت لذلك فرصة — هو عدل بل كرم — فى منطق العقل المنزه .

ومع كل هذه الاعتبارات فإن الاسلام لم يبح لاتباعه أن يعاملوا ارقاءهم كما عاملهم الاغيار .. بل حث على حسن معاملتهم واشترع أسبابا عدة لتحريرهم ، والتمس لذلك أوهى الوسائل وأقواها وجعل ذلك من أقرب القربات الى الله تعالى .. فالحق أنه اذا كان هناك تمهيد للقضاء على الرق القضاء الاخير فذلك هو تمهيد الاسلام دون غيره ..

فمن ذلك ماورد فى القرآن الكريم « وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »

وماجاء بالسنة الصحيحة : « اخوانكم خولكم .. جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم مايغلبهم ، فان كلفتموهم فاعينوهم »

وفى حديث آخر : « فماأحببتم فامسكوا ، وماكرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله .. فان الله ملككم اياهم ، ولو شاء لملكهم اياكم »

ومن آخر وصاياه صلى الله عليه وسلم : « الصلاة وماملكت أيمانكم » ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته عتقه »

وقوله عليه الصلاة والسلام : « لايقل أحدكم عبدى .. أمتى وليقل فتاى وفتاتى وغلامى »

وقول على كرم الله وجهه : « انى لاخجل من نفسى اذا استعبدت رجلا يقول ربى »

ولقد سعى الاسلام فى تمهيد سبل الحرية لطلابها فجعل للرقيق حق الكتابة واحراز حريته بالمال ودعا المسلمين الى ترويج هذا اللون من التعامل . بل ومساعدة الراغبين فى ذلك « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »

وقد اتفق الرسول عليه الصلاة والسلام مع أسرى بدر على تحرير أنفسهم مقابل تحرير أبناء المسلمين من الأمية وذلك بتعليم كل أسير عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

ومن شرائع التحرير فى الاسلام ان الامة اذا ولدت من سيدها ولدا فليس له أن يتصرف فيها بهبة أو بيع وبوفاته تصبح حرة فى أكثر أجزائها بلا مقابل وولدها منه يولد حرا ومثل ذلك المدبر .. ومنها احراز الحرية بأى لفظ يلفظه المالك حتى ولو كان مازحا وتخصيص سهم من أموال الزكاة لمساعدة المكاتبين فى نيل حريتهم « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »

ومن ذلك : ان كفارة القتل الخطأ عتق رقبة « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله » وكذلك كفاره الظهارة واليمين والافطار فى رمضان من غير عذر .. الخ

والعبد اذا استرد حريته بوجه من الوجوه ألبسه الاسلام ثوب الاحرار ، ومتعه بكافة الحقوق والالتزامات التى يتمتع بها غيره من المواطنين .. انظر الى صهيب المولى الرومى كيف ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه جعل منه اماما عاما يؤم المسلمين فى الصلاة الجامعة

وأنظر الى بلال الحبشى عتيق الصديق أبى بكر رضى الله عنهما كيف آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين الاحرار .

وهذا زيد بن حارثة يقلده الرسول القيادة العليا لجيش يضم أعيان المسلمين ووجوههم ، ثم يخلفه ابنه أسامه فى قيادة جيش آخر يسير فى ركبه الخليفة الاول ابو بكر مشيعا ومودعا على قدميه بينما يمتطى القائد اسامة صهوة جواده .

هذا موقف الاسلام من الرق والارقاء .. واذا نظرنا فى ضوئه الى حضرات القرن العشرين التى ادعت لنفسها القوامة على حقوق الانسان ، ودعم مفاهيم الحرية بين الناس وجدنا عجبا .. وجدنا أنها ألغت من قواميسها الرق بمفهومه السابق واستبدلت به رقا من نوع آخر . افتنوا أيما افتنان فى صياغة الوانه ، وتخير ألفاظه ، وتلوين صوره .. بينما بقى مسماه وجوهره واحدا لم يتغير .. فهم يطلقون عليه اسم الاحتلال أو الاستعمار أو الحماية أو مناطق النفوذ أو المصالح المشتركة .. أو الاحلاف المركزية ونحو ذلك من أسماء شتى تختلف صياغته ورسوما ، وتتحد معنى ومفهوما .. وهو استرقاق الشعوب النامية ، والدويلات المتخلفة ، واستنزاف موارد رزقها ، فاذا أعطتها صكا مكتوبا بحريتها ، اثارت فى ربوعها نار الحروب الاهلية والانقسامات العنصرية ، والفتن والدسائس التى تشوه مرأى الحرية وتعبث بمقدساتها ، وتغطية لهذه الاعمال القرصانية ألهوا أصحاب الحقوق المشروعة بالمنظمات الدولية .. لتمييع القضايا ، والتلاعب من فوق منابرها بنغمة التعايش السلمى وحق الشعوب فى تقرير المصير وحظر استخدام الاسلحة النووية .. وما الى ذلك .. ولا يزال ظل ذلك الكابوس الثقيل جاثما فوق صدر كثير من عشاق الحرية فى البحرين وعدن والبوريمى وقمران والمحميات العربية وعمان وجنوب أفريقيا وغيرها .

وفى نفس الوقت تغض الامم المتحدة عينها عن ابشع جريمة ارتكبت فى تاريخ البشرية بطرد أكثر من مليون عربى فلسطينى من ديارهم وأموالهم لا لشىء .. الا باسم الامر الواقع .. فبهذا الاسم الذى لانعرف له سابقة فى تاريخ العدالة والحقوق .. يراد بشعب فلسطين الشر ويلقى به فى مهب الريح بلا حاضر ولا مستقبل .. بينما ينعم على أنقاضه حثالة من شذاذ الآفاق وأشتات الصهيونية الذين لفظتهم الحياة وطاردتهم الشعوب لا لشىء أيضا .. الا لانهم شعب الله المختار

هذا هو الرق فى الاسلام .. وهذا هو الرق فى شرعة المتحضرين .. فليحكم المنصفون للاسلام أو عليه .

التعاون الإقتصادى والإسلام

الأستاذ أحمد بديع مصطفى

١ ـ جاء الاسلام دينا يلقى النور على كل خفايا الحياة

فقد كان الناس فى الجاهليـــة متمادون فى شرورهم واعتداءاتهم بعضهم على بعض واتخذت الفردية صورة بغيضة أساسها الانغماس فى الذات والاستهانة بالغير ووصلت تلك الاستهانة الى حد اهدار قيمه وحياته التى لم تكن فى أى منها تساوى مجرد الروية قبل انتهاكها أو سفكها .

وما كانت الحياة القبلية مناقضة لذلك أو مخففة منه بل على العكس كانت سمة متممة لهذه الفردية المضيعة فالقبيلة لا تتجمع الا لاهدار حقوق الغير من أجل نزوة فرد فيها أو صيحة واحد منها كان ظالما أو مظلوما .

وفى خضم هذه اللجة كان لابد لصوت السماء أن يرتفع « عفوك اللهم عفوك » وكان نزول الاسلام هو نعمة الله التى أنزلها بردا وسلاما وسكينة على القلوب القاسـية ليهديها سواء السبيل نزل الاسلام ليحطم الحواجز القائمة بين الفرد والفرد وليمحو ما علق بالأذهـان عن فكرة الربوبية التى لم تكن تتجسد لا فى تمثال أصم يركع له ويسجد .

وهكذا سقطت الأصنام وظهر فجر جديد يعنى قيـام علاقة جديدة بين الانسان وربه وبين الانسان والانسان .

خلق عالم جديد يهتدى فى ظله الناس جميعا حتى من ظلم واستغنى

وأصبحت الدولة الاسلامية لـواء يلتقى تحت ظـله الضعفاء والأقوياء ليأخذ كل ذى حق حقه من مغتصبيه ـ فهى قوة الضعيف وسيف المظلوم .

ولم تعد هناك من كلمة عليا لفرد ـ لم تعـد هنـاك انعزالية أو انغماس فى الذات ، وانما هناك تعاطف وتراحم وتآلف ومودة .

هناك أمر واحد هو الذى يخضع له الجميع وتعنـو له الحيـاة والناس أمامه سواء ـ انه أمر الله اذا أمر وكلمته اذا أوحى ـ صار الشـعار الذى يلتف حوله المسلمون ويرددونه لنبيهم صلى الله عليه وسلم فى خشوع « افعل ما تؤمر »

لقد جاءت الدعوة المحمدية لتحطيم ما يفصـل بين الناس من سـدود ولتقيم مكان ذلك رباطا قويا ووشيجة عمادها التراحم تربط بين بنى الانسان ولذلك فلا غرو أن كان التعاون أحد الأسس التى قام عليها الاسلام .

٢ ـ والتعاون فى أصله اللغوى من العون وهو الظهير على الأمر وتعاون القوم أعان بعضهم بعضا وساعد كـل صاحبه وظاهره .

وقد جاء هذا المعنى فى القرآن الكريم « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » كما يقول الرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ « الله فى عـون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » وكمـا حث القرآن والسنة على التعاون فقد حرما كل ما من شأنه أن يفرق بين جماعة المسلمين فالفتنة أشد من القتل ومن سعى فى الأرض ليفسد فيها ويفرق بين أهلها فله العقاب فى الدنيا وله عذاب الخزى فى الآخرة .

والغش كوسيلة لزرع الكراهية بين صفوف الجماعة قد نفر منه الاسلام وحرمه حتى لقد عد الغاش خارجا عن جماعة المسلمين ففى الحديث الشريف « من غش فليس منا » التعاون اذا بالمعنى السالف الاشارة اليـه

وسيلة شرعها الاسلام وحبذها للوصول الى غايته وهي توفير العزة والقوة والمنعة لأمة الاسلام بتراحم أفرادها ووقوفهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

٣ – ولكلمة التعاون فى المجال الاقتصادى معنى أضيق نطاقا .

فمن المعلوم أنه بعد أن انجلت غياهب القرون الوسطى وظهرت الثورة الصناعية التى بدأت فى انجلترا وامتدت منها من بعد الى دول أوروبا بدأ مع هذه الثـورة قيام النظام الرأسمالي وقد تضخمت رؤوس الأموال وظهـر الرأسماليون ذوو الاطماع والشره وبدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر تسيطر فكرة الربح على عقلية الرأسمالى بصرف النظر عما يلحق من نصب وارهاق نتيجة لفحش الأسعار وتكاليف الحياة .

وأمام هذه الأطماع المتزايدة فى أرباح متضاعفة كان لابد للمستضعفين وذوى الدخول المحدودة من أن يفكروا وهكذا بزغت فكرة التعاون .

كان الغرض من هذه الفكرة ايجاد الوسيلة للتخلص من شره الرأسمالى وربحه الفاحش .

وكما بدأت الثورة الصناعية التى جرت فى أعقابها هذا النظام فى انجلترا بدأت الفكرة التعاونية فى انجلترا أيضا فقد فكر بعض من عمال النسيج فى التخلص من السيطرة القاسية الباغية لصاحب المصنع الذى كان يحتم عليهم شراء جميع لوازمهم من محال له بالأسعار التى يحددها خصما من أجورهم وكانت هذه الأسعار فى حقيقة أمرها نهبا وسرقة ولكن لم يكن فى مقدور أى منهم منفردا أن يصنع شيئا .

وكذلك اتحدوا فى تكوين أول جمعية تعاونية فى التاريخ تشترى لهم ما يحتاجونه ثم تبيعهم اياه بلا ربح تقريبا .

فالتعاون قد قصد به منذ ذلك الوقت الغاء الوسيط صاحب الارباح الفاحشة والقضاء على استغلال التـاجر الشره .

وكانت بذرة صالحة فى أرض خصبة .

كان الهدف هو الخير والقضاء على الاستغلال ولذلك نجحت الفكرة التعاونية واتسع نطاقها وعبرت البحار والمحيطات لينعم بها العالم بأسره ولتصبح البذرة شجرة باسقة وارفة الظلال وهكذا ظهرت فى العالم ثورة أخرى قوامها الخير ومساندة الغير والبعد عن الأطمـاع والاستغلال .

وكانت تلك .. الثورة التعاونية

٤ – اذا ما خرجنا بعد ذلك الى النطاق الدولى والعالمى فاننا نجد أن هذا العصر بلا شك هو عصر التعـاون الاقتصادى الدولى كما أن الظروف والملابسات التى تحيط بعالمنا هى أقوى الدوافع على انتشار صور هذا التعاون.

والتعاون الاقتصادى الدولى يتمثل اليوم فى صورتين :
أولاهما التعاون على المستوى الاقليمى وقد لجأت اليه دول عدة لعل أشهرها دول أوروبا الغربية التى أقامت أنواعا مختلفة من التعاون الاقتصادى فيما بينها .

والثانية التعاون على المستوى العالمى فقد أعقب انتهاء الحرب العالمية الماضية ظهور صور تطبيقية لهـذا التعاون سواء فى منظمات هيئة الأمم المتحدة أم فى البنـوك والصناديق العالمية التى تكونت نتيجة لتضافر وتعاون الدول جميعا .

ولعله – كما قلنا – أن يكون فى ملابسات هذا العصر من حيث التنافس الوحشى بين مختلف الدول ونهـوض الشعوب المغلوبة على أمرها لتستخلص حقوقها من أيدى غاصبيها ونجاحها فى ذلك نجاحا فاق كل تقدير – لعل هذه الملابسات بالاضافة الى تحكم دولة كالولايات المتحدة الامريكية فى العالم الرأسمالى بأسره دفع كثيرا من الدول وخاصة دول أوروبا الى الأخذ بأسباب التعاون الاقتصادى فيما بينها ثم تطبيق ذلك تطبيقا عمليا فى صور متعددة ونظم شتى لعل أشهرها السوق الأوروبية المشتركة .

وانه لتجرى فى فرنسا بالذات حركة ضخمة تستهدف الوحدة الأوروبية الكاملة ويحاول ديجول أن يتقدم فى خطواته نحو هذا الهدف بل ويتوقع المراقبون دائما أن يقوم ديجول باجراء استفتاء شعبى حول مسألة الوحدة الأوروبية – رغم ما يسببه له تبنى هذه الفكرة بقوة وعناد من متاعب سياسية يصبها بعض الساسة الذين لا يرغبون فى اقامة هذه الوحدة بهذه السرعة وحين يحاول ديجول اجراء هذا الاستفتاء الشعبى فانما يود أن يكون سـندا قويا له وركيزة يعتمد عليها .

ولا يخفى فى نهاية الأمر أن النجاح فى أمور التعـاون الاقتصادى ليس مرهونا بكبر الدول المقيمة له والآخذة به سواء فى المساحة أو الحجم أو الموارد فهو وسيلة للنهوض باقتصاديات الدول المشتركة – وسيلة هى فى ذاتها سبب التقدم وعلته بل وفى خصوص كبر الدول حجما وصغرها لدينا ما نقوله عن الكاتب الاجتماعى دى جريف من أنه « كلما صغرت الدولة حجما تقدمت بخطى أسرع فى طريق النجاح » .

٥ – واننا لنؤمن أن النظريات كاذبة مضللة اذا استوردت من منبتها لتزرع فى أرض أخرى دون مراعاة للمناخ الجديد الذى يحيط بها .

ان النظريات لكى تصدق نتائجها لابد لها من أن تزرع حيث يمكن أن تنبت وأن تؤتى أطيب الثمرات

ولذلك وجب الرجوع الى أصول تلك النظريات فاذا ارتبطت بأصول الواقع والعقيدة لدى شعب ما أو أمة بعينها كانت صالحة لها زمانا ومكانا والا فليبحث كل شعب عن المجال الذى يمكنه فيه أن يلائم بين ظـروفه وبين مقتضيات تقدمه ونجاحه .

والنظريات الاقتصادية بخاصة تبنى دائما على أساس من واقع المجتمع الذى تستورد منه وأسبابها ونتائجها ليست عامة مؤكدة الحدوث أنى طبقت فروضها فهى لذلك قد تصلح لمجتمع دون آخر وكم من شعوب تهافتت على مبادىء وقيم لا تصلح لها فكانت كما قال الشاعر .

رويدكمـو فان بنى كليـب
أرادوهـا فسـامتهم لظـاها

ونحن حين تحدثنا عن التعاون داخل المجتمع – التعاون بين الفرد والمجتمع من أجل الغاء الاسـتغلال والربح الفاحش الذى يحصل عليه الوسطاء قلنا أن هذا المظهر للتعاون الاقتصادى نشأ أول ما نشأ فى انجلترا .

ولكننا لو تعمقنا أصل هذا المبدأ وربطنا بينـه وبين عقيدتنا لوجدنا أنه منذ نيف وثلاثمائة سنة لمع جوهر هذا المبدأ على أرض الجزيرة العربية حين انبثقت دعوة محمد ابن عبد الله – عليه الصلاة والسلام – أليس هو القائل « الناس بخير ما تعاونوا » .

أليس هو الذى نهى عن الاحتكار وعن الاستغلال .

بل أليس الدين الاسلامى هو الدين الذى حرم الربا لأنه كسب فاحش يكسبه المتكاسل المتهاون الخامل دون أن يقدم من العمل ما يكافأ عليه بمثل هذا الربح .

ان القرآن الكريم الذى نزل على محمـد لا يرضى باستغلال الناس ولا بفحش الربح المبنى على اقتنـاص الفرصة حين الحاح الحاجة .

يقول الله تعالى « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم »

والدين الاسلامى – جوهرا وتطبيقا – انما جاء ليؤاخى بين الناس ويحثهم على التراحم والتكافل والتعاون وأن

لا يستغل الانسان أخاه الانسان .

وهذا الدين القيم اذ جاء ليوافق وقائع الأحوال فى الدنيا بأسرها أنى كان المكان ووقتما يكون الزمان لابد وأن يأمرنا بالتعاون بين البشر - فالتعاون تفرضه طبيعة الأشياء على الناس

اننا لو نظرنا الى المجتمع الصغير - مجتمع المدينة ماذا نرى ؟ .

ان مدينة كطوكيو أكبر مدن العالم والتى يبلغ عدد سكانها عشرة ملايين شخص أو لندن ثانى مدن العالم والتى يبلغ عدد سكانها ما يربو على الثمانية ملايين أو نيويورك والتى يقارب عدد سكانها الثمانية ملايين - هذه المدن تذهلنا فيها تلك الأعداد الضخمة ويفزعنا النظر الى مواردها الضئيلة الى حد العدم بالنسبة لهذه الضخامة العددية الهائلة .

بل انه ليهولنا أن نفكر فيما يمكن أن يحدث لو لم يقم التعاون بين مثل هذه المدن وبين جاراتها لاشباع الحاجات المختلفة

ان السلع والخدمات التى يحتاجها سكان تلك المدن لا يعتمدون فى اشباعها على مواردهم وحدها بل لابد أن تأتى اليهم مما حولهم من بلاد الدولة بل وعبر المحيطات والقارات من الاقطار الأخرى .

والأمر لا يختلف بين المدينة والمدينة عن الأمر بين الفرد والفرد .

ان تعاون الأفراد هو حكمة الطبيعة وهو سر النجاح فى مواجهة الحياة وعلة التقدم ازاء الصراع معها .

وانه أولا وقبل كل شىء أمر الله الى عباده

ونحن كأمة مسلمة تلقت أمر الله بالتعاون لا يمكن لها أن تبخل بجهد فى سبيل ادراك وتحقيق كل مايمكن أن تحمله هذه الكلمة من معنى .

ان المعانى الاقتصادية الجديدة المتطورة لهذا اللفظ لا تنفى أن له جذورا عميقة فى عقيدتنا وديننا وعلينا أن نحرص كل الحرص عليها ويكفينا قول الرسول الكريم « يد الله مع الجماعة » .

٦ - أما بالنسبة للتعاون الاقتصادى بين الدول فانه أمر لم يدع اليه الاسلام فحسب ولكنه جعل أساسا من بين أسسه التى جاء ليقيمها فوحدة المسلمين تحت راية الاسلام واعتصام المسلمين بحبل الله - أمة واحدة وكل لا يتجزأ أمر من بديهيات الدعوة المحمدية وأصل من اصولها .

الاسلام لا يعرف الفرقة فى صفوف المسلمين ولا يعرف الخطوط والحدود بين الدول الاسلامية وانما يعرف أمة واحدة مسلمة .

الاسلام جعل المسلمين جميعا وفى جميع أقطارهم دارا واحدة هى « دار الاسلام » دار السلام .

الاسلام جعل المسلمين جميعا بعضهم أولياء بعض وخاطبهم فى أوامره ونواهيه خطابا واحدا جامعا فمن البداهة أن يكونوا وحدة متماسكة فى كل أمورهم .

لقد عنى الاسلام عناية عظمى بالتعاون الجماعى بين الدول الاسلامية وهيأ المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ليكونوا جسدا واحدا تتعاون سائر أعضائه هادفا بذلك لأن تكتمل للامة الاسلامية أسباب العزة والمنعة .

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

هكذا بدأت الأمة الاسلامية منذ بدأت - أقطار تجمعها وحدة متماسكة .

ومنذ فجر الاسلام وعلى رأس هذه الامة الواحدة واحد من خير أبنائها .. كان الخلفاء الراشدون

والزكاة تجمع لتصرف فى شئون الأمة جميعها فالغنى فى المشرق أخ للفقير فى المغرب يعاونه ويأخذبيده والقوى فى المغرب شقيق للضعيف فى المشرق يؤاخيه وينصره فمحمد - عليه الصلاة والسلام - قد أرسل للناس كافة وهونادى الانسانية جمعاء بنداء واحد أساسه الأخوة والتراحم ويدعو للتعاون بين أبنائها جميعا . الخلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله »

والتعاون الاقتصادى كشق وصورة من صور التعاون بمعناه العام واجب محتم على الدول الاسلامية وهى اذ تأخذ به لا تستورد مذهبا ولا تقلد تقليدا ولكنها ترجع الى أصل رائع من أصول عقيدتها المحمدية .

٧ - ونحن الأمة العربية قلب العالم الاسلامى النابض وفكره الذى يحرك أعضاءه حركة الحياة والتقدم - نحن أولى الناس بهذا الدين الحنيف وأولى الناس بتعاليمه أن نتفهمها ونتشربها ونكون بها قدوة لكل مقتد وأسوة لمن كان له قلب .

ان التعاون الاقتصادى وقد غدا ضرورة تنبهت لها قبلنا دول عدة وروحا جديدة تسرى بين أرجاء المعمورة - هذا التعاون نحن أولى الناس به .

ان المنطقة العربية لابد لها وأن تتعاون اقتصاديا خاصة وهى تسعى جادة فى طريق الوحدة الشاملة - عليها أن تتعاون دفاعا عن مصالحها الأساسية ومقومات اقتصادياتها ورفعا لشأنها بين دول العالم واذا كانت هناك منظمات تعاونية اقليمية قد نجحت فان الأجدر بالنجاح هى المنظمات التى ينبغى أن نقيمها لأننا نرتبط جميعا بروابط قلما تتوافر لأية منظمة أخرى فى العالم .

ولسنا نصدر فى ذلك عن عاطفة أو منطق دعائى .

ولكن الحقيقة أن واقع الدول العربية وصلاتها وكيان كل منها وهدفها اسمى فى الوحدة والذى يربطها برباط مقدس - كل ذلك يدفع بقوة الأشياء وطبيعة الموقف الى التعاون الاقتصادى .. الخطوة الأولى فى طريق الوحدة الاقتصادية .

ان العالم كله يسير فى هذا الطريق لانه أصبح السبيل الوحيد للخلاص من الأزمات الاقتصادية والانكماش ونقص التجارة الخارجية ولا نلوم الا أنفسنا ان تخلف بنا الركب لنكوصنا عن هذا السبيل .

وكيف لنا أن نتخلف وكتاب الله يدعونا الى الوحدة والتعاون « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا »

ان الاقتصاد علم والتعاون الاقتصادى جزء من هذا العلم - والعلم لا يمكن أن يتعارض مع الدين بل هو وسيلة الى حقيقة فهمه والى ادراك مراميه وهو السبيل الى خشية الله « انما يخشى الله من عباده العلماء »

لقد كان العلم طريقا سلكه كثير من أهله ليهتدوا من بعد ضلالهم أو ليزدادوا ايمانا بالله وبوجود الخالق الأعظم .

ان اينشتاين العالم يقول فى حديث صحفى له « انا أومن كل الايمان بوجود خالق لهذا الكون وكلما تعمقت فى دراساتى وأبحاثى ازداد ايمانى عمقا ورسوخا » .

وسبحانك ربى .. خلقت العقل وأنرت للعقل السبيل كى يحس وجودك من خلال عظمتك ويؤمن بك من خلال قدرتك .

سبحانك ربى .. أمر بالخير والتعاون والتآخى وقد أتى علينا هذا الزمان موجبا أن نمتثل لهذا الأمر امتثالا لا غاية له الا مرضاتك أولا - وخيرنا وتقدمنا ووحدتنا من بعد ذلك وأنت المعين .

انسان الإسلام

مزاج بين الروح والجسد

الأستاذ ابراهيم عوضين

ان الاسلام ـ حين يقدم انسانه ـ ليعرض فكرة فى الانسان لم تعرضها عقيدة سبقت ، ويستطيع أن يجزم كل منصف ـ فى ثقة ـ بانه لن تعرضها عقيدة تجد ، ولا مذهب يبتدع .

وليس هذا القول مبالغة من باب الدعاية والاعلان ، ولكن دراسة العقائد السالفة والمحدثة ـ وعلى الخصوص عقائد القرن العشرين ـ وتدبر نظرتها الى الانسان ... ذلك كفيل بتقرير تلك المقالة وتأكيدها .

فالانسان عند بعض أهل العقائد الالهية ـ كما يقول المرحوم الأستاذ العقاد ـ روح وجسد ، ينجو شطره بمقدار مايهلك شطره الآخر ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء .

والانسان ـ عند بعض آخر ـ انسانان ، انسان صحيح مقبول ، وانسان زائف مدخول .

والانسان عند طائفة ثالثة ـ يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ، ومن اباء او اختيار .

والمادية التاريخية قدمت الانسان باعتباره عملة اقتصادية فى السوق تتأثر قيمتها تبعا للرواج والكساد .

والفاشية وصفته بانه واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وأن الجميع عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد ـ قبل ذلك ـ عبد للسيد المختار بغير اختيار .

وقالت العقلية : ان الانسان فى الناس وهم من أوهام الذهن ... والموجود على الحقيقة هو الفرد الواحد . وبرهان وجوده أنه يفعل ما استطاع من نفع أو أذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث .

***

أما الانسان فى الاسلام فيختلف عن كل ذلك اختلافا كبيرا ...

١ ـ فهو مزاج من الروح والجسد ...
فانسان الاسلام ليس مخلوقا أرضيا بحتا ، وليس مخلوقا روحيا مجردا ، وليس الاثنين معا .... انما هو مزاج من الاثنين (المادة والروح) .

« اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين » .

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» (٧١ ـ ٧٢ ص)

وعن هذا المزاج المتفاعل نشأ فى الكيان البشرى ضرب من الحياة فيه خصائص الطين والمادة ، وفيه سمات الروح ...

ضرب من الحياة يجمع بين سر السمو والنزوع الى الله ، وبين الانجذاب الى الأرض والركون الى متعتها الحيوانية ...

وبتعبير آخر نقول : ـ نشأ عن هذا المزاج مجموعة من القوى الفطرية تتنازعه ، فتوحى اليه كل واحدة ما تراه خيرا له ... فغريزة البقاء ـ احدى تلك المجموعة الفطرية ـ هى التى توسل بها الشيطان ، واستثارها فى نفس آدم ، ليدفعه الى الأكل من الشجرة المحرمة .

« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما . » (٢٠ الأعراف) .

فقد كانت هذه السوءات مستورة عنهما ، ولم تنكشف لهما الا بعد الأكل من الشجرة .

« فلماذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . » (٢٢ الأعراف) .

والى جانب هذه القوى التى تشير الى ما فى طبع الانسان من ضعف وغفله وفتور عن رعاية الحدود،نجد قوى أخرى تشير الى أثر الروح حين يشع على النفس عقب الخطيئة ، فلا يجد الانسان ملجأ من الله الا اليه ، فيقبل عليه فى انابة وخضوع .

« قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . » (٢٣ الأعراف)

***

ولقد عمل الاسلام على تأكيد ذلك المزاج بين روح الانسان وجسده ، حتى لا يقع فى تناقضات تجعله مهتز العواطف ، مضطرب التفكير ، مشمولا بالحيرة .. انهو لبى حاجات جسمه ، أو لبى مطالب روحه ... فمزج - لذلك - بين وسائل الحياة ، وجعل حاجات الجسم - اذا لبيت بطريقة مخصوصة - فى خدمة الروح ، كما جعل مطالب الروح - اذا لبيت بطريقة مخصوصة - فى خدمة الجسم ... واهتم - الى ذلك - بتوضيح تلك الطريقة المخصوصة .

وبذلك ضمن الاسلام لانسانه حياة رغيدة ، يزينها الهدوء الرحيب ، ويقودها التوازن العميق .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله اليك ولاتبغ الفساد فى الارض . ان الله لايحب المفسدين . » (٧٧ القصص) .

فليس السعى فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة، وليس فى القرآن فصام بين روح وجسد ، ولا انشقاق بين عقل ومادة ، ولا انقطاع بين سماء وأرض ، ولا تفرق فى العقيدة يوزع الذات الانسانية بين ظاهر وباطن ، وبين غيب وشهادة .

بل هى العقيدة على هداية واحدة ، تحس الروح كما تحس بالجسد فى غير اسراف ولا جور عن السبيل .

« وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر . » (٩ النحل)

لقد جعل الاسلام رسالة الانسان فى الحياة عبادة الله.

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .
(٥٦ الذاريات)

والعبادة مطلب من مطالب الروح فى تصور الاذهان .

ولكن العبادة مزاج من مطلبى الروح والمادة فى تصور الاسلام ، فمهوم العبادة فى الاسلام شامل ، يتناول التجمع النفسى للانسان والتجمع الحركى .

ففى الاسلام - وحده - يملك الانسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته ، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه ، وأن يحقق كماله الانسانى الذى يطلبه الدين فى مزاولة نشاطه اليومى فى خلافة الأرض ، وفى تدبير أمر الرزق ... ولا يتطلب منه كل هذا الا أمرا واحدا ...

هو أن يخلص العبودية لله فى الشعائر التعبدية وفى الحركة العملية ...

أولا : الطعام والشراب والاكتساء والنوم والنكاح والكسب والنزهة ، وكل حركة وخالجة ، وكل عمل ونية ونشاط ، وكل اتجاه تدفع الانسان اليه فطرته وتقوده فى سبيله طبيعته - مادام لايتجاوز دائرة الحلال الواسعة التى تشمل كل طيبات الحياة - اذا صنعه الانسان مؤمنا فى قرارة نفسه بانه انما يفعل مباحا يطيع فيه الله ، ويكف به عن نفسه عن الانزلاق فى محرم يسخط الله ، ويؤذى اخاه الانسان ...

اذا صنع الانسان هذا مؤمنا فى قرارة نفسه بانه انما يأخذ بأسباب القوة التى تجعله قادرا على القيام بواجب الانسان فى دنيا الانسان ... فانها عندئذ تصبح عبادة يثاب عليها الانسان ، ويجزى خير الجزاء .

قال - صلى الله عليه وسلم - : « من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة وسعيا على عياله وتعطفا على جاره لقى الله ووجهه كالقمر فى ليلة البدر » .

وكان - صلى الله عليه وسلم - جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا الى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى، فقالوا : ويح هذا !.. لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله .!!

فقال - عليه الصلاة والسلام - : « لا تقولوا هذا ، فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفهم فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو فى سبيل الشيطان . »

وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون . »
(١٧٢ البقرة)

حاجات يطلبها الجسم تخدم مطالب للروح لمجرد أن الانسان نظم طريقة تناولها - مترسما هدى الله - ومجافيا كل ما ينهى عنه الله - فاصبح فى ذلك العمل متعبدا ماجورا ، بل ان تحقق العبادة منوط بتحقق تلك الحاجات الجسمية كما تشير الآية الكريمة ...

ثانيا: - وطاعة الله سبحانه - بالاستجابة الى أوامره، والانتهاء عن نواهيه ... مطلب من مطالب الروح ، ولكنه - فى الاسلام يخدم الجسم ، ويلبى حاجاته ، فلو بحثنا تلك الأوامر،ونظرنا فى تلك النواهى لوجدناها تشمل جميع جوانب الحياة الانسانية .

ا) يدفع الاسلام انسانه الى غسل بعض اعضاءجسمه عدة مرات فى اليوم ، والى غسل سائر الاعضاء فى مناسبات خاصة ، ويحثه على ادامة التطهر ، والاحتفاظ بنظافة الثوب والبدن .

والانسان - اذ يستجيب لذلك - انما يستجيب لحاجة الروح - عند الصلاة - ولكنه يحقق مطلب الجسم كذلك، لأن الجسم تصلحه النظافة ، وتصونه فهى من مطالبه أيضا ..

ب) ويتدخل الاسلام فى مطعم الانسان ومشربه ، فيحرم عليه بعضها ...

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ماذكيتم وماذبح على النصب وان تستقسموا بالازلام ... » (٣ المائدة)

« يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . » (٩٠ المائدة)

ويبيح له ما عدا ذلك المحرم ، بل ويأمره بتناول الطيب منها .

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون . » (١٧٢ البقرة) .

وينصحه بالاتزان فى تناول ما يتناول .

« وكلوا واشربوا ولاتسرفوا انه لايحب المسرفين »
(٣١ الأعراف) .

الانسان حين يأتمر بتلك الأوامر ، وينتهى عن تلك النواهى - لا يستجيب لمطلب الروح - فحسب - بل هو يحقق الى جوار ذلك حاجات الجسم ، بتناول ما يصونه والنأى عما يؤذيه ويتلفه .

حـ) والاسلام - لهذا السبب ذاته - كلف انسانه بنوع محدد من اعباد الى جوار تلك العبادة غير المحددة - يطالب كل فرد بأدائها ، تثبتا، تثبتا لما تحققه العبادة فى شمولها وتقريرا له، وتاكيدا لما اشتمله كل فرد من مثل وفضائل

اذالباطن وحده لايكفى فى كون يمتزج فيه الظاهروالباطن ليكون وحدة واحدة .

فلابد من أن تتأكد الصلة بينها وتقوى ، بأن ينضح هذا الباطن من خفاياه ما يبدو على ظاهر صاحبه فى تلك الصورة المحددة بفروض الاسلام الأربعة (الصلاة والصيام والزكاة والحج) ومناهج الاسلام العملية كافة ... ويتوج تلك الفروض وهذه المناهج ركن الاسلام الأصيل (توحيد الله) .

والعبادة المحددة - فى الاسلام - يتضح فيها امتزاج الروح بالمادة كل الاتضاح كما هو الحال فى العبادة غير المحددة على ما سبق بيانه .

***

فالصلاة ... أقوال وأعمال مادية ، وشحنات وأحاسيس روحية ، ولا غناء فيه لأحدهما عن الآخر ، لأن الصلاة الشكلية لا يعرفها الانسان .! فقد جعل الاسلام الصلاة الشكلية لايعرفها الاسلام . ! فقد جعل الانسان فى أثناء آدائها .. !

أ) لأن الصلاة - فى الاسلام - تنهى عن الفحشاء والمنكر .

« اتل ماأوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة . ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . » (٤٥ العنكبوت).

ب) ولأن الصلاة فى الاسلام تأمر صاحبها بالتزام الجادة، والبعد عن التقليد .

« قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟!

« انك لأنت الحليم الرشيد . » (٨٧ هود) .

حـ) ولأن الصلاة فى الاسلام - مع كل ذلك تهيىء صاحبها للحياة الهادئة ، وتعينه فى تحقيق الاستقرار .

« واستعينوا بالصبر والصلاة . وانها لكبيرة الا على الخاشعين » (٤٥ البقرة)

« يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين . » (١٥٣ البقرة)

***

ولما كانت الصلاة النفسية الخالية من الشكل المحدد فى الوقت المحدد ... لا يعرفها الاسلام بديلا عن تلك الصلاة، فلا بد - لذلك - من حاول مواقيت محددة لادائها .

« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » . (١٠٣ النساء)

ولابد من أن تسبق بالوضوء أو ما يحل محل الوضوء.

« يأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين . وان كنتم جنبا فاطهروا . وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » (٦ المائدة) .

وصورة الصلاة لا تتغير الا فى الضرورة ... والذى يغيرها ليس المصلى ، ولكنه الله سبحانه .

« واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا .. » (١٠١ النساء)

فلا الصلاة - فى الاسلام - بالاستغراقات الروحية المجردة ، ولا هى بالطقوس الشكلية الجامدة .

انما هى مزاج بين الاثنين فى توازن وائتلاف .

***

والصوم .. امتناع عن مباحات مادية لصالح الانسان ماديا وروحيا .

ففى تحريم الاسلام على انسانه تناول ما هو مباح فى العادة - بل ما هو ضرورى لحفظ البقاء - تقوية لجانب الروح فى مواجهته استبداد حاجته المادية .

فالانسان فى الصوم أمام امتحان المادة بشتى أنواعها - الأكل والشرب والمتعة البدنية - فاذا لم يستجب الانسان لذلك الاغراء ، ودفع عن نفسه شهوة البدن فقد وصل الى :

أ) قوة الارادة والعزم والتصميم ، ومن ثم لا تضغط عليه عوامل أخرى غير انسانية فى تفكيره وفى وجدانه ، وبالتالى فى اتجاه البشرى ، وبالتالى فى اسهامه فى محصول الحضارة الانسانية .

ب) الحرية ، وبذلك ينسحب الانسان من أسر المادة المستبدة ، ويتخلص من ظلمة الشهوة القاهرة ، فيحيا فى جو يسوده الوئام ، ويرفرف عليه التوافق والانسجام .

حـ) السلام الداخلى والخارجى ، اذ الصوم يحول بين الانسان وبين كل صراع نفسى حين يخلص الروح من طغيان المادة ، لأن طغيان المادة يقضى على الروح ويقضى على المادة فى نفس الوقت .

« وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون . » (١١٧ آل عمران)

ولقد أثبت الطب الحديث - فيما اكتشفه من أسرار صنع الله - أن انهماك الانسان فى المطاعم والمشارب ينهك الجسم،ويقضى على خلاياه ، كما يحدث تماما حين يمنعه المطاعم والمشارب .

وبذلك يتحقق للانسان السلام الى جانب الحرية والقوة ... وكل منها يندرج تحت القوى .

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . » (١٨٣ البقرة)

***

والصوم - على هذا - لا يقف عند حد الشكل ، لأن الاسلام - كما سبق أن قررنا - لا يعرف الشكليات المجردة ، ولا التجريد الخالى عن الشكل ، اذ كل منهما يكمل الآخر ، ويسهم فى البناء المطلوب .

فلا يقفن انسان بالصوم عند الجوع والعطش ، لأن الصوم فى الاسلام - كما قلنا - أجل من ذلك، واكبر من أن يكون كذلك .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » رواه الجماعة الا مسلما والنسائى .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ، ولا يصخب ، فان شاتمه احد أو قاتله فليقل انى امرؤ صائم . » متفق عليه .

***

والزكاة ... اقرار من الانسان بأن ما يصل الى يده من ماديات ليس مختصا به وحده ، ولكن له شريك فيه بنسبة محدودة على وجه الشيوع .

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم . »(١٩ الذاريات)

وهذا الحق المادى يخدم الروح ويخدم المادة فى الانسان .

أ) يخدم الروح بما يطبع عليه الانسان من أن الملكية المادية - ليست كما تصورها انحرافات الماديين غاية للانسان يعمل من أجلها ، ويذل نفسه ، وينهمك بجملته فى سبيلها ... وانما هى وسيلة لغاية أسمى وأنبل ، فاذا تعارضت تلك الملكية مع تحقيق تلك الغاية ، وكانت حائلا دون الوصول اليها ، فما يحق للانسان أن يهتم بها ، والا فعليه أن ينتظر كوارث تحيق به ، وويلات تتخطفه ،

وانهيارات لا ارتفاع بعدها الا أن يثوب الى رشده ويعود الى الحقيقة التى غابت عنه ، أو ضل هو طريقه اليها .

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتى الله بامره .

والله لايهدى القوم الفاسقين . » (٢٤ التوبة)

فكما يجند الانسان نفسه فى طاعة ربه ، يضع ـ كذلك ـ ماله فى طاعة ربه ، اذ فى تلك الطاعة تلبية لمطلب من مطالب الروح يحقق السعادة والاطمئنان .

ب) ويخدم المادة بما يشيعه فيها من اطمئنان ، لأن الحق الذى يقدمه الانسان ليس الا قسط تأمين فى مواجهته العوز والحاجة المادية .

فلن يخشى الضياع انسان الاسلام اذا ما تقلبت به الأيام ، وتغيرت معه الاحوال ، واكفهرت فى وجهه الحياة ، وانتقل من القوة الى الضعف ، أو تحول من الغنى الى الفقر ، لأن الزكاة حق ثابت فى مال من معه مال ، وموجه الى من لايملك .. ايا كان المالك ،وأيا كان المملك . فما تعطيه اليوم قد تعطاه غدا .

وليس من الحكمة أن يترك الانسان تتحكم فيه مطالب المادة فيشبعها مما يملك دون أن ينظر امامه .

ثم ليس من الحكمة أن يترك الانسان تتحكم فيه مطالب المادة فترغمه على اشباعها مما لا يملك ـ حين يتغير حاله ـ باية وسيلة يمكنه أن يحقق لها به الاشباع المطلوب .

فمثل هذا ... لا يقام له وزن فى الاسلام .

وانسان الاسلام بعيد كل البعد عن أن ينحط الى هذا الدرك ، أو يهوى الى هذا الحضيض ، لانه يقدم ما فى ماله من حق معلوم .

وهو يقدم هذا الحق خاليا من المن والأذى ، لأنه لا يرضى ـ اذا احتاج يوما ـ أن يقدم اليه حقه مصحوبا بالمن والأذى ، ولأنه تقديم حق ، وحرى بالانسان المسلم أن يقدم ما عليه من حقوق راضى النفس ، حسن السمت .

« الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى . والله غنى حليم . » (٢٦٢-٢٦٣ البقرة)

وانسان الاسلام يفهم الهدف من الزكاة ، ولذلك فهو يبعد بها عن الشكل المادى وحده ، ويعمل على أن يمتزج فيها الشكل والروح .

« يايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا . لايقدرون على شىء مما كسبوا .

« والله لا يهدى القوم الكافرين . » (٢٦٤ البقرة)

***

والحج ... تجرد مادى من زينة الحياة وزخارفها ، يخدم المادة فى الانسان كما يخدم الروح ...

فهو يوقظ فى الانسان الوعى ليقف بالامور عند حقائقها.

وهو يذكر الانسان بالأصل الذى سينتهى اليه حتما كل انسان ، ويرده الى الصواب فترة من الزمن تتوسط مظاهر بعيدة عن الصواب .. الأمر الذى يجعل كل انسان يذكر قيما أخرى يخضع لها تكوينه فى جوار قيم المادة ، ويجد حقائق اصيلة ـ فى جانب حقيقة المادة ـ ضلت عنه فى متاهات الاستمتاع المادى .

« كلا أن الانسان ليطغى . ان رآه استغنى » الآية ٦ ٧ العلق)

ومن ثم تتوقى المادة مزالق الغرور ، وتصان الروح من استبدادات المادة ، ويمتزجان فى اطار المساواة الانسانية المتسق المحبوك .

« ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . » (١٩٩ البقرة)

والحج ـ الى جانب التجرد ـ امتحان لانسان الاسلام فى غريزة حب التملك والاستحواذ ، يتمثل فى تحريم الصيد على الحاج أيا كان نوع الصيد .

« يايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . أحلت لكم بهيمة الانعام الا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم . ان الله يحكم مايريد . »

« يايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . »

« واذا حللتم فاصطادوا . » (١ ـ ٢ المائدة)

وأوضح ـ سبحانه ـ القصد من ذلك التحريم فى قوله :ـ

« يايها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب .فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم . » (٦٤ المائدة).

فلا يغفلن انسان عن مراقبة نفسه ،حتى لاتستبد به حاجاته ، فتدفعه ـ فى سبيل اشباعها ـ الى اذلال نفسه أو تحقيرها ... وما يصح أن يظل انسان الاسلام فى حاجة الى من يقوم بأمره ويوجهه ، فقد بلغ الرشد وحق له ـ مع الاسلام ـ أن يقوم بامر نفسه ، والابتعاد بها عن المزالق والمهاوى .

***

وهكذا يجعل الاسلام انسانه ـ وهو يشبع حاجاته المادية ـ على صلة بربه لا تنقطع ، وتذكر له لا تغفله عنه شهوة ، ولاتنسيه اياه نزوة ولا يسخطه على واقعه ضيق أو حرمان .

كما يجعله ـ وهو يلبى مطالب روحه ـ على ذكر من جسمه المادى بما يحققه ـ حينذاك ـ من حاجات ومطالب .

انه يجعل من دنيا انسانه ـ متمتعا بلذائذها ـ معبرا الى آخرته ...

فلا انهماك فى المادة يفسد الروح ، ولا حرمان من الماديات يثير الانفعال ، فتضطر له النفوس .

وأى داع يدعو انسان الاسلام للفساد وقد عرف أن باستطاعته تحقيق شهواته ، والحصول على ملذاته باعتبارها عبادة يتقرب بها الى الله ؟!

فما عليه الا أن تصفو سريرته ، وتخلص نيته ، ويلحظ الله فى كل خلجة من خلجات نفسه ، ليصبح ـ وهو ينال متعه الحيوية ـ انسانا يطيع الله ، ويبتغى مرضاته ، فلن ينسيه شىء ربه ما دام الاسلام يقر له بكل هذه الحقوق، ويأجره على تحقيقها .

وهكذا يخلص الاسلام انسانه من التناقض والتضارب الذى فرضته عليه شرائع فاسدة مختلة ، حين أوجبت عليه زهادة فى تناول الحياة والاستمتاع بما فيها ، بينما طبيعته تطالبه بعكس تلك الزهادة ليشبعها ...

والانسان ـ بين تلك الشرائع وفرائضها ، وبين تلك الطبيعة ومطالبها ـ حائر تائه ، لايدرى له طريقا ، الا أن يتخبط يمنة آنا ويسرة آنا آخر .

ولم يخلص الانسان من ذلك الا الاسلام الذى نظم له حياته ، وأنار أمامه السبيل ، والقى عن كاهله ما دان عليه من تناقض وتضارب .

الصوم

ظاهرة حيوية

تصلح بها الحياة فى كل الأحياء

للأستاذ أحمد ابراهيم الشعراوى

عندما يتحدث الناس عن الصوم يتبادر الى اذهانهم معناه الدينى ، وهو امساك **الانسان عن الطعام ، والشراب ، والملابسة الجنسية ، من طلوع الفجر ، الى مغيب الشمس ، امتثالا لأمر الله - سبحانه - وغالبا ما يقترن بهذا المعنى المتبادر توهم أن الصوم من خصائص الانسان ، ولا يشاركه فيه سواه .**

والواقع أن ما ينفرد به الانسان من أمر الصوم هو أنه يقدم عليه باختياره ، وأنه مكلف به ، وأنه منوط بنتائج هذا التكليف ، من ثواب الله - سبحانه - عند الطاعة والامتثال ، وعقابه عند المخالفة والعصيان .

أما الصوم فى معناه العام - وهو توقف ما به الحياة عن عملية الغذاء - فهو ظاهرة عامة يشترك الانسان وغيره فيه ، وسنة من سنن الله فى الأحياء كلها ، يؤديها الانسان باختياره استجابة لربه ، ويؤديها غيره بفطرة الله فيه ، واذا كانت هذه الظاهرة مما يخفى علينا فى بعض الأحيان ، فانها واضحة ملموسة فى بعضها الآخر .

ففى الناس من يعرفون أن بعض أصناف الحيوان لها مواقيت سنوية ، تهتدى اليها بفطرتها وغريزتها ، فتصوم فيها ، وتمتنع عن تناول الغذاء ، ومن شاء فليسأل رعاة الابل ، أو رجال البحر ، أو الخبراء بحياة الزواحف أو الحشرات ، أو غيرها ليعرف منهم أزمان صوم الجمال ، أو السمك ، أو ما شاء أن يسأل عنه من صنوف الحيوان .

والنبات أيضا لا يتخلف عن سنة الصوم ، وأهل العلم بخصائصه يعرفون أن لبعض فصائله مواعيد معينة من كل عام ، تتوقف فيها عملية امتصاصها للغذاء ، سواء كان عن طريق الجذور من الأرض أم كان عن طريق التمثيل الخضرى « الكلوروفيلى » من أشعة الشمس ، والزراع يعلمون مواعيد هذا التوقف ، ويختارونها لنقل الفسائل ، ولتطهير الأشجار من زوائدها الضارة ، وأغصانها المنهكة أو غير المهذبة .

وقد نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان الصوم ظاهرة حيوية ، ترتبط بالحياة نفسها فى أى مظهر من مظاهر وجودها .. بدليل أن الأحياء غير المدركة تندفع اليها بطبيعتها ، ويقيننا أن الله - سبحانه - قد عوض هذه الأحياء عما فقدته من ميزة الادراك وركز فيها من سننه ما يوجهها الى النافع ويبعدها عن الضار ، بل ان هذا الاندفاع الحيوى المنبعث عن الفطرة يحدث للانسان نفسه ، وتؤديه أجهزته التى تعمل على غير ارادته .

وما كان الصوم ظاهرة حيوية ، ولا جعله الله - سبحانه - سنة عامة ، الا لتدبير الصلاح للحياة والأحياء ، والمشاهدة المجردة لبعض الأحياء غير المدركة تثبت ذلك ، فمما نشاهده أنها بعد فترة صومها تنطلق الى طور من الحياة أفضل من طورها السابق ، وأن هذا الصوم كان وسيلة لاصلاح الحياة فيها أو لاستمرار هذه الحياة فى جنسها ، ولنعتبر ذلك فى الحيوان بصوم الجمال ، فانه يحدث عند عرام الحياة فيها ، وتحولها الى جنون أو ما يشبه الجنون ، فيكون الصوم شفاء لها من هذا العرام ، أو بصوم الحشرات .. فانها تتحول به من طور الدودة الى طور الفراشة ، وتؤدى بذلك رسالة استمرار الحياة لنوعها بما تنتج من بيض ثم لنعتبره فى النبات بما يحدث للفسائل ، فصومها فرصة نقلها ، وبنقلها تتهيأ لها حياة أقوى ، وأطول وأنفع ، أو بما يحدث للأشجار ، فانها بعد أن تخرج من موسم صيامها ، ونفضها لأوراقها تتجدد فيها الحياة وتقوى ، وتزيد طاقتها على توليد الأغصان ، والأزهار .. والثمار .

وقد فطن الانسان الى هذا المعنى واستغله فى ترقية بعض الأصناف النباتية والحيوانية ولذلك يعمد الناس الى تصويم أشجار الفاكهة اذا أرادوا لثمرها جودة النوع ، وطول العمر ، والقدرة على مقاومة العطب ، ويعمدون كذلك الى تصويم الخيل لتكسب بذلك مزيداً من القوة ، والنشاط والجمال .

ولما كان الصوم ظاهرة حيوية ، وكان سنة من سنن الله ، يدبر بها الصلاح للحياة والأحياء ، اقتضت حكمته - سبحانه - أن لا يكون حظ الانسان منها أدنى من حظ غيره ، ولذلك تعهده برياضة الصوم من قديم ، وجعله شعيرة دينية مفروضة عليه ، وعبادة يتعبده بها فى كل دين ، وهذا مانفهمه من قوله - عز وجل - فى كتابه الكريم :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ».

وحكمة الله فى فرض الصوم على الانسان قد أشارت اليها الآية الكريمة اشارة موجزة وعبرت عنها بكلمة واحدة ، هى كلمة «تتقون» .. ولكنها على الرغم من قصرها ووجازتها تفوق كل تفصيل ، وتتسع لكل ما اجتهد الناس ، وكل ما سيجتهدون فى كشفه من أسرار الصوم ، فقد أطلق الفعل « تتقون » فى الآية ولم يسلط على نوع معين مما يتقيه الانسان ، وهذا الاطلاق يرشدنا الى أن المقصود تعميم الفعل ، وتعليقه بكل ما يمكن ان يتسلط عليه مما يتقيه الناس ، ويحتمون منه ، دفعا لما يجره عليهم من فساد أو خلل أو ضعف فى أى ناحية من الدين والحياة .

واذن فلا سبيل الى استقصاء أسرار الصوم وثمراته للانسان فى بحث يقصر أو يطول ولكن لا أقل من التنبيه الى شيء مما يعود عليه منه ، والتنويه ببعض ما يستطاع ادراكه من سمو حكمة الله فى تشريعه ، وليكن ذلك فى حدود الجانب الحيوى منه ، هذا الجانب الذى يشترك فيه الانسان مع غيره من الأحياء .

وأثر الصوم فى الانسان من هذه الناحية لا يقل - بل لعله يزيد - عن أثره فى النبات والحيوان ، ذلك الأثر الذى لمسنا منه قدرا محدودا فى صدر هذا الحديث ، على قدر ما هدت اليه الملاحظة العابرة ، والمعارف القاصرة .

والصوم من أنجع الوسائل التى تلتمس بها صحة الجسم وبراءته من الأسقام ، وسلامة وظائفه العضوية ، وأكثر أعضاء الانسان استفادة للسلامة بالصوم : المعدة وبقية الجهاز الهضمى ، وسلامتها تنعكس على الجسم كله ، كما ينعكس فسادها عليه .. وعملها الرتيب المتواصل طول العام ، ان

تتخلله فترة للراحة والتطهر جر عليها الفساد وذلك لأن الجسم لا يمتص مما تلتهم المعدة الا قدرا ضئيلا جدا ، وما زاد يحاول التخلص منه ، فيطرد ما يستطيع طرده وتستعصى عليه بقايا قد تكون قليلة ، ولكنها تتراكم يوما بعد يوم ، وتسبب كثيرا من الآلام والأسقام . وهذا معنى ما جاء فى الأثر « **المعدة بيت الداء** » ، وهوأيضا سر تحذير النبى - عليه الصلاة والسلام - من امتلاء البطون ، حيث قال :

« **ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، وان كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه** » .

وقال لبعض أصحابه ، وقد تجشأ فى مجلسه :

« **أقصر من جشائك ، فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا** » .

وقال أيضا : « ان أبغض الناس الى الله المتخمون الملأى » .

واذا كانت المعدة بيتا للداء على هذا النحو ، فالصوم حمية لها ، وحمية منها ، لأنه يعطيها فترة راحة تتخفف فيها من الارهاق ، وعناء العمل المستمر ، ويساعدها على تجديد قواها واستعادة نشاطها ، ولأنه فرصتها لنفض ما يؤذيها ، ويؤذى الجسم معها ، من أخلاط الطعام المردية ، وفضلاته الوبيئة ، التى تعوقت فيها على مدار العام ، ولذلك قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « صوموا تصحوا » ، ولعله لذلك أيضا « كان يجوع من غير عوز » كما ورد فى حديث السيدة عائشة أم المؤمنين - عليها السلام - .

وليست أوضار الطعام وأخلاط المعدة هى كل المفاسد التى يبرأ منها الجسم بالصوم ، فهناك الشحوم والدهون ، التى تتكون فى باطنه وعلى سطحه ، وتتحول الى خطر داهم ينبغى التوقى منه ومن عواقبه الوخيمة ، وليس من غايتنا أن نتحدث عما تسببه هذه الشحوم من أمراض ، وحسبنا أن نشير الى بعض آثارها الظاهرة ، من سمانة الجسم ، وترهله ، وثقله على صاحبه ، وفتور نشاطه وهى أمور ينفر منها الناس ، ويلتمسون الشفاء منها بكل سبيل ، ولا شك أن الصوم أفضل السبل لذلك ، فهو أيسرها احتمالا ، وأضمنها نتيجة ، وأسلمها عاقبة ، وشتان ما بينه وبين طرق العلاج التى يطرقها الناس ، فيرتكبون فيها الصعب ويتحملون منها المشقة ، وكثيرا ما تنتج عكس غايتها ، وتعقب من الضعف والهزال ما لا برء منه .

وخلوص الجسم من السمن لا يستهان به لأنه ليس أمرا تستبشعه الحضارة فحسب . بل ان الدين ينفر منه ، وقد رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - رجلا سمين البطن ، فأومأ الى بطنه باصبعه ، وقال : « لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك » وقال أيضا « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ، ونبتت عليهم أجسامهم » . وقيل : مكتوب فى التوراة ان الله يكره الحبر السمين .

وللصوم وراءهذا وذاك غاية حيوية أسمى وأهم ، فهو تجربة سنوية تمر بها خلايا الجسم الحية فما استطاع منها المقاومة واحتمال آلام الجوع استحق البقاء واكتسب مناعة ، وقوة ونشاطا ، وما عجز منها كان غير صالح للبقاء وتخلص الجسم منه . واذن فالصوم عملية تجديد وتنشيط الحياة فى جسم الانسان ، وهو عملية اختبار لخلايا الجسم لاصطفاء الصالح منها للحياة وابقائه ، واستبعاد غير الصالح واقصائه .

ويظهر أن خلوف فم الصائم - وهو رائحته المتغيرة بسبب الصوم - انما هو أثر من عفن الخلايا التى انهكتها المقاومة فبليت وهلكت ، أو هو قتار منبعث عن عملية اعدامها للتخلص منها ، فاذا صح هذا الاستنتاج انكشف لنا وجه من وجوه الفهم لقوله **- عليه الصلاة والسلام - : « والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » وذلك أن خلوف فم الصائم يكون حينئذ علامة على تجدد الحياة فى الانسان ، وبرهانا على تماثلها للكمال ، والله - سبحانه وله المثل الأعلى - متصف بالحياة ، وهو واهب الحياة ، ويحب أن يراها كاملة فى عبده .**

والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

بين أسماء وعبد الله في شعر المنفلوطي

الأستاذ على الجمبلاطى

كان اوسع كتاب العربية المعاصرين شهرة وهو الثمرة الناضجة للعصر الكتابى الحاضر جمع بين أفكار التمدن وأسلوب العرب الأصيل ففرس فى جنـة الأدب العـربى خميلة رائعة الجمال ترسل من عرفها فى كل صباح نفحة فواحة تحملها أجنحة النسيم لتعطر بها أجواز الفضاء وكان الأديب الذى رفع راية الأدب خفـاقة عالية وأعاد للدين ماكان يدعو اليه من ادب رفيـع وخلق عظيم يرشده خيال قوى وتمده لغـة انقادت اليه مفرداتها وتراكيبها فاستوى فى فهم معانيه وأغراضه وفى الاعجاب بفصاحته وبيانه فطاحل الأدباء وأصاغر البسطاء . ذلكم هو شيخ البيان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى الذى أدخل المعنى والقصد فى الانشاء العربى بعد ان ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد فكان له الفضل الأكبر فى تهذيب ذوق الجمهور وتحبيب العامة بالآداب الرفيعة وترغيبهم فى الاقبال عليها وكانت منزلته فى النثر بمنزلة البارودى فى الشعر فقد انتقل بالنثر فى مستهل النهضة من الجفاف الى الابراق والايناع وحبب جمهور المتأدبين فى الانشـاء الرفيع وأساغ الاستمتـاع بالسلاسة وتذوق العذوبة فكان نسيج وحده فى عصره ولم يجاره فى بيانه منشىء فى جيله تأثرفى القديم بابن المقفع وابن العميد وفى الحديث بجبران ونعيمة ولكن هذا التأثر دخل فى فنه دخول الالهام والايحاء لا دخول التقليد والاحتذاء فله من الاولين اشراق الديباجة وقوة

النسج وله من الآخرين جدة الموضوع وطرافة الفكرة ولكنك لا تتذكر وانت تقرأ له احدا من هؤلاء فنفخ فى الهيكل البالى من الادب الذى يعتمد على الزخرف روحا جديدة ليحيا حياة رغد وهناءة .

لقد كان ظهور المنفلوطى على فترة من الادب اللباب ومفاجأة الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الالم ويمثل العيوب هى اسلوب طلى وسياق مطرد ولفظ ممتاز يلقى بآرائه فى سلاسة ووضوح فى ألفاظ جزلة ناعمة وكان من خيرة من نقلوا الرواية الاعجمية الى لغة الضاد وكتبوا فى القصة فبلغوا فيها شاوا عظيما وقد اشتهر بمقالاته أكثر من رواياته وهذه « نظراته » فى أجزائها الثلاثة فياضة بكل طريف عالج فيها من فنون الادب وشئون الحياة الشىء الكثير .

وقد ولد المنفلوطى فى منفلوط فى السابع من جمادى الأولى عام ١٢٩٣ الموافق يونيه عام ١٨٧٦ وعاش ثمانية وأربعين عاما وكان والده قاضيا بمنفلوط وقد تعلم القران الكريم فى كتاب الشيخ جلال الدين السيوطى باسيوط ثم وفد الى الازهر وهو فى الثالثة عشرة من عمره وواظب على درس الامام محمد عبده واتيح له أن يطلع على ماتحويه مكتبتى والده وعمه السيد ابراهيم لطفى وكان رئيسا للمحكمة الشرعية فى منفلوط . وظل فى منفلوط حتى عام ١٩٠٨ وكان يكتب اسبوعيات فى جريدة المؤيد كل يوم اثنين ثم عمل محررا بالمؤيد ابتداء من عام ١٩٠٩ واتخذ لنفسه لقبا عرف به هو لقب الشهرة « صاحب الثلاث طاءات » وحين دراسته بالازهر صدف فى منتصف الطريق عن دروس الفقه والأصول والعقائد لان ذوقه الأدبى الموهوب لا يستسيغ أساليب كتبها المعقدة ولم يطق الحياة المقيدة على الرغم من ورع قلبه ورعاية أبيه وكان لا يلقى باله كثيرا لغير علوم اللسان وفنون الادب فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشىء الرسائل وتسير له شهرة فى الازهريين بذكاء القريحة وروعة الاسلوب فيقربه الاستاذ الامام ويرسم له الطريقة المثلى الي الغاية فى الأدب والحياة .

وفى أثناء دراسته بالازهر نظم قصيدة هجاء فى الخديو عباس اثر قدومه من الاستانة وهى المعروفة بقصيدة « قدوم ولكن لااقول سعيد » ولم يتجاوز عمره آنذاك الحادية والعشرين عاما فكانت محاكمته فى قضية « السفهاء » المشهورة التى جمعت « المفلوطى والبكرى والخيامى » وبقى فى السجن ستة شهور ثم سعى الاستاذ الامام لاصدار العفو عنه ولما تولى سعد زغلول وزارة المعارف عينه محررا عربيا بها فى ابريل عام ١٩١٠ ولما نقل الزعيم سعد الى وزارة العدل حوله معه وولاه فيها محررا عربيا لها واختير فى سكرتارية البرلمان ولكن الموت لم يمهله فتوفى فى مساء وقفة عيد الاضحى فى الثانى عشر من يوليو عام ١٩٢٤ وهو موظف بمجلس الشيوخ

وقد عرف المنفلوطى كأديب ولم يعرف كشاعر وقد بدأ حياته الأدبية عام ١٩٠٨ ناثرا وكاتبا وان كان قد سبق فنظم الشعر وأول قصيدة نظمها كانت غزلية ولم تنشر منها :

اردنا سؤال الدار عمن تحملوا
فلم تدر من فرط البكا كيف تسأل
وهاج لنا الذكرى معاهد اصبحت
تعيث صبا فيها وتعبث شمال

وهو وان كان من كتاب الطبقة الأولى وشعراء الطبقة الثانية الا انه نظم الشعر فى أغراض متباينة فيقول فى القصيدة التى ختم بها قصته « الفضيلة » :

فالورى شر وهم دائم
وشقاء ليس يحكيه شقاء
وفقير لغنى حاسد
وغنى يستذل الفقراء
وقوى لضعيف ظالم
وضعيف من قوى فى عناء

ثم يقول على لسان عامل فقير :

اقضى نهارى مقبلا مدبرا
كأننى الآلة فى المعمل
وصاحب المعمل لايرتضى
منى بغير الكدح المثقل
فان شكوت النذر من اجره
برح بى شتما ولم يجمل
حتى اذا عدت الى منزلى
وجدت سوء العيش فى المنزل

ثم يحمل على الأوضاع الفاسدة فيقول على سبيل الفكاهة فى شان كلب اسمه « بيل » وفى لسيده فطوقه طوقا من الذهب واوصى له بخمسة آلاف دينار فقال يخاطب الكلب :

ملكت على الزهد الالوف وكلنا
الى قطرة مما ملكت فقير
وما انت فى جهل المقادير آية
فمثلك بين الناطقين كثير

ومما قدمنا من نماذج شعره نحس كيف كان المنفلوطى رقيق المشاعر كثير العطف على المساكين كان يحلم بالمجتمع الاشتراكى الذى تحقق فى عهدنا المجيد .

وكما كان المنفلوطى كاتبا وطنيا واجه الانجليز فى عنف ومقاله فى الرد على « روزفلت » حين جاء مصر مشهور ــ كذلك كان شاعرا وطنيا يهاجم الاستعمار بتوقيع « عدو الاحتلال » ومن قصائده فى ذلك قصيدة مطلعها :

ألا راية للعدل فى مصر تخفق
لعل مساعى دولة الظلم تخفق

وقصيدته المشهورة فى الخديو التى سجن من أجلها وهى فى عشرين بيتا فكان الشاعر الوحيد الجرىء الذى ثار على الباطل والرشوة والفساد الذى استشرى فى البلاد بعد فشل الثورة العرابية ويقول فى أولها :

قدوم ولكن لا اقول سعيد
وملك وان طال المدى سيبيد
رحلت ووجه الناس بالبشر باسم
وعدت وحزن فى القلوب شديد

وكان من أهدافه فى نثره وشعره غرس الفضائل الدينية فى النفوس وتقويم الاخلاق فهو الذى يقول « ان الدين الاسلامى ما غادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ولا نرى الانسان يمشى فى ميدان هذه الحياة خطوة من مهده الى لحده الا مد يده اليه وانار له مواقع اقدامه وأرشده الى سواء السبيل »

وللمنفلوطى مؤلفات خالدة حسبها كما قال الزعيم سعد زغلول « هى شهادات تدل على كفاءته وعبقريته ونبوغه » وقد استحق من أجلها أن يحتل مكانته الأدبية المرموقة فى عالم الادب وأن ينال حظه عن جدارة واستحقاق من الشهرة والمجد والخلود وهى كتب قيمة

الف بعضها ولخص البعض الآخر بأسلوبه الخاص بعد ان ترجم بعض اصدقائه هذه الكتب عن الفرنسية وهذه الكتب هى ((النظرات)) ثلاثة أجزاء وهى مقالات كان ينشرها فى المؤيد ((ومختارات المنفلوطى)) وتتضمن مختارات منتقاة من اشعار المتقدمين ومقالاتهم « وماجدولين وفى سبيل التاج والشاعر والفضيلة » وكلها مترجمة « والعبرات » بعضها موضوع وبعضها مترجم وكانت « الفضيلة » آخر ماالفه اديبنا الكبير وقد ختمها بقصيدة أشرنا اليها « بول وفرجينى » يقول فى آخرها :

هكذا الدنيا وهذا منتهى
كل حى مالحى من بقاء

وقد نشر فى الجزء الثانى من « النظرات » قصة اسماها « البعث » وكتب فى مقدمتها « البعث قصة خيالية الغرض منها تمثيل أبى العلاء فى أخلاقه ومذاهبه » ولم يكتب منها غير أيام ثلاثة بدا فى كتابتها عام ١٣٢٩ هجرية وفيها ظهرت نزعته الاشتراكية كما اتضح منها انه كان ممن يتشيعون للمعرى فما شك فى دينه ولا فى مذهبه

واذا كانت « الكواكب » لولى الدين يكن و « المواكب » لجبران خليل جبران فان ((الدرر)) هى قصائد المنفلوطى وهى قصائد مختارة من شعره فى عام ١٩١٦ وتنتظم مجموعة من أشعاره فى وصف القلم والوجدانيات وبول وفرجينى واخيرا القصيدة التى نقصد اليها فى مقالنا هذا وهى « بين أسماء وعبد الله » وقد نظم شاعرنا المنفلوطى هذا الموقف الفذ من مواقف البطولة الذى يمثل الصراع الرهيب بين العاطفة والواجب بين الحياة والموت بين الوجدان والفقدان بين عز البنوة وثكل الولد نظمه فى تسعة عشر بيتا ولكن امير الشعراء شوقى نظمه فى « ارجوزته الكبرى التى وضعها فى تاريخ دول العرب » فى عشرين بيتا التزم فيها كعادته صدق التاريخ والتقيد بحقائقه وقد تخفف شاعرنا المنفلوطى من هذه القيود قليلا ولكنه عرضها فى لوحة فنية رائعة سمح لخياله ان يضفى على الاحداث ما يكمل الصورة الفنية. وقد بدا قصته بتمجيد « اسماء بنت ابى بكر » وانها كانت فريدة فى تاريخ الأمهات وسير الأبطال اذ هى تدفع ابنها الى معركة غير متكافئة مؤثرة الشرف على العار تدفعه وهى فى شيخوخةأحوج ما تكون الى أن تتفيأ ظله وتسند ضعفها الى قوته تدفعه وهى أحنى ما تكون عليه وقد دخل عليها والحرب دائرة بينه وبين الحجاج وقد دارت عليه الدائرة وقد بذل الحجاج له الامان ويقول لها : يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى واهلى ولم يبق معى الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعته والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رايك ؟

وفى هذا يقول المنفلوطى :

ان أسماء فى الورى خير انثى
صنعت فى الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعا
تحت درع منسوجة من نجيع
قال ياأم قد عييت بامرى
بين اسر مر وقتل فظيع
خاننى الصحب والزمان فمالى
صاحب غير سيفى المطبوع
وارى نجمى الذى لاح قبلا
غاب عنى ولم يعد لطلوع
بذل القوم لى الامان فمالى
غيره ان قبلته من شفيع

وهنا تمر أمومتها بامتحان عسير ويكون جوابها الحاسم : يابنى انت أعلم بنفسك ان كنت تعلم انك على حق واليه تعود فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك تلعب بها غلمان بنى أمية . الموت أحب الى مما يشتهون وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا ؟)) وفى تصوير ذلك يقول المنفلوطى :

فاجابت والجفن قفر كأن لم
يك من قبل موطنا للدموع
واستحالت تلك الدموع بخارا
صاعدا من فؤادها المصدوع
لاتسلم الا الحياة والا
هيكلا شانه وشأن الجذوع
ان موتا فى ساحة الحرب خير
لك من عيش ذلة وخضوع
ان يكن قد اضاعك الناس فاصبر
وتثبت فالله غير مضيع
مت هماما كما حييت هماما
واحى فى ذكرك المجيد الرفيع
ليس بين الحياة والموت الا
كرة فى سوار تلك الجموع

ونقدم هنا مانظمه امير الشعراء فى هذا الموقف الذى يهد جسمها الواهن ويفتت كبدها الحرى لنؤكد ماقلنا من التزام « شوقى » للحقائق التاريخية فيقول فى ارجوزته :

قالت بنى ولد العوام
وابن العتيق القائم الصوام
انظر فان كنت لحق ثرت
فلا تفارق ما اليه سرت
أو كانت الدنيا قصارى همتك
فبئس أنت كم دم بذمتك
الحق بأحرار مضوا قد أحسنوا
فالموت من ذل الحياة أحسن
ولا تقل هنت بوهن من معى
فليس ذا فعل الشريف الألمعى
ومت كريما أو ذق الهوانا
وعبث الغلمان من مروانا

ثم يحدثنا التاريخ بأن عبدالله بن الزبير قال لأمه : يا أماه أخاف ان قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى فكان جوابها فى كلمة صامدة كالطود حازمة كالقدر قوية كنفسها مصممة كصبرها كبيرة كايمانها كلمة وضعت نهاية المعركة وهى : يابنى ان الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها . وهنا نرى أن شاعرنا المنفلوطى لم يتعرض البتة لهذا الموقف ولكن أمير شعرائنا ينظمه فى ارجوزته قائلا :

أنت الى الحق دعوت صحبكا
فاقض كما قضوا عليه نحبكا
ولا تقل ان مت مثلوا بى
وطاف اهل الشام بالمصلوب
هيهات ما للسلخ بالشاة ألم
ورب جذع فيه للحق علم

وهنا انكب البطل على رأس أمه يقبله وكان كرائم الانسان كلها التقت معه لترسل على الرأس الشامخ غمرا من القبل ورفعت ذات النطاقين وجهها الى ولدها وقد تمثلت لها فجيعتها فيه شاخصة أمام عينيها وعانقته للوداع قائلة : لارجو أن يكون عزائى فيك جميلا ان تقدمتنى احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك اخرج حتى انظر الام يصير أمرك ولكنها حين عانقته أحست درعه التى يحتمى بها فقالت : اضقت يابن الزبير بالمنون ذرعا فاحتميت بدرعك ان مثلك من يجاهد فى ثيابه المشمرة لا فى الحلق المسمرة يابنى اخلعه وأرح منه الجسد وامض بلا درع كما يمضى الأسد فان بأس القدر لا يبالى ببأس الدروع وفى هذا يقول المنفلوطى :

ثم قامت تضمه لوداع
هائل ليس بعده من رجوع
لمست درعه فقالت لعهدى
بك يا ابن الزبير غير جزوع
ان بأس القضا فى الناس بأس
لايبالى ببأس تلك الدروع
فنضاها عنه وفر الى الموت
بدرع من الفخار منيع

وهنا يقول عبد الله لأمه وهو يتأهب للخروج وقد نزع درعه عنه : جزاك الله خيرا فلا تدعى الدعاء .

وفى حنان غامر قالت : قلبى يدعو الله فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق وهنا انهار صبرها فتهدج صوتها فى نشيج مكتوم وطفقت تقول : اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل وذلك النحيب والظما فى هواجر مكة والمدينة وبره بأبيه وامه اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فاثبنى فى عبدك ثواب الصابرين الشاكرين • وخرج البطل من بيت البطولة وهو يقول مرتجزا :

انى اذ أعرف يومى أصبر
وانما يعرف يومه الحر
اذ بعضهم يعرف ثم ينكر

ورقى صوته اليها فقالت : تصبر ان شاء الله . ودارت المعركة وانشقت الصفوف عن عبد الله يحمل على القوم حتى اذا لم يبق معه ما يدفع قتل وجاء النعى الى أمه أمثولة التضحية والفداء وهنا يختتم شاعرنا المنفلوطى قصيده بهذا البيت :

واتى أمه النعى فجادت
بعد لأى بدمعها الممنوع

واخيرا انتهت قصة أسماء وابنها عبد الله فنال الابن البطل الشهادة وانتصرت القيم الشماء للام المثالية حقا انتصرت قيم الاسلام بما يزهى به تاريخ الابطال وتخلد به سير الأمهات المسلمات وسجلت القصة لهما أنصع الصفحات فى تاريخ الخالدين

أسرة مجلة « منبر الاسلام » تنعى أحد كتابها
المرحوم الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولى
وتقدم لأسرته خالص العزاء ..

اللغة العربية وافريقيا

الأستاذ عبده بدوى

اذا كان بعض المفكرين يركزون على العلاقة بين الكتابة وفن العمارة ، وبين الكتابة والقوة .. فان هذا يدعونا الى أن نوضح موقف افريقية من هذه الفكرة ، ذلك لأن البعض قد حاول ان يقسل الشعوب الى قسمين أولهما هى الشعوب التى لها « ذاكرة » وهى التى تعرف القراءة والكتابة ، وثانيتهما هو الشعوب التى ليست لها « ذاكرة » وهى التى لاتعرف القراءة والكتابة ، وثانيهما هو الشعوب التى افريقية فى الشعوب التى فقدت ذاكرتها لأنه لم توجد لها لغة كبيرة مكتوبة يمكن أن تقف الى جانب اللغات الأخرى .

ولعلنا لاننسى فى هذا المجال أن نذكر أن « الهيروغليفية » من أقدم اللغات ، وأنها لغة لشعب فى شمال القارة ، وان كان هذا يدعونا فى الوقت نفسه الى أن نتساءل عن عدم وجود الكتابة فى افريقية بصفة عامة ؟ ولكى لانظلم القارة يجب أن نذكر أن مصر كانت محظوظة لأنه كانت توجد بها الأحجار التى تنعدم أو تكاد فى جنوب الصحراء ، كما أنه كان من الصعب نقلها من مكان الى آخر ، وفى الوقت الذى كان يمكن فيه الاحتفاظ بالكتابة على ورق البردى ، وعلى الجلد ، فان هذا كان يبدو صعبا فى أماكن أخرى كثيرة من افريقية ، بل أن الأمر لايقتصر على البردى ، والجلد ، وانما يتعداه كذلك الى الخشب ، بسبب الرطوبة ، وبسبب الحشرات .

ومن هنا يمكن أن نتساءل مرة أخرى ، هل كانت افريقية قارة خرساء ؟ والاجابة على على هذا تؤكد أن افريقية عرفت لغاتها وطورتها وأصبحت تؤدى بها ما تريد من أغراض .. فقد كانت هناك وسائل ثانوية معروفة وبخاصة فى الشمال ، ففى افريقية الشمالية استخدم الحمام الزاجل ، واستخدمت منارات الأربطة (جمع رباط) ، كما استخدمت الرسائل الشفوية من طبقة خاصة كالرسل الحاملين للشعار الملكى فى داهومى ، كما استخدم « العداءون » فى توصيل الرسائل كما كان الحال فى اثيوبيا وكينيا .

والى جانب وسائل الاتصال هذه وجدت طريقة للاتصال يمكن بها تبليغ رسائل متعددة، وهى وسيلة « الصفير » وقد انتشرت هذه الطريقة فى أماكن كثيرة ، وان كانت قد وجدت لها مناخا طيبا فى تشاد .

أما اللغة الرسمية لافريقية فكانت لغة الطبول ، وهى التى يقول عنها الكاتب « جانها ينزجون » فى كتابه (الانسان) من ان الافريقيين قد طوروا لغة الطبول بحيث أصبحت تفوق لغة الكتابة فى نقل المعلومات لأنها تتمكن فى لحظات من الاتصال بمجاميع كبيرة من الناس ، وأن هؤلاء الناس كان يمكن أن يوصلوا هذه اللغة الى مجاميع أخرى بطبولهم بعد أن يسمعوها لأول مرة .

وفى ضوء هذا يتأكد أن أفريقية قارة احتفظت بذاكرتها ، وأنه كانت لها لغة خاصة بها تؤدى بها ما تشاء أن تؤديه تحت أى ظرف من الظروف : وأنها عاشت فترة كبيرة وهى متمتعة بالحضارة والقوة على نحو ما كانت تعرف به الحضارة والقوة فى هذه الفترة !

ولعل هذا ((التأثير)) هو الذى جعل للغات الأفريقية طابعا موسيقيا متميزا عن اللغات الاخرى ، بل قد تعجز بعض اللغات المكتوبة عن اداء موسيقية بعض الألفاظ التى توجه مثلا فى لغة « السيوريا » والتى توجه لبعض كلماتها ثلاث درجات صوتية هنا يمكن القول أن بعض اللغات فى أفريقية تستخدم حاسة السمع استخداما ذكيا وعميقا :

وعلى كل فاذا كانت « لغة الطبول » تشبه لغة عامة للافريقيين ، فبان مما لاشك فيه انه وجدت على طول الامتداد الافريقى لغات « شفوية » ووجدت لغات مكتوبة ، تعتبر فى مقدمتها جميعا « اللغة الغربية » ثم اللغة « السواحلية » ثم لغة « الهوسة » ولكى نعرف تأثير اللغة العربية فى هاتين اللغتين نذكر هذا القول المتداول الذى يقول ان اللغة العربية ، هى أم اللغة السواحلية ، وثمة لغة الهوسة بسبب التأثير الكبير الذى تركته فيهما .. واللغتان كما تكتبان بحروف عربية شدد الاستعمار فى سنيه الأخيرة على ضرورة كتابتهما بالحروف اللاتينية .

والذى نريد أن نصل اليه هنا ان اللغة العربية من أقدم اللغات الحية التى استعملت فى القارة ، وان القرآن قد حملها على ظهره فى الصحراء ، والمرتفعات ، والغابة ، والسهول حين يتردد من على المنبر فى صلاة الجمعة ، وحين يذكر فى الصلاة ، وحين يقبل عليه الصغار حفظا وحبا .

فاذا أضفنا الى هذا أن اللغة العربية فى تقدمها قد اكتسبت خصائص افريقية ، وظهرت عليها بصمة السكان من ترك حروف ، وتطوير حروف .. اذا أضفنا هذا ، وأضفنا أنها تدخل فى نسيج لغات أخرى أدركنا أن افريقية فى حاجة الى هذه اللغة ، وان هذه اللغة فى حاجة الى افريقية .

ولعل مما يؤكد هذه الأهمية ان تاريخ افريقية فى العصور الوسطى مكتوب باللغة العربية مما نجده فى مصنفات كثيرة بخاصة كتب الرحالة العرب ، وأنه لاتوجد مصادر أخرى له فى غير التراث العربى .

فاذا أدركنا هذا وادركنا أن الاسلام قد ضاعف نفسه فى افريقية فى السنين الأخيرة ، وادركنا أنه زاد الاقبال على طلب المدرسين من الجمهورية العربية المتحدة ، وفى الوقت نفسه زاد عدد الطلبة القادمين للتعليم عندنا ، مما يجعل التفكير فى انشاء جامعة فى القاهرة لهذا الغرض أصبح شيئا يحسن التفكير فيه .. اذا أدركنا هذا وأدركنا ان دائرة الاسلام تأخذ فى الاتساع ، وأن تعميم هذه اللغة للشعب هناك لن يعتبر أمرا صعبا كان من الواجب علينا أن نقدم اللغة العربية ((هدية)) لاخواننا الافريقيين ، فسيجدون فيها أنفسهم وتاريخهم ، كما وجدنا أنفسنا وتاريخنا ، ولعل هذا الموضوع ـ الذى نطرحه للبحث ـ يأخذ شيئا من اهتمام بعض الباحثين عندنا .

وضع عرب الجاهلية لكل شهر من شهور السنة القمرية التى يتبعونها اسما ، اشتقوه من الصفة التى يتميز بها عن غيره من الشهور أو العرف الذى اتفقوا عليه • فسموا شهر المحرم ، لتحريم القتال فيه • واشتقوا اسم (رمضان) من مادة (رمض) أى وقع الشمس على الأرض واشتداد الحر • وسبب ذلك ،كما قيل ، أنهم لما نقلوا أسماء الشهور من اللغة القديمة ، سموها بصفات الأزمنة التى وقعت فيها ، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر •

وجاء الأسلام فجعل لهذا الشهر المبارك منزلة كبرى فوق سائر الشهور ، ففيه حدثت المعجزة الكبرى • وهى نزول القرآن الكريم **((شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ،هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان))** ، وفيه فرض على المسلمين ركن هام من أركان الأسلام ، وهو الصوم • **((يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام)) ((كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون ، أياما معدودات))** ••

((فمن شهد منكم الشهر فليصمه • ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون))

ان شهرا كهذا نزل فيه القرآن وفرض فيه الصيام ، لجدير بأن يكون أشرف الشهور وأكرمها عند الله ، سبحانه وتعالى ، ولهذا يقول فيه النبى ، صلى الله وسلم ـ ((أتاكم شهر رمضان ، شهر مبارك •فرض الله عزوجل عليكم صيامه • تفتح فيه أبواب السماء ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه مردةالشياطين لله فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم)) • وقال ـ ((ان الله تبارك وتعالى فرض صيام رمضان عليكم وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه ، أيمانا واحتسابا ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه))

ويختلف الاسلام ، فى جوهره ، عن بقية الديانات السابقة ، فى أنه ليس دينا محليا ، لقوم بعينهم ، وأنما هو للبشر كافة ، عامتهم وخاصتهم • والناس بطبعهم يتفاوتون فى ادراكهم وفهمهم • وكل منهم يعمل بأوامر الدين بقدر مايدركه ويفهمه منه • ولذلك جاء الاسلام يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويجادلهم بالتى هى أحسن • فهو دين يسر لا عسر • وأركانه وفروضه تنظم سلوك الناس فى مستويين • فالمستوى الأدنى يحقق للناس الخير فى دنياهم ، وهذا يناسب العامة • والمستوى الأعلى يحقق لهم الخير فى أخراهم • وهذا يناسب الخاصة •

والصيام ليس بدعة فى الأسلام • فقد مارسته شعوب كثيرة قبله ، التماسا لصحة البدن أو أداء لعبادة مفروضة • فالمصريون

القدماء كانوا يصومون عن الطعام والشراب جملة فى يوم الى ثلاثة أيام فى كل شهر شمسى طلبا للصحة والعافية واستشفاء من أمراض الطعام • واليهود يصومون للعبادة كالمسلمين ، والنصارى يصومون الصوم الصغير والكبير ، ولكنهم يتناولون الطعام على جارى عادتهم ، ويمتنعون فقط عن كل ذى روح ، أو ما خرج عن ذى روح ، كاللبن والبيض والعسل • وفى العصر الحديث يصف الأطباء للمرضى الاكتفاء بتناول الفواكه أو عصيرها ، ويسمونه صياما

ولكن الصيام فى الاسلام له آثار مادية وخلقية ودينية ، تتمثل كلها فى مبدأ التقوى، فيتقى المسلم المؤمن ربه ، فى بدنه وعقله ونفسه وخلقه ودينه • ولذلك ذهب الناس فى حكمة الصيام مذاهب شتى •

فمنهم من يراه سبيلا للصحة والعافية ، ما دامت المعدة بيت الداء ، والامتناع عن الطعام والشراب طوال ساعات الصوم كفيلا بأصلاح مافسد • والرسول يقول » **جوعوا تصحوا** » ويقول « **نحن قوم اذا أكلنا لانشبع** » • ويقول « **قم عن الطعام وأنت تشتهيه** »

ومنهم من يراه سبيلا للبر والأحسان • فالغنى الصائم اذا أحس بألم الجوع أدرك ما يعانيه الفقير من جوع مستمر دائم ، فيرق قلبه ويحسن اليه ، ولذلك جعلت كفارة الصيام اطعام فقير ومسكين •• ومنهم من يتساءل : ان كان الأمر كذلك ، فلماذا فرض الصيام على الفقير المسكين • ويرد على هذا ، بأنه مامن فقير الا وهناك من هو أفقر منه ،وعلى كل انسان أن يحسن بما يستطيع •

ومنهم من يراه ترويضا ورياضة للنفس ، تدربها على كبح جماح الشهوات • فغريزة البحث من الطعام والغريزة الجنسية هما أقوى الغرائز الأولية الطبيعية ، فعليهما تقوم حياة الفرد والجماعة وصلاح الانسان للكفاح فى سبيل الحياة والبقاء • ولكل من هاتين الغريزتين شهوة جامحة عارمة • والألم الذى يشعر به الانسان عند حرمانه من تحقيق هذين المطلبين الضرورين وأشباع هاتين الشهوتين هو أشد أنواع الألم • فأذا ما امتنع الانسان بارادته فى شهوتى الطعام والجماع ، أى شهوتى البطن والفرج ، بالصيام ، ودوام الامتناع واحتمل ألم الحرمان طوال شهر رمضان ، عاما بعد عام • أفلح فى كبح جماح الشهوة ، وانتصر فى معركة الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس ، وارتفع من مستوى الحياة البدائية البهيمية الى مستوى الحياة الانسانية العاقلة الكريمة • وهكذا بالصلاة والصيام والزكاة ، يزكى نفسه ويطهرها ، ويصبح أهلا للتحلى بمكارم الأخلاق وهو غاية ما يريده الأسلام •

ويرى حجة الأسلام الامام أبو حامد الغزالى أن الصوم ثلاث درجات ـ صوم العموم وهو كف البطن والفرج فى قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص ، وهو الكف المذكور مع كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ـ وصوم خصوص الخصوص ، وهو ماذكر مع صوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية • وهكذا يعمل الصائم لدنياه كأنه يعيش أبدا ، فى ظل التقوى ورضا الله والناس ، ويعمل لأخرته كأنه يموت غدا ليستعجل حسن الجزاء وثواب الجنة •

ويقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم فى آداب الصائم ، وما ينبغى أن يكون عليه ليصبح صيامه « **الصيام جنة (وقاية) ، فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث (ينكح) ولا يصخب ، فان شاتمه أحد أو قاتله ، فليقل أنى صائم ، انى صائم !** » •

وخلاصة القول ، أن المؤمن الذى ينطق بالشهادتين ، عن اقتناع وايمان ، ويزكى نفسه بالصلاة ، ويطهر ماله وملكه بالزكاة ، ويروض نفسه ويكبح جماح شهواتها بالصيام ، يرضى عنه الله ، ويهديه سواء السبيل ، فيصبح عف اليد واللسان ، طاهر الذيل ، سمحا كريما عطوفا ، وينتهى به الأمر الى مكارم الأخلاق ، التى يدعو لها الأسلام ، ويستأهل أن يكون الخليفة الذى جعله الله فى الأرض •

وللصيام منزلة مرموقة بين سائر العبادات فهو عبادة مستوردة ، وعلاقة بين الصائم وربه

تخفى على الناس ، مادام الظاهر لهم والباطن لله • وفى هذا يقول الحديث الشريف ـ «كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى ، وأنا أجزى به ، »

ولهذا كان أجر الصائم عند الله عظيما • ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم ـ « اذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين وقال ـ « ان فى الجنة بابا يقال له الريان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لايدخل معهم أحد غيرهم ، يقال أين الصائمون ، فاذا دخل آخرهم أغلق ، فلم يدخل منه أحد • وقال • للصائم فرحتان يفرح بهما : اذا أفطر فرح ، واذا لقى ربه فرح بصومه •• وقال : من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه • وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل

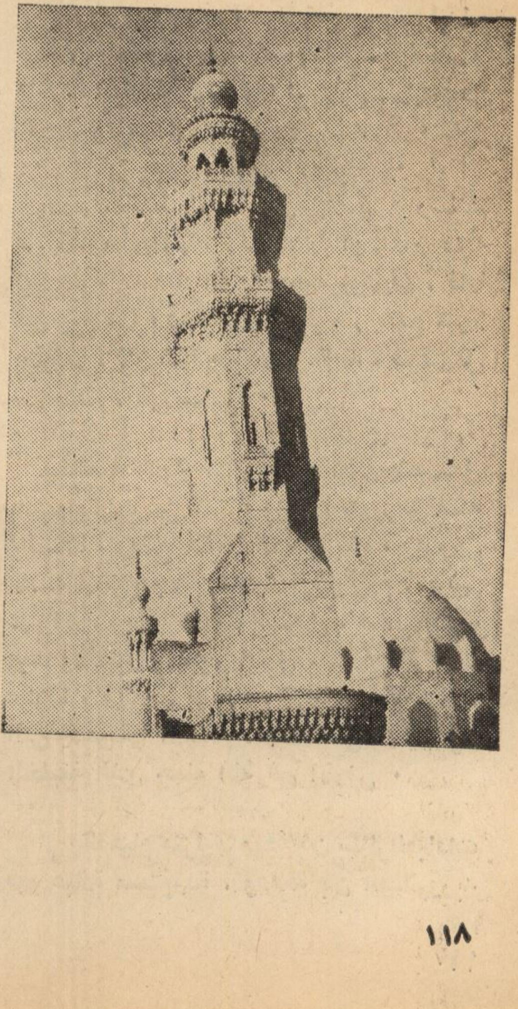

عندما سأله عن العمل الذى يدخله الجنة ويباعده عن النار • « لقد سألتنى عن عظيم وأنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت • ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ، الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وقال لأبى أمامة رضى الله عنه عندما سأله أن يأمره بأمر ينفعه الله به ـ « عليك بالصيام فانه لا مثيل له » •

لهذا كان السلف الصالح يقضون رمضان المعظم فى الصوم والعبادة وتلاوة القرآن والاستشهاد بالحديث الشريف والتذاكر فى أمور الدين ، ففتح الله عليهم وثبت ايمانهم ، ومكن لهم فى الأرض ، وارتفعت بفضل جهادهم فى سبيل الله ، وجهادهم لأنفسهم ، كلمة التوحيد ورسالة الايمان واشتراكية الأسلام وديمقراطيته فى مشارق الأرض ومغاربها ، ودانت لهم الدنيا ، وطابت لهم الآخرة •

فأين نحن منهم ، وأين الذين يقومون بظاهر العبادة ، ويتحملون ألم الجوع والعطش ثم يفسدون الصيام ويبطلون حكمته بالاقبال على أطايب الطعام والشراب فى شره ونهم ، كأنهم يعوضون مافاتهم منه ، ثم لايكون للصيام أثر فى خلقهم وسلوكهم ، وأين الذين لايصلون ولا يصومون ولايزكون، ثم يقولون انهم مسلمون لمجرد انهم موحدون غير مشركين • وكأنهم نسوا أو جهلوا أن فرائض الدين كل لايتجزأ ولا يغنى جزء منه عن جزء •• وأين المسلمون الذين يفطرون علانية فى شهر رمضان ، وعلى ملأ من الناس ،فيجرحون الشعور ،ويستهترون بالشعائر • أين كل هؤلاء من الذين تفتحت قلوبهم للأسلام ، وامتلأت نفوسهم بنوره ، واهتدت عقولهم بهدية ، وأدوا الفرائض مكملة وتحلوا بمكارم الأخلاق ، فعظم ثوابهم فى الدنيا والآخرة •

اللهم اجعلنا من التابعين الصالحين ، والمؤمنين الثابتين ، وأغفر لنا سيئاتنا ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، واهدنا سواء السبيل ، انك أنت الغفور الرحيم •

كشف سورى اثرى من اللبن
يثبت الكشف وجود اسوار الحصن الثلاثة
لجوهر وبدر وصلاح الدين

كان أول سور للقاهرة عند انشائها من اللبن (الطوب النىء) شيده جوهر الصقلى فاتح مصر من قبل المعز لدين الله الخليفة الفاطمى . وضاع ذلك السور واندثر . تلك معلومات ذكرها المؤرخون وآمن بها الناس وسلم بها الأثريون الذين لم يكن لديهم دليل مادى ينقضها . وتشاء الصدفة حليفة الأثريين أن تهدينا الى دليل يتيح لنا الفرصة لتحقيقها .

وقبل أن نستطرد فى ذلك نجد لزاما علينا أن نوضح الفرق بين القاهرة الفاطمية التى أسست ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليه ٩٦٩) وبين القاهرة المعروفة كعاصمة للديار المصرية منذ القرن الماضى وكعاصمة للجمهورية العربية المتحدة والمحافظة الأولى فيها حاليا . وهى من أقدم العواصم الاسلامية التى شيدها المسلمون . أسسها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) وعرفت بالفسطاط ثم أطلق اسمها على العاصمة كلها التى ظلت معروفة به مع اسم ((مصر)) أو ((مصر المحروسة)) الى ما بعد انشاء حصن القاهرة الفاطمى بل وحتى القرن الماضى .

ويسود بين الناس على اختلاف ثقافاتهم فى مصر والعالم بل بين الأثريين اعتقاد بأن القاهرة الفاطمية شيدت لتكون مدينة مثل فسطاط عمرو بن العاص وعسكر بنى العباس وقطائع ابن طولون . وهو اعتقاد يثبت خطاه عدة أدلة أثرية من معمارية وتاريخية . فمنها أقوال عدد من المؤرخين القدامى منهم تقى الدين المقريزى وابن دقماق وغيرهم . فقد ذكروا ما يستنتج منه فى جلاء أن القاهرة شيدت لتكون حصنا أو طابية للدفاع عن مصر — أى العاصمة — وأن جوهر الصقلى قصد باختطاطها أن تكون سكنا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجا اليها وأن الرعية قد استمر سكناها فى الفسطاط — أى العاصمة — وكانت مساحة المربع الذى يشغله الحصن تعادل مساحة مربع يضم جامعة القاهرة وحديقة الأورمان وحديقة الحيوان ، أو نحو كيلومتر مربع لكل ضلع .

واستمرت القاهرة حصنا للخليفة الفاطمى وسكنا لذوى السلطان حتى بعد أن سمح بدر الجمالى بعد ذلك بمائة وعشرين عاما بان يعمر فيها من يشاء من القادرين ما خرب منها فى أثناء الشدة العظمى التى استمرت سبع سنين قاسى الناس فيها الجوع والوباء والخوف ، ولكنها مع ذلك لم تفقد وظيفتها الرئيسية كحصن للعاصمة وظلت لا يسكنها الا الخليفة والوزراء ورجال الدولة وذوو السلطان من الناس . بل ظلت كذلك حتى بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة للعاضد الفاطمى أكثر من سنتين ونصف سنة . ولم يفتح صلاح الدين أبواب الحصن لأفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم وأصبح يعتبر حيا من أحياء العاصمة الا بعد أن مكث سلطانا مدة أخرى تقرب من اثنتى عشرة سنة . أى بعد أن أتم الأجزاء الرئيسية من أسوار العاصمة وبناء قلعته التى سماها المؤرخون ((قلعة الجبل)) .

وقد زود حصن القاهرة بثلاثة أسوار فاطمية وليس بسورين فقط فى العصر الفاطمى كما هو معروف .

فبنى السور الأول جوهر الصقلى ووضع أساس

الجدران فى نفس ليلة دخوله الفسطاط ووصوله الى الموقع الذى اختاره للحصن وأطلق عليه اسم « المنصورية » تشبها باسم حصن بناه المنصور أبو المعز قرب مدينة القيروان فى تونس . وبقى حصن جوهر معروفا بالمنصورية الى أن جاء الخليفة المعز لأول مرة الى مصر بعد فتحها بأربع سنوات فاطلق عليها اسم «القاهرة» . وشيد جوهر الأسوار باللبن ، وكانت الجدران عريضة تتسع لفارسين جنبا الى جنب ، أى يبلغ عرضها أكثر من ثلاثة أمتار أو خمسة فى بعض المواضع . ومما نرجحه أنجوهر قد اضطر الىاستعمال اللبن بسبب لهفته الى بناء الحصن فى أسرع وقت لما كان يتهدده من أخطار داخلية ومن زحف القرامطة فى شمال العاصمة . ومن جهة أخرى فانه لم يكن قد اطمأن بعد الى موارد البلاد المالية فضلا عن حالة الضيق والضعف من المجاعة والوباء التى كانت فيها البلاد قبيل مجىء جوهر . وذكر المقريزى أن اسوار جوهر لم يبق منها الا أجزاء متهدمة يسيرة فى أيامه . ولكن أمكن معرفة خطوط هذا السور بالتقريب من الجهات الاربع وكذلك مواضع الأبواب فيه وذلك بناء على وصف المؤرخين .

أما السور الثانى الفاطمى فقد بناه بدر الجمالى امير الجيوش ووزير المستنصر حوالى عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ولكنه اضاف زيادتين الى الحصن فى الشمال والجنوب واحاط كلا منهما بجدران من الحجر الدقيق النحت وجعل فيها عدة أبواب بقى منها ثلاثة أبواب ذائعة الصيت مع أطوال من الجدران منها فى الشمال باب النصر - واسمه الحقيقى باب العز - ثم باب الفتوح واسمه « باب الاقبال » . كما يوجد فى الجنوب باب زويلة الذى لا يعرفه الناس الا باسم « بوابة المتولى » .

واستخدم بدر الجمالى الحجر الدقيق النحت المحكم البناء لتلك الأسوار والأبواب فى الزيادتين الجديدتين . غير أن بدرا قد جاء والبلاد خارجة لتوها من محنة الشدة العظمى التى خربت فيها القاهرة والفسطاط والبلاد ونهبت خزائن الخليفة وضياع بيت المال ولم تستقر الأمور الا بعد مجىء بدر . وساعدت عودة فيضان النيل الى عادته على انفراج الأزمة . ولكن الأمور لم تعد الى مجاريها الا فى بطء شديد لم يكن يتيح لبدر من المال ما يساعده على أن يستمر فى التانق فىبناء الأسوار كلها بالحجر مثلما فعل حول الزيادتين فى الشمال والجنوب مما يوحى بانه قد اضطر لاستخدام نفس المادة الرخيصة التى استعملها جوهر الصقلى من قبل وهى اللبن فى اعادة بناء وتجديد الاجزاء الباقية من أسوار جوهر السابقة .

اما الأسوار الفاطمية الثالثة لحصن القاهرة ، فقد شيدها صلاح الدين أيام ان كان وزيرا للدولة الفاطمية مدة سنتين ونصف سنة . غير أن الأثريين اعتبروا كثيرا من اجزائها ضمن الأسوار التى قصد بها صلاح الدين أن تحيط بالعاصمة الكبيرة كلها . وذلك بعد أن أصبح سلطانا على البلاد بغير منازع . ولم يجعلوا لكل من الفترتين من حكمه الأهمية التى تستحقها مع أن كلا منهما وثيقة الاتصال بنشاطه المعمارى وأهدافه . فلقد وقعت على كاهل صلاح الدين فى أثناء وزارته للخلافة الفاطمية مسئوليات الحكم فى وقت عصيب كانت تثور فيه زوابع الحروب الصليبية فى الشام وتمتد تياراتها الى مصر . وكان يهمه أن يحافظ علىقاعدةالخلافة التىهو وزيرها . ويذكر احد المؤرخين ان السلطان - او الوزير بمعنى أصح - قد بدأ فى عام ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) فى عمارة سور القاهرة لأن الجزء الأكبر منها قد تهدم وأصبحت كما يذكر المقريزى طريقا مفتوحا لايمنع غاديا ولارائحا.

وهو قولحاسم يوضح بجلاء أنصلاح الدينقد قام ببناء أسوار حصن القاهرة وهو وزير فاطمى كما يدعم قول المقريزى اذ يدل على أن أسوار بدر الجمالى قد تهدمت فى فترة أقل من مائة عام ولم يكن ليحدث هذا الا لبنائه لبعض أجزائها باللبن .

ولا شك أن الحالة المالية للخلافة للبلاد وقت وزارة صلاح الدين كانت أفضل بكثير من أيام جوهر وبدر فى المرتين السابقتين . اذ كانت خزائن الخلافة وبيت المال قد استعادت جزءا كبيرا من الثروات السابقة . فتوفر له من المال ما مكنه من أن يحيط حصن القاهرةفى هذه المرة الثالثة بسور مشيد بالحجر المنحوت فى الأضلاع الأربعة جميعها . غير أنه لم يبق ظاهرا من أسوار صلاح الدين للحصن سوى الجانب الشرقى جهة المقطم بين برج الظفر قر بقلم المرور القديم وبرج درب المحروق وراء الدرب الأحمر . ثم أطوال من الضلع الشمالى من برج الظفر الى باب النصر ثم من باب الفتوح الى شارع الجيش وشارع بورسعيد مكان الخليج المصرى القديم . أما الضلع الغربى المحاذى للخليج فكان قد اختفى كله وكشفت الصدفة فى عام ١٩٢٠ عن جزء منه ومعه بقايا باب القنطرة فيه وذلك عند شق شارع الجيش . ويتضح من ذلك أن صلاح الدين قد وسع من رقعة حصن القاهرة بزيادتين فى الشرق والغرب تمتد كل منهما بين سور صلاح الدين من الحجر وبين سور جوهر وبدر باللبن وسمى المقريزى كلا منهما « ببين السورين » وكانت الغربية منهما لا تزال موجودة الى عهد قريب واندثرت بعد توسيع شارع بورسعيد وهو مكان الخليج القديم الذى ردم فى نهاية القرن الماضى .

أما الضلع الجنوبى من الحصن الذى شيده صلاح الدين قد اندثر . ولكن لدينا دليل نعتقد انه يساعد على معرفة بدايته على الأقل هو أن برج درب المحروق قصد به أن يكون برج ناصية مثل برج الظفر الذى يكاد يماثله تماما . اضف الى ذلك خروج جدار قصير يتجه نحو الغرب هو بداية الجدار الجنوبى الذى قصد به أن يمتد حتى باب زويلة . وهناك اختلاف واضح بين أسلوب بنائه السائد فى أسوار صلاح الدين للحصن وبين أسلوب البناء فى السور المتعامد عليه ويتجه جنوبا ليتصل بجدار قلعة الجبل أو بالهضبة التى شيدتعليها وهو جزء من الأسوار الأيوبية التى بناها صلاح الدين للعاصمة وهو سلطان وبدأها مع قلعة الجبل فى سنة ٥٧٢ هـ (١١٦ م) أى بعد قضائه على الخلافة الفاطمية فى عام ٥٦٧ (١١٧١ م)وصار مطلق التصرف فى أموال البلاد مما جعله يشرع فى توحيد العاصمة كلها داخل سور واحد من الفسطاط حتى القطائع وضم اليها القاهرة بعد أن فقدت وظيفتها الأولى كحصن للعاصمة وما استجد بينها وبين الاحياء القديمة من مناطق ماهولة هى المعروفة الآن بالخيامية وباب الخلق والمغربلين والحلمية والصليبة والسيدة زينب وسوق السلاح والقلعة وغيرها ، وكلها كانت تقع بين المقطم وبين الصفة الشرقية من الخليج المصرى . ثم من المناطق التى كانت محصورة بين الخليج المصرى وبين شاطىء النيل الشرقى الذى كان قريبا من شارع الجمهورية الحالى ، وهى المعروفة الآن بقنطرة الدكة والازبكية وعابدين وباب اللوق وجاردن سيتى وغيرها .

وفقد حصن القاهرة الفاطمى وظيفتــه فى الدفاع عن العاصمة ببناء قلعة الجبل . وفتح صـلاح الدين أبواب القاهرة من الجهتين الجنوبية والغربية للشعب كله : خاصته وعامته . فتهافتوا على بناء المساكن بانواعها والفنادق والخانات واتخذوا فيها المتاجر والأسواق بعد ان كانت محرمة عليهم . فازدحمت ازدحاما شديدا بهم ولعل ذلك كان تعويضا عن ذلك الحرمان فى العصر الفاطمى . ومن الطريف اننا أحصينا عدد الآثار الباقية فى منطقة القاهرة القديمة وحدها فوصل المجموع الى ١٣٠ أثرا بينما وجدنا عددا يماثله موزعا بين باقى أحياء العاصمة القديمة التى أحاطت بها أسوار صلاح الدين أما باقى الـ ٦٢٠ أثرا من العصر الاسلامى فهى متناثرة فى المقابر المتعددة خارج تلك الأسوار فى الشمال والشرق والجنوب وفى الأحياء التى استجدت خارج تلك الأسوار بعد العصر الأيوبى .

ثم جاءت المصـادفة لتدعم ذلك التحليل . فقد تسببت أعمال الحفر التى قامت بها بلدية القاهرة فى جهة الدراسة عام ١٩٥٧ فى الكشف عن أجزاء لم تكن معروفة من أبراج وجدران فى السور الثالث الفاطمى الذى شيده صلاح الدين لحصن القاهرة . والأهم من ذلك أنها أظهرت كشفا لم يكن فى حسبان الأثريين هو باب فاطمى لم يأت ذكر اسمه فى أى مرجع من المراجع الأثرية أو التاريخية وسجل عليه بالخط الكوفى ان اسمه « باب التوفيق » وانه من عمل بدر الجمالى – ويرجح البعض أنه باب البرقية الثانى .

وانتظرنا أن يثير هذا الكشف همة مصلحة الآثار نحو التوسع فى عمل حفائر على النظم العلمية لمعرفة ما يتصل بالباب من أسوار وأبراج . ولكن طال انتظارنا حتى قامت حاجتنا الى اعداد بحث حول أسوار القاهرة القديمة فلجأنا الى مصلحة الآثار فاذا بسجلاتها لاتحتوى الا على أعمال هندسية تتعلق بتدعيم واجهة باب التوفيق المتداعية وكذلك خلت كراسات اللجنة الدائمة للآثار الاسلامية من أية معـلومات أثرية عن ذلك الكشف . وهى كراسات كان يملؤها الأثريون الأجانب بابحـاث وتسجيلات لا زالت تعتبر من أهم المراجع عن الآثار الاسلامية . فعدنا الى مكان الحفر فوجدنا بكل أسف أن الأتربة والمخلفات والقاذورات قد انهالت مرة أخرى فطمرت أكثر أجزاء سور صلاح الدين وأبراجه التى كانت ظاهرة من قبل وأصبح فجوة عميقة فى الأرض تملؤها تلك الأتربة والمخلفات .

ولكن رب ضارة نافعة فقـد اكتشفنا فى قاع الحفر وسط القاذورات قطعة أثرية كبيرة الأهمية هى بقية جدار من اللبن على بعد مترين الى الجنوب من جـانب باب التوفيق . وعرض الجدار نحو ثلاثة أمتار وقوالـب اللبن ذات حجم كبير تقرب من الأبعاد التى ذكرهـا المقريزى . ودعانا هذا الكشف الى اقتراح أن تقوم جامعة القاهرة بعمل حفائر فى تلك المنطقة لتحقيق أهمية ذلك الجدار وما حوله من مخلفات العصر المملوكى مرتبة فى طبقات فوق بعضها تحتوى على بقايا للحضارة المادية لعامة الشعب فى ذلك العصر . وقد تسفر دراستها عن معلومات مفيدة غير معروفة .

ولا شك أن اكتشاف ذلك الجدار يعين بصفـة قاطعة مكان السور الثانى لبدر الجمالى كما يثبت صحة قول المقريزى أن بدرا بنى أسوارا باللبن وأبوابا بالحجر . وبقى أن تكشف الحفائر عن أسـاس ذلك الجدار لمعرفة ما اذا كان كلـه من عمل بدر الجمالى أو كان جزء منه تجديدا لسور جوهر القديم . والاحتمال الأخير هو الأرجح فى نظرنا فى الوقت الحاضر .

هذا وننتهز الفرصة فى هذا العرض العلمى لنذكر فضل السيد محافظ القاهرة واهتمامه بكل ما يتصل برعاية الآثار الاسلامية فيها وصيانتها ونامل أن يمتد الاهتمام الى اظهار المختفى منها وصيانتـه حتى يرى العالم حلقات جديدة من تطور الحضارة الاسلامية فى مصر مجسمة فى آثارها التى يبلغ عددها أكثر من ٥١٠ أثرا وهو أكبر عدد تضمه بقعة اسلامية فى العالم .

كما نذكر مجهود مصلحة الآثار فى هـذا السبيل . غير أننا نعتبره قاصرا الى حد كبير اذا قيس بما يبذل فى سبيل الآثار الفرعونية . ولكننا نامل أن يزيد الاهتمام بتراث ثمين يتصل بالحضارة العربية الاسلامية كلها . وهى التى ربطت ولا تزال تربط بين العرب المسلمين فى المشرق والمغرب برباط وثيق نرجو أن يزيد توثقا بما يبذل فى هـذا السبيل . ويا حبـذا لو أصبح للآثار الاسلامية مصلحة منفصلة تختص بها وتهتم لها كما كان الحال من قبل ومركزا خاصا بتسجيلها أسوة بمركز تسجيل الآثار الفرعونية . وخاصة أنه لا توجد أية علاقة أو صلة بين آثار الفترتين . اذ يوجد فاصل زمنى كبير بينهما يصل الى ألف عام جعل لكل منهما شخصيـة قائمة بذاتها . كما أن برامج دراسة كل منهما بعيـدة كل البعد عن الأخرى . ومن الواجـب أن تحظى الآثار الاسلامية بمرتبة من العناية لا تقل عما يمنح للآثار الفرعونية . وذلك عملا بمبدأ تكافؤ الفـرص الذى يسود مجتمعنا الاشتراكى فى الوقت الحاضر والذى يهتم العرب فيه بكل ما يمكن أن يوثق الروابط الحضارية بينهم . ولا شك أن الآثار الاسلامية تعتبر رباطا لم تنفصم عراه طوال أربعة عشر قرنا الى جانب رباط الدين واللغة والتقاليد .

وكلنا رجاء أن تقدم مصلحة الآثار كل الفرص الممكنة لدراسة الآثار الاسلامية وخاصة من جهة تنظيم حفائر فى المناطق التى لا زالت تحتوى على كنوز مطمورة تحت الأرض . ويقوم بالحفر فى بقع منها بعثات أجنبية . مما يذكر أن المصلحة يتوفر فيها الآن امكانيات مادية وعلمية وبشرية تساعد على القيـام بتلك الحفائر فيها عـدد وافر من خريجى دراسة الآثار الاسلامية بجامعة القاهرة يمكن المبادرة بالانتفاع بهم فى هذا السبيل قبل أن يجرفهم تيار الفتور والخمول .

الاسلام الحنيف بهديه وتوجيهه رسم فى كل منهج سلكه دوام الروابط وقوة العلاقات بين أفراد المجتمع البشرى ، وأقام مبادئه على حرية النفس واستقلالها والتقريب بين الفوارق الانسانية على أساس من العدل والاشتراكية السليمة حتى يسود الوئام وينزاح عن الكواهل ظل الحقد وكابوس الأنانية والكراهية ، وحتى تصفو الأجواء ، وتتعالى الميول الانسانية عن الشهوات أو الانحراف عن جادة الصواب ، ومن هنا تلوذ كل نفس بصاحبتها يدفعها ولاؤها وايمانها ، ويحدوها صفاؤها واخلاصها . قال تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس ».

ونحن اذا نظرنا الى تعاليم الاسلام وارشاداته فاننا نجد هذه التوجيهات واضحة لا تدع مجالا للشك ولا تفتح طريقا للتأويل ، ولا تبعد بصاحبها عن السبيل القويم . والصيام كركن من الأركان الأساسية فى الأسلام رسم خطة الترابط والتعاون بين الناس فى أجلى صورها وأنصع نظمها دون المساس بكرامة أحد ، ودون الأرغام على البذل ، لأن الأحساس الطبيعى نحو أشباع الرغبات والميل الى الملذات يدفع تلقائيا الى النزول للمستويات الدنيا والتجاوب الملموس نحو اسداء العون والأخذ بيد الفقراء وذوى الحاجة .

والصيام منهج انسانى يربى النفوس على الطاعة والتمسك بالمثل العليا ، ويدفع على احترام المبادىء ، وأخذ النفس على كبح جماحها والتحكم فى سلطانها ونزواتها ، والحيلولة بينها وبين مشتهياتها ، وهو الى جانب ذلك يحد من غلوائها وكبريائها ، ويجعل من الانسان رقيبا على نفسه فى السر والعلانية . كما انه الوقاية الحصينة دون الانزلاق فى الشهوات أو الانحراف نحو المحرمات ، وهو مع كل هذا المدرسة العملية لتعويد المرء على الصبر وتحمل مايلقاه الصائم من عنت وضجر .

والصيام فى حد ذاته دليل قوى على مدى تمسك المؤمن بعقيدته وحرصه العميق على التفانى فى سبيل الحفاظ على مبادئه ، ونحن هنا انما نعنى بالصوم ، الصوم القائم على دعائمه الأصيلة ذات الجوانب المبنية على الفهم لحكمته ومشروعيته ، وان يدور الصائم فى دائرة الوعى الدينى بكل ما حفلت به من تجاوب وخضوع ، واستجابة عن طيب خاطر لكل ما تمليه الظروف وما تتطلبه مقتضيات الأحوال .. ولنتساءل الآن ؟ لما فرض صوم رمضان ؟ وما حكمته ؟ وهل الصوم معناه التشدق بالأدعاء ان صدقا أو كذبا بأنه صائم؟ أم هل الصوم أمتناع عن الطعام والشراب لفترة محدودة يحل بعدها الانغماس بصورة شرهة فى الملذات ؟ أم أنه شهر اختص بدسامة الموائد وكثرت ما ضمت من أصناف قصرت عليه ؟ أم أنه حياة جديدة فى اطار يحدو النفس الى البعد عن الشهوات وتربية الروح على القناعة والصبر وتجشم الصعاب دون ضجر أو ملل ، انه ولا شك صومعة المؤمن يجدد فيها عزمه على المضى فى طاعته ، ونهج السبيل القويم فى خطته ، والعمل الجدى المؤدى الى النتائج الحتمية من السمو بالأخلاق والتقرب الى الله .

وهكذا كان الصوم على عهد سلفنا الصالح موسما خالصا للعبادة ، واحياء الليالى بالذكر والطاعة ، وكان موسما ينعم فيه الفقير وذوو الحاجة ، كما كان شهرا تعمر فيه بيوت الله بالتوحيد والاقبال بنهم وشوق على عبادة الله، يجدد فيه المؤمن نشاطه بالاقلال من طعامه ، ويلوذ فيه البدن بالراحة بعد عناء من الأرهاق والتخمة ، ومن هنا تتسع الهوة بين الحكمة التى فرض الصوم من أجلها وبين مانحن عليه الآن فى صيامنا .. فمنذ شهور ونغمة الصوم ومقتضياته تشغل الأذهان وتستحوذ على القلوب والجيوب ،أموال ترصد .وترتيبات تعد . واستعدادات حافلة للتفنن فى البذخ والترف ، وتفنن محكم لكيفية الحصول على أكبر قدر من التنعم حتى ولو كان على حساب الآخرين ، بذلك نكون قد خرجنا خروجا نهائيا عن الحكمة المشروعة لفرض الصيام . ونكون بالتالى قد حكمنا على انفسنا بمخالفة الدين مخالفة صريحة لا مجال فيها للشك أو التحوير . وعبثا نحاول التعلل بالأعذار لأننا جميعا متفقون على مبدأ «اللامبالاة» مادامت وسائل المتعة توفرت لأحدنا بطريق أو بآخر .. فأين الصوم اذن ؟ وهل جاء الصوم لتتخم بطون وتجوع بطون ؟ ان المسئولية جماعية . ولن يستقيم حالنا وذلك حالنا .

لقد أظلنا شهر رمضان .. وفيه ما فيه من المكرمات .. شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن .. واحياؤه يستلزم اخذ النفس بالقناعة ، ومحاولة التسلط عليها لمنعها عن التغالى فى اقتناء أنواع الطعام ، والتكالب بالطرق غير المشروعة لتخزين المواد ، وليكن رادعنا من وجداننا ضمير حى ونفس راضية، وليحذر المؤمن وسوسة الشيطان والاستماع لنصائحه .. وليكن لنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ، والنبراس الذى ينير حياتنا .

ان الصوم سلوك .. يدفع الى امتثال الأوامر واجتناب النواهى . وهو خلق يدعوالى التسماح والصفح والعفو عند المقدرة ...وهو تعاون يفرض عليك الا تشبع وجارك جائع والا تنعم وغيرك بائس .. وهو درس عملى لتقويم النفس والارتقاء بها الى مصاف الانسانية السليمة .. وهو حقل تجارب تختبر فيه قوى الأفراد فى الصبر والقناعة .. وهو النور الذى يشع فى قلب المؤمن فتسترشد بصيرته وتصفو نفسه .. وهو أمل المسلم حيث يجدد توبته ويتوجه الى ربه . ؟

من فضائل الإسلام

الأستاذ عبد العال السيد شعيب

كانت الأمة العربية قبل أن يشرق عليها نور الاسلام ، أمة متفرقة الأهواء ، مختلفة العقائد ، يشيع فيها كثير من الجرائم كشن الغارات ، وقطع الطرق ، ووأد البنات ، ولعب الميسر ، واستبداد الاقوياء بالضعفاء ، وقد استطاع الاسلام بنظمه السامية ، وتعاليمه الجليلة ، وأسسه الصالحة ، أن يمحو هذه المفاسد ، وأن يجعل منهم أمة قوية الأخلاق ، متينة البنيان ، استطاع أن يخرج من البادية الجاهلة أسمى صنوف المعرفة ، وأن يخرج من كهوف المعوزين احدى الحضارات السابقة ، وأن يجعل من عباد الحجر روادا للبشر ، ووصلت الأمة الاسلامية الى ذرا المجد ، وارتقت سنام العز ، وعاشت سيدة فى دنيا الناس وكان الفضل فى ذلك حرصها على التمسك بدينها ، والتحلى بما فيه من فضائل ، وما جاء به من قيم ومثل عليا وامجاد .

وان للاسلام لفضائل شتى ، وتوجيهات كثيرة لاصلاح الجماعة واعلاء شأن المجتمع ولنستعرض ثلاثة نماذج من هذه الفضائل ، وكل فضيلة منها كفيلة بأن تسعد أمما وتوقظ شعوبا من سباتها ، لو عقلت معانيها وتمسكت بمفاهيمها ..

الفضيلة الأولى :

الانفاق فى سبيل الله . فالأمة الاسلامية أمة متكافلة متضامنة يرحم قويهم ضعيفهم ، ويعين الموسر أخاه المحتاج ، ويدفع القادر حاجة من لا يجد ، وهذا الانفاق على ضربين ، ضرب مفروض ومحتم أداؤه على المسلمين ومحدد بمقدار معلوم وهو الزكاة المفروضة فى الأموال والزروع والثمار والحيوانات وما يخرج من الارض من معادن . وقد حدد الاسلام المقدار الذى يخرج ، لأنه الحد الأدنى الذى تقوم به الجماعة الاسلامية . وضرب آخر مندوب اليه وهو متروك لرغبة المسلم فى عمل الخير ، وقد حبب اليه الاسلام ورغب فيه « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » . وقد أعلن القرآن أن المال فى يد الأغنياء ليس الا وديعة الله استخلفهم فى حفظه وادارته وتوزيعه بما رسم لهم من طرق واضحة « آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » وحارب فى المسلمين خلق الشح الذى يمنع من التراحم والبذل ومساعدة الضعيف « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » « ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض » ويقول الرسول الكريم « اياكم والشح فانما هلك به من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » . ويقول « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » ويقول « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » والقرآن الكريم يعتبر ان اطعام الفقير والمسكين هو العقبة الوحيدة التى اذا اجتازها واقتحمها وصل الى السعادة التى لا يشوبها شقاء ، « فلا أقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة » وبمقدار ما يرغب القرآن الكريم فى الانفاق ويبشر المنفقين بحسن العقبى عند الله يشدد النكير على الكانزين البخلاء ، الذين يظنون أن الدنيا أعطيت لهم وحدهم . وأن السعة واليسار موقوفان عليهم ، اذا شبعوا لا يفكرون فى جوع الجائعين ، واذا ارتووا لا يفكرون فى ظمأ الظامئين ، واذا اكتسوا لا يخطر ببالهم ألم العرايا والمحرومين هؤلاء الذين يكنزون الأموال ويمنعونها عن عباد الله المحتاجين جديرون بذلك السوط الذى يلهب ظهورهم قال تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ويشدد النكير على هؤلاء الذين لا يقومون بحق الفقراء والمساكين ويتعقبهم بالانذار والوعيد لعل قلوبهم تلين ، وأفئدتهم تتحرك لمشاهدة الأسى والحرمان ، « كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما ، كلا اذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجيىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى » .

وترد فى القرآن سورة مستقلة تكشف هؤلاء الذين يحترفون التكاثر بالأموال حتى تلهيهم عن حق الفقير والمسكين « الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ، ولقد أدرك سلفنا الصالح الانفاق فى سبيل الله من رضا الله عليهم ومن توفيقه لهم فسارعوا الى البذل والاعطاء ، واطمأنت نفوسهم الى أن ما عند الله خير وأبقى ، بل ان سخاءهم جعلهم يجودون بأرواحهم فكيف بأموالهم ؟

روى ابن عباس رضى الله عنه : أن الناس قحطوا على عهد أبى بكر ، فقال أبو بكر : لا تمسون حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان الغد جاء البشير اليه فقال : قدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما ، قال : فغدا التجار على عثمان ، فقرعوا عليه الباب فخرج اليهم وقال : ما تريدون ؟ قالوا : بعنا ما عندك . حتى نوسع به على فقراء المدينة ؟ فقال

لهم عثمان : ادخلوا – فدخلوا – فاذا ألف وقر قد صب فى دار عثمان فقال لهم : كم تربحوننى على شرائى من الشام ؟ قالوا العشرة اثنى عشر !! قال عثمان لقدزادونى، قالوا العشرة أربعة عشر ، قال : لقد زادونى ، قالوا : العشرة خمسة عشر . قال : لقد زادونى ، قالوا :منزادك؟ ونحن تجار المدينة ؟ قال لقد زادنى الله لكل درهم عشرة. « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » قالوا : لا نقدر على ذلك ، قال : فاشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة ..

الفضيلة الثانية :

كظم الغيظ .. كثيرا ما يصادف الانسان فى حياته اليومية أشياء تؤلمه ، وتسبب له الضيق والأذى ، قد يتصرف انسان يمشى فى الطريق معه تصرفا يسىء اليه ، وقد يغضبه زملاء يعملون معه فى عمل واحد ، والناس ليسوا على مثال واحد من الخلق ومكارم الأخلاق ، انهم معادن منهم الذهب ومنهم التراب ، منهم من يزن بمروءته الجبال ، ومنهم من لايزن هباءة فى دنياالأخلاق ، بعضالناس فى خشونة الحجر الصلد ، وبعضهم أرق من نسيم الهواء، من الناس من يساوى فى رجولته ألوف الناس ، وهناك ألوف لا يزنون شيئا .

والناس ألف منهم كواحد
وواحد كالألف ان أمر عنا

ولو حوسب كل انسان على ما يقدمه من اساءة ، لانقطعت عرا المودات ، وذابت العلاقات بين الناس كما يذوب الثلج حينما تتسلط عليه أشعة الشمس ، وبذلك يفقد الانسان من يتعامل معه فى هذه الحياة ..

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطا
لما تحصل منهم شىء فى الغرابيل

لذا كان من الفضائل ضبط النفس وكبح جماحها وكظم غيظها ، وها هو ذا رسول الاسلام محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام يقدم عليه رجل يطالبه بدين ويغلظ له فى الكلام حتى يغضب الحاضرون ، وهنا هم عمر بايذائه فقال عليه السلام : مه يا عمر ، كنت أحوج الى أن تأمرنى بحسن الأداء ، وكان أحوج الى أن تأمره بالصبر .

وحدث مرة أن دخل عليه اعرابى وجذبه من طوقه حتى جرح عنقه وقال له : أعطنى من مال الله الذى عندك ، فانك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك ، فقال النبى ، المال مال الله ، ويقاد منك يا أعرابى فقال : لا لانك لا تجازى على السيئة بالسيئة ، فأعطاه النبى ما أراد . وعمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان من صفاته الشدة والحزم وقوة البأس جاء اليه رجل وقال : يا عمر انك لا تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل ، فتغير عمر وظهر ذلك على وجهه فقال له أحد الحاضرين : يا أمير المؤمنين ، ألا تسمع قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال عمر : صدقت فكأنما كانت نار فاطفئت .

ان ضبط النفس من أخلاق النبيين وأصحاب العزائم القوية والعقول الراجحة ، يحمى صاحبه من ضرر الانفعال، وما يجلبه من آلام وأمراض ، ويجنبه مواقف الندم والاعتذار ويسهل له حل المسائل التى يحول الغضب دون تذليلها وتيسيرها ويكسب صاحبه احترام الناس ومودتهم حتى الأعداء ، وفى هذا يقول الله تعالى « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم » .

وجعل الله الكاظمين الغيظ من عباده المقربين الذى رضى عنهم وأثنى عليهم بقوله « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » وما أروع توجيه رسول الله فى قوله « ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » وليس معنى كظم الغيظ أن يتبلد الانسان

فيتحمل الذلة والمهانة حينما يطعن فى دينه أو عرضه أو وطنه ، بل أن التهاون فى دفع ذلك اثم كبير لا يرضاه الاسلام ، ولو تسامح كل انسان فى دينه حين يمس لأهين الدين ممن لا يرقبون فيه الا ولا ذمة ، ولو تسامح الانسان فى عرضه اذا انتهك كان ممتهنا لانسانيته التى تدعو الى المحافظة على العرض ، فالعرض صفو الروح والدفاع عن الروح يساويه تماما الدفاع عن العرض ، ولو تسامح الانسان اذا استعبد جزء من وطنه ولو ضئيلا ، سهل على الأعداء الاعتداء على الوطن كله ، واذلال شعبه واستعباد بنيه ، وحاشا للمسلم أن يستعبد فى أرضه أو يستذل فى وطنه

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام !!

وانما المقصود أن يتجمل المرء بالحلم فى اعتدال مع المحافظة على كرامته وعلى كرامة عرضه وكرامة دينه وكرامة وطنه ..

الفضيلة الثالثة :

فضيلة العفو عند المقدرة ، وهذه الفضيلة تنبىء عن أن المتصف بها ذو خلق رفيع وصاحب معدن كريم ، فكم من الناس تبدو منهم هفوات ومن الخير التجاوز عنها مع قدرتك على الاخذ بحقك والانتقام ممن أساء اليك وبعض الناس يقابلون الشر بمثله والاساءة باساءة مثلها .

وكان العرب فى الجاهلية كذلك فتجد شاعرهم يقول :

الا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول آخر :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم !!

وجاء الاسلام الذى يريد أن تسود بين أبنائه وشائج الود الصافى والحب المتين فرغب فى العفو عند القدرة ، وفى الصفح عن المسىء « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » .. وانظر أيها القارىء الكريم الى موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركى مكة حينما دخلها فاتحا منتصرا ، وقد وقفوا خاشعين وجلين ، بعد ما أذوه وأخرجوه من مسقط رأسه ، ويقول لهم وهو فى أوج النصر وفى ذروة القوة ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ فيقولون : أخ كريم وابن أخ كريم ، فيقول لهم فى عزة الاسلام وسماحته : اذهبوا فانتم الطلقاء .. ويعبر عن هذا المعنى صاحب البردة والهمزية بقوله :

واذا كان القطع والوصل لله تساوى التقريب والاقصاء
ولو أن انتقامه لهوى النفس لدامت قطيعة وجفاء
فعله كله جميل وهل ينضح الا بما حواه الاناء ..

وانتشر دين الاسلام ، ودخل الناس فيه أفواجا ، بفضل سماحته ورقته وحسن أخلاق أتباعه .. هذه الفضائل الثلاث جمعتها آية واحدة من كتاب الله تعالى .. استمع اليها فى قوله تعالى « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس » وتختم الآية ببيان أن هذه الفضائل الثلاث من احسان العمل واتقانه ، وخير الناس من يحسن عمله ويتقنه ، انه محبوب من الله ، محبوب من الناس ولهذا تقول الآية الكريمة « والله يحب المحسنين » .

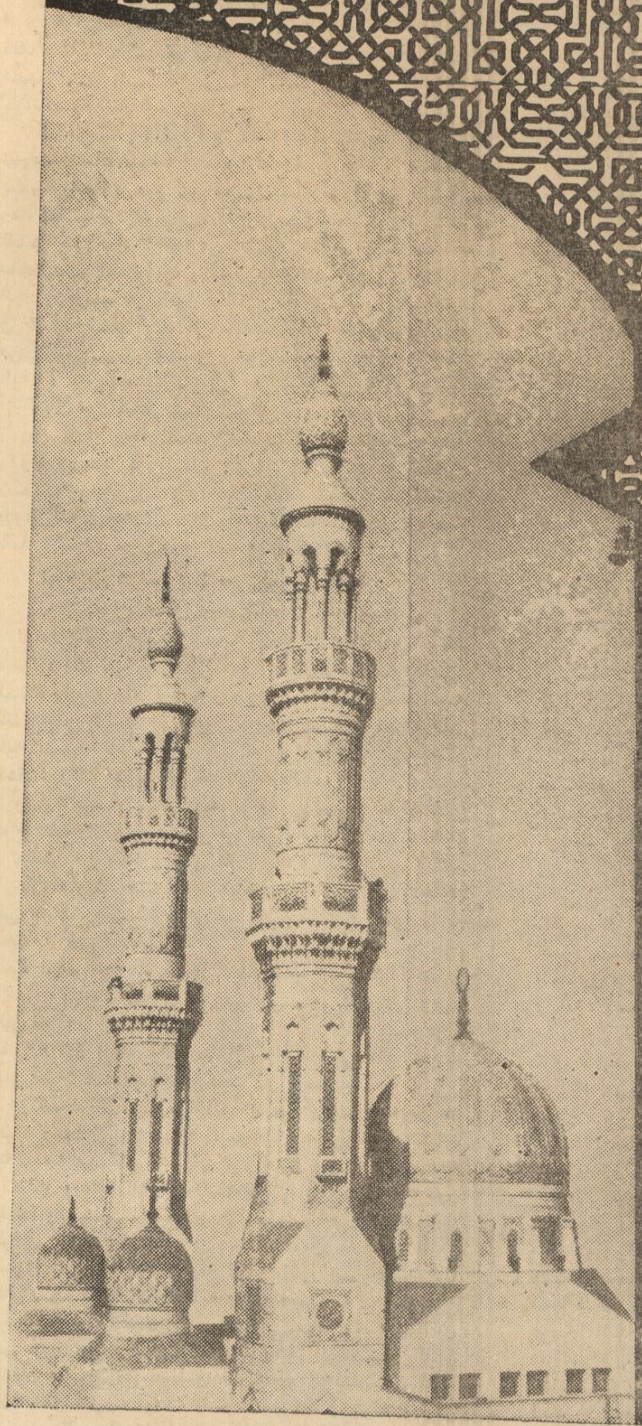

رمضان

شهر الذكريات الخالدة

فضيلة الشيخ عبد الحميد بلبع

ان شهر رمضان بين شهور العام كالفنار يطلق أضواءه فى فترات ترشد العابر وتهدى الحائر - أو كجنة حافلة بخيراتها ترتادها النفوس فتروى الظامىء وتشبع الجائع ، أو كالدواء الناجع يستأصل الداء ويبعث الشفاء ويشيع السلامة والقوة فى الجسم الخائر .. حلول هذا الشهر الكريم بالعالم يوحى الى كل نفس مؤمنة ذكريات وذكريات .. يوحى اليها ذكريات تضفى عليها روحا وريحانا .. وهدوءا واطمئنانا .. وتفتح أمامها آفاقا الى الخير واسعة .. وأبوابا الى معالم الهدى والرشاد موصلة .. وتدعوها الى موائد الحق والى حسن صلتها بالخالق والخلق .. وتحفزها الى ما رفع السابقين الأولين الى مستواهم الرفيع .. ووضع لهم فى سجل الخالدين أنصع صورة وأكرم صفحة ، وأجمل صنيع ..

ذكريات تعلن أن المؤمن فى رمضان يبدأ رحلة الهية يتجرد فيها من المادة ونوازعها .. الى الروحية المشرقة وبواعثها .. ذكريات تجعل المؤمن يمضى نهاره صائما وليله قائما راكعا لله وساجدا .. داعيا ربه وله متضرعا .. شاكرا لأنعمه سالكا سبيله ، مستصحبا دستوره .. لا يلقى بالا لنفسه تدعوه ، ولا لهواه يوحى اليه ، ولا لشيطانه يوسوس له . بل يترك كل هذا جانبا ، ويقبل فى رحلته على ربه فحسب ليعود منها وقد صفت نفسه وسلم صدره . وخلص لله قلبه . يعود منها ليستقبل ما بعد رمضان من شهور العام يعيشها كما عاش شهر رمضان ..

بذلك تؤدى هذه الذكريات رسالتها له . وبذلك يبرهن المؤمن على فهمه وحسن تقديره وصفاء نفسه واخلاصه فى عبادته واعتصامه بشريعة ربه .. وهكذا تكون الذكريات ، وهكذا يكون ايحاء رمضان .. شهر العبادة الخالصة .. والآيات البينات الهادفة .. شهر التراحم والتواد والاخوة الصادقة ..

حقا ان رمضان شهر الذكريات الخالدة ، والنعمة السابغة . والانتصارات المثالية ..

الانتصار على الباطل .. الانتصار على الوثنية .. الانتصار على الفوضى الاجتماعية . الانتصار على أعداء الدعوة المحمدية ، انتصار الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله .

١ - أولى هذه الذكريات وأكرمها ذكرى النعمة الكبرى والمنة العظمى التى أسبغها الله على عباده هى نعمة القرآن الكريم أنزله الله على رسوله فى شهر رمضان .. تأييدا له ، ودستورا عاما خالد لهداية الناس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم . بلغه رسول الله للناس فى عهده تلا عليهم كلمه ، وأبان لهم حكمه ، فكانوا أمامه فريقين .. فريق أخذته العزة بالاثم فأعرض عنه - ونأى بجانبه .. فكانت عاقبته خسرا .. وفريق سمع الدعاء ولبى النداء وتخلى عما ورث ، وترك كل ما ألف ، وأخذ نفسه بتعاليم هذا القرآن الكريم .. فخرج من الظلمات الى النور باذن ربه وهدى الى صراط مستقيم ..

نعم أخرج القرآن من أخرج من الناس من ظلمات الشرك .. وطهرهم من رجس الوثنية

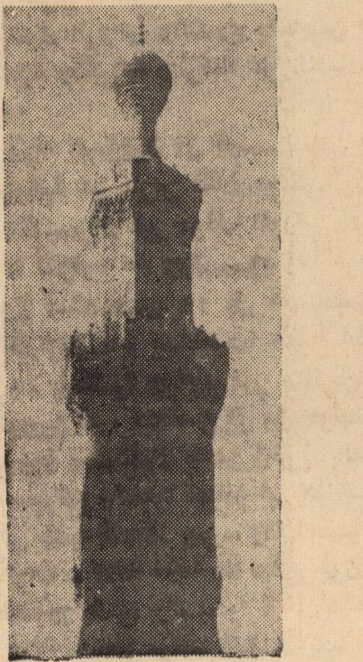

.. كما أنقذهم من اضطراب الخلق وفوضى المجتمع ، ونزعات العصبية .. حيث أراهم آيات الله فى خلقه وحسن تدبيره فى كونه ، ثم دعاهم بعد الى التفكير فيما صنع وتحكيم العقل فيما أبدع لعلهم بآيات ربهم يوقنون ، فجلى لهم تفكيرهم وهداهم العقل السليم الى آيات الله فى الآفاق ، وفى أنفسهم وتبين لهم أنه الحق فاستجابوا لربهم وكانوا هداه

حقا لقد أثبتت الأحداث وسجلت الأيام أن القرآن ـ حقيقة ـ مشعل فى مفترق طرق الحياة يهدى السارى ويرشد العابر ومن سار على ضوئه نجا ووصل . ومن أعرض عنه ضل وهلك .. ولقد استجاب هؤلاء للقرآن فاستجاب الله لهم ومكن لهم دينهم وأرسى لهم قواعد العزة وجعلهم قادة للبشر بعد أن كانوا رعاة للشاة والابل ، ولقد صدق الله وعده اذ يقول :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

هذا هو القرآن ، وهذا منهجه فى تربية الفكر ، وتحرير العقل ، وتكوين الشخصية، ورفع المستوى الروحى والتدرج بالعاملين فى مدارج العزة والكرامة والرفعة على الناس أجمعين ..

ولقد ورثه السابقون الى المسلمين فى أحقاب متعاقبة عبر الزمن فكان موقف الورثة من هذا القرآن غير موقف المورثين حيث ورثوه وما تذوقوه .. ورثوه وما عرفوا أهدافه ولا استصحبوه .. بل حسبوه وسيلة للارتزاق .. يستخدمها القراء لطلب الأرزاق .. وعاشوا حياتهم غير متأثرين به ولا مستجيبين له ، متطلعين الى من حولهم من الأمم وما يستمتعون به من زخرف الحياة فساروا سيرتهم ونهجوا نهجهم فى حياتهم جادين فى طلب اللحاق بهم ـ وما لحقوا ـ فلا على تراث ـ الأباء أبقوا ولا نما يرجون من دنيا المعاصرين خطوا وأصبحوا لا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء ، وهو موقف ذليل لا يحسدون عليه ، وكل ما أرجوه من أعماقى أن يلهمهم الله فيثوبوا الى رشدهم ويعودوا لاحياء مواريثهم ، ويسلكوا سبيل سلفهم ليعيدوا عزا تقوض ومجدا تهدم .. وما ذلك على الله بعزيز ..

لا شك أن نعمة القرآن الكريم تستأهل شكر المنعم بها لما أسداه للبشرية من خير وبر .. ولا جرم أن العقل البشرى لا يستطيع القيام بشكر المنعم بهذه النعمة لقصره وضيق أفقه عن ادراك ما يليق بمقام المنعم بها من ثناء وشكر ، لذا تفضل الله وبين للانسان كيف يشكر المنعم ـ جل شأنه ـ على نعمه وفضله فقال :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

أمر الله بصيام شهر رمضان شكرا للمنعم بنزول القرآن فى شهر رمضان .

والصوم المطلوب هو امتناع عن الطعام والشراب ومباشرة النساء وقتا محدودا من طلوع الفجر الصادق الى غروب الشمس ، ولا شك أن فى هذا الصوم مشقة على الصائم وحرمانا للنفس مما تشتهى .. وقد جرت عادة اللطيف الخبير أن لا يأمر الا بما يعود على العبد بالمصلحة ولا ينهاه الا عما فيه ضرره فكيف الأمر بالصوم وفيه مشقة وحرمان ، نعم ان فى الصوم مصلحة وان كان ظاهره حرمانا للنفس واضعافا للجسم ومشقة على الصائم .. ولكن وراءه ما هو خير للانسانية ونفع للصائم فانه غذاء وتقوية للروح وتنظيم فى صفوف المجتمع .. **ومقمعة للشيطان ..** والرسول ـ عليه الصلاة والسلام يقول ـ :

« انه الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع » .

أو معناه .. ففى الصوم ابعاد المؤمن عن وساوس الشيطان . وسد طرائق الشر عنه. وفتح أبواب الخير له .. والتدرج فى مدارج الفضيلة به .. هذه هى مزايا الصوم والآثار المترتبة عليه ، وهى لا تنال عفوا بل لا بد لها من جهاد طويل وكفاح مرير .. وقد أشار الله لهذه الآثار بقوله :

« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

فالتقوى هى المصلحة المرجوة من مشروعية الصوم ، والتقوى هى ثمرة الصوم التى ترتقب آثارها للصائم وللمجتمع ، فهى جماع الفضائل ، ومصدر المكارم ، وأساس حسن الصلة بين الله والناس .

قد يعترض الصائم أمور تضاعف عليه متاعب الصوم ومشاقه كالمرض والسفر مثلا، فلم يترك الله الصائم يعمه فى ظلمات الحيرة ولا يعانى ما فى هذا التكليف من قسوة ، بل رخص له فى أمور تيسر عليه الأمر وتهون عليه الصعب فقال : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون» وقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مثل هذا الترخيص : « ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » .

٢ ـ ثانى هذه الذكريات ـ غزوة بدر الكبرى ، وهى معركة حاسمة فاصلة قوت ساعد المسلمين وفتتت فى عضد المشركين ، وغيرت وجهة العالم نحو الدعوة ، خاضها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ دفاعا عن الدعوة ، وانتصارا للحق ، ودحضا للباطل ، وسحقا للوثنية والشرك لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

معركة تعلن وقائعها عن شىء عجيب .. وتتكشف نتائجها عن انتصار رائع بهر له العرب .. حقا فقد خاض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه المعركة فى عدد قليل وعدد أقل ، وجابه جيشا ضخما حافلا بالعدد مجهزا بالعدد ، فلا تكافؤ ولا توازن بين الجيشين بل ولا تقارب، ومعذلك حمى وطيس المعركة ، واشتعل أوارها ولمعت سيوف المسلمين فى غبارها .. تجىء وتذهب .. وتعلو وتهبط ، تتهاوى فى صفوف الأعداء وكأن رؤوسهم زروع أينعت وحان حصادها وكأن أجسادهم كتل نخرت ودنا أجلها .. وما هى الا عشية أو ضحاها حتى كان صناديد قريش صرعى فى الميدان كأنهم أعجاز نخل خاوية . وفر نصراؤهم هربا من الميدان كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ، ونادى الرسول فى قتلاهم « **قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا** » ، فكان النصر وكانت الغلبة للمسلمين .. والأسباب الظاهرة لا تنتجها والعوامل القائمة لا تؤدى اليها ، فجيش المشركين ذو عدد وعدد ، وجيش المسلمين فى قلة وفاقة وسغب .. ويبدو واضحا أن أسباب النصر الظاهرة فى جانب جيش المشركين لا جيش المسلمين ، ومع ذلك فقد كان النصر حليف جيش المسلمين على فاقته وقلته .. فما السبب اذن ؟..

بالتأمل نجد أن فى جيش المسلمين شيئا لم يوجد فى جيش المشركين مثله ، هو القرآن الكريم ـ مبادئه ـ تعاليمه ـ توجيهاته ـ واعتصام المسلمين بهذا القرآن وتنفيذهم كل ما يدعو اليه جعل الله ـ عز وجل ـ ينتصر اليهم ويدافع عنهم « **ان الله يدافع عن الذين آمنوا** » ، « **ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز** » . لذا امتن الله على المسلمين بهذا النصر العجيب اذ يقول « **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** » ، وأشار الى وسائل هذا النصر فقال مخاطبا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ **« اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وماجعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » .**

بهذا النصر امتن الله على الذين استضعفوا فى الأرض وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

٣ ـ ثالث هذه الذكريات فتح مكة ، وحين نذكر فتح مكة نذكر معه تحقيق ما وعد به الله رسوله والمؤمنين اذ يقول « لقد صدق الله

رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » .

وفي الحق أن تأمل معركة فتح مكة ـ أسبابها ـ وقائعها ـ نتائجها ـ يثير الدهشة ويبعث العجب العاجب اذ خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة فرارا بدعوته قليلا صحبه . ضعيفا جنده مشردا أهله ، وعاد الى مكة بعد فترة فى كثرة فائقة ، وقوة قاهرة . وحشد يرد الطرف وهو كليل .. عاد فى جيشه الظافر وعلمه الخافق ، وسيفه المسلول .. ذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم خرج من مكة هو وأتباعه متسللين فرادى وجماعات فارين بدينهم ودعوتهم من عنت المشركين وسفههم ومهاجمتهم الدعوة ومطاردة أتباعها ، فلقد دفع المشركين حقدهم على رسول الله ودعوته الى أن يضيقوا الخناق على رسول الله ويوقعوا ألوان الايذاء والتعذيب بأتباعه حتى أوجدوهم فى وضع يشبه الحصار الاقتصادى الآن ، وبلغ الأمر بالرسول وصحبه أن يأكلوا أوراق الشجر حتى تقرحت أشداقهم لعجزهم عن الحصول

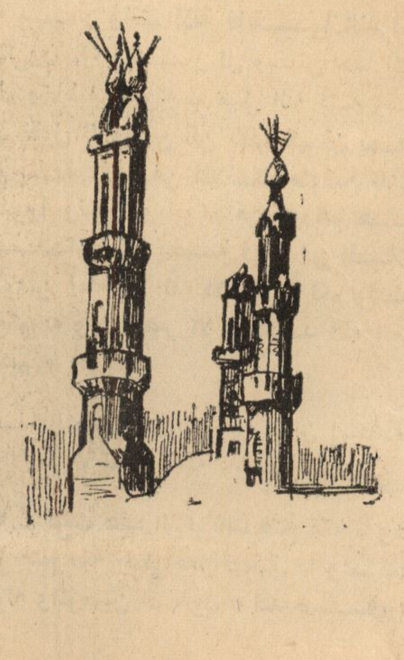

على طعام يقوم بأودهم فاضطروا للفرار من مكة الظالم أهلها الى المدينة حيث الأنصار الذين يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .. وفى المدينة استقر بهم المقام وتفرغوا للدعوة التى أقبل عليها الناس من أنحاء الجزيرة وخارجها وأخذ المسلمون يكثرون عددا ويزدادون قوة ، وذاع أمر انتصاراتهم على أعدائهم الذين هاجموهم فى عقر دارهم فرهبتهم قريش بعد أن كانت تطاردهم . وخشيت بأسهم بعد أن كانت تطبق الخناق عليهم .. ومع ذلك لا زال الحقد يغلى فى عروقهم ويدفعهم الى محاربة الرسول ودعوته ، ولا يتورعون فى ذلك عن فعل كل خسيسة وارتكاب كل دنيئة للنيل من الرسول ومن دعوته ، فأخذوا يؤلبون عليه اليهود فى المدينة وغيرها تارة ، والعرب فى أنحاء الجزيرة تارة أخرى ، ويخلفون مواعيدهم معه وينقضون عهودهم له ، والرسول لا يأبه بشىء من هذا كله ، فقد قوى جنده ، وعز حزبه ، ويستطيع أن يرد عليهم الضربة بضربتين والكيل بكيلين ـ لذا لما نقضوا ميثاقهم الذى واثقهم به فى صلح الحديبية جهز جيشا فى عشرة آلاف مقاتل فاجأهم به على غرة وحاصر مكة واستولى على جميع منافذها ، ولم يستطع المشركون حراكا بل وقفوا مغلولى الأيدى مذهولين . ودخلت كتيبة رسول الله مكة ـ والرسول على راحلته ساجدا لربه شاكرا لأنعمه لم يعترض طريقه أحد حتى دخل البيت الحرام وهناك هلل وكبر ، وأخذ يطهر الكعبة مما علق بها من الأصنام مشيرا بعود فى يده الى كل صنم قائلا :

« **جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** » فيخر الصنم ساقطا وسقطت كل الأصنام كذلك ، ثم التفت الى من حوله من اهل مكة بما عرف عنه من رأفة وعطف ورحمة وقال « **ما تظنون انى فاعل بكم الآن ، قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال قولته الخالدة المليئة عفوا وعطفا ورحمة وصلة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .**

وبذا تم فتح مكة الذى كان فيصلا بين الجاهلية والاسلام ، وقضاء على الدين الوثنى فى جزيرة العرب ، والذى أخذ الناس بعده يدخلون فى دين الله أفواجا ، وأخذت الدعوة تسير قدما الى الانتشار والازدهار •• ويرن

صداها فى الآفاق يقرع الأسماع ويلفت الأنظار ، وباتت راية الاسلام ترفرف فوق ربوع القوى والأمصار وتلك منة عظمى تستوجب الحمد وتوحى بالشكر لله الكبير المتعال :

« اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » •

هذه ذكريات رمضان هنيئا لمن قرأ ووعى ، وتذكر وتدبر فان الذكريات دروس يلقيها الزمن على الناس عظة وذكرى لعلهم يتفكرون ويعملون ، الذكريات تربط الماضى بالحاضر ، تصور للناس الآن ما كان عليه الناس فى العهود الأولى ، الذكريات دراسات لما كان عليه السابقون من خلق وعمل رجاء التأسى بهم فيما كان لهم من قوة فى الحق وشجاعة فى العدل واخلاص فى العمل ، وثبات على المبدأ وتعاون على الشدة وتناصر عند المحنة ، وتواص بالصبر وتواص بالحق ، فان الذكرى تنفع المؤمنين •

الأديب الذي وقف أدبه على إحياء الفضيلة

الأستاذ حسن الشيخة

أعرف من لا يعرف من أبناء هذا الجيل بأديب كبير ، اتخذ احياء الخلق الكريم قيثارته ، ومضى يغنى عليها طول حياته ، فأطرب السامعين ، وهز قلوب الجاحدين ، وهو فى نثره شاعر بلا روى ولا قافية ، فكان فى أيامه كاتبا فريدا ، وشاعرا جديدا .

قضى السيد مصطفى لطفى المنفلوطى عمره القصير فى هذا الحقل المثمر ، يحرث الأرض ، ويضع البذر الصالح للنماء ، وكانت تتخطف مقالاته التى ينشرها فى الصحف ، وكتبه التى يجمع فيها هذه المقالات ، على هيئة المؤلفات، ولا أنسى ما نسيت أن أستاذ الأدب والانشاء قد أطنب لنا فى امتداح كتاب (النظرات) اطنابا طويلا ، ومن هذا الاطناب قوله حرفيا (ان المنفلوطى نفسه طويل ، وأسلوبه جميل) .

ليس من مقصدى أن أترجم المنفلوطى ترجمة وافية ، فترجمته الكاملة تتخطى المقال ، بل المقالات ، وانما أردت أن أضع على القرطاس صحيفة من صفحاته المضيئة التى خطها قلمه ، وأملاها عليه قلبه الكبير .

من اليسير أن تجد مفتاح شخصية المنفلوطى فى تعشقه الفضيلة ، وبغضه الرذيلة ــ مما كتبه هو عن نفسه ، وأثبت منه هنا بعض الفقرات ، قال :

« .. وكنت انسانا بائسا ، لم يترك الدهر سهما من سهامه المريشه لم يرمنى به .. فقد ذقت الذل أحيانا ، والجوع أياما ، والفقر أعواما .. فشعرت بمرارة الحياة فى أفواه المساكين ، ورأيت مواقع سهام الدهر فى أكباد البائسين والمنكوبين ، فكان همى أن أبكى كل بائس ، وأندب كل منكوب ، وأطلب رحمة القوى للضعيف ، والغنى للفقير ، والعزيز للذليل » .

أخصب المنفلوطى فى هذا الحقل كثيرا ، وترك آثارا قلمية منتزعة من أخلاق الناس فى زمانه ، زمن فيه الغنى الذى يموت صاحبه من الشبع والتخمة ، وفيه المسغبة التى يموت صاحبها من الجوع ، وفيه الظلم والقسوة ، وفيه الاجحاف والانحراف ، وفيه اختلال الموازين التى تحتاج الى اصلاح بالغ ، وتعديل نافع ، وكان المنفلوطى أمام هذا الجيش من الرذيلة ــ واعظ القلوب الغلف ، والأنفس الجامحة ، والطباع الغليظة ، ومن ذلك ما جاء فى كتابه (النظرات) بعنوان (الرحمة) ، وهل بعد الرحمة من فضيلة ، وهل بعدها من انسانية مهذبة؟. قال (بتصرف) :

« ... لقد بليت اللذات كلها ، ورثت حبالها ، وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد ، ولم يبق ما يعزى الانسان عنها الا لذة هى لذة الاحسان .. فأحسن الى الفقراء والبائسين ..

« أيها الانسان ، ارحم الأرملة التى مات عنها زوجها ، ولم يترك لها غير صبية صغار ، ودموع غزار ، ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ، ويعبث الهم بقلبها ، فتؤثر الموت على الحياة .

« ارحم المرأة الساقطة ، لا تزين لها خلالها ، ولا تشتر منها عرضها ، علها تعجز أن تجد مساوما يساومها فيه ، فتعود به سالما الى بيتها .

« ارحم الزوجة أم ولدك ، وقعيدة بيتك ، ومرآة نفسك ، لأنها ضعيفة ، ولأن الله وكل أمرها اليك ، وماكان لك أن تكذب ثقته بك ..

« ارحم الجاهل ، لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصار الى نفسه ، فتجمع عليه بين الجهل والظلم ، ولا تتخذ عقله متجرا تربح فيه لتكون من الخاسرين .

« ارحم الحيوان ، لأنه يحس كما تحس ، ويتألم كما تتألم ، ويبكى بغير دموع ، ويتوجع ولا يكاد يبين ..

« أيها السعداء ، احسنوا الى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الأشقياء ، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .. »

وكتب فى نظراته مقالا بعنوان (الضمير) قال (بتصرف) :

« أتدرى ما هو الخلق عندى ؟ هو شعور المرء أنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن يفعل ، لذلك لا أسمى الكريم كريما حتى تستوى عنده صدقة السر وصدقة

العلانية ، ولا العفيف عفيفا حتى يعف فى حالة الأمن كما يعف فى حالة الخوف ، ولا الصادق صادقا حتى يصدق فى أفعاله صدقه فى أقواله ، ولا الرحيم رحيما حتى يبكى قلبه قبل أن تبكى عيناه ، ولا المتواضع متواضعا حتى يكون رأيه فى نفسه أقل من رأى الناس فيه .. »

هذا نموذج من كتابه النظرات الذى أودع فيه تأملاته ونظراته ، وأرى أن هناك مناسبة مستوية التصوير بين ما اقتبسته وبين ما تقرر من أن تكون موضوع خطبة الجمعة فى العيد الفضى لوزارة الشئون الاجتماعية (١٢/٨ – ١٥) هو (الاسلام يحيى كرامة الانسان) ، وليس بعد الرحمة والاحسان ، والضمير الحى من حماية لكرامة الانسان ، التى تجب لها الرعاية كما قال المنفلوطى .

وصف المنفلوطى بأنه كاتب منشىء ، لأنه يولد أفكارا جديدة ، بألفاظ سهلة المعنى ، لا تعقيد فيها ولا غموض ، وهذا غاية ما يمتدح به كاتب ، بالرغم من أن بعض الأدباء قصد بهذا الوصف أن المنفلوطى لم يكن كاتب حقائق كما يكتب التاريخ مثلا ، وتراجم الأدباء ، والأسئلة وأجوبتها مع أن الشعر فى حقيقة أمره ما هو الا (انشاء) وتوليد وتخيل ، فالقول بأن هذا الكاتب هو كاتب (منشىء) هو غاية الامتداح .

للمنفلوطى أثر أدبى لا يقل شأنا عن (النظرات) ذلك هو (العبرات) ، ملأه بالقصص التى يصور فيها ماطبعت عليه نفسه من تعشق الفضيلة ، والانسانية المهذبة ، وهذا الكتاب ليس موضوعا وضعا كما وضع النظرات ، وانما يمتزج فيه الأمر بين الوضع وبين الترجمة ، عن قصص الأشقياء والبائسين ، ولنضرب مثلا لما احتواه كتاب (العبرات) هو قصة بعنوان (المذكرات) ، يرى فيها أن ان الماضى الأثيم لا ينبغى أن يظل صاحبه طريد المجتمع ، محروما من رحمة الناس ، اذا تاب توبة نصوحا ، وعرف فى قرارة نفسه ان اثمه الذى ارتكبه عن اندفاع ، لم يكن الا خطأ يلذع فؤاده كلما مرت به صورته الأليمة ، وأن فى محاسبته أبدا على ماضيه واثمه ، وعدم غفرانه له ، هو قضاء عليه بالشقاء الدائم ، وموت لا حياة بعده لعضو من أعضاء المجتمع ، كان من الممكن أن يسعد هو ، ويسعد به غيره ، اذا كان الغفران هو ما تعامل به نفس تابت وأنابت ، لتحيى حياة طيبة ، لا تلدغ فيها بالخطأ مرة أخرى ، وكما جاء فى الأثر (لايلدغ) المؤمن من جحر مرتين) .

كما كان لهذا الكاتب قصص مطولة ، ترجمها له بعض أصدقائه ، وصاغها هو بأسلوبه العربى المبين صياغة يصفها هو بقوله :

« وقد حافظت على روح الأصل بتمامه ، وقيدت نفسى به تقيدا شديدا ، فلم اتجوز الا فى حذف بعض جمل لا أهمية لها ، وزيادة بعض عبارات ، اضطرتنى اليها ضرورة النقل والتحويل ، واتساق الأغراض والمقاصد ، بدون اخلال بالأصل ، أو خروج عن دائرته .. »

هذه القصص المطولة أسميها بأسمائها ، مثل قصة (الفضيلة) ، وقصة (الشاعر) ، وقصة (فى سبيل التاج) ، وقصة (ماجدولين) .

والخلاصة فى شأن هذا الشاعر الكاتب ، والكاتب الشاعر ، أن الأديب الجدير بهذا الوصف هو الذى يكون الأدب فيه صادقا ، يترجم عن مكنونات نفسه ، ونبضات قلبه ، وهو فى ذلك يقول :

« أشعر الشعراء عندى ، واكتب الكتاب ، سواء فى ذلك المتقدم والمتأخر – أوصفهم لحالات نفسه ، وأثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك ، وتصويره للناس تصويرا صحيحا ، كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضا ، أو يضعه فى أيديهم وضعا ، فان ظننت أن القائل كاذب فيما يقول ، وأنه يرسم صورة غير التى تتلجلج فى نفسه أو أنه لفوى يفر من ضعف أسلوبه ، وفساد نظمه الى أكمة من الألفاظ الغريبة ، والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، أو ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية ، والوقائع التاريخية ، أو مترجم ينقل من اللغة الاعجمية التى يعرفها – آثار علمائها ، وخيالات شعرائها ، وكأنما هو صاحبها ، أو شعرت انه قد قدر لنفسه وهو يكتب كلمة أن يكون بليغا فيها ، أو مبدعا ليعجب الناس بها ، كان كل حظه عندى أن أعرف له قدره فى العلم ، ومنزلته من الذكاء والفهم .. ولكنى لا أعده كاتبا ولا شاعرا ، لذلك كان أغزل الغزل عندى غزل العاشقين ، وأفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأنبل المدح مدح الشاكرين ، وأشرف العظات عظات المخلصين ، وأصدق البكاء بكاء المنكوبين ، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرالوصف وصف الرائين الشاهدين » .

فالأدب الرفيع عند المنفلوطى هو ماصدر طبيعيا عن الأديب ، صدور النور عن الشمس ، والأريج عن الزهر ، يتفجر فى صدره ، ثم يفيض على قلمه ، سواء فى المعانى الجليلة من الخلق الكريم ، والتأمل العميق فى الحياة ، أو فى الأساليب والألفاظ التى لا عوج فيها ولا أمتا .

وبعد فهذه كلمة وجيزة عن أديب شغل الناس فى وقته بالجديد من أدبه ، فكان خير رسول فى وقته للأدب القويم ، فى طريقه المستقيم ، وقد أدى رسالته خير أداء الى أن فارق الدنيا عام ١٩٢٤ .

رمضان شهر الفرقان

بقلم فضيلة الشيخ محمد زكى عبد الكريم

شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان

وليس القرآن وحده هو الذى أنزل فى رمضان ، بل انزلت فيه جميع الكتب السماوية ، فقد أخرج الامام احمد بن حنبل عن واثلة بن الاسقع أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : (أنزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وانزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)

والمراد بنزول القرآن فى رمضان أنه نزل جملة واحدة الى بيت العزة من السماء الدنيا فى شهر رمضان ، فى ليلة القدر منه ، كما قال تعالى : (انا أنزلناه فى ليلة القدر) ، وكما قال : (انا أنزلناه فى ليلة مباركة) ، وهى ليلة القدر ، ثم نزل من السماء الدنيا على محمد – صلى الله عليه وسلم – مفرقا بحسب الوقائع فى مدى ثلاث وعشرين سنة .

وقد فرض الله صيام هذا الشهر فى السنة الثانية من الهجرة ، ولم يفرض صيامه الا بعد التمهيد له ، حتى لا يفاجأ المسلمون بما يشق عليهم فعله .

أخرج الامام أحمد عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال بعد أن ذكر أحوال الصلاة : وأما أحوال الصيام ، فان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قدم المدينة ، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وصام عاشوراء ، ثم ان الله فرض عليه الصيام ، وأنزل : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له » ، فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكينا فاجزأ ذلك عنه ، ثم ان الله عز وجل أنزل الآية الاخرى : « شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الاطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام فهذان حالان ، قال : وكانوا ياكلون ويشربون ويأتون النساء ، ما لم يناموا ، فاذا ناموا امتنعوا ، ثم ان رجلا من الانصار كان يعمل صائما حتى أمسى ، فجاء الى أهله ، فصلى العشاء ثم نام ، فلم ياكل ولم يشرب حتى أصبح ، فاصبح صائما ، فرآه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد جهد جهدا شديدا ، فقال : « مالى أراك قد جهدت جهدا شديدا ؟ » ، قال : يا رسول الله ، انى عملت أمس ، فجئت حين جئت فالقيت نفسى فنمت فاصبحت حين أصبحت صائما ، قال : وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام ، فأتى النبى – صلى الله عليه وسلم – فذكر له ذلك ، فانزل الله عز وجل : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم اتموا الصيام الى الليل » .

• • •

وتجرنا هذه المناسبة الى أن نشير الى أمر أثار ضجة من بضع سنين ، فقد زعم أحدهم – وقتذاك – أن من ضاق أو برم بصيام رمضان فان له أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا ، ولو كان صحيحا مقيما ، تطبيقا لقوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ، وقال : ان هذه الرخصة التى كانت قائمة وقت نزول القرآن لا تزال قائمة الى الآن .

ولو أن صاحب هذا الرأى تمهل حتى يرجع الى كتب السنة فى باب الصيام لما قال ما قال ، اللهم الا ان كان من هؤلاء النفر الذين يجحدون السنة ، وينكرون حجيتها .

فقد أخرج البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن سلمة ابن الاكوع قال : لما نزلت هذه الآية : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » كان من أراد أن يفطر ويفتدى ، حتى أنزلت الآية التى بعدها فنسختها .

ومقصودة بالآية التى بعدها قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، ونحو هذا روى عن معاذ بن جبل ، وعبد الله بن عمر .

واخرج البخارى عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ، قال ابن عباس : ليست بمنسوخة ، هى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ، لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا .

وهذه الأحاديث – وان كانت موقوفة – لها حكم الرفع الى النبى – صلى الله عليه وسلم – لأن الصحابى فى كل منها يحكى ما وقع فى زمن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكأنهم قالوا : كان العمل على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كذا وكذا .

وسواء كانت الآية منسوخة كما روى عن سلمة ومعاذ وابن عمر ، أو غير منسوخة كما روى عن ابن عباس ، فقد اتفقت أحاديثهم جميعا على أن قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » يوجب الصيام على الصحيح المقيم ، ولو ضاق ، وبرم ، واختل مزاجه بالصيام .

• • •

والمقصود من الصوم حبس النفس عن شهواتها ، وتعديل قوتها الشهوانية ، وتذكير الصائم بحال الجياع والمحرومين ، فيبادر الى اغاثتهم ، وسد حاجتهم ، وفى ذلك من السمو ، واكتمال الانسانية ما فيه .

• • •

وقد وقع فى هذا الشهر المبارك حادثان عظيمان ، لولاهما لبقى الاسلام محصورا فى أضيق الحدود ، ولما انتشر ضوؤه فى الآفاق بهذه السرعة المثالية ، وهما غزوة بدر فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وفتح مكة ، الذى بدأ الاعداد له فى العاشر من رمضان فى السنة الثامنة من الهجرة .

وسوف لا ندخل فى تفاصيل هاتين الغزوتين ، فقد افاضت فى ذلك كتب السيرة النبوية بما لا مزيد عليه ، ولكننا سنشير فقط الى النواحى الهامة فيهما ، ونستخلص منها ما يجب أن يعرفه المسلمون ، وما يجب أن يترسموه فى حياتهم الخاصة والعامة .

• • •

فاما النواحى البارزة فى غزوة بدر فهى :

١ ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج من المدينة فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، ولم يكن معهم الا فرسان وسبعون بعيرا ، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا كواحد من أصحابه ، فكان هو وعلى بن أبى طالب ومرثد ابن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا .

ولا شك أن المرافقين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يودون أن يركب هو طول الوقت ، ولو أدى بهم الامر الى ان يسيروا جميعا على اقدامهم الى نهاية الطريق ، ولا بد انهم طلبوا منه ذلك ، ولكنه لم يرد أن يتميز عليهم ، كما كان ذلك شأنه دائما معهم ، ففى بعض أسفاره أراد أصحابه أن يذبحوا شاة ، فقال أحدهم : على ذبحها ، وقال آخر : وأنا على سلخها ، وقال غيره : وأنا على طبخها ، فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأنا على جمع الحطب ، ولما قالوا : نحن نكفيك هذا يا رسول الله قال : أنا أعلم انكم تكفونى ، ولكنى لا أريد أن أتميز عليكم .

فأى شىء يجذب قلوب الناس الى قائدهم وزعيمهم اكثر من هذا ، وأى شىء يضمن لأى زعيم ـ فى أى مكان ـ نفاذ كلمته ، وامتثال أمره ، والتفانى فى طاعته أكثر من هذا ؟

٢ ـ انتهت غزوة بدر بانتصار المسلمين ، وهزيمة المشركين ، وأسر عدد كبير منهم ، ومن هؤلاء الاسرى أمية بن خلف ، أسره عبد الرحمن بن عوف ، وما أن وقع نظر بلال على أمية حتى صاح فى الناس بأعلا صوته : رأس الكفر ، أمية بن خلف ، لانجوت ان نجا ، فاجتمع لصياحه بعض الأنصار ، وارادوا الفتك بأمية ، ولما لم تفلح محاولات عبد الرحمن فى منعهم ، أمر أمية ان يبرك على الأرض ، ففعل ، وألقى عبد الرحمن نفسه عليه ليمنع وصول المسلمين اليه ، فجعل بلال ومن معه ينخسون أمية بسيوفهم من تحت عبد الرحمن حتى قتلوه .

ومن المعلوم أن امية بن خلف كان يعذب بلالا بمكة ، وبلغ من قسوته أنه كان يجرده من ثيابه كلها ، وينهب به وقت اشتداد الحر فى الظهيرة ، ويطرحه على ظهره فوق الرمال الملتهبة ، ويضع على صدره حجرا ضخما ، يريد بذلك أن يحمل بلالا على الكفر بمحمد ، فما يزيد بلال على أن يقول : أحد ، أحد ، أى الله أحد ، الله أحد ، ولم يفتنه كل هذا عن دينه .

ووجه العبرة فى هذه القصة أن مصرع أمية كان على يد بلال بالذات ، ولم يكن ذلك بطريق الصدفة ، بل انه تدبير الحكيم العليم ، ليشعر أولياءه بانه لا يتخلى عنهم وأنه فى النهاية سيكافئهم على صبرهم بما يرضيهم ، وبما يملأ نفوسهم ثقة بأنهم على الحق ، وقلوبهم اطمئنانا الى عدالة الله جل جلاله .

٣ ـ لما بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الاثيل ، أثناء رجوعه الى المدينة ، استعرض الأسرى ، وكان من بينهم النضر بن الحارث ، فنظر النبى اليه نظرة ارتعد لها ، حتى لقد أحس منها أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا بد قاتله ، فلجأ الى مصعب بن عمير ـ وكان أقرب المسلمين به رحما ـ ليشفع له عند النبى ، فكان جواب مصعب : انك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا ، وكنت تعذب اصحابه ، ورفض أن يشفع للنضر ، وضربت عنقه ، تنفيذا لأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

والعبرة فى هذه القصة أنه لا مكان للمجاملات ، اذا كان فى ذلك خطر محقق أو متوقع على المجتمع الاسلامى ، فالاخلاص لهذا الدين يحتم على معتنقيه أن لا يقيموا وزنا للعلاقات الشخصية التى تربطهم بأعداء المسلمين ، وأن يقفوا منهم دائما موقف مصعب بن عمير من قريبه النضر بن الحارث ، وذلك هو الطريق الوحيد الى قوة المسلمين ، وصيانة مجتمعهم من التصدع والانهيار .

ولم يكن مصعب بن عمير وحده هو الذى وقف من قريبه هذا الموقف الحازم ، فقد رأينا من المسلمين فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قتل أباه فى احدى الغزوات ، ورأينا منهم من هم بقتل ولده ، ولا شك أن هذا هو التطبيق الصحيح لقوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون » .

٤ ـ وفى الطريق الى المدينة ، وفى مكان يقال له عرق الظبية ، أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقتل عقبة بن أبى معيط ، وكان من جملة الأسرى ، وموقفه من النبى ومن المسلمين معروف ، فكم سخر من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكم آذاه ، وكم آذى المسلمين ، وكان من أشد المشركين محاربة للدعوة الاسلامية ، والابقاء على مثل هذا فيه من الخطر على الاسلام والمسلمين ما فيه ، ولذلك فانه لما أراد أن يستغل عاطفة الرحمة التى فطر عليها النبى وقال : من للصبية يا محمد ـ عندما أمر

بضرب عنقه ـ أجابه عليه الصلاة والسلام بقوله : « لهم النار » ، وضربت عنقه .

والعبرة فى هذه القصة ، أن الرحمة لا ينبغى أن تكون على حساب العقيدة ، ولا على حساب مصلحة المسلمين ، فلو أن النبى استجاب لنداء الرحمة فى هذا الموطن ، وأبقى على عقبة ، لتعرضت مصلحة المسلمين لأعظم الاخطار ، وأى خطر أعظم من الابقاء على مثل عقبة ، وهو أحد رؤوس المشركين ، وله من نفوذ الكلمة وقوة التأثير ما يستطيع به تعويق سير الدعوة ؟

وهكذا يجب أن يكون شأن المسلمين فى كل زمان اذا وجد بينهم مثل عقبة ، وما أبلغه من درس نتلقاه عن الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم .

•
• •

وأما النواحى البارزة فى فتح مكة فهى :

١ ـ لما أحس أبو سفيان بأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربما اتخذ من نقض قريش لعهد الحديبية سبباً لغزوهم ، أراد أن يفعل شيئاً لمنع هذا الخطر ، فقدم المدينة ليطلب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مد أجل الهدنة ، ودخل على ابنته أم حبيبة ، وهى فى نفس الوقت زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد أن يجلس على فراش النبى ، فطوته عنه حتى لا يجلس عليه ، فقال لها : يا بنية ، ما أدرى ، أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنت مشرك نجس ، فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

وليس ذلك عقوقاً من أم حبيبة لابيها ، ولكن أباها خصم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحاربه ، ويناوئه ، ويصد عن اتباعه ، وهى مؤمنة ، يحتم عليها ايمانها أن تقف فى صف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن لا تعدل به أحداً من الناس ، ولو كان أبوها

فما فعلته أم حبيبة هو من باب التفانى فى حب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والنزول على قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين » .

٢ – بعد أن دخل النبى – صلى الله عليه وسلم – مكة ، وبعد أن فرغ من الصلاة فى الكعبة ، أمسك بعضادتى بابها ، وألقى على المجتمعين من المسلمين ومن أهل مكة كلمات ، أراد بها ان تكون دستورا يسير عليه المسلمون من بعده ، ومما قاله وقتئذ : « ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة ، مائة من الابل ، أربعون منها فى بطونها أولادها » .

وقبل الشروع فى بيان المقصود من هذا الكلام نذكر أنواع القتل ، فهى ، العمد ، والخطأ ، وشبه العمد ، وقد تكفل القرآن الكريم ببيان حكم العمد والخطأ ، ولم يتعرض لشبه العمد ، فبينه رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

ولكن لماذا اختار النبى – صلى الله عليه وسلم – هذا الوقت بالذات للحديث عن هذا النوع من القتل ؟ ولماذا اهتم ببيان حكمه دون غيره من أمور أخرى تهم المسلمين ؟

من المعروف أن هذا النوع من القتل يأتى عادة نتيجة لمشاجرات لا تستعمل فيها أسلحة قاتلة ، بل يستعمل فيها ما يكون أمام المتشاجرين وقتذاك ، من عصى خفيفة ، أو نعال ، أو شماريخ (الشماريخ جمع شمراخ ، وهو أحد أعواد سباطة البلح) ، وذلك لان أحدا من المتشاجرين لم يقصد قتل أحد ، بل ولم يخطر بباله ذلك ، فهو كالخطأ من حيث انعدام قصد القتل فى كل منهما ، ولذلك كان حكمه كحكم الخطأ ، فى عدم القصاص ، والاقتصار على الدية .

أخرج الامام أحمد وأبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « عقل شبه العمد مغلظ مثل عقل العمد ، ولا يقتل صاحبه ، وذلك أن ينزو الشيطان بين الناس ، فتكون دماء فى غير ضغينة ولا حمل سلاح » .

ولكن لما أشبه العمد فى قصد الضرب فقط ، دون القتل ، غلظت فيه الدية على القاتل ، على النحو الوارد فى كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المتقدم .

واهتمام النبى – عليه الصلاة والسلام – ببيان حكم هذا النوع من القتل ، فى ذلك الوقت ، وفى ذلك المكان لانه يريد من المسلمين أن يكظموا غيظهم ، وأن يقاوموا ثورة نفوسهم ، وأن يكون التسامح مرجعهم فيما يبدر من بعضهم ، حتى لا يصل بهم الامر الى مشاجرات ، ان لم تكن حادة أحيانا ، فقد تحتد أحيانا أخرى ، وتفضى الى سفك الدماء ، أو – على الاقل – بقاء توتر النفوس ، وذلك لا يتفق مع ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون من الصفاء والمحبة ، وما أكثر ما حث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المحبة ، وما أكثر ما أمر بالبر ، والمعروف ، والاحسان ، والتسامح ، وما اليها ، من كل ما يجلب المحبة ، ويوثق الصلة بين المسلمين .

٣ – لما تم فتح مكة أمن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جميع أهلها ، الا تسعة نفر ، فانه أمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة ، ومن هؤلاء التسعة ، عبد العزى ابن خطل ، وجاريتان له ، كانتا تغنيان بهجاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

وسبب اهدار دم هؤلاء الثلاثة أن ابن خطل كان ينظم الأشعار فى هجاء رسول الله ، ويأمل جاريتيه ان تغنياها .

وغير خاف ما تتركه الأغانى فى نفوس المستمعين اليها من أثر ، خصوصا اذا كان فيها تحريض واغراء ، وكلنا يعرف أثر ترديد أبيات من الشعر ، سبق انشادها يوم بعاث ، حين وقع القتال بين الاوس والخزرج قبل الاسلام ، فانه لما أعيد انشادها امام الفريقين – بعد أن وحد الاسلام بينهما – كاد أن يثور الشر بينهما ، حتى لقد تنادوا بالحرب ، لولا مسارعة النبى – صلى الله عليه وسلم – اليهم ، وتهدئتهم .

فالابقاء على ابن خطل وجاريتيه ابقاء على سلاح خطير ، له من سيىء الامر على الدعوة ما ليس لغيره من أسلحة أخرى ، مهما كانت .

ولكن اذا كان ابن خطل استحق أن يهدر دمه لانه ناظم الاشعار ، وصاحب فكرة الهجاء ، فبأى شىء استحقت جاريتاه ذلك ، وهما مأمورتان ، لا تملكان من أمرهما شيئا ، ولا تستطيعان مخالفة أمر سيدهما ؟

ان هذا الدين يحمل كل انسان مسئولية عمله كاملة ، ولا يشفع لاى أحد – فى الاسلام – أنه ينفذ أمر غيره ، ولو كان رئيسه الذى يملك فصله من عمله ، أو سيده الذى يملك أن يعذبه ، أو أن يقتله .

أحد أمور ثلاثة فقط هو الذى يرفع المسئولية عن الانسان ، ويعفيه من المؤاخذة ، الصغر ، والنوم ، والجنون ، فعن عائشة – رضى الله عنها – أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « رفع القلم عن ثلاثة ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل) .

أرأيت – أيها القارىء الكريم – اعتبارا لادمية الانسان ، وسموا بها الى هذا المستوى الرفيع أعظم من هذا ؟

انه الفيلسوف العربى ، الذى سبق فلاسفة أوروبا وعلماءها بثمانية قرون ، من أمثال : ولاس ، وداروين وهاكسلى ، وهيجل ، وجون راى ، ولامارك ، فانتهى فى علوم البيولوجيا والجيولوجيا من جماد ونبات وحيوان وانسان – الى تقرير نظريات أصاب فيها كبد الحقيقة ، فايده العلم الحديث فيما ذهب اليه ، على خلاف هؤلاء الفلاسفة والعلماء ، الذين طبقت شهرتهم الخافقين ، فى القرنين الاخيرين ، ونسبت اليهم نظرياته ظلما .

– ١ –

من نوابغ الاعلام ، الذين ازدهى بهم القرن الرابع للهجرة ، وبلغوا السماكين فى الحضارة الاسلامية ، بضعة رجال ، لعل صاحبنا فى مقدمتهم ، وان لم ينل حظه من نباهة الذكر وبعد الصيت ، كانداده من أمثال ، البيرونى ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، وأضرابهم . ولعل مرد ذلك الى ما قيل من أنه مجوسى الجد ، فارسى الأب ، وهوتعليل لم يقم عليه دليل يطمئن اليه الباحث ، أو يرتضيه القارىء .

أما اسمه ، فهو – باجماع الكلمة – أحمد بن محمد ابن يعقوب ، وكنيته : أبو على ، ولم نقف ، فيما انتهى الينا من مصادر ومظان ، على تاريخ مولده ، وان كانت وفاته – باتفاق الرأى – فى سنة ٤٢١ للهجرة ، ١٠٣٠ للميلاد . والمعروف أنه عمر عمرا طويلا .

ومن الأدلة التى نسوقها فى تأييد ذلك الذى نراه ، أنه عمل فى عهد السلطان عضد الدولة بن بويه ، خازنا له ، وأنه كان عظيم المكانة لديه ، وانه وضع مؤلفا عظيما فى التاريخ ، اسمه « تجارب الأمم ، وتعاقب الهمم » انتهى فيه الى سنة ٣٧٢ للهجرة ، وهى السنة التى توفى فيها عضد الدولة بن بويه . أما هو فقد أمد الله فى أجله ، سنة ٤٢١ هـ ، أى بعد ٤٩ سنة ، فاذا أضفت هذه المدة ، الى مدة عمله فى خزانة عضد الدولة ، ولم يكن يعمل فيها الا كبار العلماء ، وافذاذ الفلاسفة ، ومشاهير الأدباء ، وشوامخ الشعراء ، ادركت انه أشرف على مائة سنة ، أو جاوزها ، ويؤكد هذا ما ورد فى قصيدة له ، يشكو من أمراض الشيخوخة التى انتابته ، وقد وهن العظم منه ، وبلغ من العمر أرذله . فضلا عن رواية – فى بعض المصادر – تذكر ، انه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى بكر الرازى المتوفى ٣١١ هـ .

– ٢ –

أما سبب عمله خازنا لعضد الدولة بن بويه ، فان فى ذكره ، ما يقفنا على طرفة لا نرى بأسا من ذكرها .

يقول بعض الذين ترجموا له ، انه كان شديد العناية بدراسة الفلسفة والمنطق ، وعلوم الدين واللغة والأدب ، والتاريخ العام ، والتاريخ الطبيعى وما يتصل به ، والطب وما يتعلق بسبب منه . وذلك فى بادىء أمره ، ومستهل شهرته ، ثم عكف على كتب جابر بن حيان فى الكيمياء ، فاستولت على عقله وقلبه ، ولا سيما فى تحويل المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة ، فظل يطلب الذهب من الرصاص ، وينفق فى تحقيق ذلك الحلم الضائع ، ماأضاع عليه سعادته ، وجعل جيبه أفرغ من فؤاد أم موسى .

وكان ابن مسكويه ، على ما وصفه العلامة الثعالبى « فى الذروة العليا من الفضل والأدب ، والبلاغة والشعر ، وكان فى ريعان شبابه متصلا بابن العميد ، مختصا به » ومن ثم ندرك فى غير جهد ، أن ابن العميد – وقد كان وزيرا لعضد الدولة – مهد لصديقه عند السلطان ، تمهيدا كريما انتهى الى تعيينه فى المكان اللائق به ، وهو خزانة كتب عضد الدولة ، التى كانت من أشهر خزانات العالم الاسلامى ، وأكثرها مراجع ، واحفلها بالمظان التى صنفت فى مختلف العلوم والاداب والفنون .

ويذكر لنا الثعالبى ، أن ابن مسكويه « تنقلت به أحوال جليلة فى خدمة بنى بويه ، والاختصاص ببهاء الدولة ، وعظم شانه ، وارتفع مقداره ، ولم يخل من نوائب الدهر » .

ويقول معاصره أبو حيان التوحيدى المتوفى فى سنة ٤٠٠ للهجرة فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » ، وقد جرت بينهما رسائل كثيرة ، تعد من عيون الأدب العربى ، ولعلها لا تقل شانا عن تلك الرسائل التى تبادلها ابن مسكويه والهمذانى صديقه ، صاحب المقامات المتوفى فى ٣٩٨ هـ :

« كان (ابن مسكويه) مشغولا بطلب الكيمياء ، مع تقطيع الوقت فى الحاجات الضرورية والشهوية واحترافه فى البخل بالدانق والقيراط »

ـ ٣ ـ

ويبدو لنا من سيرة حياته ، ووقوفنا على بعض مؤلفاته ما يؤكد لنا أن ابن مسكويه كان ـ على الرغم من تعلقه بالكيمياء ـ شديد العناية بعلم الأخلاق ، وكل ما يتصل بالأخلاق علما وعملا ، دنيا ودينا . وقد ألف فى هذه البابة رسائل عدة ، ومجلدات تشتمل على بضعة أجزاء ، ومحاضرات بلغ من نفاستها ، أنها كانت موضع فخره وازدهائه ، ومحل تقدير طلابه فى حلقة درسه ، ورائديها من العلماء والأدباء ، وقد قص علينا الامام البيهقى المتوفى فى سنة ٤٥٣ للهجرة ، فى كتابه « حكماء الاسلام » انه رأى فى بعض الكتب : أن ابن سينا دخل على ابن مسكويه ، والتلامذة حوله ، فرمى أبو على ابن سينا ، اليه جوزة ، وطلب منه أن يذكر مساحة هذه الجوزة بالشعيرات . فرفع ابن مسكويه أجزاء من كتابه فى الأخلاق ، ورماها الى ابن سينا ، وقال : أما أنت فأصلح أخلاقك أولا ، حتى أستخرج مساحة الجوزة ، وأنت أحوج الى اصلاح أخلاقك منى الى مساحة الجوزة »

ومن عجب أنه حتى فى كتب الأخلاق ، لم ينس عنايته بعلم الأحياء ، وقد ظفر كتابه « الفوز الأصغر » بجانب كبير من الكلام على الكائنات الحية (النبات والحيوان) ، وتقسيمها الى مراتب من ناحية قبول أثر حركة النفس ، أى حركة القوة .

كذلك تفرد كتابه ـ وهو فى الأخلاق أيضا ـ واسمه « تهذيب الأخلاق » ، بنصيب الأسد ، فى الكلام على تسلسل الكائنات الحية ، من ناحية قوة الفهم والادراك .

ـ ٤ ـ

وانك لترى عجبا فى الفصل الذى عقده عن « وحدة الوجود » ، فى أول كتابه « الفوز الأصغر » ، عند الكلام على النبوات ، والتحدث فى مراتب الوجود ، اذ يقول :

« ان كل واحد وحيوان واحد » وأن هذا الكل أجزاء مختلفة ، وانه ينقسم الى قسمين ، أولهما عالم الكون والفساد ، وثانيهما العالم الذى لاكون فيه ولافساد ، وهو السماء والأفلاك ، ويصل بالكلام عن ارتباط الموجودات الى أن يتصل آخر كل نوع بأول نوع آخر ، فيصير كالسلك الواحد الذى ينتظم خرزا كثيرا على تأليف صحيح ، حتى جاء من الجميع عقد واحد . ثم ينتهى الى تقرير مقصور على الحركة والاغتذاء .

ثم ذهب الى أن النبات متوسط بين المعادن والحيوان ، أى أنه خارج عن نقصان الجمادية الصرفة التى للمعادن ، وغير واصل الى كامل الحس والحركة اللتين اختص بهما الحيوان . ثم قسم النبات الى مراتب ثلاث ، هى الاولى والوسطى والآخرة ، وأن لكل منها غرضا كثيرا ، وبين كل مرتبة ومرتبة مراتب كثيرة .

يقول بعض المترجمين له ، من رجال العلم الحديث ، انه بهذا التقسيم الذى وضعه ابن مسكويه فى القرن العاشر الميلادى قد نحا ناحية نظرية بحتة ، فانصب كلامه على النباتات عامة ، لا على بعض أنواعها ، وانه ـ فى نظرته الشاملة ـ لم يسلك طريق العلماء الذين سبقوه من عهد ارسطو . ولم يسلك طريق الذين خلفوه ، فهؤلاء جميعا انما عنوا بالنباتات الطبية للاستغلال ، أكثر من عنايتهم بالناحية النظرية الكاملة .

ويقول ذوو الاختصاص فى علم النبات ، ان ابن مسكويه قد وضع الأسس التى قام عليها تقسيم المملكة النباتية الى أقسام رئيسية .

« وقد جاء بعده العلامة « جون راى » فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى ، أى بعد ابن مسكويه باكثر من سبعة قرون ، فقسم النبات ، الى قسمين . وكان ذلك فى سنة ١٧٠٣م . « ويلاحظ أن العصر الذى عاش فيه ابن مسكويه لم تكن فيه وسائل البحث العلمى مستوفاة ، كما هى فى عصر جون راى » الذى يعد الآن أول من قام بتقسيم المملكة النباتية مع أن ابن مسكويه سبقه الى ذلك باكثر من سبعة قرون »

ـ ٥ ـ

وينتقل ابن مسكويه ، بعد أن وفى المملكة النباتية حقها فى البحث ، الى المملكة الحيوانية مبتدئا بالحيوانات الدنيئة التى لم تستوف الصفات الحيوانية الكاملة ، وقد انتهى فى بحثه المركز الى أحدث ما قرره العلم الحديث .

ثم ينتقل الى الكلام عن الحيوان فى مرتبته العليا فيما يتصل بالحواس التى تقترب من مرتبة حواس الانسان ، ثم يذكر « القردة وأشباهها من الحيوان التى قاربت الانسان فى خلقه الانسانية ، وليس بينها وبينه الا اليسير ، الذى ان تجاوزه صار انسانا ، فاذا بلغه انتصبت قامته ، ويظهر فيه من قوة التميز الشىء اليسير ، فضل تمييزه ، واهتداء الى المعارف ، ويقوى فيه أثر النفس ، ويقبل التأديب بالفهم والتمييز . وهذا الأثر وان كان شريفا بالاضافة الى ما دونه من رتب البهائم فهو خسيس دنىء جدا بالاضافة الى الانسان الكامل النطق »

فهو هنا انما يرتب الحيوانات بحيث تسهل دراستها من ناحية الحواس ، والعلم الحديث يقطع بصحة ماذهب اليه ابن مسكويه ، من أن البون شاسع بين الانسان والحيوان ، وان ثمة أربع مميزات تفصل بينهما ، وهى :

١ ـ أن قامة الانسان ، فى أثناء السير تكون منتصبة .

٢ ـ أن تركيب الأيدى والأرجل ، متناسب فى الانسان غيره فى الحيوان .

٣ ـ أن الانسان يخترع اللغة ، ويعتمد فى كلامه على التفاهم .

٤ ـ أن الانسان يمتاز فوق ذلك جميعه ، بخصيصة الادراك .

ثم يتحدث عن « الأثر البالغ الذى تحدثه البيئة فى المخلوقات ، من حيث تطورها الادراكى والعقلى ، ويتخذ من البيئة أساسا هاما لهذا التطور »

وقد سبق بهذا الكلام ، كلام العلامة « لامارك » فى القرن الثامن عشر ، من ضرورة الاعتماد على البيئة فى تفسير كل شىء .

ويقول ابن مسكويه ، فى كتابه « تهذيب الأخلاق » ان « القوى والملكات والمواهب من الله عز وجل » ، و « والى هذا الموضوع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات »

وبعد ، فان ابن مسكويه ، قد انتهى من ابحاثه فى الموجودات ، من جماد ونبات وحيوان ، الى أسس سليمة أقام عليها نظرياته فى دقة ومقدرة ، زانهما الايمان عن الزلل ، وحفضهما الاخلاص للبحث العلمى ، من خطل الرأى أو فساد العقيدة .

حياة ابن فضل الله العمري في المقر الشهابي "٨"

مؤلف أكبر موسوعة عربية إسلامية فى الجغرافيا والتاريخ والأدب

الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي

(٨)

الوصف الرائع الشافى ، والبيان التاريخى الوافى عن « مسجد الصخرة المشرفة » و « المسجد الاقصى »

(١) بمناسبة الاحتفال العظيم الذى أقيم بساحة « المسجد الاقصى » فى صباح يوم الخميس ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣٨٤ (الموافق ٦ أغسطس (آب) سنة ١٩٦٤) باتمام المرحلة الاولى من مشروع تعمير « مسجد الصخرة المشرفة » وحضره « الملك حسين » وحوالى ٢٠٠ مبعوث يمثلون البلاد العربية والاسلامية ، والسيد عبد الخالق حسونة الامين العام للجامعة العربية .

والقى « الملك حسين » كلمة تحدث فيها عن أهمية « القومية العربية » والدعوة الى « وحدة العرب » . ثم القى قاضى قضاة الاردن كلمة عن تعمير المسجد ، واعقبه السيد كبير مهندسى « المكتب المعمارى المصرى » المشرف على تعمير المسجد ، بكلمة ضمنها أن « المرحلة الاولى » تكلفت ٦٠٠ ألف دينار ، وأن « المرحلة الثانية » ستتكلف ٣٠٠ ألف دينار .

وهذه المبالغ مما جمع من ملوك المسلمين ورؤساء الدول الاسلامية . ومما يدل دلالة واضحة على « الوحدة العربية » أن مهرة الصناع المصريين ، وعباقرة الفن المعمارى من المصريين أيضا كان لهم النصيب الاكبر فى تعميره .

وكان يمثل وفد الجمهورية العربية المتحدة فى هذا الاحتفال نائبا عن السيد الرئيس السيد المهندس أحمد عبده الشرباصى وزير الاوقاف وشئون الازهر ونائب رئيس وزراء الجمهورية العربية المتحدة .

واقام الملك حسين مادبة غداء لتكريم رؤساء الوفود ، وتسلم من السيد المهندس أحمد عبده الشرباصى رسالة شخصية من السيد الرئيس رائد العروبة جمال عبد الناصر .

وقد قال الملك حسين فى كلمته التى ألقاها فى هذا الاحتفال :

« منذ ١٦ عاما مضت غزت قوى الشر جزءا من أرضنا المقدسة ، ولكن الاردن وقفت تحرس الاماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين على السواء » .

وأضاف : « ان تجديدات المسجد ستبقى بدون فاعلية حتى يحرر الافريقيون والاسيويون والمسلمون الجزء المغتصب من فلسطين » .

***

٢ ـ وبمناسبة الكلمة الموجزة التى كتبها الصديق الفاضل الاستاذ حسن الشيخة بعنوان « فى حرم بيت المقدس » ونشر على صفحات مجلة « منبر الاسلام » فى عدد جمادى الاخرى سنة ١٣٨٤ (أكتوبر سنة ١٩٦٤) .

***

٣ ـ وبمناسبة الاحتفال الرسمى بذكرى « الاسراء والمعراج » فى « مسجد الامام الحسين » مساء الاثنين ٢٦ رجب سنة ١٣٨٤ (٣٠ نوفمبر سنة ١٩٦٤) واشترك فيه الازهر ووزارة الاوقاف . وقد شهد هذا الاحتفال التاريخى العظيم السيد المهندس أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء ، والامام الاكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الازهر ، وفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أحمد حسن الباقورى مدير « جامعة الازهر » ، والسيد الاستاذ محمد توفيق عويضه سكرتير

عام المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، وحضره كبار رجال الدين وعلماء الجامع الازهر ، والطلاب المسلمون من أنحاء العالم الاسلامى الذين يدرسون فى جامعات ومعاهد الجمهورية العربية المتحدة . -

***

٤ - وبمناسبة الاحتفال العظيم بهذه الليلة المجيدة الخالدة فى « مدينة البعوث الاسلامية » وحضره الامام الاكبر الشيخ حسن مامون شيخ الجامع الازهر ، والسيد المهندس الاستاذ أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء ووزير الاوقاف وشئون الازهر ، وفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أحمد حسن الباقورى مدير « الجامعة الازهرية » ، والسيد الاستاذ محمد توفيق عويضه سكرتير عام المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

***

ولهذه المناسبات التاريخية المجيدة الخالدة نذكر الوصف الرائع الشافى ، والبيان التاريخى الوافى عن « مسجد الصخرة المشرفة » و « المسجد الاقصى » للكاتب العبقرى ، والمنشى البليغ المقر الشهابى « ابن فضل الله العمرى » مؤلف أكبر موسوعة عربية اسلامية فى الجغرافيا والتاريخ والادب ، والذى اعتمد فيه على مراجع تاريخية هامة لا وجود لها الان .

كلمة عامة للمقر الشهابى « ابن فضل الله العمرى »

عن الحرم المقدس

« معهد الانبياء ، ومتعهد الاولياء ، وثانى « البيت الحرام » فى البناء ، وأول القبلتين حال الابتداء . شيدت ملوك « بنى اسرائيل » معاهدة ، وشدت بقباب البروج معاقده ، ثم تدارك « بنو أمية » ذماءه ، وصفحوا أرضه وسماءه ، وهذا هو على ما عليه من حمل الآلام ، واختلاف دول الكفر والاسلام ، ومن « صخرته » المقدسة المعراج ، حيث عرج بخاتم الانبياء (عليه الصلاة والسلام) من حضرة القدس الى حضرة القدس ، وبسط له بساط الانس ، ودنا من ربه مقاما لم يبلغه الخليل ولا الكليم ، ولا وصل اليه ملك مقرب ولا نبى كريم ، وقد أم فى ذلك المسجد النبيين ، وصعد منه الى أعلى عليين . والى صفيح تلك البقعة المحشر ، ومنها يوم القيامة المنشر و « الصخرة » بها عرش الله الادنى ، ومقام الفخار الاسنى ، وهى التى تزف اليها عروس « الكعبة » زفا ، وتقسم الناس لشقاوة وزلفى .. الفضائل التى لاتحصى. وأول مسجد وضع ، « المسجد الحرام » ثم « المسجد الاقصى . وبينهما أربعون عاما .

بناء بيت المقدس :

وروى أن كعبا قال : بنى سليمان بن داود « بيت المقدس » على أساس قديم ، كما بنى ابراهيم «الكعبة» على أساس قديم .

قال ابن الجوزى : سكن الجبارون فى الارض المقدسة فسلط عليهم يوشع ، ثم سلط الكفار على بيت المقدس فصيروه مزبلة . فأوحى الله (عز وجل) الى سليمان فبناه .

وروى عن سعيد بن المسيب قال : أمر الله تعالى داود ان يبنى مسجد بيت المقدس . قال : رب ! وأين أبنيه ؟ قال : حيث ترى الملك شاهرا سيفه . قال : فرآه فى ذلك المكان . قال : فاخذ داود فأسس قواعده ورفع حوائطه ، فلما ارتفع انهدم فقال داود : يارب ! أمرتنى أن أبنى لك بيتا ، فلما ارتفع هدمته . فقال : ياداود انما جعلتك خليفتى فى خلقى ، لم أخذته من صاحبه بغير ثمن ؟ انه يبنيه رجل من ولدك . فلما كان سليمان ساوم صاحب الارض ، فقال : هى بقنطار . فقال سليمان : قد استوجبتها فقال له صاحب الارض : هى خير أو ذاك ؟ قال : لا بل هى خير . قال : فانه قد بدا لى ، قال : أو ليس قد أوجبتها ؟ قال : بلى ، ولكن البيعين بالخيار ما لم يتفرقا . (قال عبد الله بن المبارك : هذا أصل الخيار) . فلم يزل يراده ، ويقول له مثل قوله الاول حتى استوجبها منه بسبعة قناطير ، فبناه سليمان حتى فرغ منه . وتغلقت أبوابه ، فعالجها سليمان أن يفتحها فلم تنفتح ، حتى قال فى دعائه : بصلوات أبى داود الا تفتحت الابواب ! ففتحت الابواب .

قال : ففرغ له سليمان عشرة آلاف من قراء بنى اسرائيل : خمسة آلاف بالليل ، وخمسة آلاف بالنهار . لا تأتى ساعة من ليل أو نهار ، الا والله عز وجل يعبد فيه .

وقال أبو عمرو الشيبانى : أوحى الله الى داود : انك لن تتم بناء « بيت المقدس » . قال : أى رب ! ولم ؟ قال : لانك غمرت يدك فى الدم . قال : أى رب ! أو لم يكن فى طاعتك ، قال : بلى وان كان .

وقال كعب : أوحى الله تعالى الى سليمان أن ابن « بيت المقدس » . فجمع حكماء الانس وعفاريت الجن وعظماء الشياطين . ثم فرق الشياطين ، فجعل منهم فريقا يبنون ، وفريقا يقطعون الصخور ، وفريقا يقطعون العمد من معادن الرخام ، وفريقا يغوصون فى البحر فيخرجون منه الدر والمرجان . واخذ فى بناء المسجد فلم يثبت البناء . وكان عليه حير بناه داود . (الحير : بالفتح شبه الحظيرة أو الحمى) فامر بهدمه . ثم حفر الارض حتى بلغ الماء . فقال أسسوا على الماء . فالقوا فيه الحجارة . وكان الماء يلفظ الحجارة . فاستشار فى ذلك ، فأشاروا عليه أن يتخذ قلالا من نحاس ، ثم يملأها حجارة ، ثم يكتب عليها ما على خاتمه من ذكر التوحيد ، ثم يلقيها فى الماء لتكون أساس البناء . ففعل ، فثبت وبنى . عمل بيت المقدس عملا لا يوصف ، وزينه بالذهب والفضة وألوان الجوهر فى سمائه وأرضه وأبوابه وجدره . ثم جمع الناس وأخبرهم أنه مسجد لله ، وانه هو الذى أمر ببنائه ، وانه من انتقصه أو شيئا منه ، فقد ضاد الله ، وأنه كان قد عهد الى داود فى ذلك ، ثم أوصى سليمان بذلك من بعده . ثم اتخذ طعاما وجمع الناس .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص فى قوله تعالى : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » قال : هو سور بيت المقدس الشرقى .

ماورد فى فضله :

وأما ما ورد فى فضله ، فمنه حديث أنس . قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاة الرجل فى بيته بصلاة واحدة ، وصلاته فى مسجد القبائل بست وعشرين صلاة ، وصلاته فى المسجد الذى يجمع فيه بخمسمائة صلاة ، وصلاته فى المسجد الاقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاته فى المسجد الحرام بمائة الف صلاة » .

وعن أبى ذر قال : قيل : يا رسول الله ! صلاة فى بيت المقدس أفضل ، أم صلاة فى مسجد رسول الله صلى الله

عليه وسلم ؟ قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من اربع صلوات فيه . ولنعم المصـلى ! هو أرض المحشر والمنشر ، وليأتين على الناس زمان ، ولبسطة قوس من حيث يرى بيت المقدس ، افضـل وخير من الدنيـا جميعا ! »

وصح عن موسى (عليه السلام) أنه لما احتضر قال : يارب أدنني من الارض المقدسة رمية بحجر !

ونزله أبو ذر وأكثر فيه الصلاة . وصلى فيه ابن عمر. ومات فيه عبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وأبو أبى بن أم حرام ، وأبو ريحانة (واسمه شمعون) ، وذو الاصابع ، وأبو محمد النجارى . هؤلاء من أهل « بيت المقدس » ماتوا به . والذى أعقب منهم عبادة وشداد وسلامة بن قيصر وفيروز الديلمى . والذى لم يعقب منهم أبو ريحانة وأبو محمد النجارى وذو الاصابع .

وقال أبو الزاهرية : أتيت بيت المقدس أريد الصلاة . فدخلت المسجد وغفلت عنى سدنة المسجد ، حتى أطفئت القناديل ، وانقطعت الرجل ، وغلقت الابواب . فبينا انا كذلك اذ سمعت حفيفا له جناحان ، قد أقبل وهو يقول : « سبحان الدائم القائم ! سبحان القائم الدائم ! سبحان الحى القيوم ! سبحان الملك القدوس ! سبحان رب الملائكة والروح ! سبحان الله وبحمده ! سبحان العلى الاعلى ! سبحانه وتعالى » . ثم أقبل حفيف يتلوه ، يقول ذلك ، ثم أقبل حفيف بعد حفيف يتجاوبون بها ، حتى امتلأ المسجد . فاذا بعضهم قريب منى ، فقال : آدمى ؟ فقلت : نعم . فقال : لا روع عليك ، هذه الملائكة ! قلت : سـألتك بالذى قواكم على ما أرى ! من الاول ؟ قال : جبريل ، قلت : ثم الذى يتلوه ؟ قال : ميكائيل . قلت : من يتلوهم بعد ذلك ؟ قال : الملائكة . قلت : سـألتك بالذى قواكم على ما أرى . ما لقائلها من الثواب ؟ قال : من قالها مرة فى كل يوم ، لم يمت حتى يرى مقعـده من الجنة ، أو يرى له .

وروى أبو عبد الله بن باكويه ، بسنده الى محمد بن احمد الصوفى ، قال : قال لى أستاذى أبو عبد الله بن أبى شيبة : « كنت ببيت المقدس ، وكنت أحب أن أبيت فى المسجد ، وما كنت أترك . فلما كان فى بعض الايام ، بصرت فى الرواق بحصر قائمة . فلما أن صليت العتمة وراء الامام ، أتيت الحصر ، فاختبأت وراءها . وانصرف الناس والقوام ثم خرجت الى الصخرة . فلما سمعت غلق الابواب ، وقعت عينى على المحراب وقد انشق ودخل منه رجل ثم رجل الى أن تم سبعة . واصطف القوم . ولم أزل واقفا شاخصا زائل العقل الى أن انفجر الصبح فخرج القوم على الطريق الذى دخلوا » .

وبسند أبى عبد الله بن باكويه الى ذى النون قال : بينا أنا فى بعض جبال بيت المقدس ، سمعت صـوتا يقول : ذهبت الالام عن أبدان الخدام ، ولهت بالطاعة عن الشراب والطعام ، وألفت قلوبهم طول القيام ، بين يدى الملك العلام ! فتبعت الصوت . فاذا أمرد مصفر الوجه ، يميل ميل الغصن اذا حركته الريح ، عليه شملة قـد اتزربها ، وأخرى قد اتشح بها . فلما رآنى ، توارى عنى بالشجر ، فقلت : ليس الجفاء من أخلاق المؤمنين . فكلمنى واوصنى . فخر ساجدا ، وجعل يقول : هـذا مقام من لاذ بك واستجار بمعرفتك وألف محبتك ! فياإله القلوب ، احجبنى عن القاطعين لى عنك ! قال : فغاب عنى ولم أره .

وروى عن قتادة فى قوله تعالى : « يوم ينادى المنادى من مكان قريب » قال : من صخرة بيت المقدس . وقال يزيد بن جابر فى الآية : يقف اسرافيل على صخرة بيت المقدس ، فينفخ فى الصور ، فيقول : أيتها العظـام النخرة ، والجلود المتمزقة ، والاشعار المتقطعة ، ان الله تعالى أمرك أن تجتمعى للحساب !

وروى ابن منده بسنده عن أنس بن مالك قال : ان الجنة لتحن شوقا الى بيت المقدس . وبيت المقدس من جنة الفردوس ، وهى سرة الارض (يعنى الصخرة) .

وروى ابن منده عن أبى ادريس الخولانى قال : يحول الله صخرة بيت المقدس مرجلة بيضاء كعرض السموات والارض . ثم ينصب عليها عرشه ، ثم يقضى بين عباده ، يصيرون منها الى الجنة والى النار . قال أبو العالية فى قوله تعالى : « الى الارض التى باركنا فيها » قال : من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس .

قال المفسرون فى قوله تعالى : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب » قالوا : هو اسرافيل . يقف على صخرة بيت المقدس فينادى : يا أيها الناس ، هلموا الى الحساب ! ان الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ! (وهذه هى النفخة الاخيرة . والمكان القريب صخرة بيت المقدس) .

قال كعب ومقاتل : هى أقرب الى السماء بثمانية عشر ميلا .

وروى أن كعبا قدم ايلياء فرشا (حبرا) من أحبار يهود بضعة عشر دينارا على أن دله على الصخرة التى قام عليها سليمان بن داود لما فرغ من بناء المسجد . وصلى مما يلى ناحية باب أسباط . فقال كعب : قام سليمان بن داود على هـذه الصخرة ثم استقبل بيت المقدس كله . فدعا الله عز وجل بثلاث . فاراه تعجيل اجابته فى دعوتين ، وأرجو أن يستجيب فى الثالثة . فقال : « اللهم هب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى ، انك أنت الوهاب » فأعطاه الله (عز وجل) . وقال : « اللهم هب لى ملكا وحكما يوافق حكمك ! » . ففعل الله (عز وجل) ذلك به . ثم قال : « اللهم لا يأتى هذا المسجد أحد يريد الصلاة فيه ، الا أخرجته من خطيئته كيوم ولدته أمه ! » .

الأحامس

الأستاذ
أحمد
محمد
بريرى

لقــــد علم الحى المصبح أننى
غداة لقينا بالشريف الأحامسـا
جعلت لبـان الجـون للقوم غاية
من الطعن حتى آض احمر وارسا
وارهبت أولى القوم حتى تنهنهوا
كما ذدت يوم الوردهيما خوامسا
بمطـرد لدن صـحاح كعـوبه
وذى رونق عضب يقد القوانسـا
وبيضاء من نســج ابن داود نثره
تخيـرتها يوم اللقـاء الملابسـا
وحرميـة منسـوبة وســلاجم
خفاف ترى عن حدها السم قالسا
فما زلت حتى جننى الليل عنهمو
أطـرف عنى فارسـا ثم فارسـا
ولا يحمد القوم الكرام اخاهمو ال
عتيـد السـلاح عنهمو أن يمارسا

هذا الشعر من مرويات صـاحب الحماسة ابى تمام . وهو لقائد عربى جاهلى اسمه « حسيل بن سجيح الضبى » وواضح أنه صبح قوما اى شن الغارة عليهم صباحا بمكان اسمه «الشريف» وأن هؤلاء القوم اسمهم الأحامس ــ جمع أحمس ــ لقد ثبت لهم على ظهر فرسه الجون الذى جعل لبانه هدفا لطعانهم حتى احمر بالدماء كأنه صبغ بالورس . وكذلك أرهب المقـدمة حتى ردها ــ نهنهها ــ ردا كان صعبا صعوبة رد الابل العطاش عن الماء وقد منعته خمسا فقد بلغ بها الصدى غايته .. انه عد ليومه هذا عدته : رمحا مستقيما لدنا صحيحا كعوبه وسيفاذا رونق حديدا يقد البيض على الرءوس والرءوس وقوسا منسوبة الى النبـع أو شجر الحرم وسهاما طوالا ــ سلاجم ــ تقلس أو تقذف السم . وانه لكذلك يعمل بسيفه ورمحه وسهام قوسه مذ أسـفر الصبح حتى جنه الليل .. ينهنه الفارس أثـر الفارس ولكنه مع هذا لا يرى لنفسه فضلا على قومه فليس عليهم أن يحمدوا له صنيعه فيما يـرى هو اذ لا شكر على واجب . والا ففيم اعتداد هذا السـلاح العتيد الذى يمارس به أو يكافح .. ؟ والمهم فيما نحن بصدده انه سمى « بنى عامر » الذين صبحهم بالغارة فى يومه ذلك « الأحامس » من الحماسة جمع أحمس يقول لك صاحب القاموس (حمس) كفرح : اشـتد وصلب فى الدين والقتـال فهـو حمس وأحمس وهـم حمس . والحمس الأمكنة الصلبة جمـع أحمس وبه لقب قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم فى الجاهلية لتحمسهم فى دينهم أو لالتجائهم بالحمساء وهى الكعبة لأن حجرها أبيض الى السواد . والحماسـة الشجاعة والأحمس الشـجاع كالحميس والحمسى والعام الشديد وسنة حمساء وسنون أحامس وحمس .

ووقع فى هنـد الأحامس أى الداهية أو مات ، وحماس الليثى بالكسر ولد فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن ثامل شاعر وذو حماس موضع وحمس اللحم : قلاه وفلانا اغضبه كأحمسه وحمسه والحميسة القلية والحميس التنور والشديد . والحمسة بالضم الحرمة .. الخ » .

فالحماسة بمعنى الصلابة والشدة فى شئون الحرب والشجاعة والدين لفظ من مادة تامة التكوين قبل نشأة حمس قريش ومن لف لفها من القبـائل الأخرى ..

وما دمنا في باب تعليل الأسماء والصفات فان الكعبة « حمساء » من « الحمسة كالحرمة » وزنا ومعنى بغض النظر عن لون الحجر أبيض كان الى سواد أو أسود الى بياض أفلسنا نقرأ في آى الذكر الحكيم : جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للنـــاس .. ؟ أو كان البلد الحرام حراما الا بهذه الحمساء التى دانت لها العرب قبل أن تدين بالاسلام ؟ واذا كانت الحماسة والحمسة وسائر مشتقات المادة شيئا مشتركا بين كل القبائل التى كانت تتكلم باللغة التى نزل بها القرآن الكريم فان مما لا شك فيه أن قريشا اتخذت من « الحمسة » دلالة خاصة بها فليس منها الا أحمس وحمســـاء فهم « الأحامس » و « الحمس » أى الذين تعرف لهم الناس حرمة خاصة بهم فهم السادة المحترمون » لولا أن ذلك التعبير لم يشع حينذاك فلم يقل احترمت فلانا أو هو رجل محترم وان كان القياس لا يمنع ذلك على أنه شرف أو « احترام » يمد بسبب الى الدين اكثر مما يمد الى السياسة وان كان الأمران في ذلك العهد متداخلين الى حد بعيد . متى قالت قريش : نحن الحمس ؟ يشك ابن اسحاق أكان ذلك قبل عام الفيل أم بعده . ولكنها على كل حال ابتدعت تلك التسمية أو بعبارة أصح نقلتها من محيطها العام الى دائرتها الخاصة . قالوا :

« نحن بنو ابراهيم وأهــل الحـرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنها . فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا . ولا تعرف له العرب مثل ما تعـرف لنا ، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحـرم ، فانكم ان فعلتم ذلك اســتحقت العــرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحـرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم صلى الله عليه وسلم ويرون لسائر العـرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها الا انهم قالوا : نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا ان نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها . نحن الحمس : والحمس أهل الحرم ثم جعلوا لمن ولوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثـل الذى لهم بولادتهم اياهم يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم مايحرم عليهم وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك . قال ابن هشام : وحدثنى أبو عبيدة النحوى ان بنى عامر بن صعصعة بن معـاوية بن بكر بن هوازن دخـلوا معهم في ذلك وانشدنى لعمرو بن معد يكرب :

اعباس لو كانت شـيارا جيادنا
بتثليث ما ناصبت بعدى الأحامسا

« تثليث » موضع من بلادهم والشيار : الحسان . يعنى بالأحامس بنى عامر بن صعصعة وعباس : عبـاس بن مرداس السلمى ، وكان أغار على بنى زبيد بتثليث وهذا البيت من قصيدة لعمرو وانشدنى للقيط بن زراره الدارمى في يوم جبله :

اجـذم اليك انها بنـــو عبس
المعشر الجلة في القـوم الحمس

لأن بنى عبس كانوا يوم جبله حلفاء في بنى عامر بن صعصعة » .

فانت ترى مما تقدم ان قريشـــا كلها أحامس أو حمس وان امتيازهم هـــذا يمكن ان يهبوه لغيرهم من الناس ليصبح مثلهم « احمس » فالأحمس أصـلا هو الذى يولد في البلد الحرام ولكن الحمساء اذا ولدت في الحل ـ وهو الأرض غير الحرام ـ فولدها أحمس بحكم ولادته تلك .

بل انها ميزة يمكن ان تكتسب بوسائل أخر غير الولادة مثل عقد الولاء مثلا .

والأحمس حكما لا يختلف في شىء عن الأحمس أصلا أو فعلا فكل ما يترتب على الأولى يترتب على الثانية . ومعلوم من تاريخ النظم والعادات والسنن الموروثة انها ما لم تكتب أو تقيـــد فهى ما تزال صالحة أن تحور ويضاف اليها . فليس مما ينافى طبائع الأشياء أن يبتدع الحمس أمورا لم تكن لهم من ذى قبل فيقولوا : « لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الاقط ولا يسلأوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا ان استظلوا الا في بيوت الأدم ما كانوا حرما .. ولا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جار وأمه معهم من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمـــارا . ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا في ثياب الحمس ، فاذا لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ، فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امراة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا . وكانت العرب تسمى تلك الثياب « اللقى » فحملوا على ذلك العرب فدانت به ووقفوا على عرفات وأفاضـوا منها وطافوا بالبيت عراة . أما الرجال فيطوفون عراة وأمـا النساء فتضع احداهن ثيابها كلها الا درعا مفرجا ـ مشقوقا من قدام أو من خلف ـ عليها ثم تطوف فيه فقالت امرأة من العرب وهى كذلك تطوف :

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فـلا أحله

ومن طاف منهم في ثيابه التى جاء فيها من الحل ألقاها فلم ينتفع بهاهو ولا غيره فقال قائل من العرب يذكر شيئا تركه من ثيابه فلا يقربه وهو يحبه :

كفى حـزنا كرى عليهـا كأنها
لقى بين أيدى الطائفين حريم

يقول : لا تمس . فكانوا كذلك حتى بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فأنزل عليه حين أحكم له دينه وشرع له سنن حجه : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » يعنى قريشا والناس . العرب . فرفعهم في سنة الحج الى عرفات والوقوف عليها والافاضة منها . وأنزل عليه فيما كانوا حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت حين طافوا عراة وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مســجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين قـل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

فوضـــع الله تعالى أمر الحمس وما كانت قـريش ابتدعت منه عن الاسلام حين بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم . تلك هى عبـارة ابن هشام عن ابن اسحاق ولست ترى في الأصول القديمة الأخرى الا مثلها أو قريبا منها . فقريش في الجاهلية هم أهل الله وأهل البيت بيت الله وساكنو البلد الحـرام وأهل البطاح والظواهر يتخطف حواليهم البادى والحاضر وهم أصحاب رحلتى الشتاء والصيف اكرمهم رب البيت فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .. هم الحمس حرام على الناس ذواتهم وأموالهم . واذا كان امتيازهم هـذا في الأصل مقصورا عليهم فلقد ابتدعوا وادخلوا فيه من الناس من

رضوا . فلما اذن سبحانه وتعالى وأكرم الانسانية عامة برسالته صلى الله عليه وسلم الفى الامتياز وأصبحت قريش كفيرها من سائر العرب الذين أصبحوا كفيرهم من سـائر الناس فكل فى دين الله سـواء : العربى والعجمى الأسود والأبيض .

ويؤلف الأستاذ « بلاشير » فى أيامنا تلك بالفرنسية كتابا سماه « مشكلة محمد » وانه لمستشرق كبير له ترجمة فرنسية للقرآن عساها أن تكون أحدث ترجمة الى تلك اللغة . فاذا كتب فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فهو جدير بحكم ثقافته العربية أن يوفى الموضوع و « الموضوعية » أو « الوضعية » حقهما . ويحدثنا الأستاذ فيما يحدث عن الحمس فمحمد صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة كان عضوا فى تلك الطائفة او الجماعة الدينية . ويوجز المؤلف فى مسالتنا هذه ايجازا مخلا بالنظر الى المسالة نفسها وبالقياس الى ما عداها مما عالج بيد أن القارىء يفهم جملة أن هؤلاء الحمس جمعية دينية متشددة فى دينها على أنه لم يبين شروط الانضمام اليها . وأن محمدا عليه الصلاة والسلام كان واحدا من أولئك المتشددين أو الأحامس فى أمور دينهم وواقع الأمر أن الحمسة لا تعنى أكثر من سكنى البلد الحرام حقيقة أو حكما . أو قل القرشية أو ما يعادلها ان صح هذا التعبير وانه لا جمعية ولا طائفية ولا شىء أكثر من « عرف » أو « عادة » أو سنة نشأت كما ينشأ غيـرها من العرف والعـادات والسـنن الموروثة فى المجتمعات والعشـائر والقبائل وأن نبينا عليه الصلاة والسلام انما كان أحمس أى قرشيا أو هاشميا فالكلمتان متساويتان أو مترادفتان . فهو لم ينضم الى « طائفة الحمس » لسبب بسيط هو أنه لم يكن ثم طائفة حمس أو أحامس وانما كان ثم البلد الحرام والكعبة الحرام بل هى مصدر حرمة البلد أو « حمسـته » فهى الحمساء وسكانه ومن لف لفهم أو دار فى فلكهم انما هم الحمس أى ذوو الحرمة أو المحترمون بلغة عصرنا .

ان أول معبد أقيم على ظهر الأرض أو أول بيت من بيوت الله لهو الذى فى أم القرى وتلك عقيدة اسلامية لا يمكن أن يتادى اليها خلاف أو ياتيها الباطل من بين يديها أو خلفها ذلك بأنها لم تات ضمنا او دلالة بل هى نص صريح من نصـوص الكتاب المبين « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » .

وكان من الطبيعى أن يكون لذلك البيت سدنه ولهم حقوق تقابل التبعات الملقاة على عواتقهم . ومن شأن أصحاب الحقوق أن يتعسفوا فى استعمالها وأن يتجاوزوا حـدودها وبخاصـة اذا تطاول عليهم الأمـد فليس من العجب ولا مما لم تجربه سنة الأولين أن يحدث الأحامس أو يبتدعوا فى مناسك الحج كمـا أنه ليس من العجب كذلك أن تعصم سلامة الفطرة رجلا هياه رب العزة للنبأ العظيم أو لأداء أعظم رسالة عامة شاملة من ان ينحرف عن الجادة مع المنحرفين بل الأقرب والاشبه به أن يتوقف أو كما روى ابن اسحاق فيما أسنده الى جبير بن مطعم قال :

« لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحى وانه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقا من الله له صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا » .

لقد كان عليه الصلاة والسلام كما أثنى عليه خالقه « وانك لعلى خلق عظيم » وكان « الأمين » غير منازع ولا مدافع قبل أن ينزل عليه الذكر الحكيم . وانه لمستقيم فى الحكم العقلى أن يقف بعرفة ويفيض حيث أفاض الناس قبل ان يحكم له دينه ويتم عليه نعمته فان سلامة الفطرة وحدها حرية أن تهدى صاحبها فلا ينساق مع المبتدعين ولو كانوا هم الحمس وكان هو أحمس من خيارهم .

ولو أن الأستاذ الكبير « بلاشـير » حقق رواية « جبير » نافيا أو مثبتا أو مرجحا لكان ذلك أولى له ثم أولى أما ان يبحث أمحمد صلى الله عليه وسـلم من الحمس أى قريش أو من ساكنى البلد الحرام فليس ذلك بمبحث يلائم جهد المؤرخ الوضعى أو الموضوعى .

لقـد جاءت الأحامس فى مؤلف الأستاذ بلاشير جيئة جانبية أو هامشية ، على أن الكتاب جملة وتفصيلا قمين ان يعرض فى اكثر من مقال .

القيادة الجماعية
فى خلافة الفاروق عمر

الأستاذ عبد المنعم حسن الأدفوى

قام الاسلام على الشورى ، سبيلا الى نشر الدعوة الجديدة ، وتثبيتها والتمكين لها ، والتغلب على محاولات أعدائها ، ووقايتها من عوامل التعويق والتفكك ، والانحراف وذلك لتسير فى وجهتها التى رسمتها لها عناية الله .

وقد اتخذت الشورى فى عهد عمر ــ رضى الله عنه ــ ، صورة من القيادة الجماعية الواسعة ، تتلاءم تماما مع الفتوحات الاسلامية .. بل ان عمر كان يشاور المسلمين فى كل ما جل ودق من أمور المسلمين .. بعث اليه أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير على الشام يقول له : ان جماعة من المسلمين عنده أصابوا الخمر ، ومنهم ابو جندل ابن سهل .. وانه سألهم : لم تشربون الخمر ؟ فيجيبون: خيرنا فاخترنا ، ويعنون بذلك أن قوله تعالى ((فهل أنتم منتهون)) لا يوجب الامتناع عن الخمر مع أن الآية وترابطها بما بعدها أوضحت من غير شك أن الخمر حرام ((انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء ، فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)) ، ((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، واحذروا ، فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين)) .

ومع ذلك وتاكيدا للاستيثاق من مفهوم الآية الشريفة وايمانا بالشورى جمع عمر الناس واستشارهم ، فاجمعوا على مخالفتهم ، فامر أن يسالوا : هل الخمر حرام أو حلال ؟ فان قالوا : حرام اقيم عليهم حد الجلد ، وان قالوا : حلال .. قتلوا .

ولما ولى عمر الخلافة بعد وفاة الصديق أبى بكر تلقى من أبى عبيد ومعاذ بن جبل رسالة يذكرانه فيها بالأعباء التى القيت على كاهله فيرد ((.. وانما كتبتما نصيحة لى، وقد صدقتما ، فتعهدانى منكما بكتاب ولا غنى بى عنكما))

ولجأ عمر الى المشورة ومدارسة الاحاديث النبوية فى شأن الدخول أو الخروج من البلاد الموبوءة بالأمراض المعدية ، وذلك حينما خرج الى الشام غازيا فى العام السابع أو الثامن عشر من الهجرة ، ومعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار ، فقد تلقاه على مشارف الشام أمراء الاجناد يبلغونه خبر الطاعون المنتشر فيها ، وخوفوه منه، وانباوه أنه قد أهلك خلقا كثيرا ، وأشاروا عليه بالرجوع.

وايمان عمر بالمشورة يرجع الى رحمته الشديدة بالمسلمين ، شعبا وجنودا ، كان يقول ((ان رجلا من المسلمين أحب الى من مائة ألف دينار)) ، وكتب الى أبى عبيدة يأمره بقبض الجيش من خالد بن الوليد ويقول له: لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، أى تختبره وتتأكد من صلاحيته لهم ، وكان يخاف من توسع المسلمين السريع فى الفتح ، ويرى تجميع الجيش والاقامة به مضموما لفترة تتحقق فيها المصلحة للمسلمين . وكان يبادر بارسال المدد الى جيوش المسلمين ، ويطلب الى قوادهم أن يختاروا الأماكن الصالحة للقتال والصحة .

وفى التفكير لموقعة القادسية التى تعتبر من المواقع الحاسمة بين المسلمين والفرس ، أدار عمر الرأى وقلبه على جميع الوجوه واستعان للموقعة بكل عدة مادية ومعنوية ، نظرا لأن الشعب الفارسى هو الذى أرغم حكامه على دخولها أخذا بالثأر من العرب .

يقول ابن الأثير فى كتابه ((الكامل)) ولما اجتمع الناس الى أمير المؤمنين خرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى ((صرارا)) فعسكر به ، ثم أحضر الناس واستشارهم فى المسير الى العراق فقال العامة : سر وسر بنا معك .. ثم قال : اغدوا واستعدوا فانى سائر ، الا أن يجىء رأى هو أمثل من هذا ، ثم جمع أصحاب رسول الله وأعلام العرب،

وارسل الى على وطلحة والزبير بن العوام وعبد الرحمن ابن عوف ، ثم استشارهم ، فاجتمعوا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله ، ويقيم ويرميه بالجنود ، فان كان الذى يشتهى ، فهو الفتح ، والا أعاد الرجل وبعث آخر.

ولا شك أن هذا الرأى سديد ، لا لأن المسلمين انتصروا فى القادسية على الفرس ، ولكن لان من الامور المقررة أن قوة الروح المعنوية فى جنود الحرب مقدمة على ما سواها من القوة المادية .. وفى مثل المعارك التى تنشب بين العقيدة كالدين الاسلامى وبين أعدائه تتطلب الحالة الاعتماد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن ايمانهم بالعقيدة أقوى من غير ولانهم يسترخصون أرواحهم فى سبيلها وبذلك تنعكس روح القائد على جنوده .

وجمع عمر الناس وقال لهم : عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم ، فاشيروا على برجل ، وفى أثناء ذلك كان يعد للامر عدته ، فكتب الى سعد بن أبى وقاص، وهو حينئذ على صدقات هوازن ، بأن ينتخب ذوى الرأى والنجدة والسلاح ، فجاءه كتاب سعد ، وهو يستشير الناس فيمن يبعثه يقول : قد انتخب لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة ، يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم : اليهم انتهت أحسابهم ورأيهم ، فلما وصل كتابه « سعد » ووافق مشورتهم قالوا لعمر قد وجدته ... فانتهى الى قولهم ، وأحضره وأمره على حرب العراق ووصاه كعادته مع كل قائد .

وكان مع سعد ٤٠٠٠ : حميصة بن النعمان بن حميصة على « بارق » ، وعمرو بن معديكرب وابو سبر بن ذؤيب على مذحج ويزيد بن الحارث الصدائى على صداء ، وحبيب ومسليمة وبشر بن عبد الله الهلالى فى قيس عيلان

وكان عمر شديد الحرص على تنفيذ ما تتطلبه المشورة، فقد أمد سعدا بعد خروجه بألف يمانى وألف نجدى .. وكان المثنى بن حارثة الشيبانى فى ٨٠٠٠ ، وسار سعد والمثنى ينتظر قدومه ، فمات المثنى قبل قدوم سعد من جراحة انتقضت عليه ، واستخلف على الناس بشير بن الخصاصية ، وسعد يومئذ ببلدة يقال لها « زرود » ومعه ٨٠٠٠ وجميع من شهد القادسية بضعة وثلاثون ألفا .

استخدام الخطابة والشعر

ولم يكن أجرأ على أهل فارس من ربيعة ، فكان المسلمون يسمونه « ربيعة الأسد » ، ولم يدع عمر ذا رأى ولا شرف ولا خطيبا ، ولا شاعرا ولا وجيها من وجوه الناس الاسيره الى سعد .

سعد ينفذ مشورة عمر

وقدر سعد مشورة عمر وما أمده به من مختلف وسائل القوة ، فعبا الجيوش .. أمر الأمراء .. عرف على كل عشرة عريفا .. جعل على الرايات رجالا من أهل السابقة .. جعل على المقدمة زهرة بن عبدالله بن قتادة بن الحوية ، فانتهى الى العذيب ، وكان من أصحاب رسول الله وجعل على الميمنة بن المغتم ، وكان من الصحابة ، وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندى ، وكان قاتل أهل الردة ، وجعل خليفته خالد بن عرفطة ، وعلى الساقة عاصم بن عمرو التميمى ، وعلى الطلائع سواد بن مالك التميمى ، وعلى المجردة سلمان بن ربيعة الباهلى وعلى الرحالة جمال بن مالك الأسدى وعلى الركبان عبدالله بن ذى الهيمن الحنفى ، وعلى القضاء وقسمة الفىء بينهم ، عبد الرحمن بن ربيعه الباهلى ، وجعل رائدهم سلمان الفارسى والكاتب زياد بن أبيه .

وكان عمر ذا رأى صائب فى توجيه المسلمين الى قتال أعدائهم،ويتضح ذلك من الكتاب الذى بعثه الى سعد وموافقة هذا الكتاب لرأى المثنى بن حارثة قبل وفاته ، فقد قدم المعنى بن حارثة وسلمى بنت خصفة زوج المثنى ببلدة « شراف » ، وكان المعنى بعد موت أخيه المثنى قد سار الى قابوس بن قابوس بن المنذر بالقادرسية ، وكان قد بعثه اليها الفرس يستنفر العرب فسار اليه المعنى فقفله فانامه « قتله » ومن معه ، ورجع الى « ذى قار » ..

وسار المعنى الى سعد بن أبى وقاص يعلمه برأى المثنى قبل أن يموت ، وهو أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم ، ثم تزوج سعد سلمى بنت خصفة ، وكان معه ٩٩ ممن شهدوا بدرا و ٣٠٠ وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان وما فوق ذلك و ٣٠٠ ممن شهد الفتح و ٧٠٠ من أبناء الصحابة .

وقدم على سعد ، وهو « بشراف » كتاب عمر بمثل رأى المثنى ، وهو « اذا انتهيت الى القادسية ، وهو منزل رغيب خصيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها « يعنى مراقبتك على الطريق الذى يوصلك الى غرضك » ويكون الناس بين الحجر والمدر ، على حافات الحجر ، وحافات المدر والجراع بينهما « أى الرملة » ، ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانك اذا أحسوك أنفصتهم ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم، فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتبستم لقتاله وقويتم الأمانة ، رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا ، الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وان تكن الأخرى يعنى الهزيمة ، كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح » .

وكان عمر حريصا على أن يكون على يقين وعلم تامين بالمواقع التى يوجد بها جيش المسلمين ، ليشارك بالمشورة معه ، فكتب الى سعد يقول : أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم فانه قدمنعنى من بعض ماأردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن .. صفة كانى أنظر اليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية » ، وكل هذا يدل على أنه كان يعيش فى قلب المعارك بعقله وشعوره ومشورة ذوى الرأى .

وقال العقاد فى عبقرية عمر « وملاك النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذى أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه فى زمانه ، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء وضن بهم على العمالة فى أطراف الدولة ، تنزيها لاقدارهم وانتفاعا برأيهم ، واعتزازا بتأييدهم له ، ومعاونتهم اياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب ، وجعل موسم الحج موسما للمراجعة والمحاسبة ، واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة من أقصاها الى أقصاها » .

وهكذا استطاع عمر بالمشورة والاعتماد على الله أن يحقق النصر لجند الاسلام فى فارس والشام ومصر وطرابلس الغرب وبرقه .

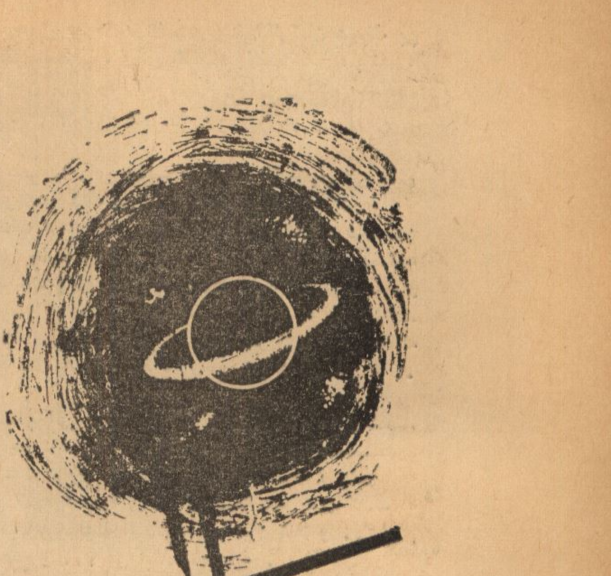

معجزة الكون

الدكتور عبد الحليم كامل

كان عليه الصلاة والسلام اذا سئل عن معجزة قال لسائليه « حسبكم الكون معجزة . انظروا الى الارض فهى من عجائب صنع الله . وآية على وجوده وعظمته . خلقها لكم وسلك لكم فيها سبلا . تمشون فى مناكبها وتأكلون من رزقه . ثم انظروا الى السحاب المسير فى الآفاق يسح بمائه فيحيى أرضا مواتا ويخرج منه زرعا ونخيلا وأعنابا . ثم انظروا الى الأنعام خلقها لكم تجعل المرعى لبنا سائغا للشاربين . ثم انظروا فى أنفسكم فانكم معجزة لقد كنتم صغارا ومن قبل لم تكونوا شيئا مذكورا . ثم وهب لكم الله العقل والقوة والجمال والرحمة أشرف الصفات » .

صدق رسول الله ففى الكون معجزة وأى معجزة أكبر من معجزة الكون . وكيف يرد رسول الله على أناس ضاقت عقولهم وعميت بصيرتهم حتى اذا رأوا آية قالوا سحر مستمر . ويحدثهم رسول الله ويدعوهم الى نظرة عميقة تريهم عظمة الكون وجماله وعظمة الخالق وقدرته ، فيقول لهم انظروا الى الكون ففيه معجزة ، ولكن انى يفقهون : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

هكذا كان حديث الناس يريدون معجزة تثبت وجود الله وتثبت صدق دعواه ويريد الرسول أن يريهم الدليل على ذلك ملموسا يلمسونه بأيديهم ويرونه بأعينهم فيقول لهم « حسبكم الكون معجزة. انظروا الى الارض فهى من عجائب صنع الله » .

كيف لا وتلك الارض الكروية التى ابدع خلقها الله وأعطاها القدرة على الحركة الدائمة كما أخبرنا العليم الخبير فى قرآنه المعجز « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء » سبحانك ربى تخبرنا عن دوران الارض فتضرب الامثال بالجبال الراسيات الشامخات نحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، أى تتحرك بسرعة كبيرة ، ومما لا شك فيه أن تتحرك الجبال وحدها ، والكرة الارضية ثابتة ساكنة .

فتلك الأرض كما نعلم جميعا تدور مرتين مرة حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة فينتج عن ذلك الليل والنهار ، وفى ظلام الليل آية ، وفى وضوح النهار آية أخرى . وسبحان القائل « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب » .

وتدور الارض دورة أخرى حول الشمس فى كل عام مرة فينتج عن ذلك الفصول الأربعة من شتاء قارص الى صيف حار . حتى اذا رفعنا رؤوسنا الى السماء ، وقد رفعت بغير عمد ، ذلك تقدير العزيز العليم . واذا بنا نردد للمشركين قول الله تعالى « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » .

ثم نقول للمشركين مرة أخرى ما يقوله سبحانه وتعالى « أنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والارض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولانعامكم » .

سبحان الله ألا يدعو الى التفكير فى الله ذلك الكون واختلاف الليل والنهار ، واختلاف الفصول الأربعة من برد قارص الى حر لافح . ألا يشعرنا بوجود الله ذلك القمر الذى يبدأ هلالا ثم يستدير ثم يعود كالعرجون القديم « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

لقد استطاع سيدنا ابراهيم عليه السلام أن يعرف الله من نظرة الى النجوم ثم الى القمر ثم الى الشمس ثم انتقل من كل ذلك الى الله الواحد الأحد خالق كل شىء ويحدثنا القرآن عن ذلك فى قصصه : « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات

والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى . فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا ، قال : هـذا ربى . فلما أفل ، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضـالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت ، قال : يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفـا وما أنا من المشركين » .

حتى اذا قدر لنا أن ننتهى من التـأمل فى الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم كان علينا أن ننظر الى ما على الأرض من جبال ووديان وأنهار وحيـوان وانسان ، كل خلق فأبدعت خلقته ، فنقول ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . ونردد قوله تعالى « وهـو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليـل النهار . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

ثم فلنتدبر قوله تعالى « وما يستوى البحـران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

ثم فلنقف قليلا أمام البحار والأنهار ، ولننظـر الى المحيطات والبحيرات الممتلئة بالماء الزاخرة بالحياة ، تؤثر فيها حرارة الشمس وحركة الهواء فيعملان معـا على تبخر الماء . حتى اذا تجمـع البخار فى الطبقات العليا من الجو حيث الجو برد تكاثف ذلك البخـار وتكون السحاب فتحمله الرياح الى حيث يشاء الله والى حيث يسح ماؤه فيحيى أرضا مواتا فتنبت الاشجار وتكثر الثمار وتطيب الحياة ، ويحدثنا الله فى كتـابه العزيز فيقول « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون . وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » .

ويقول أيضا جلت قدرته « وهو الذى أنزل مـن السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منـه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلـكم لآيات لقوم يؤمنون » .

حتى اذا تركنا الماء ليخرج به نبات كل شىء فلنفكر لحظة فى الحب والنوى وما يخرج منهما من أشجـار اختلفت ألوانها وأشكالها وثمارها ، فنفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ان فى ذلك والله لآيات لقوم يعقلون .

فلننظر الى الحب وقد احتوت كل حبة على قصة حياة كاملة لنبات شكله وحجمه وثمره ولا تحتاج هذه القصة الا أن تجد الأرض الطيبة والمياه الصالحـة فتظهر الى عالم الوجود .

واذا كان الشائع فى النبات أن يختار غذاءه من الماء والاملاح الذائبة فى التربة ومن الهواء فاذا به يحول هذه المواد الأولية الى سكر ونشاء نتغذى عليه وتتغذى عليه سائر الحيوانات . فان من النباتات من لا يرضى بهـذه الطريقة فى الغذاء فيتغذى على الحيوان كما يتغـذى الانسان ، ومن هذه الامثلة نبات النيبنثس الذى يوجد فى جزر الملايو ، فورقة هذا النبات على شكل جرة ذات غطاء وتتجمع قطرات الماء داخل هذا الوعاء حتى اذا جاءت حشرة استهواها رحيق هذا النبات الحلو المذاق ودخلت الجرة لترتشف من هذا الرحيق فاذا بالنبات يحس بهذا الغذاء فيغلق فتحة الجرة بذلك الغطـاء ثم تبدأ عملية الهضم بواسطة انزيمات خاصة يفرزهـا هذا النبات لاذابة هذه الحشرة فتكون سهلة الامتصاص الذى اذا انتهى فتحت الجرة ثانية لتستعد لاستقبال الفريسة الثانية وهكذا .

وهناك نوع آخر من النبات يسمى بالدروزيرا لأوراقه عدد كبير من الزوائد الحساسة التى تفرز مادة لزجة حمضية فاذا ما سقطت حشرة ما على ورقة من هـذه الأوراق التصقت بالمادة الرحيقية وعبثا تحاول الفـرار اذ تمنعها تلك الزوائد الحساسة التى تعمل كشباك حول الفريسة وتفرز عليها عصارتها الهاضمة . حتى اذا امتصت الحشرة اعتدلت الزوائد استعدادا للضيـف الجديد .

كما أن هناك نبات آخر هو نبات الـديونيا كل ورقة من أوراقه على شـكل مصرعين ، وعلى سـطح كل مصراع أشـواك دقيقة . فاذا ما وقفـت الحشرة على الورقة انطبق المصراعان وانغرزت الأشواك الحـادة فى جسم الفريسة فتمزقها ، وبذا تسهل عملية الهضم ثم الامتصاص .

ثم ينتقل بنا حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الى الأنعام . كيف خلقها الله وصورها . نستقى منها لبنـا سائغا للشاربين . أفلا نرى فى ذلك اللبن معجزة وفى تكوينه من المرعى دليلا على قوة الله سبحانه وتعالى . فجدير بنا أن نستبطن الأمر فلا ننظر تلك النظـرة السطحية التى تخفى جمال الباطن وعظمته .

وهناك فى مملكة الحيوان معجزات استمعوا الى قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء فمنهـم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله عـلى كل شىء قدير » .

ومن منا لم ينظر الى عالم الحيوان وما فيه ولم يتأمل فيما خلق الله وأبدع فى خلقه . فلينظر من لم ينظر الى عالم النمل وكيف يسعى ويجد ليختزن من حـره لبرده . وكيف يطير النحل من الأزهار ليرتشف مـن رحيقها ما يقتات به وتقتات به صغاره . ثم فلينظـر أيضا من لم ينظر الى عالم الطير وكيف تطير الطيور من غصن الى غصن باحثة عن أكلها وغذائها فلعله يرى فى هذا وذاك دقة المخلوقات ودقة الصانع ، ولعله يرى فى جمال الخلق جمال الخالق وفى عظمة الكائنات عظمـة المصدر الخالق الواحد .

تعالوا ننظر سويا الى هذه الحيوانات كيف تعيش . وهل لها حس كما لنا حواس وهـل لها قلوب تدب بالعاطفة والحب كما تدب قلوبنا ، وهل تستطيع أن تفكر كما نفكر ، وهل هناك تعاون بين أفرادها كما هو الحال بيننا ، ويجيب القرآن الكريم عن ذلك فى وضـوح تام ، واختصار حلو جميل فى قوله تعالى فى سورة الأنعام :

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

فلو نظرنا الى النحل ، وكيف تسيطر الملـكة على الخلية فهى القوية الحاكمة فهى التى تضع البيض وعلى باقى الرعية الخدمة العامة وحماية الملكة : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك

ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

واذا كان هذا هو الحال فى دنيا النحل ففى مملكة النمل ما هو أغرب وأعظم . فهناك الملكة يحيط بها أفراد الخلية من شغالة وجنود. تقوم الشغالة بالخدمة العامة واحضار الغذاء وتربية الصغار ولا عمل للذكور الا تلقيح الملكة والدفاع عن المملكة .

ومن النمل أنواع كثيرة فمنها الرحال الذى ليس له مكان خاص فيرحل فى جماعات من مكان الى مكان آخر ومنها النمل الزراع الذى يبذر بذور الفطر ثم يرويها بما يجلبه لها من الماء فى فمه حتى اذا نبت الحب ونمى الزرع تغذى عليه النمل كما تتغــذى الماشية على البرسيم .

وانه لمن المدهش حقا أن نرى فى مساكن النمــل حشرات المن التى تعيش وأياها عيشة المعاشرة ويحيون سويا حياة التكاتف والتساند فيمدها المن برحيقــه وشمعه كما تمدنا الأبقار باللبن وذلك أجرا لأيوائه وثمنا غاليا يدفعه لأمنه وسلامته .

وان من ابدع ما فى مملكة النمل تلك المســاكن التى يبنيها تحت الأرض بها حجر خاصة ، منها حجــرة العرش حيث تسكن الملكة لتضع البيض وحجر أخرى لتربية الصغار وحجر للتخزين ويوصل بين الحجـرات ممرات جميلة منسقة ، ويحرس الجنود باب المملـكة كل فى عمله بنظام غريب بديع يدل على فهـم وادراك . وما حديث تلك النملة الى أهلها وعشيرتها عندما مــر سيدنا سليمان بوادى النمل بخاف على أحــد « حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون »

ولعل من أهم الغرائز الموجودة بين الحيــوانات هى غريزة حب القتال وحب الاستعمار مثلها فى الحياة كمثل كثير من الدول التى نسمع عن غدرها وقسوتها فى معاملة غيرها ولعل أقرب الأمثلة لهذا هو ما نشاهده فى نوع من أنواع النمل لا يستطيع أن يخدم نفسه ولا أن يختزن قوته فى حره لبرده ، لذلك فهو يلجأ الى الحرب ليتخذ من اسراه عبيدا يسهرون على خدمته وراحته . وكثيــرا ما يهاجم أنواعا أخرى من النمل من تلك التى تعتمد على نفسها فتزرع وتختزن ما تأكل فتبدأ الحرب بين الجيش المهاجم وجنود المستعمرة . يزيد الجيش المهاجم قوة شجاعة أفراده وجرائهم على القتال وسرعان ما يتقهقر العدو ويستولى الجيش المهاجم على المستعمرة فينقــل صغارها الى موطنه التى عندما تكبر تبدأ حياتها كما لو كانت فى نفس مسكنها الأصلى وبين أهلها وعشيرتها فتخدم أسيادها بأمانة ، وكما يقال ان هؤلاء السادة لا يصيبون اسراهم أو خدمتهم بسوء حتى أنهم قد يدخلون حــربا شعواء اذا ما اعتدى عدو على أحد الخدم .

ثم فلننتقل الى موضوع آخر يرينا الكثير من التشابه بين طباعنا وطباع الحيوانات ألا وهو كيف يختــــار الحيوان اليفته وشريكته فى الحياة وكيف يتنافس أكثر من حيوانين من أجل انثى واحدة .

فهناك فراش يقال له قرن الوعل تجتمع الذكور حول الانثى كل يتقدم لخطبتها يطير حولها طانا بأجنحتــه مظهرا هيامه وغرامه ولكن الانثى تختار من خطابها واحدا ترضاه ويحوز قبولها فيتراجع الباقون ويختفون .

وهناك نوع من الخنافس يتسلح الذكر بقــرنين يستعملهما للقتال نصرا للحب بين المحبين المتنافسين ، وكثيرا ما يتقدم الى الانثى الواحدة أكثر من ذكر واحد يبدأ بينهما قتــــال وحشى يفوز بالانثى من يصمد فى القتال وينتصر .

كما أن هناك نوع آخر من الخنافس يعيش الزوجان فى مسكن واحد وويل لمن يقتحم عليهما المسكن فيقاتلـه الذكر وتساعده زوجته فى هذا القتال فهى تحرس مدخل الشق وتدفع زوجها من الخلف تبث فيه الحمية وتشجعه على القتال فى سبيل الاسرة واستقلال العائلة .

والآن ولعلى قد أطلت فى الحديث عن الحشرات فلنذكر شيئا عن الطيور ، وما حنــو الطير على صغاره الا أمرا معروفا لنا جميعا ، وأظن أننا جميعا قد شاهدنا دقــة بناء العش وحسن اختيار مكانه ، وكيف يتعاون الذكر والانثى فى ذلك حتى اذا اكتمل بناء العش ووضع البيض تناوب الذكر والأنثى الرقاد والحضانة كما يتناوبـــان الرعاية والحراسة .

ولعل من أغرب طباع الطير محاكمة بعضها البعض ، فقد شوهد فى الغربان أنه اذا اعتدى غراب على آخــر كأنه يسلبه غذائه صرخ الغراب المعتــدى عليه بصوت ذا نغمة معروفة فسرعان ما تتجمع الغربان حول المجــرم على هيئة محكمة واذا بالمعتدى يجثو على الأرض باسطا جناحيه طالبا الرحمة والرأفة من هيئة المحكمة ، ولكن المحكمة تحكم عليه بالأدانة يتبعها العقاب مشمولا بالنفاذ وما العقاب الا الضرب بالمناقير حتى يموت المعتدى أو يشرف على الموت .

ولعل من طباع الطيور الغريبة أيضا أنها تترك موطنها الأصلى اذا ما ضاق بها الحال وصعبت المعيشة هنـاك كقلة الغذاء أو برودة الجو أو غير ذلك مــن الأسباب فتهاجر الى بلد ناء لا تعبأ بطول الطريق وما يعترضها من بحار ومحيطات حتى تصل الى ما تصبو اليه من غــذاء وجو يطيب لها الاقامة فيه . وليس الغريب أن ترحل هذه الطيور ، ولكن الأغرب أنها ترجع الى موطنها الأصلى اذا ما شعرت ـ والله يعلم كيف تشعــر بذلك ـ بأن الغذاء هناك أصبح موفورا والحياة أصبحــت سهلة ميسورة فتذهب من حيث جاءت فتجد ما شعــرت به حقيقة واقعة لا وهما وسرابا .

هذا مختصر بسيط عن عالم الحيوان ، ومــا كان فى استطاعتى أن أوفى الموضوع حقه ، ولكنى أدعوكم حتى تتدبروا قوله تعالى :

« ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » .

حتى اذا قدر لنا أن ننتهى من التامل فى مخلوقات الله صغيرها وكبيرها من نبات وحيوان وجمــاد كان من الواجب علينا أن ننظر الى أنفسنا فنحن معجزة وأى معجزة أكبر من خلق الانسان من تراب ثم من نطفــة ، ويدعونا القرآن الكريم فى أول سورة أنزلت على سيد الخلق اجمعين فيقول « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

ويحدثنا القرآن فى سورة أخرى « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الــذى يحى ويميت فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون »

ولقد تحدثت عن هذه باسهاب فى العدد الســـابق فليرجع اليه من يريد أن يتدبر هذه الآيات .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا لرؤية الحق ومعــرفة الحق وأن يزداد ايماننا ويقيننا وعرفاننا بديننــا دين الحق .

اتم ابو بكر استشارة اصحابه ، واستقر عزمه على تسيير الجيوش الى الشام ، فكتب الى أهل اليمن يطلب اليهم الشخوص اليه للجهاد فى سبيل الله ، وكان خالد بن سعيد مقيما بتيماء فى جيشه وفيمن نفر معه من قبائل البادية على تخوم الشام ، وبازائه يقوم جيش الروم مضاعف العدد بمن انضم اليه من القبائل على الناحية الاخرى من هذه التخوم ، وكل يتربص بصاحبه الدوائر . وفيما هم كذلك كانت أنباء خالد بن الوليد تدوى فى جو الفرس والعرب والروم على السواء ، فالانبار تفتح ابوابها وعين التمر تقتل مقاتلتها وتسبى نساؤها ، وجنود المسلمين يغنمون ما شاء الله ان يغنموا أفيبقى خالد بن سعيد ورجاله على تخوم الشام لايقتحمه كما اقتحم خالد بن الوليد العراق ؟!. لقد أثار تقابل الجيشين على هذا النحو حمية المسلمين وحركهم لقتال خصومهم ، فكتب خالد بن سعيد الى الخليفة كرة اخرى ينبئه باجتماع الروم ومن نفر اليهم من قبائل بهراء وكلب وتنوخ وجذام وغسان ، ويستأذنه فى منازلتهم . وكان ابو بكر يعد اذ ذاك جيوشه لغزو الشام ، لذلك كتب الى خالد بن سعيد يقول : « أقدم ولا تحجم واستنصر الله ! » وكانت هذه الكلمات أول فتح الشام .

حين قرأ خالد بن سعيد كتاب الخليفة أسرع بكل قواته فتخطى الحدود لمنازلة القوم ، وحين دنا من جموع أعدائه هابوه فتفرقوا وتركوا منازلهم ، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه ، وكتب الى الخليفة بالخبر ، فأجابه « تقدم ولا تقتحم حتى لا تؤتى من خلفك » . وتقدم خالد فهزم جيشا روميا على الشاطىء الشرقى للبحر الميت قرب القسطل ، ثم تابع مسيرته . عند ذلك ثارت حمية الروم وثارت حمية أهل الشام معهم ، فتجمعوا فى قوات تزيد أضعافا مضاعفة على ما اجتمع منهم قبالة تيماء . ورأى خالد تجمعهم فكتب الى أبى بكر يستمده ليتابع مسيره المظفر .

وكانت جيوش المسلمين قد بدأت السير من المدينة الى الشام لغزو الروم ، وأبو بكر مملوء أملا بنصر الله اياها ، فالروم ليسوا خيرا من الفرس حالا ، وهم منذ انتصارهم على الفرس ، قد ركنوا الى الدعة وجعلوا كل اعتمادهم على أبناء البادية فى حماية حدودهم ، ولابناء البادية حقا آيات بأس وشجاعة ميزتهم فى مواقف متعددة وقفوها من قبل ، لكن روابط الجنس واللغة لم تكن قائمة بينهم وبين الروم كقيامها بينهم وبين بنى عمومتهم أبناء شبه الجزيرة ، كذلك لم تكن نصرانية عرب الشام كنصرانية هرقل ، فبينما كان عرب الشام من الارثوذكس كان قيصر من الكاثوليك ، ولم يكن بين الطائفتين وئام ، ولعلهم رأوا فى ضن هرقل بالروم على القتال دليلا على الخوف على بنى وطنه أن يهزموا أو يقتلوا فهو يحرص عليهم أشد من حرصه على غيرهم ، لذلك تراخى عرب الشام فى القتال وتركوا خالدا بن سعيد يتقدم دون أن يثبتوا له .

وتختلف روايات المؤرخين فى أى الجيوش الاسلامية كان أسرع الى امداد خالد بن سعيد ، ويشتد بها الاختلاف حتى فى أمر خالد بن سعيد نفسه أكان هو الذى بدأ بغزو الشام أم كان غيره ، وتضطرب الروايات كذلك فى ترتيب حوادث الفتح ووقائعه ، ونحن لا نلتزم باتجاه مؤرخ واحد من المؤرخين وانما ناخذ من الروايات أكثرها رجحانا ونرتب سياق الحوادث ترتيبا يساير منطق الاتجاه العربى فى الفتوح .

كان عكرمة بن أبى جهل قافلا من بلاد كندة وحضرموت عن طريق اليمن ثم مكة ، فلما بلغ المدينة أمره أبو بكر أن يسير مددا لخالد بن سعيد وأبدله من جنده الذى سرحه جندا آخر فسمى جيشه هذا جيش البدال ، وبه سار عكرمة الى الشام ، كما سار كذلك ذو الكلاع الحميرى على رأس الجند الذين صحبوه من اليمن مسرعا مع عكرمة ، حتى يطمئن خالد بن سعيد ويتابع تقدمه .

وكان عمرو بن العاص مقيما بين قبائل قضاعة منذ قفى على الردة ، فبعث اليه أبو بكر يخيره بين أن يبقى حيث هو أو أن يسير الى الشام ، وفيما كتب له : « وقد أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك ، الا أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك » . وكان جواب عمرو أن كتب اليه « انى سهم من سهام الاسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى » . وكذلك كتب الى الوليد بن عقبة بمثل ما كتب به الى عمرو بن العاص ، فكان جوابه أن آثر الجهاد . عند ذلك أمر الخليفة عمرا على فلسطين وأمر الوليد بن عقبة على الاردن .

سارت هذه الجيوش الى الشام ، فكان أول من لحق بخالد بن سعيد هو الوليد بن عقبة ، وقص عليه أنباء المدد وحماسة أبى بكر لفتح الشام وغبطة أهل المدينة بانتصاره ورجاله على بنى الاصفر (الروم) ففاضت نفس ابن سعيد بالمسرة ، وأمر جيشه أن يتهيأ للسير حتى يكون له من فخار النصر ما يجعله فى قتال الروم ندا لخالد بن الوليد فى قتال الفرس . وتقدم بالمسلمين ومعه الوليد بن عقبة ليلقى جيشا للروم على رأسه قائدهم الاكبر باهان ، ونفس خالد بن سعيد تحدثه بأن ينقض على هذا القائد كما انقض خالد بن الوليد على قائد الفرس هرمز ، وأن يورده حتفا كحتفه ، وكيف لا يفعل وقد أدركه عكرمة وذو الكلاع فصار فى قوة كبيرة خيل اليه معها أنه لن تثبت له قوة .

ومع أن جيش الروم لم يكن قريبا من جيش خالد بن سعيد ، فقد تراجع به باهان متجها نحو دمشق ، وسار خالد على أثره يريد مرج الصفر بين واقوصة ودمشق ليقيم هناك معسكره ويجعل منها مقر قيادته العامة . ولم يكن تراجع باهان الا خدعة أراد بها استدراج خصمه حتى يعرى ظهره فيتمكن من حصاره وضربه من خلفه ، وذلك ما حذر أبو بكر خالدا منه ، لكن نشوة الظفر وحب الفخار أنسياه الحذر وأفقداه اتخاذ الحيطة فاندفع خلف عدوه يغذ السير ، حتى اذا كان على مقربة من مرج الصفر الى الشرق من بحيرة طبرية ارتد باهان بجنوده فأحاط به وقطع عليه خط رجعته ، وصادف فرقة من المسلمين منعزلة يقودها سعيد بن خالد بن سعيد ، فقتل قائدها وأبادها . وبلغ خالد مقتل ابنه ، ورأى نفسه قد أحيط به ، فانخذلت نفسه وملأه الرعب ، فخرج هاربا فى كتيبة من أصحابه على ظهور الخيل والابل ، تاركا وراءه جيش المسلمين يتراجع به عكرمة بن أبى جهل .

ولم يقف خالد بن سعيد من فراره دون ذى المروة على مقربة من المدينة ، وحين علم الخليفة أنباء فراره هزيما يريد مدينة الرسول أبى عليه ذلك ، وبعث اليه من يقول له « أقم مكانك . فلعمرى انك مقدام محجام نجاء من الغمرات ، لا تخوضها الى حق ولا تصبر عليه » . وأقام خالد بن سعيد بذى المروة يعصر الحزن قلبه أن قتل ابنه وركبه عار الفرار من الميدان . وكان أبو بكر بعدها يقول « كان عمر وعلى أعلم بخالد بن سعيد منى ، ولو أطعتهما فيه أتقيته » .

لم تضعف هزيمة خالد بن سعيد وفراره عزيمة أبى بكر ولم تخفف من حماسته لغزو الشام وفتحه ، فلقد جاءته الانباء بأن عكرمة داور بجيوش المسلمين وداور معه ذو الكلاع ، فتراجع بهم الى حدود الشام حيث تحصن ينتظر المدد ، واذن فعلى أبى بكر أن يمده ، وليكن هذا المدد من القوة بما يزيل كل أثر لهزيمة ابن سعيد ، وما يرد الى المسلمين الايمان بالنصر ، وما ينزل فى قلوب الروم الخوف والفزع .

فى هذه الآونة كان شرحبيل بن حسنة قد جاء من عند خالد بن الوليد من العراق بأنباء النصر وبالسبى والاخماس ، فأمره أبو بكر أن يذهب الى الشام وكان الوليد بن عقبة الذى باء بالهزيمة مع خالد بن سعيد . وجمع شرحبيل قوة من جيش خالد بن سعيد وجيش الوليد وسار بها الى عكرمة . وكذلك دعا أبو بكر يزيد ابن أبى سفيان فأمره على جند عظيم جلهم من أهل مكة ، ثم أردفه بأخيه معاوية وجعله على بقية الجيش الذى كان مع خالد بن سعيد . ثم ندب الخليفة جيشا عظيما جعل على قيادته أبا عبيدة بن الجراح وأمره على حمص .

وكانت هذه الجيوش تعسكر بالجرف الى الشمال الغربى من المدينة ، فاذا آن لأحدهما أن يسير خرج اليه الخليفة وودعه وأوصاه ، وقد سجلت كتب التاريخ وصايا أبى بكر لجنوده بحروف من نور ، وهى تعد فى سجل الحروب من أروع ما أوصى به حاكم جنده وهم يتوجهون لقتال عدوهم ، فهى ترتفع بالحرب الى المستوى الانسانى الرفيع الذى يجعل من الحروب دفعات لتقدم البشرية ورفع قدرها واقرار المثل الحضارية العليا بها .. يقول أبو بكر « ألا ان لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجد والقصد فان القصد أبلغ ، ألا انه لا دين لأحد لا ايمان له . ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له . الا وان فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله لما ينبغى للمسلم أن يحب أن يخص به . هذه التجارة التى دل الله عليها ، ونجى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة » .

وكان مما قاله ليزيد بن أبى سفيان : « اذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وأبدأهم بالخير وعدهم اياه . واذا وعظتهم فأوجز ، فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا .. واذا قدم عليك رسل عدوك فاكرمهم وأقل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به .. وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم .. واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الاخبار وتنكشف عندك الاستار .. واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس » .

اطمأن أبو بكر حين أرسل هذه الجيوش ، وكيف لا يطمئن الى النصر وفى هذه الجيوش زهرة المسلمين مهاجريهم والانصار ، وفيها ما يزيد على ألف من أصحاب رسول الله الذى سمعوا له وجاهدوا معه وأخذوا عنه ، وفيها أهل بدر الذين قال الله فيهم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » والذين قال النبى فيهم يناجى ربه يوم بدر « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » والذين شهدوا بدرا وأحدا وحنينا وأمدهم رسول الله فى حياته بنفحة منه . وفى هذه الجيوش الابطال أمجاد مكة والمدينة والطائف ممن عركوا الحرب وعركتهم الحرب . أفتقاس جيوش خالد ابن الوليد فى العراق بمثل هذه الجيوش ؟ لقد تألفت جيوش خالد من بقايا قليلة من الجيش الذى قاتل معه فى اليمامة ثم ممن ثبت على الاسلام وقاتل الردة من أهل البحرين وعمان . فان يكن خالد قد هزم الفرس بهؤلاء ، فما أحرى أبا عبيدة وعكرمة وابن العاص ويزيد أن يقضوا بزهرة جيوش مكة والمدينة على الروم القضاء الحاسم .

ولم يكن أبو بكر مبالغا حين سير هذه الجيوش الى الشام بعد أن انتصر عسكره فى العراق ، فلو أن أمر المسلمين وقف عند هزيمة خالد بن سعيد وتراجعه لذهب نصر المسلمين بالعراق بددا ، ولاقتحم الروم عليهم شبه الجزيرة ، ولوقعت الدولة العربية الناشئة بين شقى الرحى فطحنت تحت ضغط الروم والفرس وقد أحس الطرفان بالخطر منها خطرا يهدد كيانهما معا . وكان

أبو بكر يدرك هذا تمام الادراك ، يتمثل ذلك فى قوله حين واجهت جيوشه جيوش الروم « يا هادى السبيل . انه الفجر أو الجر » فلو تراجعت الجيوش الاسلامية لكان ذلك تراجعا عن الاهداف القومية من ناحية وتعريضا للدولة لخطر الهجوم عليها من ناحية أخرى . بينما لو انتصرت جيوش المسلمين لانفتح على الانسانية فجر عهد جديد تذوق فيه الاخاء والبر والعدل .

وظل أمراء الجند فى مسيرتهم حتى نزلوا الشام . فأما عمرو بن العاص فقد وقف بالعربة لم يبرحها منذ أوفده أبو بكر ، وأما أبو عبيدة فتخطى البلقاء الى الجابية بعد أن أخضع من قاومه من عرب مآب . ونزل شرحبيل بن حسنة الاردن ، ونزل يزيد بن أبى سفيان البلقاء بعد أن هزم قوة رومية فى داثن .

لم يكترث الروم لهذه الجيوش أول الامر وخيل اليهم أن هؤلاء العرب لن يتقدموا الى أكثر مما تقدم نبيهم محمد من قبل فى غزوة تبوك ، وأنهم عائدون أدراجهم لا محالة ، وزاد فى طمأنينتهم الى ما توهموا ما رأوا من هزيمة خالد بن سعيد وفراره وتراجع جيشه من بعده . لكنهم حين رأوا هذه الجيوش تتقدم فتأخذ مواقع حصينة لها ، أفاقوا من سباتهم وأدركوا أن الامر أجل خطرا من أن يستهينوا به ، وأنهم ان لم يواجهوا الموقف بكل قوتهم أصابهم ما أصاب الفرس فى العراق . لذلك سير هرقل اليهم قوات عظيمة عليها أكبر قواده وأقدرهم فوقف أمام كل جيش من جيوش المسلمين جيش قوى من جيوش الروم عليه قائد من أكبر القواد .

تجرى الرواية بأن عدد المسلمين جميعا لم يكن يزيد على ثلاثين ألفا ، وأن جيوش الروم بلغت عدتها أربعين ومائتى ألف ومهما يكن عدد الروم مبالغ فيه فان الذى لا شك فيه أنه كان أكبر كثيرا من جيوش المسلمين ربما وصل الى عدة أضعاف لها . قيل ان جيش عكرمة كان ستة آلاف ، وان الجيوش الثلاثة الاخرى تحت امرة أبى عبيدة ويزيد وعمرو بن العاص كانت تترجح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف لكل منها . أما جيوش الروم فكان أكبرها عددا تحت امرة تذارق (تيودوريك) أخى هرقل وكانت عدته تسعين ألفا ، وقد عسكر بازاء عمرو ، ووقف جيش الفيقار بن نسطور وعدته ستون ألفا بازاء أبى عبيدة واستقبل جيش شرحبيل وعكرمة جيش الدراقص وعدته أربعون ألفا ، ووقف جرجة بن تدرا أمام يزيد بن أبى سفيان .

وهاب المسلمون هذه الجيوش فتكاتب القواد فيما بينهم ، واستقر عزمهم على التجمع كما اقترح عمرو بن العاص . ثم كتبوا الى الخليفة . ومع تجمع المسلمين وتجمع الروم جمد الموقف فلم يجرؤ أحد الطرفين من الاشتباك مع الآخر ، حتى مل الطرفان ومل الخليفة هذا الجمود من قواده ، فعزم على أن ينسى الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد .

فحتى يصل خالد نشهد المعركة الكبرى بين المسلمين والروم فى الشام .

رمضان في ليبيا

الأستاذ محمد أمين هلال

ربط الله قلوب المسلمين بهذا الايمان الذى يحرك فى النفس لواعج الشوق والحنين الى تلك الذكريات التى كان لها فى تاريخ هذا الدين من العمران ومن الآثار ما لا يمحوها ليل او نهار .

وعزيز على المسلم أن ينسى هذه المواقف التى رافقت ركب التقدم ، فيستوحى منها أسرار انطلاقات امجاد الاسلام ، حتى شمل العالم بآياته العظام .

والايمان وحده هو الذى يفسر مظاهر أسرار الانسانية، ويحرك عجلات مواكب الحضارة . وقد قالوا : ان التقدم الحضارى ذو مظهرين : مظهر حضارى واضح يتراءى للانسان ويبدو واضحا فى تقدم العمران والفن والعلوم العقلية . ومظهر روحى مستمر ، يبدو فى السلوك الانسانى وفى لباقة الفكر وطرافة الرأى ، والحرص على تعاليم الدين . وهو الغراء الذى ينسق بين القطاعات البشرية ، والمغناطيسى الذى تتجاذب حواليه الحقوق الدينية والاجتماعية .. ولم يستشف الانسان هذا المظهر الا من وراء عصارات الروح المتولدة عن العمل المستقيم ، ذلك الذى حركه الايمان فى نفس بنى الانسان، معتمدا على صفاء الفطرة ، وتذوق المعانى الحقة التى حررته من عهود الجاهلية ، وخبث الانانية وتعدد الالوهية، وجمعت الافئدة على اتجاه واحد ، يبنى العالم بناءا كاملا يأوى الانسان فى ظله أينما حل وارتحل .

خواطر كانت تأخذ على كل حواسى فى شهر الصوم — حين أسير فى شوارع طرابلس أو بنى غازى أو البيضاء أو مصراته أو زواره ، أو سواها من مدن ليبيا وواحاتها، على تباعد نواحيها ، واختلاف أجوائها : فلا أرى مطعما مفتوحا أو مستهترا يتناول الطعام ، أو مدخنا يشعل سيجارته ، أو متكلما يفحش عبارته ، أو هرما يتعلل عن الافطار بشيخوخته ، أو صبيا لما يتجاوز الثامنة يستشفع للافطار بطفولته ، بل كل على ميعاد على الامساك عن الأكل والشرب وما اليهما ، مؤمنين بحق رمضان ، جمعتهم ضيافة الله ، وشدت أواصرهم الى مسالك النجاة .

ويزداد دهشى حين أدخل المساجد فى أى وقت من ليل أو نهار ، فأحسب أن جميع الناس هجروا أعمالهم وتركوا بيوتهم واتخذوا من بيوت الله مستقرا ومقاما ، حيث يرهفون آذانهم ويقبلون بوعى وحرص على الاستماع للدعاة . وغالبهم من أبناء الأزهر . يبصرون الناس بدين الله ، الكفيل بتقويم الأخلاق والأجواء النفسية والروحية . الزعيم باصلاح العادات والتقاليد وتوثيق عرى العلاقات الفردية والاجتماعية ، وتوجيه الطاقات المؤمنة نحو الانتاج والتقدم ، ومحاربة كل ما يمس العقيدة والسلوك الانسانى .

وقد تظن أن هذا البدوى الذى لما يخلع ثوب البداوة ، أو هذا المدنى فى غضارة شبابه وثيابه ، يذهب كلاهما بحكم العادة الى استماع هذه المواعظ . وأنها قدلاتتجاوز الآذان . ويخلفك الظن حين تعلم عن يقين أن كليهما يدرك من أسرار الصوم ما قد لا يدركه كثير ممن تظنهم على شىء واقسم ، لقد زارنى بمكتبى فى هذه المجلة شيوخ وشبان لم يخلعوا عنهم ثياب البداوة ، ولم يحملوا شهادة . وتناقشوا عن الصوم وأسراره ورمضان وأخباره ،تحدثوا بفكر عميق وتفهم صاف ، ولم يغفلوا عن أن الله فرض هذا الصوم وجعله مددا للايمان وعنصرا قويا من عناصر المجتمع وأنه يغرس التقوى بما يحدثه من مراقبة الخالق واستحضار سلطانه ، ويبعد النفس عن ترك ما تألف فتقف المراقبة والصبر حاجزا بين الانسان وأطماعه الفاسدة التى ينتهك بها الحرمات ، ويسقط أمامها تقدير الواجبات . وبهذا ، يرهف حسه ويحيا ضميره ويعظم خيره لنفسه ومجتمعه على وفق ما أراد الله . وينطلق شابا بالحديث عن الصوم بأنه رحلة الهية ميقاتها الشهر كله ، يخلع فيها المؤمن نفسه من حياة مادية مظلمة الى حياة روحية مضيئة ، يخلع فيها نفسه من هموم الدنيا وأكدارها الى لذة لا يشوبها ألم ، وسعادة لا يمازجها شقاء ، ويتمسك بجانب التقوى ، حيث يفى للمعبود بعهده ، ويقوم للعبد بحقه ، ويصير مصدر خير لنفسه وللناس .

ويتحدث شاب لم يتجاوز المرحلة الثانوية ، ويصل الحديث بالحديث : ان رمضان شهر للثورة السماوية ضد الباطل الذى أفسد فى الانسان تصوره للحياة، فظنها مادية عليها يتهالك ولها يجمع ، وبشهواتها يلهو . فلم ترض الحكمة الالهية ببقاء الانسان على هذه الحياة القاسية الغاشمة . فانطلقت نور الحق فى شهر رمضان على يد محمد بن عبد الله . وعرفت كلمة الحق فى الألوهية والرسالة . وفى علاقة الانسان بأخيه الانسان فى الحياة الدنيا الفانية . ان الصوم رياضة روحية تعد النفوس للسمو فى مدارج الكمال ، والتحليق فى أجواء الطهر والعفة كما تعوده على الصبر والثبات والقوة والعزة وتصفى

النفس الأمارة بالسوء من شوائب المادية ، وتبغض اليها المآثم . وتحمل النفس على البذل والعطاء ومساعدة البؤساء وتبادل المشاعر بين الأصاغر والأكابر .

ان الصائم بين عدة عوامل : من هوى النفس ومن صفاء الروح ومن تلبيسات ابليس . وبه تخنس النفس لنقص مادتها وكسر حدتها ، وتسبح الروح فى تأملاتها واشراقاتها وتتلقى دروس التقوى والخوف من الله . وكأن هذا الصوم فقر بالاكراه فرضه الاسلام ليتساوى الجميع فى بواطنهم وآلامهم . ويدرك الغنى ألم الجوع كما يدركه الفقير المعدم . فيسارع ذو الميسرة الى معالجة ألم الفقير فيعطيه ما يسد جوعته ويخفف كربته . وبذلك تهدأ الحياة ويتعاون الجميع فى اسعادها . وتنسل الأحقاد من الصدور ، وتصبح الأخوة الانسانية فوق الفوارق المادية ، وتتحقق معنى الاشتراكية العادلة الاسلامية ، التى طالما نشدها المصلحون ، فلم يواتهم ما كانوا يرجون !!

وفى الحق أن هذه الظاهرة فى هذا الوعى الدينى ، انما ترجع الى تلك الزوايا السنوسية ، التى أقامها منذ أكثر من قرن الامام محمد بن على السنوسى فى مدن ليبيا وواحاتها وبين شتيت قبائلها . وسار على سنته فى تعميرها وتوسيعها والاكثار منها خلفاؤه فى هذه الدعوة الدينية والسياسية ..

وبالدعوة السياسية السنوية تسنى لهذا الشعب المجاهد القليل العدد والعدد أن يصمد فى وجه الطليان نحو ثلث قرن من الزمان . وعلى الرغم من أنه فقد أكثر من نصف عدده ، لم تضعف شكيمته ولم تهن عزيمته .

وبالدعوة الدينية السنوسية ظلت الروح القرآنية « تلك التى حركت عقلية المؤمنين فى عصر النبى ، وجاشت ثورة فى أعماقهم » .. سارية نشيطة . وكم حاول الاستعمار أن يخمد وقودها ليستطيع ابتلاعهم واستعمارهم فكريا وأدبيا بعد أن استعمرهم سياسيا ، فخابت محاولته .

وسهرات رمضان فى ليبيا تذكرنا بما كان لمدننا وقرانا الى عهد قريب .. فهذه البيوت مفتحة الأبواب للوافدين، وهؤلاء القراء يرتلون آى الذكر الحكيم حتى وقت السحور . وفى النهار لا تشاهد هذه القهاوى عامرة بروادها ، حتى الأجانب الذين قاسى منهم الشعب ما قاسى أيام الاحتلال ، يشاركون الشعب شعوره ، فلا تجد خمارة مفتوحة ، ولا مساخر معروضة ، ولا نوادى حمراء ، ولا مراقص رعناء .

وأحسنت الجامعة الاسلامية صنعا ، ولم تبخل عليها الحكومة بالمال . فاستخدمت العدد الوافر من الوعاظ يطوفون بالقرى والمدن ، بل ويذهبون الى الواحات النائية، مثل الجغبوب والكفرة ، يروضون النفوس على الخير ويصفون القلوب من الدغل ويرشدون الناس الى ما كان فى تاريخ الأجداد من مثل ومبادىء وثورة على الباطن ، تستمد قوتها من عالم لا تنفذ قوته ، ولا تهن عزته ، معتمدة على فيض لا ينضب ، وقوة لا تخذل من عالم الحق الذى لا مجال فيه للباطل . ومن أجل هذا انقطعت الخصومة وسعى الفرد لخير الجماعة وحرصت الجماعة على اصلاح الفرد ، وسار الكل الى الغاية المثلى دون تعثر أو استرخاء ..

ومما يدعو للغبطة أن نرى هنا بعض كبار القراء بمصر يستدعيهم ولاة الأمور بليبيا ليحيوا ليالى رمضان بتلاوة القرآن ، وتقدر لهم حسن أدائهم وجميل صوتهم فتنزلهم المقام الكريم ويقبل الجمهور على سماع تلاوتهم . فلا يعذب جلال القرآن عن القلوب ، ولايجف مداده عن الأذهان فتراه شاخصا فى الأفئدة آخذا بمجامع النفس : فهم من أولئك الذين اذا ذكر الله وجلت وقلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون .

وكانت مهمة الجامعة الاسلامية يساندها أبناء الأزهر شاقة وبخاصة فى هذا الشهر : اذ حشدت كل الجهود لتذكير الناس بهذا العهد والميثاق وتنشيط العقل ليتغلب على الغرائز النفسية المنحرفة والأوهام والخيالات ، ويعمل على حفظ التوازن بين مطالب الروح ورغبات الجسم ، ويقوم بمهام الخلافة على الارض تحقيقا لما أراده الله منه فيعمل لعمارة الكون وهو سائر فى طريقه الى الله .

ولقد تحدث الى مؤمن مسئول عن هذه الحركة النشيطة فى الوعظ والارشاد ، وعما يبذل من المال فى سبيل ذلك فاظهرت له مدى تقديرى وسرورى . غير انى صارحته بانه قد يكون من تمام الخير أن توجه معظم هذه الحركة الى بعض الشعوب المجاورة لليبيا فى قارتنا السوداء . وبحسبنا أن نكتفى بربع هؤلاء الدعاة بين قوم مسلمين ، ربما لا يحتاجون الا لمجرد التذكير بواجبات الدين . ونبعث بثلاثة الارباع نحو قوم يغزوهم الاستشراق والاستعمار ، ويغريهم بكل وسائل الخداع من فتن ونضار. اننا أفرطنا فى التفاؤل وحسن الظن حين زعمنا مرارا أن حركة التبشيرين السود لم تؤد الى غايتها اذ الواقع مع الأسف الشديد أن غالب هؤلاء الزنوج وقعوا فريسة لهذه المجهودات الجبارة التى يقوم بها المبشرون ، من أكثر من نصف قرن فى تلك الأقاليم السوداء ، التى لو وجدت من يأخذ بيدها الى الهداية الحقة المحمدية لما ابتغت بالاسلام بديلا .. وفعل الاستعمار فعله حتى بين المسلمين السود : ففى تنجانيقا التى أكثريتها من المسلمين ، حاكمها وغالب موظفى الحكومة فيها يسوعيون ، رغبة فى نشر التثليث واضعاف دين التوحيد ، والاكثار من المدارس التبشيرية ووضع القيادة العليا فى يد مسيحى أسود حتى فى البلاد التى يكون المسلمون فيها أغلبية وحين دخل الانجليز « أوغندة » عزلوا الحاكم المسلم ووضعوا قانونا بألا يتولى الحكم الا مسيحى . الى جانب هذا تتغلغل البعثات التبشيرية تساندها الحكومة على اخراج المسلمين من دينهم . ولقد نجح الاستعمار المتعصب فى تحويل غالب القبائل الى المسيحية . ولم يبق سوى قبائل قليلة لا تعتنق ديانات سماوية وتلك فرصة أمام دعاة الاسلام فى تطهير هذه القبائل قبل أن تقع فريسة بين يدى التبشير اليسوعى المنافق . ومن العجب أن هؤلاء الآباء الروحانيين اليسوعيين اتخذوا أساليب عدة لاشعال روح الكراهية بين الافريقيين المسيحيين والمسلمين . ونجد فى صالة الاجتماعات بعاصمة « اثيوبيا » شباكا زجاجيا بجوار السلم الداخلى عليه رسوم ملونة تمثل العربى بعقاله يقود جماعة من الزنوج مربوطين بسلاسل . وأخرى تمثل الزنوج يفكون القيود ويتخلصون من هذا العربى العاتى .

وليت شعرى لماذا يصب اليسوعيون جام غضبهم على من يشاركونهم فى الاعتراف بالله ، ويبذلون محبتهم لعباد بوذا والبقر والملاحدة . فهل أمرهم انجيلهم بموالاة أعداء الله ومغاضبة أولياء الله . أم هو الحقد والتعصب الذميم يطغى على التفكير السليم .

ولقد أظهر لى هذا الفاضل المتحدث عنايته بهذه الفكرة ووعد بدراستها والعمل لها ..

وبعد فهذه لمحة يسيرة عن رمضان فى ليبيا ، جمع الله كلمة المسلمين ، كما جمع أمرهم على صوم هذا الشهر الكريم .

بين العقل والنقل في الإسلام

الأستاذ محمود ابو الفيض المنوفي

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

ان الصراط الحق والمنطق الصادق يقتضى أن يكون كل شىء فى الطبيعة متحولا ، عدا القوانين ، لأن تحول الكيفيات والأوضاع ، والحـــركة والسرعة ، بل قل والأشياء جميعا لا يتم الا بها ومنها ، فالتحولات الفعلية التى يجدها العقل أمامه ماثلة فى الطبيعة . ولها قوانين معقولة .

اما أن يكون خلقها العقل نفسه ، أو أنها ترجع الى صانع أولى فوق العقل وفوق الأشياء وبعبارة أخرى فوق العقل وفوق الطبيعة ، فهى القادرة العالمة فى الدرجة الأولى ، ويجب أن يكون تفكيرها تفكيرا مطلقا بما أنها العلة ، وبعكس العقل المحدود لأنه معلول . وهى الذات الالهية .

وعملية التعقل والادراك تقوم على ما يأتى : ان أول ما يدركه الادراك الانسانى ، ذاته الباطنية ، وذلك هو (ادراكه لذاته) ثم ادراكه لأنه مدرك ، أى حاصل على القوة التى يدرك بها ثم ادراكه لما حوله بعد ذلك ، فيرى نفسه تواقة الى معرفته لذاته ولادراكه ولما حوله) .

فالمعرفة بحسب هذا الوضع الالهى الطبيعى أما ذاتية وأما موضوعية ، فالمعرفة الموضـوعية هى المعرفة العلمية ، وهى الادراك لما فى الكيان الطبيعى من كليات وجزئيات وخصائص .

وقدمنا ان العقل يستمد أولياته العقليه من مظاهر الطبيعة ، فلا علاقة لبحثه بما وراء الكون الطبيعى من سر ، الا اذا ارتقى لمعرفة ذاته ، ثم معرفة الذات العليا المنطقية الفعل .

لأن المعــــرفة الذاتية تختص بذات الباحث المفكر ذاته ، ثم ترتقى الى ما يتعلق بذات الكائن المطلق ، الذى حقق ما أراد ، وقام به كل ما حقق ، ثم جعل للعقـل

بهذا وذاك فقط الوسـيلة الى عرفانه ، والى ادراك افعاله واقواله .

ومن البداهة المعقـولة ، ان الكائن الأعلى الذى حقق ما أراد حسبما أراد ، هو الجاعل للقوانين ، وهو الباعث ثباتها استمدادا من ثبات قدرته ووعيه وأما (الأشياء) فهى كائنات طبيعية متحولة ، ودائمة التحول كما قدمنا ، وأما العقل فهو الكائن الوسط بين الكائن الذاتى المطلق والكائن الخارجى المتحول (الطبيعة) .

فان أراد العقل النظر الى ما حـوله من اشياء وكائنات ، اعتمد فى ذلك على مصدرين : تداعى الصور التى تأتى بها الحواس الى الذهن ، وهو مجال التجربة العلمية ، والخبرة الطبيعية .

أما المصـدر الثانى : فهو ذاتى بحت ، ومعنـوى محض ، فان اراد الانسان النظر فى مصير الأشياء ، وسبب وجودها أدرك العقل من بعيد أو من قريب ، أن المبدأ الأول المحرك ، الذى لا يتحرك ، وبعبارة أخرى ، السبب الأول الذى ابدع بمشيئته ثم حرك بقدرته كل شىء ، هو السبب الأولى والسب الغائى فى وقت واحد ، وسبيل ذلك اتحاد العقل والقلب ، واتفاقهما على النظر فى خلق السموات والأرض ، أى فى السبب والأسباب والنتائج ، وبعبارة أوضح ، ما فى الطبيعة من قوانين ثابتة وأشياء متغيرة . وطبعا يرى العقـل المستنير ، والبصيرة الصافية حينئذ ، أن لا حركة بدون محرك ، ولا تغير بدون مغير ، ولا تقنين بغير مقنن ، ولا طبيعة الا بطابع ، واجمالا لا معلول يتأتى بغير علة .

فالعقل ليس الحاكم المطلق والمرشـد ، وانما هو مستقرىء مسترشد ، وأنه بطبيعة وجوده وجد فى حالة تجعله يلم أولا بقوانينـه العقلية ، ثم بنتائج التجربة الحسية (استقراءا واستنتاجا) وبـذا تتم له فقط ، الخبرة العلمية ، ولا يتصل العقل بمبدعه ، ولا يكون ذلك فى طوقه الا من طريق المبادىء الأولية المعقولة المهياة له فى الكون من غيره ، كعلمه بأن الاثنين أكثر من الواحد ، والواحد أقـل من الاثنين ، وعن اثنين واثنين يتكون أربعة .

وعن طريق الالهام النابع من صميم الذات الانسانية نفسها ، فيجـد فيها بجانب التعقل ، وجدانا وسريرة وبصيرة وقلبا يفهم الوحى ((سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)) ومن هنا يستمد علم القلب وجـوده ، ويبصر عـلم النفس طريقه . ويستنبط العقل منطقه .

فعلم القلب خاص بمعرفة الله ، وعلم النفس خاص بما يحدث فى الذات من حوافز واستجابات غير ملموسة وعلم العقل ، وما يتداعى على الذهن من معانى للأشياء المحسة .

فاذا أدرك العقل كل ذلك ، فهم العقـــل رتبته الحقيقية، ومجاله الصحيح ، وقيمته الذاتية ، وهى قيمة لا يستهان بها .

((واذ قـال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة)) .

وهانت ترى بعقلك أن العقل ــ عقلنا ــ كائن وسط بين عالمين ، عالم علوى غيبى فاعلى مؤثر ، وعالم طبيعى منفعل ومتأثر (ومنه العقـل) بتأثير ارادة عليا وهو خاضـع لما سنت من قوانين ونظم ، فاذا تاله العقل شططا ، وحكم على كل شىء غيبى وظل متشبثا بظاهر منطقه ورأيه فقط ، فقد أخطأ خطـأ عظيمـا ، أقل ما فيه أن خطاه يخرجه عن دائرة الصواب وعن ، المنطق المعقول الذى يعتز العقل به لخروجه عن حدود وظيفته ومدى قدرته ، فيدعى ما هو من خصائص غيره وأقرب شىء الى العقـل هو العالم الطبيعى الماثل للحواس ، وقدمنا انه مجمـوعة حـوادث متغيرة وخصائص حائلة ، وقد استطاع الانسان تحليلها وقياسـها وتحويلها ولكن العقل لا يستطيع تعليلها بعلتها الأولية العليا ، فيدور العقل فى حلقته المعهودة .. يستقرىء ويستنتج ويخمن ويتكهن حتى يصيب أو يخطىء .. ولكن صوتا الهيا يأتى الذات عن طريق الالهـام أو الوحى فيهديه الى الحق الصراح باذن ربه . أو يضل العقل حين يستبد برأيه فيكون من الحائرين الخاسرين ((شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط)) .

أولوا العلم بمعطيات الحواس ، ومدارك العقول ، ومقتضيات الوحى ، يقولون آمنا به كل من عند ربنا .

ومن الدليل على شطط المعتزلة ، الذين يكبرون من شان العقل أكثر مما يقبل العقل نفسه ، ان تكلموا فى مسالة القرآن : أقديم هو أم مخلوق حادث ؟ واخـذت المسالة اطوارا عدة بين الرأى والهـوى ، وعذب فى سبيلها كثير من العلماء ، وقتل بسببها جم من الشهداء ، وكل هـذا حدث فى تيار أجوف من القـول ، والأمر من البديهة العقلية بمكان ، ولا يجهل العقل المهتدى الحكم فيه ، ولـكن العنت العقلى ، والجدل السفسطى أكبر كثيرا من شان المسالة على بساطتها ، وتلك المسالة التى عظمها الوهم ، واشرك بسببها الفكر تنحل بما يأتى :

(الله قديم ، ولله صفات ، فصـفاته قديمة بقدم ذاته ، تلك المقدمات ــ والنتيجة ان الله قديم وصفاته قديمة ، وكلامه صفة من صفاته ، فكلامه قديم ضرورة ، وهنا يتفق منطق العقل ، ومنطق الوحى) .

فكلام الله القديم معان الهية تصدر عن صفة الله هى الكلام ، وأما ما يحمل تلك المعـانى الالهية من ظروف وقوالب مكتوبة بالحبر ، أو مقروءة ، أو ملفوظة بذبذبات صوتية فى الهواء ، فكل تلك الظروف والقوالب حادثة ، لانها تتداول ألفاظا وتتبادل كتابة ، ثم تتلاشى محـوا واثباتا .

هذا وقد مر علم الكلام المخترع فى الملة بادوار عدة قبل أن تشيد مبانيه وتتضح قضاياه وقد تكاثفت فى بنائه الرث مذاهب متنوعة وآراء مغلولة ، وقضـايا أكثرها سخف ومهاترة حدثت من أكثر من سبعين فرقة مختلفة ، سنعرض فيما يلى لها ، ونذكر أهم مشاكلها التى طالما كانت موضع البحث والجدل بين المتكلمين ، وبين أهل الأثر وأهل الظاهر ، والاشاعرة والشيعة والخوارج الخ .

وقد انتصرنا فى بحثنا لمسالة الوحى ، انتصارا مبدئيا وأبنا الفرق بينه وبين العقل ، وسنعود الى المشكلة بين الوحى والعقل مرة أخرى بعد أن نلم الماما بسيطة بآراء بعض شيوخ من أهم هذه الفرق كالسبيئة ، والامامية ، والاثنى عشرية والاسماعيلية من الشيعة ، وكذلك الخوارج ثم المعتزلة كالعلاف والنظام واتباعهما ، ثم تعليق الفضلاء من أهل السنة ، كالاشعرى والغزالى والجوينى وغيرهم. على هذه الآراء المنحرفة .

ونقدم بين يدى البحث الأسـاسى الاسلامى فى القرآن وهو قول الله تعالى :

((قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)) .

((اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم))

ومعنى الآية الأولى : ان كنتم تؤمنـون بالله وتحبونه كمؤمنين ، اطيعوا الرسـول فيما جاء به ، أى بقلوبكم

((البقية ص ٢١٧))

من ذخائر المكتبة الإسلامية

حقوق النساء في الإسلام

وحظهن من الإصلاح المحمدي العام

تأليف المرحوم محمد رشيد رضا

عرض وتلخيص : الأستاذ ابراهيم الفحام

مقدمة :

اعتاد مسلمو الهند منذ سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩م) أن يحيوا ذكرى المولد النبوى الشريف ، بعقد ندوات دينية ، ونشر رسائل يضعها كبار العلماء فى فضائل الاسلام ، ومناقب الرسول ، مع ترجمتها الى أشهر اللغات الحية فى العالم ، وكان صاحب تلك الفكرة « اللورد هدلى » المسلم الانجليزى المشهور .

وقد دعت اللجنة التى كانت تشرف على ذلك العمل الجليل فى لاهور ، السيد « محمد رشيد رضا » صاحب مجلة المنار فى القاهرة ، الى اعداد رسالة بنى الاسلام وحقوق الجنس اللطيف » كى تنشر بلفات شتى يوم مولد الرسول فى سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) الا أن بعض الظروف حالت دون اصدار تلك الرسالة فى الموعد المناسب فارجىء نشرها الى العام التالى .

وقد ولد المؤلف فى القلمون من أعمال طرابلس الشام فى سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وتعلم فيها وفى طرابلس وبيروت ، ثم رحل الى مصر واتصل بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وتتلمذ عليه ، وأصدر مجلة المنار الاسلامية ، وأنشأ مدرسة الدعوة والارشاد ، ثم قصد سورية وانتخب رئيسا للمؤتمر السورى وغادرها اثر دخول الفرنسيين اليها ، فأقام بمصر مدة ، ثم رحل الى الهند والعراق والحجاز وبعض الدول الاوروبية ، ثم استقر بمصر ، وانتخب عضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق ، وتوفى فجاة فى ٢٣ من جمادى الاولى سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) ومن تصانيفه المشهورة « تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده » و « الخلافة والامامة العظمى » و « الوحي المحمدى » وهذه الرسالة التى نعرضها ونلخصها على هذه الصفحات .

حوان المرأة قبل الاسلام :

بدأ المؤلف رسالته باستعراض ماكان عليه حال المرأة فى البلاد الاوروبية قبل الاسلام ، من الضعة والهوان ، فكانت تشترى وتباع ، وتكره على الزواج والبغاء ، كما كانت تورث ولا ترث ، وتملك ولا تمتلك . وبلغ بها الحال فى بعض البلاد الاوروبية أن اختلفت الآراء حول كونها انسانا ذا نفس وروح كالرجل ، وما اذا كان يصح تلقينها قواعد الدين ، وتقبل منها العبادة ، وتدخل الجنة فى الآخرة أم لا .

فقرر أحد المجامع فى روما أنها حيوان نجس ، لا روح له ، وينبغى أن يكم فمها كالكلب العقور ، حتى يتعذر عليها الكلام والضحك ، لانها أحبولة الشيطان .

ويتمثل أول انصاف نالته المرأة فى ذلك القرار الذى صدر فى فرنسا فى سنة ٥٨٦ م . ــ بعد جدال شديد ــ بأنها انسان حقا ، الا أنها لم تخلق الا لخدمة الرجل ، وفى سنة ١٥٦٧ صدر قرار من البرلمان الاسكتلندى يحرم على المرأة أن تمنح أية سلطة على أى شىء من الاشياء ، وأغرب من ذلك أن البرلمان الانجليزى أصدر قرارا فى عصر « هنرى الثامن » يحظر على المرأة أن تقرأ كتاب العهد الجديد ، والأناجيل ، وكتب رسل المسيح .

فاين هذا من وضع الصحابة المصحف الاول الذى كتب فى خلافة أبى بكر ، عند امرأة هى حفصة أم المؤمنين ، ثم كتابة نسخ المصاحف التى وزعت على الامصار فى خلافة عثمان ، عن ذلك المصحف . ولم تخل البلاد الاسلامية من نساء يحفظن القرآن كله ، حفظا تاما ، من عصر الصحابة الى عصرنا هذا .

الاسلام يرد للمراة اعتبارها :

عندما بعث الرسول الكريم فى أوائل القرن السابع للميلاد ، كان للمراة فى رسالته حظ كبير ، لم يسبق الاسلام اليه دين ، فقد قام الرسول يتلو من آيات الله ما يثبت أن النساء والرجال من جنس واحد ، لا قوم للانسانية الا بهما « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

وقام يتلو من آيات الله مايثبت أن ايمان النساء كإيمان الرجال « يأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله اعلم بايمانهن فان علمتوهن مؤمنات ، فلا ترجعوهن الى الكفار » .

وقام يتلو من آيات الله مايثبت أن جزاء المؤمنات كجزاء المؤمنين « ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما » .

وأثبت الاسلام للنساء الولاية المطلقة مع سائر المؤمنين ، ومنها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالى والاجتماعى ، وولاية النصرة الحربية والسياسية ، الا أنه أسقط عنهن وجوب القتال بالفعل ، فكانت نساء النبى وأصحابه يخرجن فى الغزوات مع الرجال ، يسقين الماء ، ويجهزن الطعام ، ويضمدن الجراح ، ويحرضن على القتال .

وفرض الاسلام على النساء الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما فرضه على الرجال ، ويدخل فى ذلك انتقاد الحكام . ومما يروى عن عمر بن الخطاب أنه نهى الناس عن المغالاة فى المهور ، وجعل أقصاه أربعمائة درهم فاعترضته امراة ، مستشهدة بقوله تعالى « وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » فقال « امراة أصابت وأخطأ عمر » وصعد المنبر ، وأعلن رجوعه عن قوله .

وقد بايعت النساء النبى كالرجال ، وخصت بيعة النساء بذكر نصها فى سورة الممتحنة التى نزلت يوم فتح مكة .

حقوق المراة فى الاسلام :

وقد حفظ الاسلام للنساء حقوقهن فى التعليم والتأديب ، واشتركت النساء مع الرجال فى اقتباس العلم بهداية الاسلام . فكان منهن راويات الاحاديث النبوية والآثار ، يرويه عنهن الرجال ، كما كان منهن الشاعرات والمصنفات فى شتى العلوم والفنون ، وبلغ من عناية الرسول بتعليم النساء وتربيتهن ان قال : « ايما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فاحسن تعليمها ، وأدبها فاحسن تاديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » فقرن ثواب التعليم والتأديب بثواب العتق ، بجعله للثوابين اجرين .

وحفظ الاسلام حقوق النساء المالية ، فابطل ماكان عليه العرب وغيرهم من حرمان النساء من التملك ، أو التضييق عليهن فى التصرف بما يمتلكن ، واستبداد الازواج باموال زوجاتهم ، فشرع لهن الوصية والارث كالرجال ، وأعطاهن حق البيع والشراء والاجارة والهبة والصدقة وغيرها .

وابطل الاسلام منع النساء من الارث ، وان كان قد جعل للذكر مثل حظ الانثيين فحكمة ذلك ان الشرع أوجب على الرجل أن ينفق على المراة . فاذا مات رجل عن ولدين ذكر وانثى ، وترك لهما ثلاثة آلاف دينار ، كان للذكر ألفان ، ولاخته ألف . فاذا تزوج هو فان عليه أن يعطى امراته مهرا ، وان يعد لها سكنا ، وان ينفق عليها من ماله سواء أكانت فقيرة ام غنية . ففى هذه الحال يكون الالفان له ولزوجته ، فيكون نصيبه بالفعل مساويا لنصيب اخته وأقل منه ، ثم اذا ولد له أولاد يكون عليه نفقتهم ، وليس على أمهم من ذلك شىء .

حقوق النساء فى الزواج

ابطل الاسلام انواع الزواج الفاسد ، التى كانت تهدر كرامة المراة وشخصيتها ، فجمع بين جعل حق التزويج لوليها ، وحق المراة فى قبول من ترضاه من الازواج ، ورد من لاترضاه . وفى ذلك يقول الرسول « لا تنكح الايم - أى غير المتزوجة بكرا كانت أم ثيبا - حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن » قيل « يارسول الله ، وكيف اذنها ؟ » قال « أن تسكت » .

ويروى أن أبا خنساء بنت جذام الانصارية زوجها وهى ثيب فكرهت ذلك فاتت الرسول شاكية ، فابطل زواجها .

ولقد حرم الاسلام جميع النظريات والعادات القديمة التى كانت تبيح استبداد الرجال الأقوياء واستعلاءهم على النساء ، فى انفسهن واموالهن وأولادهن . فقال تعالى « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » وقد جمعت هذه الكلمة الجليلة على ايجازها ، مالايؤديه بالتفصيل سفر كبير ، فهى قاعدة كلية ناطقة بمساواة المراة للرجل فى جميع الحقوق ، الا أمر واحد عبر عنه بقوله « وللرجال عليهن درجة » وهذه الدرجة مفسرة بقوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء » .

فهذه الكلمة تعطى الرجل ميزانا يزن به معاملته لزوجته فى جميع الشئون والاحوال . فاذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله . ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنه « اننى لأتزين لامراتى كما تتزين لى ، لهذه الآية » .

أما الدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء ، فهى درجة الرياسة . فالحياة الزوجية حياة اجتماعية . ولا بد لكل اجتماع من رئيس ، لان المجتمعين لابد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم فى بعض الامور . والرجل احق بالرياسة لانه أعلم بالمصلحة وأقدر على النفقة بقوته وماله . ومن ثم كان هو المطالب شرعا بحماية المراة ، والنفقة عليها ، وكانت هى مطالبة بطاعته فى المعروف .

الا أن الاسلام جعل رياسة الرجل فى الاسرة شورية لا استبدادية ، وقيد ادارة المنزل والأسرة باوامر الشريعة ونواهيها ، وبالعرف المرعى بين الناس فى المعاشرة بالمعروف ، وحفظ الكرامة فى حالات الحب والكراهية ، والرضا والسخط والقاعدة الشرعية فى نظام المنزل التزام كل من الزوجين العمل بارشاد الشرع فى كل ما هو منصوص عليه ، والتشاور والتراضى فى غير المنصوص عليه ومنع الضرر والضرار بينهما ، وعدم تكليف احدهما الآخر ما ليس فى وسعه .

وقد أوصى الرسول الرجال بزوجاتهم خيرا ، اذ يقول « خيركم خيركم للنساء » ويقول « خيركم خيركم لاهله

انا خيركم لاهلى • ما أكرم النساء الا كريم ولا أهانهن الا لئيم »

تعدد الزوجات :

يقول بعض الباحثين فى طبائع البشر ، ان تعدد الزوجات هو أثر من آثار استرقاق النساء ، واتخاذ الاقوياء والاغنياء الكثير منهن للاستمتاع والخدمة • فقدماء اليونانيين الاثينيين كانوا يبيعون النساء فى الاسواق ، ويبيحون تعدد الزوجات بغير حساب • وقد أباح الاسبرطيون تعدد الازواج للمرأة دون تعدد الزوجات للرجل • وكان التعدد فاشيا فى أوروبا منذ القدم عند بعض الشعوب ، وأباحه بعض البابوات لبعض الملوك مثل شارلمان ملك فرنسا الذى كان معاصرا للخليفتين المهدى والرشيد العباسيين • وقد استبدل الاوروبيون فى القرون الاخيرة بتعدد الزوجات الشرعيات ، السفاح واتخاذ الاخدان • وكانت النساء تعامل فى أوروبا كالاماء ، الى مابعد ظهور الاسلام بعدة قرون •

يقول الفيلسوف « هربرت سبنسر » الانجليزى ان الزوجات كانت تباع فى انجلترا حتى القرن الحادى عشر وانه حدث فى ذلك القرن ان سنت المحاكم الكنسية قانونا يعطى للزوج الحق فى نقل زوجته أو اعارتها لرجل آخر حسبما يشاء •

ولما بعث الله محمدا ، وأبطل شرعة الزنا ، وكل مافى معناه من أنواع الزواج ، وكل ما هو مبنى على اعتبار المرأة كالمتاع أو الحيوان المملوك ، لم يحرم تعدد الزوجات تحريما مطلقا ، ولم يدع الرجال على ماكانوا عليه من الاسراف فى العدد ، وفى ظلم النساء ، بل قيد الزواج بالعدد الذى تقتضيه مصلحة النسل ، وحالة الاجتماع ، ويوافق استعداد الرجال له ، وهو ألا يتجاوز الاربع ، واشترط فيه القدرة على النفقة ، والعدل بين الزوجات • الامر الذى قد يفضى الى الاقتصار على زوجة واحدة ، الا بضرورة •

وهنالك حقائق ثلاثا ، ينبغى أن توضع نصب الأعين ، اذا ذكر موضوع « تعدد الزوجات فى الاسلام » :

الاولى : ان الاسلام لم يوجب تعدد الزوجات ، ولم يندب اليه ، وانماذكره بما يدل على أنفاعله قلما يسلم من الظلم المحرم •

الثانية : انه له يحرمه تحريما قطعيا لا هوادة فيه ، مراعاة لطبيعة بعض الرجال ، وحاجة بعضهم الى النسل فى حالة عقم المرأة أو كبرها أو علة مرضية أو طبيعية أخرى ، ولمواجهة كثرة النساء فى بعض الازمنة والامكنة ولا سيما فى أعقاب الحروب . عندما تصير الالوف منهن أيامى ، لايجدن رجالا يحصنونهن ، وينفقون عليهن ، مع وجود الاقوياء والاغنياء القادرين •

الثالثة : انه لهذا وذاك تركه مباحا ، الا انه قيده بما تقدم بيانه من العدد ، والشروط التى يتقى بها ضرره ، ويرجى بها نفعه •

ثم ناقش المؤلف بعد ذلك الحكمة فى تعدد زوجات الرسول ، وكيف أنهن اتخذن معلمات للنساء ، فيما يعنيهن من الاحكام الشرعية الخاصة بهن ، مما كان الرسول يستحى أن يخاطب به النساء ، كما كان أكثرهن يستحين ان يسألنه عن احرج أحكام الزوجية ، كالجنابة والطهر • ثم استعرض اسباب زواجه منهن ، وتطرق الى ضرب الامثلة بحسن معاشرتهن ، والقسمة بينهن بالعدل فى كل من المبيت والنفقة واللطف والتكريم ، وفى احتماله غضبهن وغيرتهن وتنازعهن بالاناة والرفق والموعظة الحسنة •

التسرى وملك اليمين والمخادنة

يتصل هذا الموضوع بتعدد الزوجات بقدر مايتصل بموضوع الاسترقاق الذى مهد الاسلام السبيل للقضاء عليه ، من غير أن يصدم الامم التى اعتادته دفعة واحدة

وقد سد الاسلام ذريعة الاسترقاق بحصره فى سبب واحد ، هو أن يرى امام المسلمين أن المصلحة العامة تقضى باسترقاق الاسرى والسبايا ، فى قتال الكفار الشرعى ، كحماية دعوة الاسلام ، ووطن المسلمين من الاعتداء ، وترجيح ذلك على مصلحة المن عليهم بالعتق لاظهار فضل الاسلام وسماحته ، وعلى مصلحة فداء انفسهم باطلاق أسرى المسلمين وسباياهم عند الاعداء •

وانما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين فى حالات نادرة لاتدوم ، كأن يكون الرجال المحاربون للمسلمين قليلى العدد ، فاذا ترك النساء والاطفال لانفسهم لايكون لهم قدرة على الاستقلال فى حياتهم •

ثم هناك ماشرعه الاسلام لتحرير الرقيق ، من الترغيب فى الاجر ، وجعله كفارة لكثير من الذنوب ، وتوسيع ابواب مايعتق به العبد • ويجب أن نلفت الانظار هنا الى أن هذا الاسترقاق المعهود فى هذا العصر ، فى بعض البلدان كله باطل فى الاسلام ، فالتسرى بالنساء اللائى يختطفهن النخاسون أو يبيعهن الآباء والأقربون أو يغريهن التجار والقوادون ، ده عصيان لله ولرسوله •

ولقد استعاض الاوروبيون فى هذا العصر ، عن تعدد الزوجات ، بالتسرى ، واتخاذ الاخدان ، فانتشرت تجارة الرقيق الابيض ، التى تساق فيها النساء من بلد الى آخر كالانعام •

الطلاق :

من مصلحة الزوجين التى تقتضيها الفطرة ، ويوجبها الشرع ، ويؤيدها العقل ، أن يبذل كل منهما جهده لاقامة الحقوق المشتركة بينهما على أسس المحبة والتعاون والتسامح ، لأن سعادة كل منهما رهينة بسعادة الآخر ، فاذا عجزا عن أداء تلك الحقوق ، وعز عليهما الصبر ، كان علاجهما الحتمى هو الفراق •

ومن ثم كان الطلاق مشروعة فى التوراة . والذى دون فى الشريعة عند اليهود ، وجرى عليه العمل أن الطلاق يباح بغير عذر ، كرغبة الرجل فى التزوج بأجمل من امرأته مثلا •

وكان الطلاق معروفا عند غير اهل الكتاب من الوثنيين ومنهم العرب ، وكان يقع على النساء منه ظلم كثير ، فتناوله الاسلام بالاصلاح الذى لم يسبقه اليه سابق ، ولم يلحق به لاحق •

وقد جعل الاسلام الطلاق من حق الرجل وحده ، لانه احرص على بقاء الزوجية التى انفق فى سبيلها من المال ما يحتاج الى انفاق مثله أو أكثر منه اذا طلقها ، وأراد التزوج من غيرها ، فعليه أن يعطى المطلقة مايؤخره عادة من المهر ، ومتعة الطلاق ، وأن ينفق عليها مدة العدة ثم ان الرجل - بمقتضى عقله ومزاجه الخاص يكون اصبر على مايكره من المراة ، والمراة أسرع منه غضبا وأقل احتمالا ، وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته مثل ماعليه •

والدليل على صحة ذلك ، ان الغربيين عندما اباحوا طلب الطلاق للرجال والنساء معا كثر الطلاق عندهم ، فصار اضعاف ماعند المسلمين •

والطلاق مع ذلك مكروه فى الاسلام • ولذلك وضعت أمام الرجل موانع وعوائق تصده عنه ، وتقلل احتمالات وقوعه ، مثل :

١ ـ الترغيب فى الصبر على ما يكره الرجال من النساء •

٢ ـ وضع أحكام لمعاملة المرأة الناشز ، يرجى بها صلاحها •

٣ ـ الحث على اصلاح مابين الزوجين ، عن طريق حكم من أهله وأهلها •

٤ ـ ذم الطلاق ، وذكر بغض الله فيه ، كما جاء فى قول الرسول « ما أحل الله شيئا أبغض اليه من الطلاق » وقوله « أبغض الحلال الى الله الطلاق » •

ومن رحمة الاسلام بالنساء ، وحفظه لحقوقهن ، ودفعه الضرر عنهن ، ماشرعه من أحكام عدة الطلاق ، وهى المدة التى لايجوز للمرأة أن تتزوج قبل انقضائها ، ومن أسباب العدة فى الاصل أن يعلم براءة رحم المرأة من الحمل ، ولذلك فانه لا عدة على المطلقة قبل الدخول بها •

ومما شرعه الله من مراعاة حقوق النساء فى ذلك ، أن يطلق الرجل امرأته فى طهر لم يقربها فيه ، لئلا يطول عليها زمن العدة ، اذا كانت تحسب بالقروء وهى ثلاثة أطهار ، وأن يكون لها حق السكنى والنفقة مدة العدة للطلاق الرجعى ، وان يمنعها عند الفراق بما يليق بثروته ، من نقد وغيره • وحكمة المتعة تطييب قلب المرأة ، وازالة توهم احتقار الرجل لها أو ارتيابه بها •

آداب المرأة المسلمة وفضائلها :

ان الأصل العام فى أحكام العبادات والمعاملات فى الاسلام ، أن تكون موجهة الى المكلفين من الرجال ، والمكلفات من النساء على السواء ، الا أن الشرع خص الرجال ببعض الاحكام ، وخص النساء باحكام أخرى وترجع حكمة التشخيص ، الى طبيعة كل من الزوجين ، الذكر والانثى ، ووظائفه التى يكمل كل منهما بها الآخر •

ولذلك كان النبى ينهى عن تشبه الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، كما أمر الاسلام النساء بالعناية بالستر الدال على الحشمة والصيانة ، والمانع من الريبة يقول تعالى ((يايها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين • وكان الله غفورا رحيما »

وبهذا علل الله الامر بالستر ، أن تعرف به المرأة المؤمنة ، أنها مؤمنة حرة ، فيمتنع الفساق عن ايذائها • ومازال الرجال يسيئون الظن بالمرأة التى تظهر زينتها ، ومازالوا يؤذونها ويطمعون فيها • ومازال أهل الدين والعفة يتجنبونها ، وينفرون منها •

وقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات بالغض من أبصارهم وحفظ فروجهم ، وزاد عليه نهى النساء عن ابداء زينتهن لأرجال الا ما ظهر منها لضرورة التعامل والقيام بالأعمال المشروعة من دينية ودنيوية ، كالوجه والكفين والملابس الظاهرة •

ومما تجدر ملاحظته أن الله أمر « بالغض من البصر » ولم يأمر « بغضه »وذلك لان « غض البصر » يعنى خفضه ، وعدم ارساله اطلاقا فيما تهفو اليه الشهوة ، كأن يكون الانسان مطرقا راسه ، فلا ينظر رجل الى امرأة ، ولا امرأة الى رجل قط ، وهذا امر يشق على الأنفس ، بل ولا يدخل فى حدود الاستطاعة • أما « الغض من البصر » فيقصد به عدم استدامة النظر الى العورات ، وما يحرم النظر اليه ، وقاعدته « النظرة الاولى لك ، والثانية عليك » •

وأمر الله النساء أن يضربن خمرهن على جيوبهن ، حتى تستر نحورهن وصدورهن ، لعدم الحاجة الى ابداء غير وجوههن فى أعمالهن على مرآى من الرجال الاجانب ، واستثنى الله محارم النساء ، الاطفال ، والرجال الذين لاحاجة لهم بالنساء •

ونهى الله النساء عن الضرب بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، كما كانت تفعل نساء الجاهلية ومما ورد فى سد ذريعة الفساد ، النهى عن خلوة المرأة بالرجل ، والسفر بدون صحبة زوجها ، أو ذى محرم •

ولا شك أن كل ما استحدثه الناس فى المدن والقرى الكبيرة ، من المبالغة فى حجب النساء ، هو من باب سد الذريعة ، لا من باب الشريعة ، فقد أجمع المسلمون على شرعية صلاة النساء فى المساجد مكشوفات الوجوه والكفوف •

وكان النبى يامر الرجل الذى يريد خطبة امرأة أن ينظر اليها ، ولو بدون علمها ، مع منع التجسس على النساء ، والتطلع الى عوراتهن • والمقصود بالنظر الى المرأة دون علمها ، أن يراها فى حالها العادية فى بيتها •

وجملة القول ان أصل الشرع فى آداب الرجال والنساء معروف ، وان سد ذرائع الفتنة والفساد مشروع وهو يختلف باختلاف العصور والامصار ، انما الحرام مايثبت بنص قطعى الرواية والدلالة ، وكل رجل وامرأة ، أعلم بحال نفسه ونيته ، وحال قومه وبيئته •

ومما شرف الله به النساء ، تفضيل الامهات فى البر على الآباء ، وقد أوصى الله تعالى فى مواضع من كتابه بالاحسان الى الوالدين ، وقرنه بالامر بعبادته ، والنهى عن الشرك به ، وخص الام بالذكرى فى بعض هذه الوصايا ، للتذكير بزيادة حقها على الأب •

وأوصى النبى بالبنات والاخوات خيرا فقال « من ابتلى بشىء من البنات فصبر عليهن ، كن له حجابا من النار » والابتلاء ، هو الاختبار بما يظهر به التزام الحق والشرع ، أو عدمه •

وقال رسول الله « من عال ابنتين أو ثلاثا ، أو أختين أو ثلاثا ، حتى يبلغن أو يموت عنهن ، كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين ، وأشار باصبعيه السبابة والذى يليه •

الخاتمة :

وهكذا رد الاسلام للمرأة اعتبارها ، وصان كرامتها ، وأوصى بها خيرا ، وان الاهتداء بما جاءت به شريعة الاسلام ، لكفيل بمعالجة ما تشكو منه النساء فى بلاد الحضارة المادية ، من المصائب والارزاء ، دون أن يهتدين الى النجاة منها • فقد قضى الاسلام بأن يكون لكل امرأة كافل شرعى ، يكفل كل مايهمها لتكون بنتا مكرمة ، فزوجة صالحة ، فاما مربية ، فجدة معظمة ، ومن حرمت الزوجية أو الامومة ، لم تحرم الكفالة والكرامة ، ولو نفذ هذا الشرع فى أوروبا والبلاد المرزوءة بنفوذها وسيطرتها ، لبرئت من كثير من الامراض الخلقية ، التى تفكك كيان المجتمع ، وتنخر فيه نخر السوس •

وما أجدر النساء المسلمات أن يدعين نساء العالم الى أحكام شريعتنا وآدابها ، وما تنطوى عليه من خير لهن ولامتهن ، بل وللانسانية جمعاء

الشعر الديني

شعر الإمام الشافعى

الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

من قافية النون :

هذا بذاك

عن الكشكول للبهائى قال الشافعى رضى الله عنه :

تحكموا فاستطالوا فى تحكمهم
عما قليل كأن الحكم لم يكن
لو أنصفوا أنصفوا لكن بغوا فبغى
عليهم الدهر بالأحزان والمحن
فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم
هذا بذاك ولا عتب على الزمن

وهذه حكاية الحكام الظلمة فى كل زمان ومكان . وقد كرر معناها الشافعى فى شعره. وفى البيت الثانى انصفوا مرتين : الأولى مبنية للفاعل والثانية مبنية للمفعول والمراد بالمحن البلايا والآلام .

ويريد الشافعى بلسان الحال أنه لا ضرورة لأن يقال فيهم شىء فقد كفاهم وكفى الناس علما بهم ما صاروا فيه من محن وأحزان . وهذا مثل قوله السابق فى قافية الباء :

اذا ظالم يستحسن الظلم مذهبا
ولج عتوا فى قبيح اكتسابه
فكله الى صرف الليالى فانها
ستبدى له مالم يكن فى حسابه ..

تعزية

عن معجم الأدباء وشرح المقامات للشريشى أنه رضى الله عنه قال فى تعزية :

انى أعزيك لا أنى على طمع
من الخلود ، ولكن سنة الدين
فما المعزى بباق بعد صاحبه
ولا المعزى وان عاشا الى حين

وسنة الدين أى سنةالدين المجاملة بالتعزية لتصبير المفجوعين حتى يجد أهل الميت انسا بالمجاملة تنسيهم فجيعتهم حينا . ويقول بعض العلماء أنها تعويض روحى يجد به

المحزونون صبرا وتسلية . أما الصوفية فلهم فى نعمة نسيان الميت كلام .

والمعزى والمعزى فى البيت الثانى الأول اسم للفاعل والثانى اسم للمفعول ، وكل منهما مجهولان يتصور فى كل واحد منهما أن يسبق وأن يلحق فهما متساويان . وهذا من قدرة العربية وفصاحتها .

اختيار الصديق

عن نور الأبصار قال الشافعى رضى الله عنه :

زن من يزنك بما اتزنت(م)
وما يزنك به فزنه
من جا اليك فرح اليه(م)
ومن جفاك فصد عنه
من ظن أنك دونه
فاترك هواه اذن وهنه
وارجع الى رب العباد(م)
فكل ما يأتيك منه

معنى البيت الأول أنه يجب عليك أن تقدر من يعترف لك بقدرك ، كما يجب عليك أن تقدره كما يقدرك وبنفس الوزن والتقدير . والصياغة فيها صناعة ومقدرة كما ترى . وقد قصر الفعل « جاء » فى البيت الثانى .

وفى البيت الثالث بضم الهاء أى اجعله هينا، ولا يظن ظان أن الشافعى لحن فلم يقل أهنه، بل انه دار حيث الصحة والجودة .

وفى البيت الأخير تسليم صوفى فقهى معا اذ كل ما يصيب الانسان مقدور عليه فوجب الرجوع الى من قدر لا الى من فكر .

مشيئة الله

عن مختصر تذكرة القرطبى للامام الشعرانى قال : قال الربيع : سئل الشافعى رضى الله عنه عن القدر فأنشأ يقول وهو قول مشهور :

ما شئت كان ـ وان لم أشأ
وما شئت ـ ان لم تشأ ـ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت
ففى العالم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت
وهذا أهنت واذا لم تهن
فمنهم شقى ومنهم سعيد
ومنهم قبيح ومنهم حسن

فى هذا الكلام يخاطب الشافعى الله سبحانه فيرد الى مشيئته كل ما هو كائن ، أما مشيئة الانسان فلا فعل لها ان لم تسبقها مشيئة الله .

وخلق العباد بل كل الكائنات يجرى على مقتضى العلم ، فلا يظهر للوجود كائن الا على الصورة السابقة فى علم الله .

والحيلة والاكتساب هما معا من الله تعالى، والشقاوة والسعادة مظهرهما كسب وهما قدر ، كالقبح والحسن المخلوقين جبلة وصفة لازمة ـ وكل منه سبحانه ـ وهذا فيه كلام طويل من أهل المذاهب والقدرية والصوفية وأسلم شىء فيه التسليم .

قافية الهاء :

الفقيه والسفيه

عن شرح المقامات للشريشى قال الشافعى رضى الله عنه :

ومنزلة السفيه من الفقيه
كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد فى قرب هذا
وهذا فيه أزهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه
تقطع فى مخالفة الفقيه

أول ما يبدو فى هذه الأبيات مقدرة الشافعى على اللعب بالضمائر مع وضوح ما ترجع اليه . أما المعنى فهو أن الفقيه يزهد فى السفيه تعاليا ، والسفيه يخالف فيعتدى ، وقد احترس الشافعى فمنع عن بعض السفهاء مخالفة الفقهاء ، وقيد المخالفين بغلبة الشقاء عليهم . وهو غاية فى التحرى .

قافية الياء :

حديث الرافضية

عن نور الأبصار : حكى الامام أبو بكر البيهقى رحمه الله تعالى فى كتابه الذى صنفه فى مناقب الامام الشافعى أن الشافعى قيل له ان اناسا

لايصبرون على سماع منقبة أو فضيلة تذكر لأهل البيت ، فاذا رأوا احدا يذكر شيئا من ذلك قالوا : تجاوزوا عن هذا فهو رافضى . فأنشأ الشافعى يقول :

اذا فى مجلس ذكروا عليا
وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزوا يا قوم هذا
فهذا من حديث الرافضية
برئت الى المهيمن من أناس
يرون الرفض حب الفاطمية

وهذه الأبيات تصور حالا لبعض الناس كانوا عليه أيام الشافعى ، وليس يريد فى آخر كلامه الدولة الفاطمية وانما يريد المنتسبين لفاطمة الزهراء بالحب رضى الله عنها .

استدراكات

الى هنا انتهى ما تيسر جمعه من شعر الامام الشافعى رضى الله عنه وكان لا بد أن تفوت بعض أشياء لأن جهد ابن آدم أقصر من ان يمتد الى الكمال والاحاطة .

وقد عن لى فى أثناء عرض شعره على اعداد مجلة منبر الاسلام الموقرة أبيات أخرى لم يكن من حظى أن أنشرها فى أثناء قوافيها ، ولهذا فانى أستدرك بها ما فات :

من قافية التاء :

آل البيت

عن نور الأبصار قال الشافعى رضى الله عنه :

آل النبى ذريعتى
وهمو اليه وسيلتى
أرجو بهم أعطى غدا
بيدى اليمين صحيفتى

وهذا من شعر الشافعى فى حب آل البيت وقد اكثر منه ، وقد ذكر الامام البيهقى أن الشافعى قال ما قاله فى الضادية التى يقول فى آخرها « فليشهد الثقلان انى رافضى » من نسبة الخوارج له الى الرافضة حسدا وبغيا :

ومن الدال :

حب على كرم الله وجهه

وعن نور الأبصار قال :

قالوا ترفضت قلت كلا
ما الرفض دينى ولا اعتقادى
لكن توليت غير شك
خير امام وخير هاد
ان كان حب الولى رفضا
فاننى أرفض العباد

وهذا الكلام عمل بما نسب الى النبى صلى الله عليه وسلم من قوله بأن من تولى عليا كان مولى لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

من قافية الراء :

رد على المعرى

عن هزر الربيع قال أبو العلاء المعرى فى حيرته :

يد بخمس مئين عسجد فديت
ما بالها قطعت فى ربع دينار

وهذه الحيرة التى يخفى فيها المعرى معرفته بسر هذه التفرقة فيها يردها الامام المرتضى ويجيب المعرى قائلا له :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذل الخيانة فافهم حكمة البارى

ثم اجاب الامام الشافعى قائلا :

هناك مظلومة غالت بقيمتها
وهاهنا ظلمت هانت على البارى

والقبض فى دية اليد التى تقطع ظلما قصدا ففداؤها خمسمائة دينار ذهبا لأنها يد حر شريف والثانية يد السارق التى تقطع فى ربع دينار سرقته بالشروط التى تتوفر لقطعها عند الفقهاء . اما أبو العلاء فقد جعلهما متساويين ونسى فرق الشرف والخسة والأمانة والخيانة .

قافية الفاء :

العقاب والذباب

عن نور الأبصار من شعر الشافعى قوله :

أكل العقاب بقوة جيف الفلا
وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

يريد الشافعى فى هذا البيت أن الرزق ليس بالقوة وانما هو منحة الله بدليل أن العقاب على قوته لا يجد رزقه الا من الجيف المرمية فى البوادى ، أما الذباب ـ الذى هو

النحل ـ فانه على ضعفه يجنى عسل الأزهار ويرتزق من رحيقها ـ ولو كان الرزق بالقوة لكان كل منهما مكان الآخر وكان الأعلى للأقوى .

والشافعى لا يريد الا أن يضرب ذلك مثلا للناس حتى يرضى كل بما قسم له ويرجو الله، أما العقاب وأما النحل فلا بد لكل منهما ما هو له من الطعام .

من قافية القاف :

رواية أخرى

عن الكشكول للبهائى قال الشافعى :

لو أن بالجيل الفتى لوجدتنى
بنجوم أفلاك السماء تعلقى
لكن من رزق الحجا حرم الغنى
ضدان مفترقان اى تفرق
فاذا سمعت بأن محروما ..

الابيات

والبيت الثانى من هذه الرواية أخذ معناه من قول لجعفر بن محمد الصادق اذ سأله سائل : لم يرزق الله الجهلاء أكثر مما يرزق العقلاء ؟ فقال جعفر : لئلا يغتر أهل العقل بعقولهم ، غير أن الشافعى ذيل المعنى بما زاده من افتراق الضدين .

من قافية اللام :

آل البيت

وعن نور الأبصار قال :

يا آل بيت رسول الله حبكم
فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم
من لم يصل عليكم لا صلاة له

ويشير الشافعى فى هذين البيتين الى ذكر آل النبى فى التشهد .

أبو بكر وعلى رضى الله عنهما

وعن نور الأبصار عن الفصول المهمة : لما صرح الامام الشافعى بمحبته لأهل البيت وأنه من شيعتهم قيل فيه ما قيل فقال رضى الله عنه مجيبا عن ذلك :

اذا نحن فضلنا عليا فاننا
روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل
وفضل أبى بكر اذا ما ذكرته
رميت بنصب عند ذكرى للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما
بحبهما حتى اوسد فى الرمل

لقد سموا من يتولى عليا رافضيا ، وسموا من يتولى أبا بكر ناصبيا ، والشافعى حيران بين الناس من حبه للاثنين اذ هما لم يختلفا وانما اختلف الاشياع والاتباع . جعلنا الله ممن يتولى أصحاب النبى جميعا لقوله عليه الصلاة والسلام : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتهم اهتديتم » .

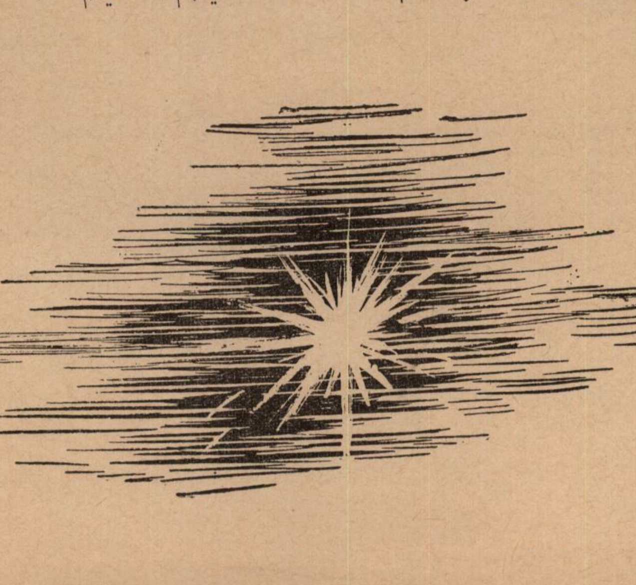

الشاعر عبد الله شمس الدين

لبَّيْك يا ربِّى بالشوق والحُبِّ
يا غافِرَ الذنبِ يا قابلَ التَّوْبِ
لبَّيْك يا ربى

* * *

يا واسِعَ العَفْوِ : بالدمع والشَّجْو
واللَّحْنِ والشدْوِ والروحِ والقلْب
لبيك يا ربى

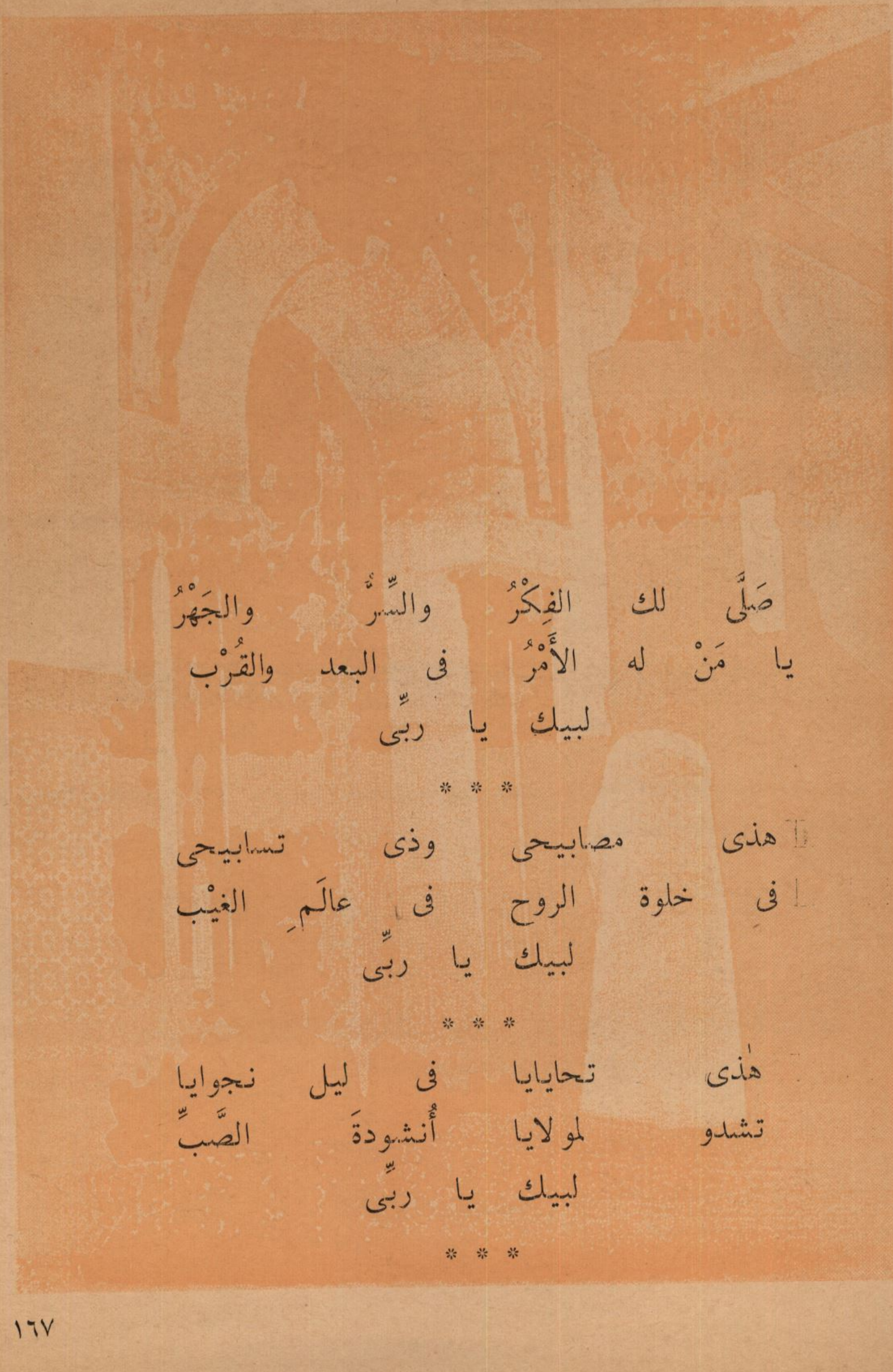

صَلَّى لك الفِكْرُ والسِّرُّ والجَهْرُ
يا مَنْ له الأَمْرُ فى البعد والقُرْب
لبيكَ يا ربِّى

* * *

هذى مصابيحى وذى تسابيحى
فى خلوة الروح فى عالَمِ الغيْب
لبيك يا ربِّى

* * *

هٰذى تحاياىا فى ليل نجواىا
تشدو لمولاىا أُنشودةَ الصَّبِّ
لبيك يا ربِّى

* * *

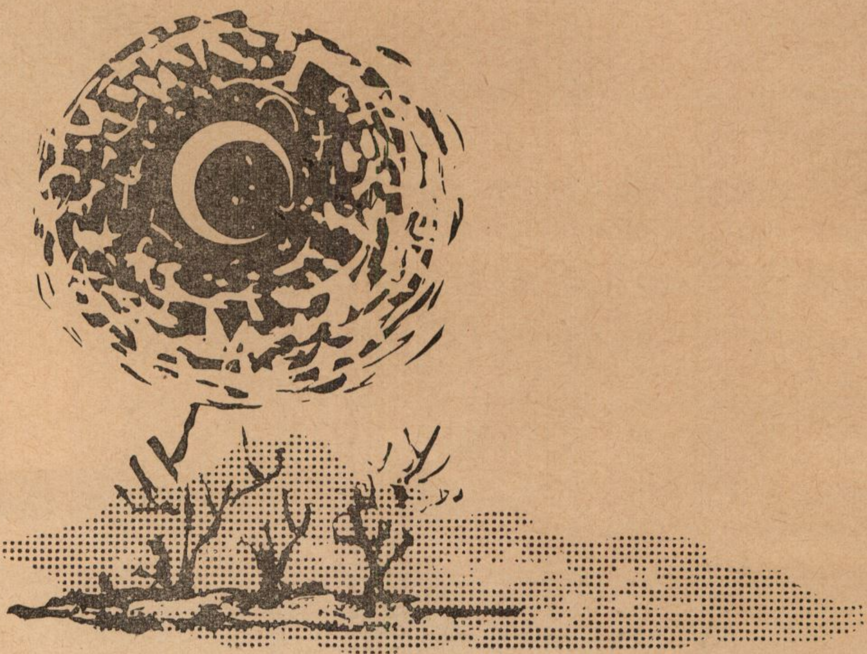

فى شَهْرِ قُرْآنِكْ خُذْنَا بِإِحْسَانِكْ
فى ظِلِّ تحنانِكْ يا فالق الحبِّ
لبّيْكَ يا رَبِّى

* * *

فى ظِلِّ مِحْرَابِكْ طُوبَى لطُلَّابِكْ
نفسى على بابِكْ مأخوذةُ اللُّبِّ
لبيكِ يا ربِّى

* * *

يا ربِّ بالصَّوْمْ سدِّدْ خُطَى يَوْمِى
وانظرْ إلى قَوْمِى فى السِّلْم والحرْب
لبيك يا ربى

يا مُنْزِلَ الذِّكْرِ يَسِّرْ بِهِ أَمْرِى
واشرحْ به صدرى واكشِفْ به كَرْبِى
لبيك يا ربِّى

* * *

لبيكَ يا ربِّى بالشوق والحُبِّ
يا غافر الذنب يا قابل التَّوْب
لبَّيْك يا ربِّى

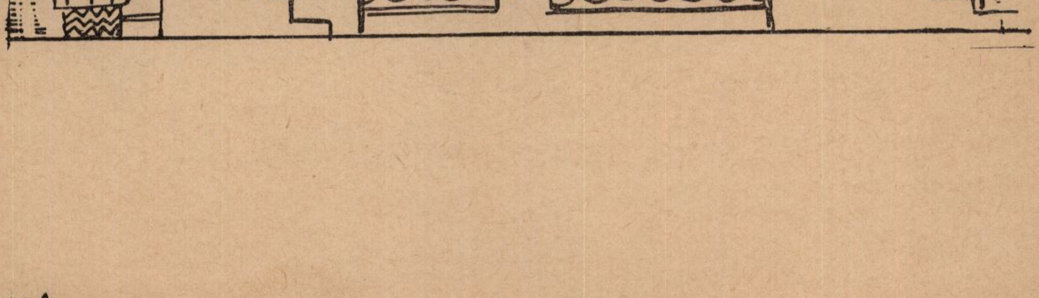

نور على نور

الشاعر محمد هارون الحلو

مَنْ فى الوجود ، عليه نعتمِدُ ... إلَّا الإلَٰهُ الواحِدُ الصَّمَدُ ؟
فرْدُ الجلالةِ ، ليس يُدْرِكُهُ ... عقلٌ ، وليس كمثلهِ أَحَدُ
قد أشْرَقَتْ فى الكون آيتهُ ... وبها تَغَنَّى الصَّادِحُ الغَرِدُ
يا أيُّها الإنْسانُ ، ويْحَكَ كَمْ ... مِنْ حِكْمَةٍ لله تُفْتَقَدُ ؟ !
هو ذا الوجودُ ، وتلك صفحتهُ ... وبها يُضِيءُ اللُّبُّ ، والرَّشَدُ
نِعَمٌ نُلقَّاها ، فنذْكرُها ... والأُمْنياتُ بوارق جُدُدُ
فاشْكر لربِّك ما تُباكرُهُ ... منها ، وعيشُك بالمنى رغَدُ
تجرى المقادرُ وفق حكْمتِهِ ... فى مُلْكِهِ ، وعليه نعتمدُ
ودعائمُ المُلْكِ العريض سَنًا ... متألِّقٌ ، بالْحُسْنِ منْفرِدُ
نورٌ على نورٍ ، وشائعة ... من جَوْهَرِ الإشراقِ تتَّقدُ
سِرٌّ تنزَّه أنْ يُحيطَ به ... عِلْمٌ ، وما لِمَداهُ مُجْتهد
والكون باسْم اللهِ مُعْتصِمٌ ... متماسكٌ البُنْيانُ متَّحد
عين الإلَٰه عليه ساهرةٌ ... ويمينُهُ من فَوْقِهِ رَصَدُ
وهو العزيزُ ، فلا شريك له ... فى المُلْك جلَّ القاهر السَّنَدُ
وهو الغنى ، فليس يُعْوِزُهُ ... مالٌ ، ولا جَاهٌ ، ولا ولَدُ
سَعِد الأُلى تَبِعُوا شريعته ... وإذا رأوْا آياتِهِ سَجَدُوا

فانوس رمضان

بقلم حسين القبانى

انحنت السيدة احسان تساعد أصغر أبنائها على اضاءة الشمعة فى فانوسه الصغير الجميل وما كادت الشمعة تضاء حتى هتف الطفل معبرا عن سعادته ، وكأنما أضاءت هذه المرحلة من حياته شيئا جديدا ..

وقبلت الام طفلها وهى تقول له بصوت ملؤه الحنان :

— كل سنة وانت طيب ..

— وانتى طيبة يا ماما ..

والتفتت السيدة احسان الى خادمتها الصغيرة التى لم تكن قد تجاوزت الثامنة من عمرها وساعدتها أيضا على اضاءة شمعة فانوسها . ولكنها فوجئت بصوت أجش خشن يقول وراءها :

— وكمان الخدامة لها فانوس ؟!

وقطبت السيدة احسان جبينها ، وكادت ترد بلهجة قاسية ، ولكنها تمالكت أعصابها وقالت بهدوء :

— ايه المانع يا .. هى مش بنى آدمة برضه ؟

غمغمت ذات الصوت الاجش الخشن بكلمات مضغمة ، ثم أخذت تتحرك ببطء كأنما تحمل فى قدميها أثقالا ، وهى تقول :

— طول عمرك يا احسان وانتى أحوالك غريبة .. أما أروح أصلى المغرب .

وقالت السيدة احسان لنفسها :

« رايحة تصلى المغرب مسكينة »

ووقفت تشيع أبناءها وبناتها والخادم الصغيرة وهم يغادرون المسكن بالفوانيس المضاءة مهللين زائطين ، ليشتركوا مع أطفال البيت والشارع فى قضاء أحلى ساعة من ساعات الطفولة فى رمضان بعد الغروب ..

وكان الجو دافئا فى تلك الليلة رغم شهر يناير ، فصارت الى الشرفة وجلست ترقب الاطفال الزائطين بفوانيسهم ، وتنصت الى ترديدهم لانشودة رمضان التقليدية ، ثم لا تلبث كالمعتاد دائما فى كل ليلة أولى من ليالى رمضان — أن ترتد بذاكرتها الى طفولتها الباكرة .. الى يوم أن كانت طفلة مثل هؤلاء الاطفال .. ولكنها لم تكن سعيدة مهللة مثلهم .

انها لا تدرى على وجه التحديد متى بدأت تهتم بكل كيانها وروحها وآمالها بفانوس رمضان هل كانت فى السادسة عندئذ ، أم فى السابعة ، أم فى الثامنة ، ولكنها تذكر فقط انها وقفت ذات يوم بين صويحباتها فى الحارة تنصت اليهن وهن يتحدثن فرحات سعيدات عن الفوانيس الملونة الجميلة التى اشتراها لهن آباؤهن ، والتى سيحملنها ، مضاءة الشموع ، بعد الافطار ليرددن انشودة

رمضان ، ويجمعن الحلوى والمكسرات من الجيران ..

ولم تستطع أن تشترك معهن فى هذا الحديث ، لان أباها لم يشتر لها فى ذلك اليوم فانوسا ، ولانها كانت تعرف لماذا لم يستطع أن يشترى لها أبوها هذا الفانوس .

كانت ترى أباها فى تلك الأيام يغادر البيت متأخرا فى الصباح ، مطرق الرأس ، محزون السمات ، تبدو فى عينيه نظرة الانسان الخائف من شىء مجهول وكانت قد أدركت من حديثه مع زوجته التى جاءت لتعيش معه بعد وفاة زوجته الاولى ، انه فصل من العمل ، وأنه يبحث عن عمل آخر يرتزق منه .

ولم تكن تعرف يومذاك سبب فصله عن العمل ، ولكنها عرفت فيما بعد ، أنه طالب صاحب الورشة بزيادة فى أجره اليومى ، فكان الرد طرده من العمل مع هذه الكلمات :

– روح شوف لك صاحب ورشة تانى يديلك أجرة زيادة .

ولكن احسان لم تكن تعرف فى تلك السن المبكرة ، الا أن أباها يخرج فى الصباح محزون النفس ، ويعود فى المساء متخاذلا ينظر الى زوجته فيما يشبه اليأس .

ولم تكن هى تحب هذه الزوجة التى اعتادت أن تدعوها « تيزه » دون أن تدرى سببا واضحا ولكنها كانت تدرى فقط أن « تيزه » هذه لم تبتسم فى وجهها مرة ولم تتحدث اليها يوما بصوت ينم عن الحب والحنان ، ولم تحاول أبدا أن تتغاضى عن هفوانها الصغيرة كما كانت تفعل أمها وانما كانت تنتهز كل هفوة لتنهال عليها بالضرب والسب .

ولما حاولت أن تشكو لابيها ، نهرها قائلا ان التربية واجبة ، وانها حين تكبر ستعرف فضل « تيزتها » عليها .

ومرة أخرى تركزت ذكريات احسان فى مشكلة الفانوس .

كيف تستطيع ان تخرج بعد الافطار وتشترك مع صويحباتها فى اللعب والتهليل وهى بدون فانوس ؟

وكيف تستطيع أن تقبع فى البيت وهى تسمع زئاط صويحباتها فى الحارة وأناشيدهن وضحكاتهن ؟ .

وفوجئت باحدى صويحباتها تقول لها :

– وانتى يا احسان .. فانوسك شكله ايه ؟.

ولم تجب احسان ، وانما زمت شفتيها وانطلقت تعدو ،والدموع تنحدر على وجهها الصغير فى الطريق الى المقهى الذى اعتاد أن يجلس عليه أبوها بعد عصر كل يوم ..

ورآها أبوها وهى مقبلة تجرى ، فنهض مسرعا اليها وقد وجف قلبه خشية أن يكون قد حدث شىء .. وازدادت هواجسه حين رأى وجهها الصغير مبللا بالدموع :

– مالك يا احسان ؟

– الفانوس .. الفانوس .

– فانوس ايه يا بنتى؟

– فانوس رمضان يا بابا ..

– ماله فانوس رمضان ..

– البنات يا بابا عندهم فوانيس .. وأنا .. وأنا –

وزم الوالد شفتيه ، ثم ربت على رأس ابنته وقال :

– طيب يا احسان .. ياللا معاى ..

واشرقت ابتسامة على وجهها بين سحب الدموع وقالت :

– حاتشترى لى فانوس يا بابا ؟

– أيوه يا بنتى .. أيوه .. أنا كنت حاجيبهولك وأنا جاى الليلة دى .

وامسكت بيد أبيها ، وسارت بجانبه تتواثب وهى تشعر بمزيد من الحب له يفيض فى قلبها الصغير .. وعند بائع الفوانيس فى مدخل الحارة ، توقفت وأشارت الى فانوس جميل لم يكن له بين الفوانيس مثيل ..

ومرة أخرى زم الوالد شفتيه حين عرف من البائع أن ثمنه خمسة قروش لا تنقص مليما .. وحاول أن يغرى ابنته بشراء فانوس آخر أقل ثمنا ، لكنها احتضنت الفانوس الجميل الذى كان البائع – الماكر – قدوضعه بين يديها ، وقالت بأنفاس لاهثة :

هودا يا بابا اللى نفسى فيه ..

وتناول الوالد من جيبه قطعة النقد الفضية ، وسلمها للبائع . ولكن احسان فاجأته وهما يستأنفان السير :

– والشمعة يا بابا ؟

ومرة ثالثة زم الوالد شفتيه قبل أن يقول :

– آه .. صحيح .. دا لازم له شمعة !

ورأته يقف مفكرا .. وأخيرا هز رأسه وتقدم الى البقال الذى اعتاد أن يشترى منه سجائره وأخرج من جيب جلبابه الاعلى سيجارة قدمها للبقال وقال :

– من فضلت هات بدل دى شمعة .

ولم تفهم احسان شيئا الا أن أباها اشترى لها شمعة على نحو ما ،وانها سوف تكون أكثر صويحباتها تهليلا وزهوا بفانوسها الجميل .

وعادت مع أبيها الى البيت والدنيا لا تكاد تتسع لفرحتها ، وأسرعت الى «تيزتها» هاتفة سعيدة :

– شوفى يا تيزة فانوسى اد ايه حلو ..

– فانوسك ؟!

– أيوه .. بابا اشترى هولى ..

وفوجئت احسان « بتيزتها » توجه الى أبيها نظرة أفزعتها ثم تقول لهبصوتها الأجش الغليظ :

– فين السمك المقلى اللى اديتك حقه الصبح عشان تجيبو وياك ؟

وارتبك الوالد ، وتلعثم قائلا :

– الحقيقة يا عديلة .. أنا .. أنا صعبت على البنت ..

– صعبت عليك عيشتك .. رايح تجيب لها فانوس بثمن الأكل ؟.

– ما هو خلاص يا عديلة . ربنا فرجها وبكره حاستلم الشغل ..

احنا فى بكره ولا فى دى الوقت .

وأدركت احسان أن الامور ستتطور – كالمعتاد – بين أبيها وزوجته الى مشادة عنيفة فاندفعت الى ركن الغرفة ، وقبعت ترتعد والفانوس لا يفارق يديها ..

وتنهدت فى ارتياح عندما سمعت اباها يغادر البيت ، كالمعتاد أيضا فى مثل هذه الظروف ليقصر الشر . وتراخت فى ركن الغرفة وراحت تتأمل الفانوس من جميع جوانبه الملونة بنظرات تنم عن سعادة لا حد لها . أمسكت به فى علاقته وراحت تهزه وهى تتخيله مضاءا بشمعة .. لا شك أن زجاجه الملون سيزداد جمالا بالضوء المنساب من داخله .. ولا شك أن صويحباتها سوف يحسدنها على هذا الفانوس الذى لن يكون له مثيلا بين فوانيسهن .

ووجدت نفسها فجأة تترنم بأنشودة رمضان وهى تهز الفانوس وكأنما تتعجل الساعات الباقية على ما بعد الغروب لتنطلق به ، مضىء ، مترنمة شادية لا يعكر سعادتها شىء ، حتى هذه « التيزة » القاسية .

ولكنها فوجئت بها .. بهذه « التيزة » ، تنقض عليها ، وتختطف الفانوس من يدها وهى تهتف بها فى سورة عنيفة .

وأخذت تضرب به الارض فى عنف ..

ورأت احسان وسمعت الفانوس يتحطم ويتلوى بين يدى المرأة الثائرة .. وتسمرت فى مكانها وقد شعرت أن شيئا ما فى أعماق نفسها يتحطم ويتلوى ثم اذا هى تطلق صيحة مدوية وتسقط مغشيا عليها ..

وأفاقت السيدة احسان من ذكرياتها ، وأحست بالدموع تبلل وجنتيها ، ولم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء وهى تذكر طفولتها التعسة .. انها لم تشعر بالبهجة بعد ذلك رغم جميع أنواع الفوانيس التى اشتراها لها أبوها فى السنوات التالية .. وبدا لها أن الفانوس الذى تحطم فى ذلك اليوم ، حطم فى قلبها شيئا لم تستطع الايام أن تعيده .. لقد تحسنت أحوال أبيها بعد ذلك .. وتزوجت هى من مهندس شاب واسع الرزق .. ولما مات الوالد ، لم تجد زوجته من يعولها الا احسان التى لم تضن عليها بالرعاية فى شيخوختها .. وظل احساسها بذلك الشىء المحطم فى قلبها يزداد وينمو حتى اشترت لاول أبنائها أول فانوس فى حياته ..

وكلما ازدادت عدد الفوانيس التى تشتريها لابنائها وخدمها ، ازداد احساسها بأن فانوسها القديم المحطم يبعث جميلا كالحياة، متجددا كأيام رمضان عاما بعد عام .

باب
الرياضة
12

المغرب فى عالم الرياضة

الأستاذ ناصف سليم

حرم المغرب العربى الشقيق من ممارسة الرياضة فى عهد الاحتلال الفرنسى البغيض ، كان الفرنسيون يمتلكون كل الأجهزة الرياضية العاملة هناك ، الحكام منهم ، والمدربون منهم ، واللاعبون من أبنائهم ، والملاعب خاصة بهم وتحت سيطرتهم .

فلما تحقق لهم الاستقلال، ونعموا بالحرية ورحل جزء كبير من الجالية الفرنسية هناك ، تركوا كل شيء خاويا ، ووجد أشقاؤنا أنفسهم أمام مسئوليات ضخمة ، فهم فى حاجة الى حكام واداريين ومدربين ولاعبين من أبناء العروبة .

وقررت الجامعة العربية أن ينظم المغرب العربى الدورة العربية الرياضية بالدار البيضاء عام ١٩٦١ ، ليكتسب أبناء المغرب خبرة فى التنظيم ، ولتكون الدورة من وسائل البناء . واقامة المنشآت الرياضية ، وتبادل الخبرات والثقافات فى هذا المجال .

وكانت تجربة شاقة خاضها المغرب بنجاح فأعد أماكن لاقامة فرق ١١ دولة عربية ، ودعا فلسطين لأول مرة للاشتراك ، لتظهر امكانياتها فى المجال الدولى ، وجهزت ملاعب مزروعة بالنجيلة الخضراء فى معظم المدن من طنجة الى فاس الى الرباط الى الدار البيضاء

وأقامت صالة مغلقة بصفة مؤقتة ، أجريت فيها مباريات كرة السلة ، والطائرة والمصارعة وكرة اليد فى آن واحد .

وظهر لأول مرة اداريون من أبناء المغرب أعمارهم تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ سنة ، كلهم همة ونشاط وحماس ، لابراز كيان العرب فى هذا المضمار .

ورأينا هناك أن المغرب كما نجح فى تنظيم هذه الدورة ، فقد نجح أيضا فى اعداد فرق اشتركت فى جميع مسابقات الدورة ، وكان لهم السبق فى بعض الميادين ، كألعاب القوى وكرة القدم .

وبالرغم من أن الجمهورية العربية المتحدة قد فازت ببطولة هذه الدورة ، الا ان المغرب الشقيق كان هو المنافس الأول لفرقنا ، ونال المركز الثانى بكل جدارة .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل فى المغرب الشقيق ، أنهم لا يهتمون برياضة معينة ، بل كل اللعبات هناك تسير نحو التقدم بمستوى واحد . غير أن كرة القدم هى أبرز اللعبات ، نظرا لدخول الاحتراف الى المغرب ، وهجرة عدد كبير من لاعبيهم الى فرنسا للعب مع أنديتها الكبيرة كمحترفين ، ولكنهم يعودون

الى بلدهم فى الوقت المناسب اذا ما دعت الحاجة الى وجودهم للعب فى مباراة أجنبية ، وقد كان لهم فضل كبير فى تعادل المغرب مع ريال مدريد أكبر أندية العالم منذ عامين .

كذلك تجد كرة السلة هناك عناية فائقة ، وهم دائما يأتون فى المركز الثانى بعد الجمهورية العربية المتحدة ، حدث هذا ثلاث مرات فى ثلاث دورات كبيرة :

- **الدورة العربية عام ١٩٦١ بالدار البيضاء .**
- **الدورة الأفريقية الأولى عام ١٩٦٢ بالقاهرة .**
- **الدورة الأفريقية الثانية عام ١٩٦٤ بالدار البيضاء .**

كان فريقنا العربى يجد منافسة شديدة فى كل دورة لكرة السلة من فريق المغرب الشقيق ، لما يتميز به لاعبوه من صغر السن وخفة الحركة وطول الجسم .

وكذلك كان المغرب منافسا قويا فى عالم الملاكمة لكل الفرق الكبيرة ، فى البطولات العسكرية ، والأفريقية ، والعربية .

ونحن نرى الآن نهضة كبيرة يقوم بها المغرب فى عالم الرياضه الدولى ، ستؤتى ثمارها فى القريب العاجل ليكون لانتصاراتهم دوى فى أنحاء العالم يفخر به كل عربى وأفريقى .

الصوم .. رياضة بدنية أيضاً

عرفنا جميعا أن الصوم رياضة روحية ، تزكى النفس ، وتهذب الأخلاق ، ولكن قليل من الناس من يعرف أن الصوم رياضة بدنية أيضا تصقل الجسم وتمنع عنه الآفات والعلل . وقد عرف المسلمون الأولون أن التفنن فى طهى الطعام وكثرة ألوانه ،والافراط فى تناوله ، من دواعى الضعف وفتور الهمة . فهو يجلب الأمراض للأجسام ، وليس أدل على ذلك ما نعانيه فى حياتنا المدنية الآن . وهى تختلف كثيرا عن حياة المسلمين فى صدر الاسلام ، حيث فرضت عليهم بيئتهم العربية عوامل ساعدت على تمام الصحة ، وكمال القوة ، فكانوا يتقللون من الطعام ، وكان قوام غذائهم اللبن ، الذى يسهل على الجسم الاستفادة منه .

وقد عرف الرياضيون أخيرا أن الصوم من عوامل تقوية الجسم ، وعدم ترهله ، وساروا على نظام خاص يكفل لهم التغذية اللازمة ،دون وجود تخمة ، وأثقال من الطعام تجهد الكلى ، ورأينا فرقا أجنبيةتعتمد فى طعام أفرادها الأبطال على الخضروات المسلوقة ، وقطع من اللحم صغيرة ، ولم نجد الانسان الأكول فى عالم الرياضة ، الا فى لعبات خاصة تقتضى زيادة وزن صاحبها ، وبرغم ذلك ، فان الطب ينصح بأن ينزل الرياضى الى ميدان اللعب ، وهو فى حالة متوسطة بين الجوع والشبع .

وهذا الذى يعرفه الرياضيون الآن ، حدثنا عنه الرسول عليه الصلاة والسلام فى أكثر من مناسبة ، حيث يقول : « الفكر نصف العبادة ، وقلة الطعام هى العبادة » وقال « أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرافى الله سبحانه ،وأبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل نئوم أكول شروب » وواضح من صيغة المبالغة أن الرسول لا ينهى عن الأكل والشرب ، بل ينهى عن كثرة الأكل وكثرة الشرب .

وكان الصحابة رضى الله عنهم ينهون عن كثرة الأكل ، والبطنة ، فقال عمر بن الخطاب اياكم والبطنة فانها ثقل فى الحياة نتن فى الممات .. وذلك لأنها تضعف الحركة ، وتساعد على الكسل ، فلا يقوى المسلم على العبادة ، ولا يحسن الانتاج فى عمله .

وبصفة عامة نجد أن الشبع يجلب السمنة وهى لا تساعد على تمتع الانسان بجسم رياضى سليم ، لأن الجسم الرياضى مفتول العضلات ، ممشوق القوام ، خفيف الحركة ، كثير النشاط ، يستطيع أن يدفع المرض ، والجسم السمين بعكس ذلك ، يضعف انتاج

صاحبه ، ولا يساعده على التفكير السليم ، أو العمل الدائب ، فضلا عن أنه يشوه منظره

واعتقد ان صيامنا فى رمضان ، يؤدى الى تكوين جسم ممشوق سليم ، لو اتبعنا فيه تعاليم الاسلام ، والأصول الطبية المعروفة ، فنترك الطعام فى وجبة الافطار وفى وجبة السحور ونحن نشتهيه ، لأن امتلاء البطن فى وجبتين بينهما ساعات قليلة يؤدى الى حالة ضعف وفتور ، واضطراب فى المزاج . وقد حدثوا أن الرشيد جمع أربعة من أفذاذ الأطباء وقال لهم :

ليصف كل منكم الدواء الذى لا داء فيه فقال كل منهم برأى ، ثم قال آخرهم :

« الدواء الذى لاداء فيه عندى الا تأكل الطعام حتى تشتهيه ، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه ، فقالوا له جميعا : أصبت »

وعندما حدد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم مقدار ما يأكل الانسان فى كل وجبة بقوله « ثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » قال أطباء النصارى : ماهذا الا كلام حكيم .

ولأن المسلمين الأولين عملوا بهذا النصح ، واهتدوا بقول رسول الله ، كانوا اذ ذاك أقوى صحة ، وأشد قوة ، وأنضج فتوة ، وأطول أعمارا ، وكانوا يتسلقون الجبال ، ويتخطون الموانع والحواجز فى الحروب والصيد .

ولو أن رياضيينا الآن عملوا بهذه المبادىء الاسلامية ، فأدوا فريضة الصيام كما يجب أن تؤدى ، لكانوا أكثر نجاحا ، وسبقا ، وقد رأينا كثيرا من اللاعبين يفطرون فى رمضان لكى يؤدوا المباريات فى آخر النهار ، ولم نجد لافطارهم أية فائدة ، بل على العكس ،وجدنا من يصوم منهم أقوى على الحركة وأصبر على اداء الواجب من هؤلاء المفطرين ، وأعتقد أنه يكفى لمن يريد اللعب بعد الظهر ،ان يتناول فى وجبة سحوره بعض المأكولات الغنية بالمواد السكرية والنشوية ، لتمده بالسعر الحرارى اللازم فى المباريات ، وأن يؤخر سحوره الى قبيل الفجر ، وهذا يتفق مع ما تدعو اليه السنة .

والله الموفق

ندوة الشهر

نحن و... تنظيم النسل

الأستاذ: عبد الرحمن الشربيني

منذ أن قامت الثورة ومن أهدافها الستة .. هدف اقامة عدالة اجتماعية وهى تعمل جاهدة على الارتفاع بمستوى حياة الفرد والاسرة والمجتمع .

ولقد جاء الميثاق مؤكداً هذا الاتجاه .. بل معلنا قيام مجتمع الكفاية والعدل .. أى كفاية الانتاج وعدالة توزيع هذا الانتاج ..

وكيف تفيد كفاية الانتاج أمام السيل المضطرد فى نسبة تزايد السكان فى مجتمعنا مهما روعى فى هذه الكفاية أكبر قدر من عدالة فى التوزيع !!

لابد اذن من التنظيم .. تنظيم النسل حتى يجنى المجتمع ثمار الكفاية وينعم بالعدل فى ظلها ..

فماذا يقول الدين فى المشكلة ؟

وما رأى الاصلاح الاجتماعى فى حلها ؟

وفى ندوة الشهر رأى لكلا الجانبين الدينى والاجتماعى: الأول لصاحب الفضيلة الامام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر .

والثانى للاستاذ كمال الحسنى المدير العام لمنطقة الشئون الاجتماعية بالقاهرة .

يقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر :

– ان رأى الاسلام فى هذا الموضوع واضح وصريح .. ولعل ما يثير هذا التساؤل فى نفوس الكثيرين ما هو مأثور عن الاسلام من أنه يدعو الى التناسل والتكاثر ، ويحفز من استطاع الباءة من الشباب أن يتزوج ، ويدعو الى أن يختار الرجل لنفسه الزوجة الولود الودود .. الى غير ذلك مما قد يرى معه البعض أن هذا هو الرأى فى الاسلام ولا رأى غيره ..

والواقع أن الاسلام يرغب فى الزواج ويأمر به ويمتن على المسلمين بشرعه ، قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .. وقال تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » .

ومن أغراض الزواج تكوين الأسرة وايجاد النسل .. قال – صلى الله عليه وسلم – «تناكحوا تناسلوا تكثروا» وقال أيضا : « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » .

والولد من نعم الله التى تميل اليها الفطرة ، وهو زينة الحياة الدنيا ، وقال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . فمن يتزوج كارها أن يرزق بأولاد ويعمل على منع النسل يأثم لأنه لم يحقق الفرض الأساسى من الزواج، ونظر اليه نظرة سطحية لا تتجاوز متعته بزوجته ، فضلا عن أنه لم يساهم فى بناء أمته ووطنه فى انشاء جيل صالح يقوى به الأمة ويعتز به الوطن .. ومن تزوج ورزق بأولاد ففرح بهم ورضيت نفسه بما حباه الله من ذرية ، وكرس وقته وجهده وماله فى تربيتهم والعناية بشئونهم واعدادهم اعدادا حسنا حتى يكونوا مواطنين صالحين يؤدون حق الله وحق الوطن عليهم ، يثيبه الله على عمله ويعينه عليه، وييسر له رزقه ورزق أولاده ، لأن الله تكفل بأرزاق الناس جميعا .

قال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » ... وقال تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » .. وقال تعالى : « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » .

والناس يتفاوتون فى أرزاقهم ويوزعها الله عليهم بقدر ما يبذلون من جهد وعمل . وهم جميعا مكلفون بأن ينفقوا على أولادهم وزوجاتهم حسب قدرتهم المالية لقوله تعالى « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً » .

هذه هى بعض أحكام آيات القرآن والسنة ـ نظر فيها الفقهاء المجتهدون ، ورأى فقهاء الحنفية وغيرهم أن لايأثم أحد الزوجين باتخاذ أية طريقة من طرق منع الحمل منعا مؤقتا باذن ورضاء الطرف الثانى . والمنقول عن فقهاء المذهب المتقدمين عدم اباحة ذلك بدون اذن الطرف الثانى، وتفقه مشايخ المذهب فى هذه المسألة وذهبوا الى اباحته دون اذن لسوء الزمان ، وقال بعضهم ان هذا التفقه جائز لتغير بعض الأحكام بتغير الزمان ، وأقر صاحب الفتح هذا الرأى وقال « فليعتبر مثله من الأعذار المسقطة للاذن » .

وانى أرى أخذا بما ذهب اليه هؤلاء الفقهاء أنه لا يحرم اتخاذ الوسائل التى تؤخذ لمنع الحمل فترة من الوقت برضاء الزوجين واتفاقهما ، كما لا يحرم على أحدهما أن ينفرد بذلك اذا وجد أى عذر من الأعذار كمرض الزوجة وانقطاع لبنها الذى ترضع به وليدها ، والزوج لا يجد ما يستأجر به مرضعة ويخشى على الولد الهلاك .

أما حكم الشرع فى رجل وهبه الله عددا من الأولاد غير أنه محدود الدخل يجد فى تربيتهم صعوبة ومشقة . فانه لا يحرم عليه أن يتخذ بعض الوسائل التى لا تضر زوجته فترة من الوقت ولو لم تأذن الزوجة للظروف الخاصة .. وأفضل أن يتم ذلك باذن الزوجة ورضائها حتى لا يكون ما يفعله الزوج مدعاة للخلاف والشقاق .

واذا كنا نرى اليوم أن عدد السكان يزيد زيادة مطردة مع نقص فى الموارد الطبيعية لا تسير بنفس النسبة مما يخشى معه عدم القدرة على تحقيق المستوى اللازم لمعيشة الفرد .. فالرأى عندى فى ذلك هو أن الظروف الآن تختلف عما كان الامر فى صدر الاسلام يدعو الى التناسل والتكاثر لأن الاسلام كان فى بدء أمره غريبا فى مجتمع الشرك الجاهلى وكانت المصلحة وقتئذ تدعو الى مضاعفة عدد المسلمين للدفاع عن دين الله الحنيف . أما الآن فاننا نجد أن تكاثف السكان فى العالم كله بدأ يهدد بهبوط خطير فى مستويات الحياة اللازمة للبشر لدرجة حدت بكثير من المفكرين الى الدعوة لتنظيم النسل .

والاسلام وهو دين الفطرة لم يكن فى يوم من الأيام ضد مصلحة الانسان ، بل كان دائما سباقا الى تحقيق هذه المصلحة ما لم تخالف شرع الله .

لذلك فانى أرى أنه لا مانع شرعا من النظر فى تنظيم النسل اذا كانت الحاجة تدعو اليه .. على أن يتم ذلك باختيار الناس واقناعهم دون قهر أو قسر ، وفى ضوء ظروفهم وعلى أن تكون الوسيلة مشروعة الى ذلك .

ويقول الأستاذ كمال الحسنى مدير عام الشئون الاجتماعية بالقاهرة :

لقد كانت الزيادة السريعة فى عدد السكان من العوائق التى أثرت فى سرعة الارتفاع بمستوى حياة الأسرة ، اذان المستوى العام للمعيشة يحسب بقسمة مجموع الدخل القومى على عدد الأفراد .

فاذا ما زاد الدخل القومى زيادة كبيرة نتيجة للتوسع فى المشروعات الانتاجية . ولكن بنسبة أقل من زيادة السكان ، كانت النتيجة الحتمية هى انخفاض مستوى المعيشة .

ولذلك يجب العمل فى المراحل الحالية ـ والسكان على ما هم عليه من زيادة ـ على أن تكون زيادة الانتاج بنسب تفوق كثيرا نسبة الزيادة العددية للسكان حتى يتحقق الارتفاع بمستوى معيشة الأسرة ، الا أن هذا السباق قد لا يتحقق له النجاح دائما ، ولذلك يجب العمل فورا على الأخذ بمبدأ تنظيم الأسرة حتى تحقق التوازن بين الزيادة فى الانتاج والزيادة فى السكان .

ولقد صور الميثاق هذه المشكلة أصدق تصوير عندما نص على : « ان مشكلة تزايد السكان هى أخطر العقبات التى تواجه جهود الشعب المصرى فى انطلاقه نحو رفع مستوى الانتاج فى بلاده بطريقة فعالة وقادرة ، واذا كانت محاولات تنظيم الأسرة بغرض مواجهة مشكلة تزايد السكان تستحق أصدق الجهود المعززة بالعلوم الحديثة ، فان ضرورة الاندفاع نحو زيادة الانتاج بأقصى سرعة وكفاية ممكنة يحتم بأن يحسب لهذا الأمر حسابه فى عملية الانتاج بصرف النظر عن الآثار التى يمكن أن تترتب على تجربة تنظيم الأسرة »

ثم عاد الميثاق وأكد دور الأسرة عندما نص على : « ان الادراك العميق لضرورة التخطيط فى حياة الفرد سوف يكون هو الحل الحاسم لمشكلة تزايد السكان ، وهو الذى يغير من حالة الاستسلام القدرى حيالها ويضع مكانها الشعور بالمسئولية واقامة الاقتصاد العائلى على أساس من الحساب » .

ولذلك فان الحد من هذا التزايد ليس مسئولية الحكومة فحسب ، وانما مسئولية كل فرد من أبناء الوطن .

ان حجم المشكلة هو فى زيادة تعداد سكان الجمهورية العربية المتحدة بمعدل ٨٠ طفلا كل ساعة أى ما يقرب من ٦٩٠ر٨٠٠ سنويا ، وهذه الزيادة تعادل ٥ر٢٪ من عدد السكان .

والزيادة فى السكان ناشئة عن ثبات معدل المواليد وانخفاض عدد الوفيات .. فقد هبطت معدلات الوفيات من ٥ر٢٨ فى الالاف عام ١٩٤٠ الى ٦ر١٧ فى الألف عام ١٩٦٠ ، والأمل فى انخفاض نسبة الوفيات أكثر من ذلك نظرا لما تبذله الدولة من رعاية صحية عمت الريف والحضر .

وكان نتيجة انخفاض معدل الوفيات مع ثبات معدل المواليد أن ارتفعت نسبة النمو السكانى من ٢ر١٪ فى أعوام ١٩٠٠ الى ١٩٣٧ الى ٩ر١٪ فى المدة من ١٩٣٧ الى ١٩٤٧ ، والى ٤ر٢٪ فى المدة من ١٩٤٧ الى ١٩٦٠ . وارتفعت النسبة فى السنوات الثلاث الأخيرة فبلغ متوسطها السنوى ٧ر٢٪ . فاذا لم تتغير أساليب الانجاب عما هى عليه الآن فاننا نتوقع أن يبلغ عدد مواليد عام ١٩٨٠ ضعف مواليد عام ١٩٦٠ .

ويتطلب هذا النمو السريع فى السكان عملا ايجابيا للحد من خطورته حتى نصل الى المرحلة التى لا تكفى فيها الزيادة الناشئة عن التنمية الاقتصادية ما أضيف من اعداد السكان ، ولذلك يجب وضع خطة شاملة لعلاج هذه المشكلة تتضافر فيها جميع الجهود الحكومية والأهلية للحد من سيل هذه الزيادة .

ولكى نضع خطة شاملة متكاملة لتنظيم الانجاب يجب أن نأخذ فى الاعتبار النقط الآتية :

١ ـ تنظيم الانجاب لا يمكن أن يتم بالتشريع ، وانما يتم باقتناع وايمان طرفى الأسرة بوجوب هذا التنظيم لصالح الأسرة والمجتمع .

٢ ـ سرعة البدء فى التنفيذ فالمشكلة لا تحتمل التأخير .

٣ ـ أن يصاحب الدعوة توفير الامكانيات اللازمة للتنظيم وتسهيل الحصول عليها لكل من يطلبها .

٤ ـ التنسيق اللازم بين مختلف الجهود التى تبذل فى هذا الميدان حكومية كانت أم أهلية ، وتجنيد جميع القوى فى هذا السبيل ، وضمان العمل المستمر المتواصل .

٥ ـ دراسة جذور العادات المؤثرة فى زيادة الانجاب والعمل على اجتثاثها والاقلال من أثرها سواء بالدعاية أو التشريع .

ادارة المصانع الحربية تقدم للعالم العربي والإسلامي تهنئتها
بشهر رمضان المعظم وفخر منتجاتها رمز النهضة العربية
وتهديها انتاج شركة بنها للصناعات الالكترونية الحربية والمدنية
تليفزيون لوتس ٢٣ بوصة
• صورة جميلة جذابة واضحة المعالم
• صوت قوي واضح وسهولة في الصيانة
• مزود بوحدة ريموت كنترول للتحكم
• في الجهاز ومزود بماسك واقي للشاشة
ترانزستور فاخر للمنزل جهاز بغداد
• يعمل بواسطة ٦ بطاريات ١,٥ فولت
• مزود بسماعة حديثة للغاية
جهاز الراديو الجديد سندباد ٨٠
• رفيقك في المنزل وفي السيارة
• مزود بثماني ترانزستور ، ٢ موحد جرانيوم
• يعمل بـ ست بطاريات ١,٥ فولت
جهاز الكرنك الشعبي
• استهلاك التيار ضئيل للغاية
• أدار فاخر وصوت واضح
• جهاز راديو ذو علبة بلاستيك فاخرة
المؤسسة المصرية العامة للمصانع الحربية وشركاتها
ادارة التسويق بالمؤسسة ٣٣ شارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقا) ت ٤٤١٥٨
٧٤٥٦٩ عنوان تلغرافي ميليلز
غرف البيع
القاهرة : ٧ ميدان التحرير ت ٥٤٠١٣
الاسكندرية : ٦٦ طريق الحرية ت ٢٧٤٧٤

وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما ... سورة البقرة

الدكتور محمد جمال الفندي

ان من المسلم به بطبيعة الحال أن ما خلق الله تعالى من شيء لا حدود له من حيث الزمان والمكان ، الا أننا نعيش فى حدود ما تستوعبه بعض حواسنا وترصده أجهزتنا المكبرة ونطلق عليه اسم الكون المرئى ، أى مايمكن أن نراه من هذا الوجود باستخدام أكبر آلاتنا تكبيرا .

وهذا الوجود لكى يظل قائما من غير أن ينهار على نفسه فى حاجة مستمرة الى تزويده بطاقات وقدرات متجددة بصفة مستمرة . وتشير الآية الكريمة فى اعجاز أخاذ الى هذه الحقيقة والى قدرة الخالق التى لا حدود لها كذلك .

وعلى الرغم من أن العلم الطبيعى نشأ أول ما نشأ بحيث لم يتعرض لأصل الوجود ، ولم يناقش فكرة الخلق ، الا أن المذهب العلمى البحت الذى انتشر حتى عهد قريب افترض أن مادة وطاقة هذا الكون تم تواجدهما مرة واحدة فى زمن معين فى القدم ، وبعد ذلك سار الكون وئيدا لكى يصل الى النهاية العظمى من درجات التعادل ، وهى المعروفة علميا باسم « انتروبى » . وينظر علماء الرياضة الى هذا التعبير العلمى كوسيلة ناجحة تعينهم على حل معادلاتهم الرياضية ، خصوصا فى علم الديناميكا الحرارية .

وفى أوائل هذا القرن سلم العلماء بهذا المذهب ، خصوصا عندما رأوا وحدات الكون العظمى - ممثلة فى المجرات - تسرع متباعدة عن بعضها البعض ، بمعدلات تتزايد على الدوام بازدياد أبعادها . وبطبيعة الحال هم يفترضون أن أصل الوجود كتلة عظمى واحدة متماسكة تعرف باسم « البيضة الكونية » ، التى انفجرت فى القدم بعنف بعد فترة استقرار طويلة المدى ، فنشأت عنها السدم فالمجرات الآخذة فى التباعد اثر ذلك الانفجار العنيف .

ونحن عندما نناقش مثل هذا الرأى لابد أن نسأل عن الظروف الطبيعية التى أدت الى انفجار تلك البيضة بعد استقرارها زمنا طويلا ، وعند ذلك لابد أن تضاف فروض أخرى الى الفرض الأول . والمتفق عليه علميا أن أية نظرية تحتاج من أجل تفسيرها أو تدعيمها الى ادخال فروض جديدة تعتبر من النظريات الضعيفة التى لا يصح الأخذ بها .

وحديثا وجد فريق من العلماء على رأسهم هويل ، وكاب ، أن خير النظريات التى تفى بمبدأ أقل الفروض هذا هى النظرية القائلة باستمرار عملية خلق مادةالكون، بمعنى أن هذا الوجود لم ينشأ دفعة واحدة ، وانما هو سلسلة منتظمة من الاضافات المستمرة الى يومنا هذا، أو بمعنى أنه فى أية لحظة ما من حيث الزمان يخلق جسيم مادى من لا شيء فى أية نقطة ما من حيث المكان .

وبعد أن وجد العلماء أن فكرة الخلق المستمر هذهفكرة صائبة ، استطاعوا أن يدعموها بما يرصدون من ظواهر فلكية فى أرجاء الكون المختلفة ، رغم أنها فكرة دخيلة على العلم الطبيعى .

والمشاهد أن مادة الكون « النجوم والشموس » تتكون أصلا من غاز الايدروجين الذى تبلغ نسبته فى الوجود نحو ٩٠ فى المائة من مادة الكون بأسرها . ورغم التناقص فى مقادير هذا الغاز بصفة مستمرة داخل النجوموالشموس، وتحوله خلال بلايين السنين الى غاز الهيليوم وعناصر أخرى ، الا أن نسبته لا تزال كما هى تقريبا ، مما يدل ويبرهن على أن المادة التى تخلق انما ينجم عنها الايدروجين بنفس المعدل الذى يستهلك به فى النجوم والشموس ونحوها من أوجه النشاط الكونى المختلفة ، وهكذا يتم حفظ الكون .

ولقد قدر بعض علماء الفلك بالحساب أن نحوا من ٥٠٠ ذرة من الايدروجين يتم خلقها داخل حيز سعته كيلو متر مكعب فى السنة . واذا ما افترضنا أن قطر الكون المرئى يبلغ نحو بليونين من السنين الضوئية ، نجد أنه خلال عام واحد يمكن أن يساوى عدد ذرات الايدروجين التى تخلق فيه نحو ٤ × ٦٩١٠ ذرة ، وهى كمية كافيةلخلق أو تولد ما يربو على اثنين تربليون نجم جديد .

والمعروف أن ذرة الايدروجين نفسها ذرة مركبة من بروتون والكترون أوكهرب ، فهل هما يخلقان معا بحيث يتساوى عدد البروتونات مع عدد الكهارب ؟

من المتفق عليه أنه تبعا لقانون الصدفة البحتة تتكون المادة والمادة المضادة بكميات متساوية القدر ثم ينفصلان الى عالمين متباينين ، والا تم اتحادهما من جديد واختفاء معالم المادة ، وظهورها على هيئة طاقة فقط . وهذا عين ما يحدث فى بعض أرجاء الكون عندما تلتقى أجزاء من المجرات بأجزاء أخرى تتكون من المادة المضادة . ولمجرد الصدفة كذلك تزيد عمليات الخلق وتربو على عمليات الابادة فى هذه الفترة التى يمر بها الوجود ، أى منذ بضعة بلايين من السنين ، فمن المشاهد ان الكون يتمدد وان مقدار المادة التى تخلق فيه تفوق فى كمياتها ما يتم بعمليات الابادة .

وعلى أية حال فقد ثبت ان فى هذا الوجود نوعان من المادة التى تبنى منها النجوم والشموس والكواكب وسائر أجرام السماء ، واذا ما حدث أن التقى نوع منهما بالآخر أو تصادم معه يصحب ذلك فى الحال فناء ذريع تختفى معه معالم المادة من الوجود ، بينما تنطلق طاقات عظمى ، تبعا لقانون النسبية الذى يقول بأن :

الطاقة المنطلقة = الكتلة المادية المختفية × مربع سرعة الضوء .

ولقد استفاد العلماء من هذه النظرية عن طريق تلك الامكانيات والتطبيقات الواسعة النطاق التى تكمن من ورائها ، وتفسر لنا كثيرا من ظواهر الكون الغامضة التى طالما حيرت المفكرين ، مثل ظهور أرجاء فى المجرات مظلمة بأكملها وخاصة فى السدم الحلزونية ، ومثل ظاهرةالنجوم البراقة والنجوم فوق البراقة ، وهى المعروفة علميا باسم « النوفا » و « السوبر نوفا » .

ومهما يكن من شيء فنحن لا نعرف ولو على وجه التقريب ما اذا كان عدد البروتونات الموجبة المودعة فى هذا الكون يساوى الآن تماما عدد البروتونات السالبة أم لا ، الا أن هذه على أية حال مسألة يرى فريق من العلماء وجوب توفرها فى عالم نشأ من العدم المادى .

هذا كما أننا لا نستطيع أن نقرر أن البروتوناتالموجبة التى تتكون منها المادة والبروتونات السالبة التى تتكون منها المادة المضادة نشأت أول الأمر كأكداس من الأزواج ، أم أنها نشأت هكذا حسبما اتفق كجسيمات فردية منفصلة .

وعلى الرغم من أن أحدا لم يقل بتوزيع البروتونات والكهارب توزيعا منتظما فى سائر أرجاء الكون فان احتمال التعادل الكهربى بين ما نسميه الشحنات السالبة والشحنات الموجبة فى أى نوع من أنواع المادة أمر تدعمه المشاهدة تحت الظروف العادية ، مما يلقى بعض الضوء على قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين » ومجمل القول أن الخلق انما هو عملية مستمرة لم تتوقف منذ القدم ، وأن الذى يخلق تنجم عنه ذرات الايدروجين التى تعمل على حفظ النشاط الكونى خلال هذه المرحلة التى يمر بها ، ويمثل هذا النشاط فى النجوم والشموس والمجرات عموما والله أعلم .

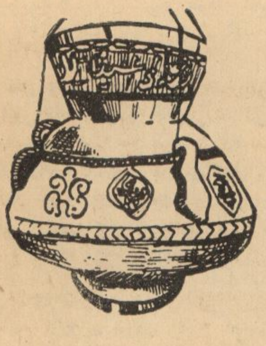

باب الفن

كتاب السبعين الموازنية

تأليف

جابر بن حيان الصوفى

للاستاذ أحمد سعيد الدمرداش

تمهيد :

لقد لبث الشرق أحقابا يخضع لغزو معنوى منظم ، عبثت له قوى الاقطاع الماردة وأسلحة الاستعمار الخبيثة وكان كل همها أن تعزل أبناءه عن ماضيهم وتبترهم عن اصولهم ، فالحت على تاريخنا بالتشويه والتحريف والبتر حتى استطاعت لمدى قرون أن تحجب أضواءه وتطوى مفاخره وتمسخ أمجاده ، فعاشت أجيال منا فى عزلة رهيبة عن ماض لنا أغر أذهل الدنيا وبهر التاريخ

وتجمعت كل هاتيك الروافد لتستقبل الجيل الحالى صاحب الغد ، فالقى نفسه مجذوبا الى الغرب بحكم رواسب موروثة فى أعماق كيانه ، وبحكم خضوعه لذلك الغزو الفكرى الطويل المنظم ، وكان على رجال العلم واجب لكى يقاوموا هذه الجاذبية - أن يقضوا أولا على هاتيك الرواسب قدر ما يستطيعون وأن يعبئوا قواهم لاماطة الحجب عن العلماء والمفكرين العرب الذين ساهموا فى تثبيت دعائم القومية العربية •

لذلك قد اخترنا الكيمائى العربى العملاق جابر بن حيان الصوفى ، الذى كان أول من بنى اصول الكيمياء النظرية تقفز بها من مستوى كانت سداه الاحاجى والشعوذة ولحمته الدجل والسحر ، الى مستوى التفكير المنطقى السليم المبنى على المشاهدات والتجربة والاستقراء وقد ظلت أبحاثه ومؤلفاته منارا لهذا العلم منذ فجر الحضارة الاسلامية حتى فجر الحضارة الاوروبية فى القرون الوسطى •

ولد جابر فى طرسوس أو طوس من بلاد قراسان عام ٧٢١ ميلادية وكان والده يشتغل بصناعة العقاقير الطبية ، وقد تلقى الحكمة وعلم الصنعة فى الكوفة على أستاذ يسمى حربى ، يذكره جابر فى بعض كتبه كما يذكر الامام جعفر الصادق الامام السادس للشيعة - فلما استتب الامر لبنى العباس قربه البرامكة الى بلاط هارون الرشيد ، ولكنه عانى بعد ذلك من جراء التقرب الى البرامكة ماعانوا من فتك الرشيد بهم • والبرامكة من أصل فارسى كانت مهمتهم فى الدولة الاسلامية كمهمة اليونان فى الدولة الرومانية يحتاج اليهم القادة الجدد لخبرتهم وعلمهم ويخشون سموهم فى الوقت نفسه - لذلك تخلص منهم هارون الرشيد •

وقد فر جابر بعد ذلك الى الكوفة وظل فيها مختفيا منصرفا الى تحضير الاكسير لصحة هوائها كما ذكر ابن النديم فى فهرسته وقد عاش الى عصر المامون ومات حوالى ١٩٨ هجرية - ويذكر بن نديم ايضا أن أبا موسى جابر بن حيان كما كان يلقبه الرازى فى كتبه قد ألف ثلاثمائة كتاب فى الفلسفة وألف وثلاثمائة كتاب فى الحيل والف وثلثمائة رسالة فى صنائع ومجموعة آلات الحرب ثم ألف فى الطب كتابا عظيما والف بعد ذلك فى الطب أيضا نحو خمسمائة كتاب مثل كتاب المجسة والتشريح ثم ألف كتب المنطق على رأى أرسطاليس •• الخ والمعروف أنه لايوجد منها الى الآن الا نحو ثمانين كتابا فى خزائن المكتبات العامة والخاصة فى الشرق والغرب - وأعمق الكتب التى ألفها فى الكيمياء النظرية هو كتاب السبعين الموازينية الذى نحن بصدد تلخيصه •

لم يظهر جابر على مسرح الحياة الا بعد أن درس التراث العلمى الذى ورثته روح الحضارة الاسلامية من مراكز اشعاعية ثلاث ·

١ ـ الفلسفة والعلوم التكنولوجية التى ترعرعت فى مصر وبابل وآشور .

٢ ـ الفلسفة والعلوم الفارسية والهندية ·

٣ ـ الفلسفة والعلوم الاغريقية ·

وقد تطور علم الكيمياء قبل جابر فى البلاد العربية وفى هذه المراكز الاشعاعية بعد أن مر بثلاث مراحل حسب نظرية الفيلسوف كونت ·

المرحلة الاولى وهى مرحلة الخرافات والميثولوجيا حيث كان الاعتقاد يسود بأن جميع الظواهر الكيميائية مبعثها الارواح والشياطين ·

والمرحلة الثانية وهى مرحلة الفلسفة حيث بدأ الانسان يشعر بكيانه فى الكون وانه يستطيع أن يستنبط قوانين الطبيعة بعقله وتفكيره ·

والمرحلة الثالثة وهى مرحلة العلم أو المرحلة الايجابية حيث التجربة والقياس والاستقراء ·

والعصر الذى عاش فيه جابر هو عصر المرحلة الثالثة هذا ·

ومن ناحية اخرى فان نمو العلم يتبع النظم الاقتصادية للبلد الذى يعيش فيه هذا العلم ـ فقد يقفز قفزات سريعة أو يمشى فوق الزمان خببا طبقا للمجتمع الذى يحتضنه والذى يمر بخمسة أقسام بحسب النظرية الجديدة التى القاها حديثا البروفسير والت ديتمان روستو الاستاذ بجامعة كمبردج ـ وهذه الاقسام هى :

١ ـ المجتمع المتمسك بتقاليد معينة ·

٢ ـ المجتمع الذى يمر بفترة انتقال يتم خلالها وضع الاسس الذى سيبنى عليها تغيير ذلك المجتمع ·

٣ ـ المجتمع الذى يجتاز فترة حرجة فى حياته وهى فترة الانطلاق وابتداء حياة جديدة ·

٤ ـ المجتمع الناضج وهو المجتمع الذى تنتشر فيه أساليب ونظرات جديدة الى النظم والوسائل الاقتصادية

٥ ـ المجتمع الذى وصل الى مرحلة الاستهلاك على نطاق واسع .

وفى عصر بنى أمية وصل علم الكيمياء على يد خالد ابن يزيد بن معاوية الى مرحلة الانتقال تحت ضغط التحدى الخارجى والشعور بمركب النقص فآثر خالد ان يزهد فى الخلافة ويتفرغ لتشجيع ترجمة كتب الاغريق على يد اصطفن الاسكندرى وغيره وكان النقل من اليونانية والقبطية الى العربية ثم اخذ العلم بجميع فروعه يتدفق فى بدء الخلافة العباسية ويترجم من جميع اللغات على يد النساطرة من أهل حران شمال الشام الى اللغة العربية التى أظهرت مرونة كبيرة فى شتى المصطلحات والتعبيرات فجاءت مرحلة الانطلاق فى روح الحضارة الاسلامية وظهر جابر بن حيان عملاقا فى الكيمياء النظرية · ورث عن والده معرفة العقاقير واسمائها وتعلم من طائفة الاسماعيلية المتصوفة فلسفة الاعداد ورغم أنه نشأ نشأة صوفية الا أنه نحى منحى حسيا سداه التجربة والمشاهدة والقياس والاستقراء ولم يكتسب علمه فى الكيمياء عن طريق المنحى الاشراقى حيث يسلك المتصوف الى المعرفة طريق الرياضة والمجاهدة ورياضة النفس بالزهد عن متاع الدنيا والانصراف عن شواغل الحس والانقطاع الى التأمل الباطنى حتى يصل طالب المعرفة الى حال يذهل فيه عن الوجود الخارجى ويغيب فيه عن نفسه فتشرق المعرفة عليه بفيض الهى ·

ذكر جابر فى مخطوط السبعين الموازينية أو فى مخطوط الموازين ـ كما يسمى احيانا ـ ان المعادن السبعة المعروفة وهى الذهب والفضة والنحاس والقلعى « القصدير » والاسرب « الرصاص » والحديد والخارصينى « وهو سبيكة من النحاس والزنك والنيكل » لابد أنها نشأت فى الارض من تأثير الكواكب السبعة فلذلك نسب الذهب للشمس والفضة للقمر والنحاس للزهرة والقلعى للمشترى والاسرب لزحل والحديد للمريخ والخارصينى لعطارد · ومن الغريب أن نظريته هذه قد تحققت فى القرن العشرين الى حد ما حيث أثبتت الارصاد الفلكية الحديثة ان المريخ مغطى سطحه بجبال ووديان حمراء اكبر الظن أنها خامة الهيمانيت أو اكسيد الحديد ـ وفضلا عن ذلك فان فكرة الرجوع الى المجموعة الشمسية قد لجأ اليها العالم الكيمائى بوانكريه عام ١٩٠٤ حين اكتشفت الالكترونات فاقترح تكوين الذرة مثل الكوكب زحل تدور حوله التوابع والذرة تتركب من بروتون موجب التكهرب تدور حوله الالكترونات السالبة كما تدور توابع زحل .

اذن فقد كان جابر جريئا فى نظريته بالنسبة للعصر الذى كان يعيش فيه ومجرد لجوئه فى التفكير الى المجموعة الشمسية يعتبر رائدا لعلماء الكيمياء فى مستهل القرن العشرين أمثال رذرفورد و ج·ج تومسون وغيرهما ·

فلسفة جابر : فى مخطوط الموازين الذى نحن بصدده كان جابر متأثرا بفكرة هرمس الحكيم البابلى وهى أن أصل الاشياء واحد فمن البذرة تنبت الشجرة وتكبر وتتفرع بفروع كثيرة فلم لاتكون المعادن الموجودة فى عصر جابر أصلها واحد وانها تختلف فى الطبائع وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وأن هذه الطبائع وماهى الا طاقات كاملة فى صفات هذه المعادن ·

وفى المقالة الثامنة عشر من هذا المخطوط قال جابر

« ان الله تبارك وتعالى لما خلق الفلك وخلق فيه هذه الاربعة عناصر التى هى النار والماء والهواء والارض وكان أصلها أولا أن العناصر الاول لما اختلطت ولحق كل واحد مركزه ـ وذلك بعد استعمال الجوهر ـ لحقت النار : بالعلو فكان مركزها ولحق الهواء بالنار لما فيه من الحرارة فاعجزه عن البلوغ والاختلاط بها اما الرطوبة فصار دونها وصار وسطا ثم لحق الماء بعد ذلك السفل وكان فى ا لبعد من النار على النهائية بقطر مساو لبعده على قياس الاضداد ولحقت الارض بالماء فاقامتها بيبوستها ثم أن الفلك دار وكانت الطبائع ضعيفة فعملت الحجارة فى المعادن ، ثم أنه قوى وزاد دورانه فانعملت الاشجار والنبات ، ثم أنه قوى ودار دورانا تاما فانفعلت بذلك الحيوانات »

ثم استطرد ·

« ثم نقول بعد ذلك أن الاصول الاولى هى الاربع وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فاثنان منها فاعلان واثنان منها منفعلان للفاعلين ، فالحرارة فاعلة ومنفعلها من الاربع اليبوسة والبرودة فاعلة ومنفعلها من الاربع الرطوبة ·

والخطوة الجريئة التى خطاها جابر بعد ذلك هى فى استنباط جداول تبين العلاقة بين هذه الطاقات وبين صفات

المعادن ـ فكان رائدا للكيميائى دوبرينر عام ١٨١٦ـ١٨٢٩ والكيميائى منديليف عام ١٨٦٩ اللذين وضعا جداول تبين الترتيب الدورى للعناصر طبقا لاوزانها الذرية فبذلك قد سبقهما جابر باكثر من الف عام بصرف النظر عن النتائج التى وصل اليها كل منهم .

وفكرة جابر لاتنبثق من الوزن الذرى لان هذا الوزن كان مجهولا ولم يكتشف بعد ولكنه بنى فكرته على أهمية الاعداد المتحابة التى كانت سائدة قبل عصر جابر وتتمثل فى الاعداد ١ ، ٢ ، ٥ ، ٨ وكذلك فى العدد ٢٨ وهو مجموع الحروف الهجائية وكلهـا فى مربع حسـاب البازرجة كالاتى :

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

وقد اسـتطاع جابر ان يعطى للفلزات قيما وزنية لطاقاتها فمثلا : الاسرب (الرصاص) مثـلا حار من الدرجة الاولى اذن فالحرف « ا »وهو اول الحـروف يعبر عن طاقة قدرها ٧ دوانيق

وهو أيضا جاف من الدرجة الثانية فالحرف س يعبر عن طاقة قدرها درهم .

وهو أيضا بارد من الدرجة الرابعة فالحرف « ب » يعبر عن طاقة قدرها ١ ١/٤ درهم .

وهو ايضا بادر من الدرجة الرابعة فالحـرف «ب» يعبر عن طاقة قدرها ٩ ١/٣ درهم .

اذن فمجموع طاقات الرصاص هى ١٢ ٣/٤ درهم .

وهكذا فى بقية المعادن الاخرى مثل الفضة التى مجموع طاقاتها ٦/٥ ١٩ درهم .

فاذا امكن تحويل هذه الطاقات والتحكم فيها فبذلك يمكن تحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينه مثـل الذهب نظريا .

هكذا فكر جابر وهى نفس الفكرة التى تجول بالاذهان الآن بلغة الالكترونات فالعدد الذرى للرصـاص هو ٨٢ وهو يمثل عدد الالكترونات حول النواه والعدد الذرى للذهب هو ٧٩ فاذا امكن التخلص من ثلاث الكترونات من ذرة الرصاص فاننا بذلك يمكننا تحويله الى ذهب

اذن فجابر يعتبر رائدا لعلماء القرن العشرين فاتجاه تفكيره بامكانيات عصره هى نفس اتجاه هـؤلاء العلماء بامكانيات عصرهم .

ولم يكن يدور بخلد جابر انه يمكنه عمليا الحصول على الذهب بل هى مجرد نظريات وضـعها . ذلك لان الذهب لم يكن سلعة مستحبة فى الاسلام بل كان يقتصر على استخدامه فى العملة كالدينار والمحبوب لان روح الحضارة الاسلامية كانت تخضع للآية القرآنية الكريمة « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـذا ماكنزتم لانفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون »

لذلك قد استبدل الخلفـاء واهل الثراء الذهب بالاحجار الكريمة كالياقوت والزمرد واللؤلؤ والمرجـان وتحايل الفنان الاسلامى فى صناعة الخزف بان زججهـا بالبريق المعدنى النحاسى أو الفضى او الذهبى تقليـدا لهذه المعادن . ولا نجد فى العصر الاسلامى تماثيل او اسرة من الذهب الخالص كما وجدت عند سائر المدنيات الاخرى كالمصرية والبابلية ، فالذهب اذن لم يكن سلعة مستهلكة بل سلعة ثابتة والطلب عليها قليل .

ان القرية الكبرى التى افتراها الغرب بان جابر كان يسعى للحصول على الذهب من المعادن الخسيسة هى فرية باطلة منشؤها القرون الوسطى فى أوروبا حين كان يسعى كل أمير الى مزيد من الذهب والنفوذ كى يطغى على زميله فبذلك نشطت أذهان علماء أوربا فى العصور المظلمة الى ترجمة كتاب الموازين لجابر لكى تتحقق لهم هذه الاهداف فالملك شرلمان قد عاصر هارون الرشيد وبعثاته الدبلوماسية للخلافة العباسية كانت تتكون من تراجمة وعلماء حصلوا على كتب جابر ثم ترجموها فظنوا أنهم ملاقون بغيتهم كما استطاعوا نهب شعب الازيتيك الذى كان يقطن فنزويلا وأمريكا الجنوبية فاستولوا على كنوزهم الذهبية •

وتحولت أوروبا كلها الى تطبيق موازين جابر للحصول على الذهب حتى ان الكيمائى الانجليزى جون داستين عام ١٣٤٢ وكان أستاذا بجامعات انجلترا قد الف كتابا فى استخراج الاكسير بواسطة قليل من الزئبق والذهب والفضة وانتشرت هذه الآراء انتشارا مريعا واستغلها أهل الشعوذة والدجل فاضطر البابا جون الثانى عشر عام ١٣١٧ الى اصدار قانون يعاقب كل من يشتغل بهذا الدجل الكيماوى لحماية البسطاء من هذه الشعوذة •

كان جابر يضع النظريات الكيميائية وهو برىء من هذا الدجل الذى استغله قراصنة الغرب وكان يعتقد فى امكان تحقيق هذا التحول نظريا حتى وصل به المطاف الى استنباط المكافىء الكيمائى الكهربى بأسلوبه هو وليس باسلوب فاراداى بعده باكثر من ألف عام كما جاء فى مخطوط السبعين الموازينية فى تركيب الاجساد والاكسير مانصه •

« ان مثال الاكسير مائة من العدد ومثال الذهب عشرون من العدد ومثال الفضة عشرة من العدد ومثال النحاس سبعة من العدد ومثال القلعى خمسة من العدد ومثال الاسرب أربعة من العدد ومثال الحديد اثنان من العدد ومثال الخارصيني واحد من العدد وهى صفة قوة الاجساد •

فاذا اعتبرنا الاوزان المكافئة لهذه المعادن كالآتى :

ذهب ١٩٧ ـ فضة ١٠٧ ـ نحاس ٦ر٦٣ ـ قصدير (٣٠ : ٥٩) ـ رصاص ٥٠ حديد ١٩ ـ فاننا نجد النسبة بين هذه الاوزان المكافئة كالنسبة التى وضعها جابر وهى ٢٠ ـ ١٠ ـ ٧ ـ ٥ ـ ٤ ـ ٢ تقريبا وتعبيره عن القوة يشبه القانون الثانى لفاراداى حين يقول ان هذه المعادن تترسب بنسبة أوزانها المتكافئة من محاليلها بواسطة التيار الكهربى •

وان أردنا أن نسترسل فى أبحاث جابر ونظريات جابر لما استطعنا فى هذه المقالة أن نلم بقطرة منها وانى أهيب بمتحف العلوم والمجلس الاعلى للعلوم لكى يجمع هذا التراث القومى النادر وهذه المخطوطات الاثرية لجابر وهى المبعثرة فى مخازن القلعة وفى مكتبات الازهر ودار الكتب وغيرها لتكون رائدا للأجيال القادمة •

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

الإمام الشافعي ومقامه

٦٠٨هـ - ١٢١١م

الأستاذ محمود وصفي

الامام الشافعي ومقامه
٦٠٨ هـ - ١٢١١ م

لله در الثرى كم ضم من كرم
بالشافعي حليف العلم والأثر

ياجوهر الجوهر المكنون من مضر
ومن قريش ومن ساداتها الاخر

لما توليت ولى العلم مكتئبا
وحز موتك اهل البدو والحضر

يعتبر مشهد الامام الشافعي أقدم الآثار الايوبية بعد تحصينات صلاح الدين الأيوبي وأخيه الملك العادل ، وهو من أكبر المقامات الموجودة بمصر . والشافعي هو احد الأئمة المجتهدين الذين كانت لهم مذاهب معروفة اشتهروا بها كالثوري والحسن البصري وابن ابي ليلى والاوزاعي والليث وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وقد قدر لاربعة منها البقاء الى يومنا هذا وهي مذاهب ابو حنيفة النعمان ومالك بن انس والشافعي وأحمد بن حنبل . اما بقية المذاهب فذابت في هذه المذاهب الأربعة .

والامام الشافعى هو أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى القرشى ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ وتوفى بمصر سنة ٢٠٤ هـ . وكان ذكيا شديد الفهم فقد حفظ القرآن وهو بمكة وتعلم بها اللغة والشعر وفنون الادب وعلوم القرآن والحديث والفقه ، وهو صاحب المذهب الشافعى الذى يتبعه كثير من المسلمين فى مختلف بقاع الارض

ولما بلغ العشرين من عمره انتقل الى المدينة قاصدا الامام مالك الذى تلقى عنه الفقه ، ثم رحل الى العراق ولقى أصحاب أبى حنيفة وأخذ عنهم فقههم ورحل كذلك الى بلاد فارس وشمال العراق وكثير من البلاد ثم عاد الى المدينة بعد ان قضى سنتين فى هذه الرحلة من سنة ١٧٢ هـ حتى سنة ١٧٤ هـ . وقد زادته هذه الرحلة علما ومعرفة بشئون الحياة وطبائع الناس .

وبعد وفاة الامام مالك سافر الى اليمن وتفرغ لتدريس العلم واشتهر أمره بها . ثم وشى به الى الخليفة هارون الرشيد العباسى فأخذ الى بغداد وهناك ظهرت براءته وعرف فضله وعلمه فأغدق عليه الرشيد الخير الوفير فاقام ببغداد يدرس العلم وينشر مذهبه ، وقد أتم بها كتابه القديم أو مذهبه القديم .

ثم عاد الى مكة وفيها تفرغ لنشر مذهبه فتلقاه عنه بعض العلماء الوافدين الى الحج ونقلوه الى بلادهم . وفى سنة ١٩٨ هـ قدم الى مصر من بغداد بعد أن ذهب اليها واقام بها شهرا ، واقام بمصر حتى توفى وكان له من العمر اذ ذاك اربعة وخمسين عاما .

ويعد الشافعى من أتباع مالك لانه أخذ عنه مذهبه وأملى الموطا على بعض الوافدين الى المدينة من علماء الأمصار .

ذكر العلامة ابن خلدون أن الامام الشافعى رحل الى العراق من بعد مالك ولقى أصحاب الامام أبى حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق وكون مذهبه الذى خالف فيه مذهب مالك فى كثير من الآراء .

ثم قدم الشافعى الى مصر وكان الغالب على المصريين المذهبين المالكى والحنفى فنشر مذهبه ودون كثيرا من الكتب منها مذهبه الجديد وكتاب الام والامالى الكبرى والاملاء الصغير وكتاب الرسالة ، وهو أول من وضع علم اصول الفقه ودونه .

ولما قامت دولة الفاطميين فى مصر أبطلت العمل بمذهبه مع باقى المذاهب السنية الاربعة . وفى الدولة الأيوبية عادت القوة والنشاط للمذهب الشافعى لانه كان مذهب الأيوبيين وقد اختص بالقضاء لأنه مذهب الدولة الرسمى . واستمر الحال كذلك فى عصر دولة المماليك حتى جاء العثمانيون فأصبح المذهب الحنفى مذهب الدولة . ومهما يكن من شىء فان المذهب الشافعى انتشر فى كثير من البلاد الاسلامية

واذا أردنا الكلام عن مناقب الامام الشافعى نجدها كثيرة ، وحسبنا أن نخص بالذكر منها ماتناوله بالكلام مؤرخنا العظيم المقريزى حيث قال « ومن ابدع ماحكى من مناقبه أن الوزير نظام الملك لما بنى المدرسة النظامية ببغداد فى سنة ٤٧٤ هـ احب أن ينقل الامام الشافعى من مقبرته بمصر الى مدرسته وكتب الى امير الجيوش بدر الجمالى وزير الامام المستنصر بالله الفاطمى يسأله فى ذلك وجهز له هدية جليلة فركب أمير الجيوش فى موكبه ومعه أعيان الدولة ووجوه المصريين من العلماء وغيرهم وقد اجتمع الناس لرؤيته فلما نبش القبر وشق ذلك على الناس وماجوا وكثر اللغط وارتفعت الاصوات وهموا برجم أمير الجيوش والثورة به فسكتهم وبعث يعلم الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بصورة الحال فأعاد جوابه بامضاء ما أراد نظام الملك فقرىء كتابه بذلك على الناس عند القبر وطردت العامةوالغوغاء من حوله ووقع الحفر حتى انتهوا الى اللحد فعندما ارادوا قلع ماعليه من اللبن خرج من اللحد رائحة عطرة أسكرت من حضر فوق القبر حتى وقعوا صرعى فما أفاقوا الا بعد ساعة فاستغفروا مما كان منهم وأعادوا ردم القبر كما كان وانصرفوا وكان يوما من الايام المذكورة وتزاحم الناس على قبر الشافعىيزورونه مدة أربعين يوما بلياليها حتى كان من شدة الازدحام لا يتوصل اليه الا بعناء ومشقة زائدة وكتب أمير الجيوش محضرا بما وقع وبعث به وبهدية عظيمة مع كتابه الى نظام الملك فقرىء هذا المحضر والكتاب بالنظامية ببغداد فزاد قدر الامام الشافعى عند كافة أهل الأقطار وعامة جميع الانصار ،

أما عن تاريخ مقام الامام الشافعى فينقسم الى ثلاثة عهود وهى :

أولا : التأسيس فى عهد الملك الكامل سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١١ م .

ويرجع الى هذا العهد المظهر الخارجى والباب الداخل والافريز الخشبى الذى يمتد حول الافريز الرخامى ، والنقش الكوفى الموجود على الكتل البارزة والشبابيك المصنوع من الجص الوجود فى الأربع نوافذ الكبيرة .

ويذكر لنا عمدة المؤرخين المقريزى أن الملك الكامل ايوب بنى القبة العظيمة التى على ضريح الامام الشافعى وصفحها بالرصاص وانفق عليها خمسين الف دينار مصرية .

قبة الامام الشافعى من الداخل ويظهر فيها الدلايات والمقرنصات

الثانى : التجديد الذى اجرى فى عهد السلطان قايتباى فى رمضان سنة ٨٨٥ هـ - نوفمبر سنة ١٤٨٠م

ويرجع الى ذلك العهد الولايات والفية الخشبية .

الثالث : التجديد الذى اجراه عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٨٦ هـ - ١٧٧٢-١٧٧٣ م ، ويرجع الى هذا العصر كل النقوش والزخارف الداخلية .

هذا وتزيد مساحة مقام الشافعى عن خمسة عشر مترا مربعا فى الداخل وعشرين ونصف مترا مربعا من الخارج لان سمك الحائط ٢¾ مترا ، وهذا السمك يكفى لحمل قبة من الاجر أو الحجر ولذا نعجب اذا علمنا أن القبة من الخشب ولكن استعمال القباب من الخشب فى مثل تلك المشاهد هو تاثير مصرى صميم .

والمظهر الخارجى يتكون من طابقين ارتفاع الاول ١٠ر٦ مترا مضافا اليه سياج ارتفاعه ٨٠ر١ مترا وارتفاع الطابق الثانى ١٦ر٦ مترا بما فى ذلك القمة وبهذا يبلغ

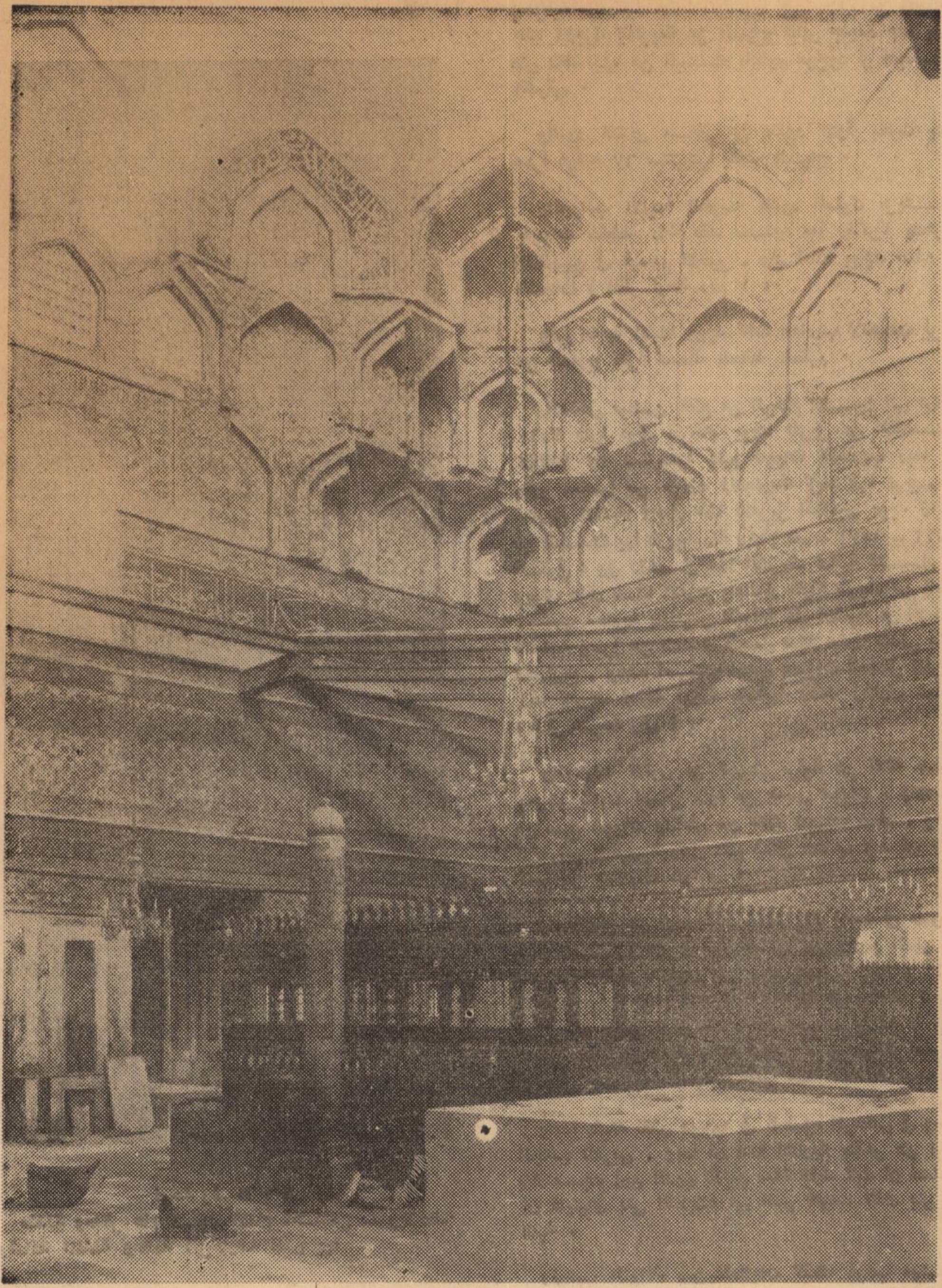

ارتفاع الحائط كله ١٦٫٧٨ مترا من مستوى سطح الارض .

والمدخل بالقرب من النهاية الجنوبية الشرقية للجانب الشمال الشرقى ، ولا يزال الباب الأصلى المزدوج ذو النقوش الهندسية الجميلة موجودا الى الآن .

وفى اعلى كل وجه من اوجه المشهد يوجد شريط من زخارف هندسية بسيطة وسياج من أربعة أجزاء يزينه زخرفية هندسية أيضا محصورة بين دعائم من الآجر . هذه الاجزاء الطويلة من السياج تظهر جديدة جدا يدلنا على ذلك جزء من البناء القديم موجود فى الجانب الشرقى .

والدور الثانى متاخر عن الدور الاول بحيث يترك ممرا عرضه ٦٧ سنتيمترا خلف السياج .

والجوانب الاربعة الطويلة للدور العلوى مزينة بفجوات مخططة ذات عقد محدب مما يذكرنا بمحراب الفاطميين فى عهدهم الأخير . وفى أعلاه يوجد صف من الفتحات (انظر لوحة رقم ١)

وفى ناحية القبلة يوجد ثلاث محاريب لاتحدث بروزا من الخارج نظرا لسمك الحائط العظيم .

والداخل مبطن بقطع من الرخام الملون الى ارتفاع ٢٫٦٠ مترا فوق الرخام يوجد افريز من الخشب ارتفاعه ٥٧ سنتيمترا يتبع فجوات المحاريب ربما انه يظهر معاصرا من طرازه فالمحاريث لابد أنها ترجع لتاريخ الانشاء وفوق هذا الافريز الخشبى يوجد زخرفة من الطلاء بها تاريخ سنة ١١٨٥ هـ - ١٧٧١ - ١٧٧٢م الكوفى ، وفى داخل هذا الشريط ثمانية كتل من ويمتد فوق هذا الافريز بأمتار قليلة شريط من الخط الخشب محفورة بالنقوش الكوفية على ارضية من الزخرفة النباتية وتبرز عن الحائط لتحمل شكلا مثمنا تتدلى منه المصابيح . وهذه أصبحت احدى مميزات الداخل الفريدة لانه لاتوجد امثلة قديمة مشابهة وذات زخارف سليمة (انظر اللوحة رقم ٢)

والدلايات تتكون من فجوات مرتبة فى ثلاثة صفوف بحيث يتكون السفلى منها من خمس فجوات ، والاوسط من سبع فجوات والأعلى من ثلاث فجوات فقط . وهذه الفجوات الأخيرة وهى على شكل محدب لابد أن تكون أكبر من الفجوات الاخرى .

ومهما يكن من شىء فانه يوجد بناء واحد فى مصر له هذه الميزة هو مسجد القاضى يحيى زين الدين فى الحبانية بالقاهرة الذى بنى سنة ٨٥٣ - ٣٥٧ ، ١٤٤٩ -١٤٥٣ م . حيث نجد القبة محمولة على دلايات تشبه تماما تلك الموجودة فى الامام الشافعى . ولهذا لا يمكن نسبة هذا المسجد الى الملك الكامل . ولكننا نعلم ان قايتباى جدد قبة الامام الشافعى سنة ٨٨٥ هـ -١٤٨٠م

وهذا يثبته نقش موجود فى الجزء الرخامى فى وسط الجانب الغربى . وبما أن هذا التاريخ يتاخر عن تاريخ بناء مسجد زين الدين ثلاثين سنة فقط لابد أن نستنتج أن قايتباى بنى الدلايات فى نفس الوقت الذى بنى فيه القبة .

وترتيب النوافذ بين الدلايات كذلك غريب فهناك النوافذ ذات القوس المدبب الموضوعة فى اطار مربع من

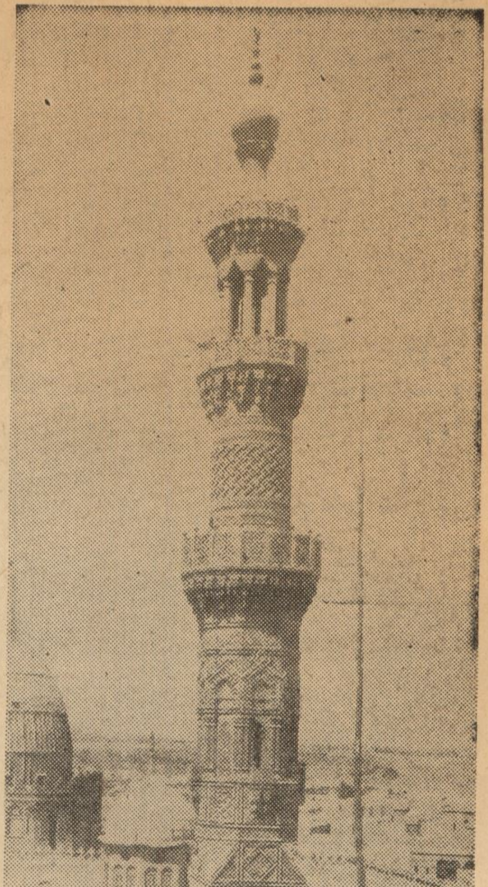

لوحة رقم « ٣ »
مئذنة ومنظر عام لمسجد الامام الشافعى - ويلاحظ رشاقة المئذنة وعظمة الزخارف التى بها

لوحة رقم «٤» تابوت الملك الكامل وبقيـــة الامام الشافعي

الخارج فوق حافة البذور . وهناك أربع نوافذ من هـذا النوع ارتفاع كل منها ٢٫٥٨ مترا وعرضها ١٫٤٠ مترا بحيث تكون كل نافذة فى جانب ، أما النوافذ الجصية المفرغة فترجع الى عهد الكامل .

وأعلى الاطار المربع الذى يحيط بهذه النوافذ يحدد قمة الدور السفلى من الخارج .

أما عن مواد البناء فيمكن القول ان الجزء الاسفل مبنى من كتل حجرية متوسطة الحجم اذ ان اربع صفوف منها تساوى ١٫٨٠ سنتيمترا وكل الكتل محفور بها حفر صغيرة لتثبيت الملاط ولا يزال الجزء الاكبر من الثمانية صفوف الأولى مغطاة به .

وفوق البروز يوجد ثلاثة صفوف من البناء ونهايات صف من الكتل الخشبية الصغيرة يمكن رؤيتها حول البناء . وفوق هذا الصف يوجد صف من الكتل الخشبية موضوعة وضعا جانبيا عند مبدأ أقواس النوافذ والفجوات الكاذبة .

أما عن القبة فانها مصنوعة من الخشب ويتكون من من عدد من الاضلاع الراسية قد ربطت بعضها ببعض بواسطة أضلاع أفقية وضعت فى أربعة مستويات فهناك ٩٩ ضلعا فى القسمين السفليين و ٤٨ فى كل من القسم الثالث والرابع و ٢٤ ضلعا فى الخامس . ويغطى هذه الاضلاع من الخارج طبقة من الرصاص مصبوبة ومسمرة عليها ويبطن هذه الاضلاع من الداخل ألواح من الخشب يزينها زخرفة من الرسوم الجميلة .

هذا وسمك القبة ٣٥ سنتيمترا ، ويوجد فى القبة نهاية من البرونز تحمل قاربا ايضا ويقول المؤرخ لين بول

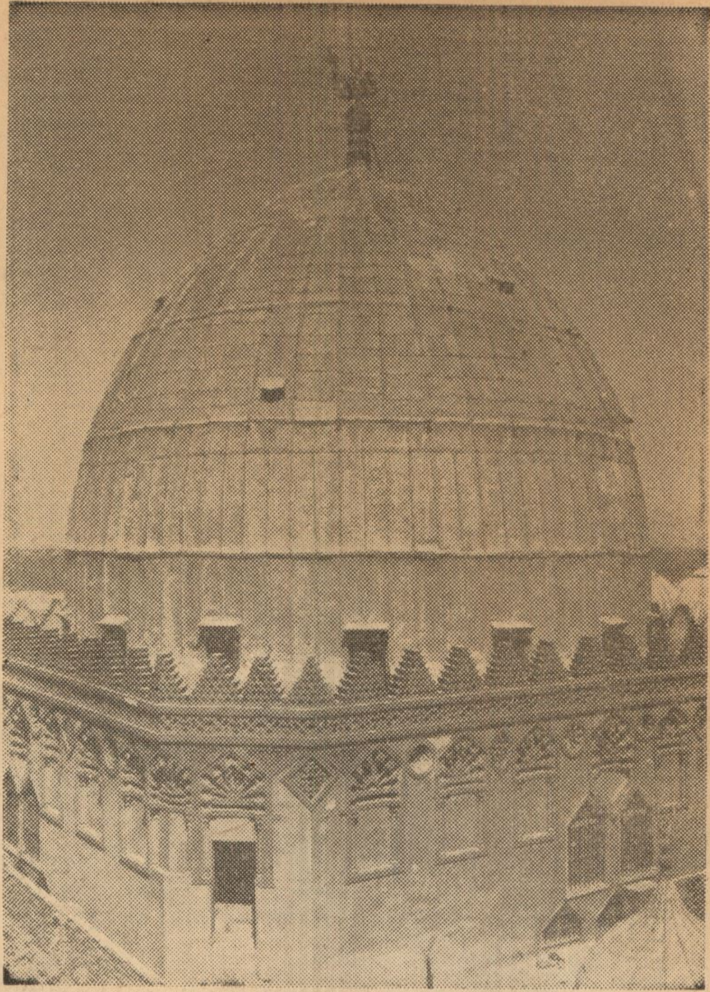

لوحة رقم «١» قبة الامام الشافعى من الخارج

ان هذا القارب كان يملأ بالحبوب كل شهر . أما الشعراء العرب فقد تغنوا بهذا القارب بمناسبة وجوده فى أعلى قبة الامام الشافعى فقال أحدهم :

اتيت لقبر الشافعى ازوره
تعرضنا فلك وما عنده بحر

فقلت تعالى الله تلك اشارة
تشير بأن البحر قد ضمه القبر

وقال شرف الدين البوصيرى صاحب البردة فى هذا المقام مايلى :

بقبة قبر الشافعى سفينة
رست فى بناء محكم فوق جلمود

ومذ غاض طوفان العلوم بقبره استو
ى الفلك من ذاك الضريح على الجودى

وتعرف هذه السفن بالعشارى ، والعشارى مركب صغير مثبت فى هلال القبة وتتدلى منه سلسلة من الحديد ، وكان يستعمله الملوك وكبار رجال الدولة ويقال ان السلسلة قد أعدت ليتسلقها الانسان لوضع الماء والحبوب للطيور ٠ وقد وجدت العشاريات قبل ذلك تعلو هلال منارة الجامع الطولونى بالقاهرة وبقيت بها الى ان سقطت سنة ١١٠٥هـ - ١٦٩٣ م ٠ وفى مدينة رشيد أيضا توجد عدة مراكب فوق منارات مساجدها ، كما يوجد مركب صغير فوق قبة خانقاه فرج بن برقوق بالصحراء شرق القاهرة .

وحسبنا ان نختم هذا المقال ببيتين من الشعر هما :

لقد أصبح الشافعى الاما
م فيناله مذهب مذهب

ولو لم يكن بحر علم لما
غدا وعلى قبره مركب

باب التحقيقات

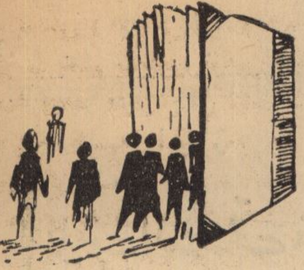

الإسلام والمسلمون فى أسبانيا

« ١ »

إعداد
رياض الدسوقى خليفة

اخى القارىء

منذ شهور قليلة . وعلى صفحات « منبر الاسلام » الغراء وتحت هذا العنوان : عشنا مع مسلمى الهندووقفنا على مدى النشاط العظيم للاسلام والمسلمين هناك وقدمت لك دراسة علمية وعملية عن مدى الارتباط الزمنى والروحى بين الاسلام والهند وأثر الثقافة الاسلامية على الادب والتفكير فى الهند ، واليوم : سوف نتكلم عن الاسلام والمسلمين فى اسبانيا عن الفردوس المفقود .. عن المجد السامق الذى عاش هناك ثمانية قرون .

وتاريخ الاندلس وقصة الاسلام هناك حافلة بالامجاد والبطولات فقد عاش مايقرب من ثمانية قرون يحمل مشاعل الحضارة لاوروبا كلها ويقيم العمران وينشر المدينة والعدل فى ربوع البلاد وقد دافع عن كيانه حتى آخر أيامه هناك دفاعا باسلا ولكن شاءت الاقدار أن تحل المأساة الدامية ويغادر البلاد أبو عبد الله - آخر سلاطين بنى الاحمر فى غرناطة - مغلوبا على أمره ويسدل الستار على أعظم قصة فتح فى التاريخ وعلى مجد تليد كان من الممكن أن يظل ممتدا ويمتد معه الاسلام الى اوربا واذن لامكن للعرب - عندها - أن يغيروا وجه التاريخ

لمحة تاريخية

ليس فى تاريخ الاسلام صفحة ابعث على الاسف وادعى الى الاسى والحزن من تاريخ الاندلس • فقد نهضت بها امة عربية قوية • وازدهرت فيها حضارة اسلامية عظيمة وعاشت دولة الاسلام بين ربوعها زهاء ثمانية قرون تشرق على الدنيا بانوار الحضارة والعلم والادب وتمتد باشعتها الوهاجة الى جوانب أوربا المظلمة

ثم بادت هذه الامة وانمحت تلك الحضارة • وطويت تلك الصفحة • وجلا المسلمون عن هذه الارض بعد ماعمروها • وصارت الاندلس بعد ذلك فى قلب كل عربى وكل مسلم : ذكر تثير اللوعة وتوقظ الحسرة وتعيد الى الاذهان قول الشاعر :

قلت يوما لدار قوم تفانوا
اين سكانك العزاز علينا
فاجابت : هنا اقاموا قليلا
ثم ساروا ولست اعلم اينا

ولم يكن الاسلام مجرد موجة عابرة طافت باسبانيا ثم انحسرت عنها • انما كانت حركة حضارية فعالة • خلقت فيها دولة اجتمعت لها أسباب القوة والسلطان فى الاندلس التى ان كانت بمدلولها الجغرافى تتراءى اليوم من خلال حجب التاريخ ، وكانها الفردوس المفقود الذى لم يبق منه الا اطياف الذكرى : فهى بمدلولها الحضارى : كيان حى فى جسم العالم الاسلامى بما أمدته من تراث ثقافى تمثل فى شعر شعرائها وادب أدبائها وعلوم علمائها وتفكير مفكريها

اسم الاندلس

لم تعرف شبه الجزيرة التى تشمل حاليا دولتى اسبانيا والبرتغال باسم الاندلس قبل ان تعرف المسلمين وانما عرفت فى أقدم عصورها باسم ايبريا • ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم اسبانيا وهذا الاسم قد اطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها •

فلما جاء المسلمون بعد ذلك اطلقوا على شبه الجزيرة جميعا اسم الاندلس • وظل مؤرخوهم وجغرافيوهم وسائر علمائهم وادبائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يريدون شبه الجزيرة الايبرية •

اسبانيا قبل الاسلام

يعتبر الايبيريون من اقدم من عرف من سكان اسبانيا وقد اختلط بهم قديما من يسمون بالسلتيين فنشا من هذا الاختلاط الشعب المسمى بالسلتى الايبيرى • وذلك الشعب هو اصل الشعب الاسبانى الذى اسهمت فى تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ •

ثم وفد الاغريق على شبه الجزيرة حوالى القرن السابع قبل الميلاد وأقاموا كذلك فى بعض جهاتها وبخاصة الجهات الشرقية وانشاوا أيضا من المدن مابقى بعضه حتى اليوم كمدينة برشلونة

وفى القرن الخامس قبل الميلاد نزل القرطاجنيون شبه الجزيرة واسسوا بها مدنا جديدة مثل مدينة قرطاجنة التى سموها باسم دولتهم فى شمال افريقيا

ثم بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة حول منتصف القرن الثانى قبل الميلاد حين تغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها وصارت بعد ذلك شبه الجزيرة ولاية رومانية •

وفى أوائل القرن الخامس الميلادى استقر «الوندلس» فى جنوب شبه الجزيرة • وقد ظل هؤلاء حينا فى شبه الجزيرة ثم أجلاهم عنها القوط الذين سيطروا فيما بعد على شبه الجزيرة تقريبا واسسوا ملكا كبيرا عاصمته طليطلة وقد ظل ملكهم حتى كان الفتح الاسلامى سنة ٧١١ م

وقد سار القوط أول الامر سيرة حسنة فى اسبانيا ثم مالبثوا أن اساءوا الحكم • فاساءوا الى أنفسهم والى الاسبان جميعا وذلك لانهم أخلدوا الى الملذات وتركوا الشعب نهبا للآلام وقد ادى كل هذا الى كراهية الشعب للحكام ورجال الدين • وقد كان للمنازعات والخلافات التى سادت اخيرا أثر كبير فى هز العرش القوطى بشدة وقد تجمعت فى أواخر العهد عوامل سيئة كانها قطع الليل المظلم الذى تتطلع فيه العيون متلهفة الى فجر جديد •

قصة الفتح العربى للاندلس

لقد كان عهد الوليد بن عبد الملك من العهود المذكورة فى تاريخ الفتح الاسلامى • بلغت فيه الجيوش الاسلامية اطراف العالم المتحضر فى عصره • فبينما كانت جيوش المسلمين تضرب فى سمرقند والهند سنة ٩٢ هـ ٧١١ م كانت جيوش طارق بن زياد وموسى بن نصير تدق ابواب اسبانيا وما لبثت ان انقضت على جيش « رذريق

» آخر ملوك القوط الغربيين فشتتت شمله فى واقعة وادى لكة • وكانت وقعة حاسمة • مضى بعدها طارق وموسى بن نصير يوطئان أكناف شبه الجزيرة ويضمانها الى حظيرة الاسلام •

وقد كانت اسبانيا أول موطىء لاقدام العرب في أوربا اتجهت اليها أنظار الفاتحين بعد ماتم لهم الاستيلاء على مصر وشمال أفريقية . وتحول غالبية اهالى تلك البلاد والامصار الى الاسلام ومن هؤلاء أهل طنجة فانهم أسلموا . وبلغت حاميتها عدة الاف من الفرسان المسلمين تحت قيادة طارق بن زياد « البربرى »

وكان يحكم اسبانيا فى ذلك الحين « رذريق » الذى لم يكن من الاسرة المالكة بل كان من قادة الاسبان تولى الملك عقب مقتل الملك عطيتشه مما زاد الجفوة بينه وبين يوليان حاكم سبتة . ومن أجل ذلك اذعن هذا لطاعة موسى بن نصير والى المغرب ثم حرضه على فتح اسبانيا انتقاما من رذريق لعداء شخصى بينهما . وفى ابريل عام ٧١١ م سنة ٩٢ هـ : جهز موسى نحو ١٢ الفا من الفرسان تحت امرة طارق بن زياد لفتح الاندلس فتوجهوا بصحبة يوليان وعبروا المضيق فى السفن ونزلوا بالقرب من الجبل الذى خلع طارق اسمه عليه وأصبح يعرف منذ ذلك الحين بجبل طارق . وفتحوا حصن قرطاجنة فى سفحه

ثم انسابوا فى البلاد حتى التقى الجيش العربى بالجيش الاسبانى على شواطىء وادي لكه « نهر لكه » فلما شاهد طارق كثرة أعدائه كتب الى موسى يستنجده فارسل اليه خمسة آلاف من فرسان البربر

وقبل اشتباك الفريقين خطب طارق بن زياد خطبته المشهورة التى تعد من أروع أمثلة الخطب الحماسية والحث على الجهاد والتى قال فيها : « أيها الناس :

اين المفر البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة اضيع من الايتام فى مادبة اللئام الخ .. » فلما سمعوا كلامه الذى كان له فى نفوسهم فعل السحر - ثارت حميتهم ووطدوا نفوسهم على الموت والاستبسال فى قتال العدو ثم التحم الجيشان ووقعت معركة استمرت ثلاثة أيام ودارت فيها الدائرة على جيش « رذريق » فتفرق شذر مذر وغرق الملك ومن كان معه فى النهر ثم اقتفى طارق أثر المهزومين وأخضع عدة بلاد .

الاسلام فى الاندلس بعد الفتح

انتشر الاسلام بسرعة بين سكان شبه الجزيرة . ولعل من أهم أسباب ذلك : أن الارقاء الذين كانوا يرزحون تحت نير الاشراف فى العهد القوطى قد وجدوا فى الاسلام طريقهم الى الحرية ، فاقبلوا عليه ليفك أغلالهم ويعيد كرامتهم . على أن الارقاء لم يكونوا وحدهم الذين اعتنقوا الدين الاسلامى فى سرعة من بين أبناء شبه الجزيرة : فقد شاركهم فى هذا الاقبال عليه كثير من الاحرار . أعجب بعضهم بالاسلام والمسلمين واحب بعضهم الآخر ان يحافظ على الارض التى تحت يده ، أو ان يخلص نفسه من عبء الجزية . او ان يرفع مكانته الاجتماعية بالانضمام الى الممتازين اصحاب الدين الجديد وأولى الامر أيضا .

ويستطرد الدكتور احمد هيكل فى الحديث عن ذلك فيقول :

ولذا لم يلبث الاسلام ان نحى النصرانية عن عرشها فى شبه الجزيرة ، وصارت الغالبية العظمى من سكان الاندلس من المسلمين . وانما قلنا الغالبية العظمى . لان المسلمين لم يكونوا ليعيشوا وحدهم فى هذا المجتمع الكبير بل كانت تشاركهم أقلية من المسيحيين وقد ترك المسلمون لهؤلاء المسيحيين حريتهم فى البقاء على دينهم وفى مزاولة شعائرهم . فتجاورت المساجد والكنائس فى سماحة . واختلطت نداءات المآذن بدقات الاجراس فى محبة . وتعايش المسلمون والمسيحيون فى الاندلس على أخوة .

وقد بهرت الحضارة الاسلامية هؤلاء المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين فى الاندلس . فاخذوا من هذه الحضارة ومن أصحابها الشىء الكثير ، فقلدوا المسلمين فى لغتهم وتعلموا ثقافتهم . بل لبسوا ملابسهم وعاشوا على نمطهم ولذلك سموا بالمستعربين

وقد كان الى جانب هؤلاء المستعربين جاليات يهودية .. وجدت من المسلمين كثيرا من التسامح وحسن المعاملة . بعد أن وجدت فى فتحهم لاسبانيا منفذا من الجور الذى كان اليهود يرزحون تحت نيره أيام القوط ولقد بلغ من تسامح مسلمى الاندلس مع اليهود . ان نال بعضهم مناصب رفيعة فى الدولة مثل « حسداى ابن شيروط » الذى كان وزيرا لعبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الاندلس . ومثل صمويل بن النغرلى الذى كان وزيرا لباديس ملك غرناطة فى عهد الطوائف

واذا استثنينا بعض الحوادث القليلة يمكن أن يقال ان تلك الاقليات غير المسلمة لم تضطهد من المسلمين الا حين سيطر الافارقة من مرابطين وموحدين على الاندلس

عنصران اساسيان

وفى الحقيقة فقد كان هناك عنصران اساسيان جعلا سرعة الفتوح الاسلامية أشبه ما تكون بالاساطير . والعنصران هما ..

أولا : العنصر العسكرى ويتمثل فى القوة المعنوية الحربية الهائلة . التى اخرجت خبئها شبه الجزيرة العربية واحتفظ بها الزمن لهذا العصر المشهود . عصر الانسانية الزاهر ومجدها اللامع .

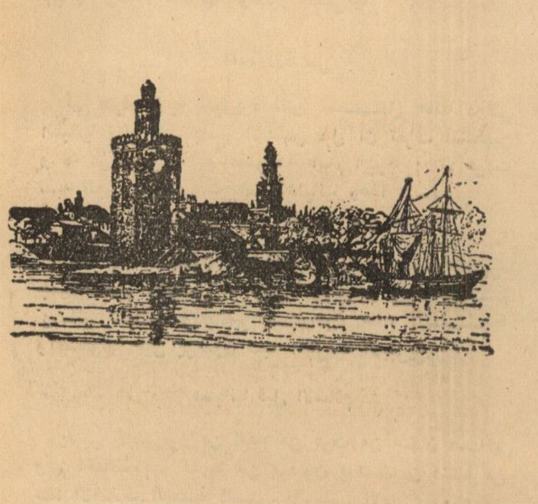

ثانيا : كان هؤلاء العرب يحملون لواء حضارة جديدة تفوقت على حضارة الشعوب المغلوبة . فانساب الفتح الاسلامى فى طريقه كالسيل الدافق فى افريقيا وآسيا وحطم دولتين عظيمتين كان بيدهما زمام العالم ومصيره اذ ذاك .

وهكذا دخل المسلمون اسبانيا وكان لهم فيها دولة بل دول ومرت عليهم احداث تاريخ طويل وتتابعت على البلاد اشكال من الحكم وصنوف من الحاكمين . وسوف نشير الى ان هذا التاريخ الطويل الذى قارب ثمانية قرون يقسم عادة الى عصور سنذكرها تباعا .

الاندلس .. وعصور الحكم الاسلامى

مرت بالاندلس ايام الاسلام عصور كثيرة تحمل الوانا متعددة من مظاهر الحكم وهى على الترتيب :

١ - عصر الولاة : بعد ان تم فتح العرب للاندلس سنة ٩٢ هـ ٧١٢ م وصارت ولاية من ولايات الدولة الاسلامية يرسل اليها خلفاء بنى امية فى المشرق ولاة يتولون امورها . وقد امتد عصر الولاة الى سنة ١٣٨ هـ ٧٧٥ م وبلغوا فى هذه الفترة نحو العشرين واليا .

ويدلنا هذا العدد الكبير من الولاة فى هذا الامد القليل على ان البلاد اصبحت مسرحا للفتن والاضطرابات والواقع أن هذا العهد كان عهد انتقال من الحكم القوطى البائد الى الحكم الاموى المستقر .

وفى هذا العهد الذى تتابع فيه الولاة فى الاندلس من قبل امراء افريقية تولى حكم الاندلس عبد الرحمن الغافقى الذى غزا الفرنجة وكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم فى اربونة وبرديل عند مصب نهر الجارون ولكنه انهزم امام شارل مارتل قائد الفرنجة على أبواب فرنسا فى منطقة تقع بين مدينتى تور وبواتييه .

وعرفت تلك الموقعةببلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من المسلمين وسوف نتكلم عنها تحت عنوان خاص

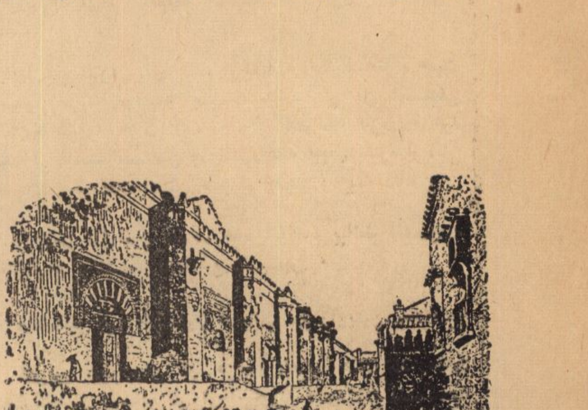

٢ - عصر الدولة الاموية : وفيها آل الامر الى الامويين (١٣٨-٤٢٢ هـ) على يد عبد الرحمن بن معاوية (صقر قريش) وتتابع الملوك من بعده من الامويين . وفى هذه الفترة استقل الملوك بالبلاد دون تبعية . واصبحوا يصرفون امورها ويديرون سياستها بكل قوة وعناية حتى كان هذا العصر ازهى عصور الحكم العربى فى الاندلس .

وفيه اصبحت الاندلس لبنى امية الذين كانوا يخطبون لانفسهم بالامارة أولا ثم تجراوا فنادوا بانفسهم خلفاء للمسلمين وارتفع مستوى الحياة فى عهدهم لدرجة لم تعرفها أوربا المعاصرة

٣ - عصر ملوك الطوائف

وفيه انتثر عقد الخلافة الاموية ودب الضعف فى جسم الخلافة فى الاندلس وانسلخ حكام الاقاليم عنها واحدا بعد الآخر واستقل كل حاكم عربى بما فى يده من بلاد . فكان بنو عباد باشبيليه وبنو جهور بقرطبة . وبنو الافطس ببطليوس . وبنو ذى النون بطيطلة .

ويعتبر عصر هؤلاء الملوك من ازهى عصور الحضارة الاسلامية عامة على الرغم من انه كان عصر انحلال سياسى وذلك لحرص كل دولة من الدويلات على منافسة قرطبة فى عنايتها بالعلوم والفنون

ويعتبر انقسام حكام المسلمين فى الاندلس فى هذا العصر مقدمة لضعف نفوذ العرب فى الاندلس عامة بينما تمهد السبيل امام اشراف الاسبان والقوط الرابضين فى الشمال لاسترداد بلادهم

٤ - عصر المرابطين والموحدين

وفيه انتهى أمر الاندلس الى يد المرابطين والموحدين (٤٨٤-٦٢٩ هـ) فقد كان طبيعيا أن يستعين عرب الاندلس باخوانهم فى الجنس والدين . وكان اقرب العرب اليهم: امراء بلاد المغرب حيث قامت فى ذلك الوقت دولتان فتيتان كان لهما شان يذكر . لا فى تاريخ المغرب والاندلس فحسب بل فى التاريخ العربى كله هما دولة المرابطين والموحدين الذى وضع نواة كل منهما داعية دينى التف حوله خلق كثير آمنوا بدعوته وتحمسوا لها ودفعهم حماسهم الى الغزو .

وانما سموا باسم المرابطين : لانهم كانوا يلازمون الثغور دفاعا عن الاسلام .

٥ - دولة بنى الاحمر :

ولما ضعف أمر الموحدين فى الاندلس وأخذت قواعد ملكهم تخرج من أيديهم تباعا : ظهرت دولة بنى الاحمر (٦٢٩-٨٩٧ هـ) وبرز على المسرح محمد بن يوسف المعروف بابن الاحمر . وقد استطاع أن يشق لنفسه طريقا وسط تلك الفوضى التى كانت سائدة فى الاندلس وقد نجح فى اقامة مملكة فى غرناطة ولكن مالبثت الريح أن هبت عاصفتها الاخيرة وانتهى الامر بغلبة الفرنجة : اذ تفرق المسلمون طوائف وشيعا . وانقسمت دولتهم الى دويلات صغيرة اضعف بعضها بعضا

ولما جاءت سنة ٨٩٧ استولى « فيرديناند » و «ايزابيلا» على آخر بلاد المسلمين وحرما على سكانها جميعا اقامة شعائر لاسلام ..

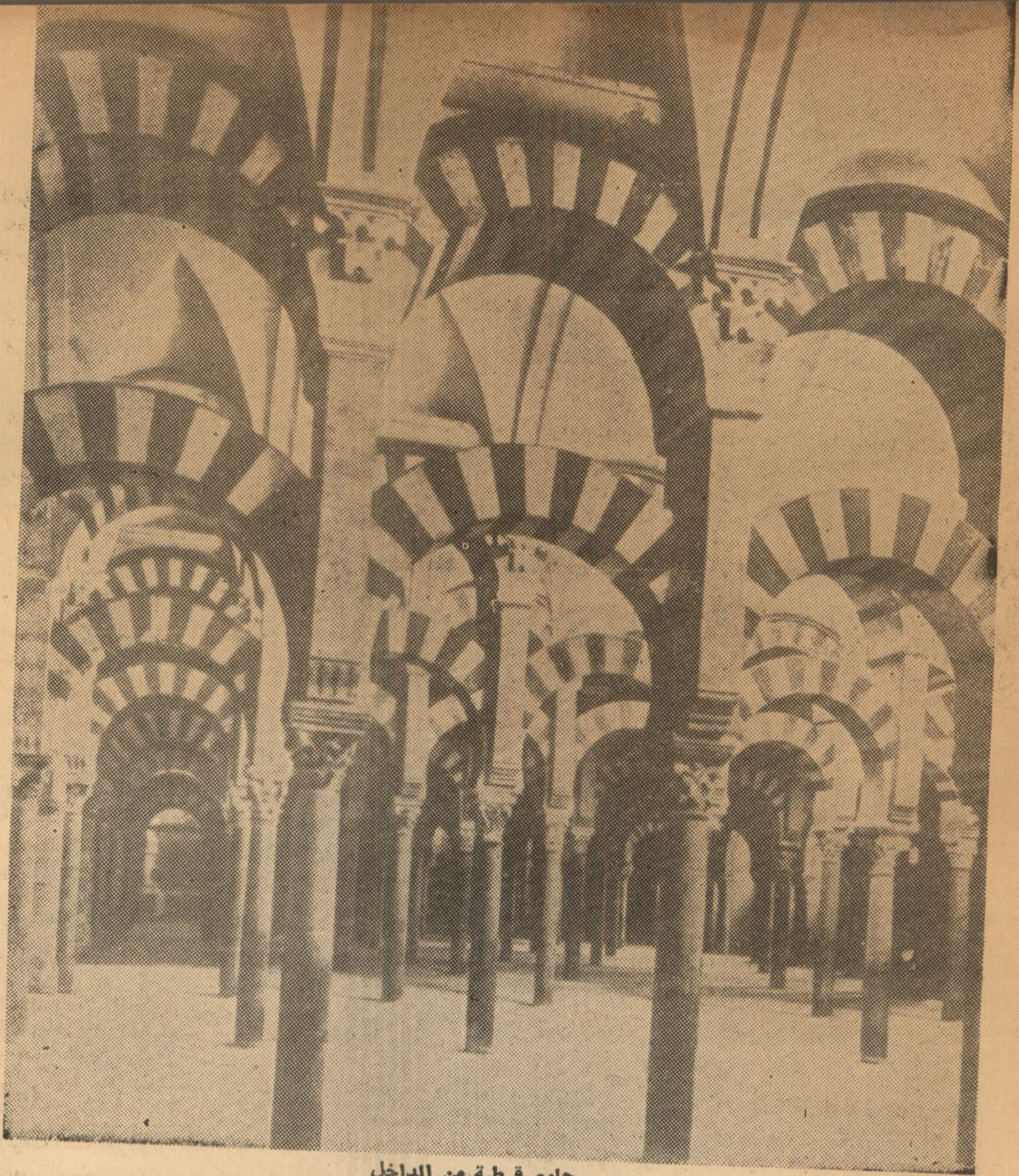

جامع قرطبة من الداخل

على ان بعض الباحثين يولد من تلك العصور عصرين آخرين • فيجعل فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين عصرا • ويجعل كذلك فترة مابين عصر الموحدين والعصر الغرناطى عصرا آخر • ويسمى الاول عصر الطوائف الثانى ويسمى الآخر عصر الطوائف الثالث • وذلك لوجود عصر أول يسمى عصر ملوك الطوائف الذى جاء على أعقاب سقوط الحكم الاموى فى الاندلس •

كما أن البعض يضم الفترات الاولى من الدولة الاموية وهي الفترات التى سبقت خلافة عبد الرحمن الناصر يضمها الى فترة مابعد الفتح الاسلامى • ويسمى كل ذلك عصر الامارة • ويعنى بذلك كل ماقبل الخلافة او عصر الامارتين • ويعنى بذلك كل ماقبل الخلافة • أو عصر الامارتين ويعنى بذلك امارة غير الامويين ثم امارة الامويين •

وقفة للتاريخ •• فى موقعة بلاط الشهداء

لقد حكمت الاندلس من دمشق تسعا وثلاثين عاما • اختلف عليها فيها من الولاة عدد كبير • ونجح العرب خلالها فى التوغل فى قلب فرنسا « كما قدمت » حيث وصلوا مدينة بواتييه بقيادة عبد الرحمن الغافقى ولكنهم هزموا هناك امام جيوش الفرنجة هزيمة مرة فتت فى عضد المسلمين وأوقفتهم عند جبال البرتات التى اصبحت منذ ذلك الحين حدا لم يتجاوزوه بعد ذلك •

ويسمى المؤرخون العرب هذه الواقعة ببلاط الشهداء لكثرة ما استشهد فيها من المسلمين •

وقد نظر اليها المؤرخون الاجانب من زاويتين مختلفتين

ففريق منهم راى ان هزيمة العرب هناك قد حالت دون انتشار الاسلام فى ارجاء أوربا • ومكنت للمسيحية فيها • وحمتها من هذا الدين الجديد الذى وجد سبيله الى نفوس الملايين من المسيحيين فى البلاد الاخرى

وفريق آخر : راى أن هزيمة العرب فى هذه الواقعة قد اخرت اوربا فى ميدان الحضارة سنين عددا • وهذا لعمرو الحق هو الواقع • فلو ان العرب نجحوا فى

التوغل داخل اوربا . لاستيقظت من سباتها وبدات عصر نهضتها قبل التاريخ الذى قامت فيه هذه النهضة بعدة قرون .

وينبغى هنا أن نذكر ماكتبه البروفسير « كلودفارير» عضو الاكاديمية الفرنسية فى هذا الموضوع فقد كتب يقول :

« فى عام ٧٣٢ م ألمت بالانسانية كارثة قد تكون اكثر الكوارث شؤما فى العصر الوسيط كله . وقد غرق فيها العالم الغربى طول سبعة قرون او ثمانية فى مهاوى بربرية كان عصر النهضة قد بدأ يبددها والتى قواها عصر الاصلاح من جديد .

هذه الكارثة التى اكره حتى ذكرها هى الانتصار المقيت الذى احرزه متوحشو الهاركاس من محاربى الفرانك بقيادة الكاردلنجى شارل مارتل على الكتائب العربية والبربرية .. لقد تقهقرت المدينة فى هذا اليوم المشئوم ثمانمائة عام

الاسلام المناضل .. فى الاندلس

وقد عاشت الدولة الاسلامية فى اسبانيا فى صراع دائم مع الدول والممالك المسيحية . ومن هذا الصراع تالف تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى .

فشان هذه الدولة لم يكن كشان الدول الاسلامية الاخرى التى استقرت فيها الحياة ولم تلق مقاومة وغزوا متصلا من جيرانها : وانما عاشت والسلاح فى يدها والغزو يطرق ابوابها والعدو يتربص بها الدوائر فى كل حين لهذا لم تقل بعد الانتصار : وداعا للسلاح

وربما كان السبب فى ذلك هو بعد هذه الدولة عن بلاد المسلمين .فقد كانت فى الطرف الاقصى من ديار الاسلام . تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيانها دون أن تهب لنجدتها دولة اسلامية أخرى .. الا ماكان من دول افريقيا الشمالية التى كانت تسارع الى نصرة الاسلام كلما تهدده الخطر .

فالعامل الجغرافى اذن : كا بعيد الاثر فى غربة الاسلام فى اسبانيا . غير أن العامل القومى لم يكن باقل اثرا منه

فالمسلمون فى الاندلس كانوا بازاء امة مقاتلة استيقظ فيها الوعى القومى فى وقت مبكر . وقد فتح العرب اسبانيا . وقلوبهم يضيئها الدين الجديد . ويدفعهم الايمان به الى نشره واعلاء كلمته ويحملون معهم تراثا حضاريا لايبلغ شأوه ماعرفته اسبانيا .

فمنذ مطلع القرن الثامن : اخذت الحضارة الاسلامية تكسف ماعداها من الحضارات . ولم يعد البحر الابيض المتوسط بحيرة رومانية . بعد أن انتقلت شواطئه الجنوبية والشرقية والغربية الى أيدى المسلمين . ودارت اسبانيا فى فلك الاسلام يبث فيها من حضاراته ما اثر فى كيانها تاثيرا قويا تناول كل شىء من نواحى الحياة

مؤرخو الاسبان .. والحضارة العربية

قبل ان نخرج للكلام عن الآثار العربية فى الاندلس تلك الآثار التى تجسد تاريخ المسلمين هناك نحب ان نقف قليلا بين يدى التاريخ متاملين فى تلك الاقوال التى ذهب اليها بعض مؤرخى الاسبان عند تقديرهم لاثر الحضارة العربية فى تاريخ بلادهم .

خريطة الأندلس
فى العصر الوسيط

ويستعرض السيد الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق هذه القضية فى كتابه قصر الحمراء فيقول :

هناك فئة من هؤلاء المؤرخين تنكر على العرب فضلهم فى ترقية بلادهم وتحملهم المسئولية فى كل مانزل باسبانيا من كوارث ، وهم يعتقدون انه لولا الفتح العربى لكانت اسبانيا فى طليعة الدول الاوربية من حيث التقدم والرقى

ويستطرد سيادته فيقول :

واغلب الظن أن الدافع الى هذا الحكم الجائر الذى لاسند له من الواقع : هو التعصب للجنس والرغبة فى محاولة ارجاع اصول الحضارة الاوربية بما فيها من حضارة اسبانيا الى اليونان والرومان بحق وبغير حق . وثانيا التعصب للدين . فقد كان التسامح الدينى امرا غير معروف عند الاوربيين فى القرون الوسطى .

ثم يعبر عن رايه الخاص فيقول :

والواقع الذى لاسبيل الى نكرانه هو أن راى هذه الفئة من المؤرخين لم يعد احد يقيم له اى وزن بل ينظر اليه بعين الاحتقار والازدراء . فالامر الذى لامشاحة فيه هو أنه فى الوقت الذى كانت فيه اوربا تعيش فى ظلمات الجهالة والفساد : كان العرب فى اسبانيا قد اقاموا حضارة زاهرة .

ولقد لعبت اسبانيا العربية دورا هاما فى تطوير العلم والفن فى اوربا . وكانت هى حاملة مشعل الحضارة تبدد به سحب الجهل وتنير به ارجاء اوربا المظلمة .

هذا ولن يتسع هذا التحقيق « مرة واحدة » للكلام عن الاندلس من جميع الزوايا بل سنتتبع هذا التحقيق بآخر وآخر حتى يمكن أن نلم بحياة الاسلام فى اسبانيا والآثار المعمارية والادبية والفكرية وملامح الحياة العربية وانطباعاتها فى جميع الجوانب والى العدد القادم .

« للموضوع بقية »

باب المرأة

أم حبيبة

رضى الله عنها

اعداد عائشة حسنى

وهذه سيدة لها صفحة فى التاريخ مشرقة من أطهر النواحي وأنقاها وأشدها احساسا فى الاسلام .

هى السيدة رملة بنت أبى سفيان

مجاهدة كبيرة ذات صلاح ودين واعتماد على النفس ، أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش الى الحبشة فى الهجرة الثانية .

كان أبوها أبو سفيان عدو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمحرض على قيام موقعة بدر ، قائد المشركين فى أحد والخارج على رأس الأحزاب مجتمعة لقتال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

هاجرت رملة مع زوجها فلاقت من عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وتنكر آبائها وأجدادها لها فى سبيل اعتناقها للاسلام .. ولكنها ما لبثت أن أدركت أن زوجها عبد الله قد ارتد عن دينه واعتنق « النصرانية »

فثبتت هى على دينها « الاسلام » الى أن توفاها الله ..

أغلقت أم حبيبة الباب عليها وعلى ابنتها حبيبة - التى لقبت بها - لا تريد أن تلقى الناس فى مهجرها وذلك لأنها لاتستطيع أن ترجع الى أرض الوطن حيث أبوها المشرك بالله ورسوله .

فى ذلك الوقت كان محمد - عليه الصلاة والسلام - ينتقل من نصر الى نصر .. يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويهديهم صراطا مستقيما .. يربط بين قلوب تناحرت ويؤلف بين أفئدة تباعدت ، ويوحد الصفوف التى ظلت مدة طويلة على الكفر والعدوان ..

وكان يراسل الملوك والأباطرة ، كى تعم دعوته الجميع فيسود دينه الجديد بين طبقات الشعب ويخرج رجاله سائلين عن طريق الهداية والرشاد .

فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رسولا الى النجاشى - ملك الحبشة -

يدعوه الى الاسلام ، ولم ينس أم حبيبة بنت أبى سفيان التى أقامت فى المهجر بعد موت زوجها عبد الله بن جحش الذى ارتد عن الاسلام ، وثبتت هى على دينها ، لم ينس تلك المجاهدة ، الصابرة ، المؤمنة ، الصادقة .. فطلب منه أن يخطبها له .

تقبل النجاشى رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - بالرضا ورد عليها ردا طيبا وحمى المسلمين من أعدائهم « المشركين » وقبلهم مهاجرين فى دياره كما انه رحب بأن يكون سفيرا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - فى اتمام زواجه بأم حبيبة .

وهنا نترك أم حبيبة تقص علينا بنفسها زواجها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« رأيت فى النوم عبد الله بن جحش زوجى بأسوأ صورة ففزعت وقلت ، تغيرت والله حاله .. فاذا هو يقول : حيث أصبح يا أم حبيبة : انى نظرت فى الدين فلم أر دينا خيرا من النصرانية .. وكنت قد دنت بها ثم دخلت فى دين محمد ثم قد رجعت الى النصرانية ، فقلت : والله ما خير لك .. وأخبرته بالرؤيا التى رأيت له فلم يحفل بها وكب على الخمر حتى مات .

وفى ذلك الوقت رأيت فى النوم كأن آتيا يقول يا أم المؤمنين ففزعت فأولتها أن رسول الله يتزوجنى . فما ان انقضت عدتى حتى أنى شعرت برسول النجاشى يطرق بابى ففتحت ، فاذا بى أمام جارية يقال لها ابرهة فدخلت على وقالت لى بأن الملك يقول لك ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب الى أن أزوجك فقلت بشرك الله بخير وراجعت ما قالته لى ابرهة مرة ومرتين وثلاثا حتى استيقنت البشرى وأعطيتها الحلاوة وهى سوارين من فضة وخواتيم فضة كانت فى أصابع رجلى سرورا بما بشرتنى به . وقالت: يقول لك الملك وكلى من يزوجك . فأرسلت الى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته .

وفى المساء دعا النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن فى الحبشة من المسلمين وخطب فيهم :

« ان محمد بن عبد الله كتب لى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأجبت الى ما دعا اليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصدقتها أربعمائة دينار ..

وسكب الدنانير ، فقام خالد وقال :

« قد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وزوجته أم حبيبة» وقبض الصداق .

وأقام النجاشى وليمة الزواج ، فأكلوا وأثنوا على كرمه وتسامحه ثم أتوا الى مهنئين مباركين .

وفى الصباح جاءت ابرهة تحمل الى هدايا نساء الملك من عود وعنبر وطيب ، فقدمت اليها خمسين دينارا من صداقى وكنت قد أعطيتها بالأمس السوارين ولكنها أبت أن تمس الدنانير وردت السوارين وأخبرتنى بأن الملك أجزل لها العطاء وأمرها ألا تأخذ منى شيئا . كما أمر نساءه بأن يبعثن الى بما عندهن من طيب . وتقبلت الهدية شاكرة ، واحتفظت بها حتى حملتها معى الى بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - » .

وقيل ان خالد حينما دفعت اليه الدنانير وأراد القوم الانصراف أبى وقال بأن سنة الأنبياء اذا تزوجوا أن يقدموا الطعام لمن حضروا الزواج ثم دعا بطعام فأكلوا وتفرقوا .

كيف كان زواج أم حبيبة من الرسول فتحا سياسيا عظيما :

ان زواج النبى من أم حبيبة كان نصرا سياسيا على أكبر عدو له ولدينه ، والنصر على زعيم قريش نصرا كبيرا أملته عليه هذه السيدة المهاجرة ، المجاهدة التى مات زوجها فأراد اكرامها وصيانتها واعلاء مكانتها ، بأن جعلها أم المؤمنين .

أراد النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يقوم بمناورة سياسية رشيدة ، فراقت له

فكرة خروجه الى مكة قاصداً الكعبة لا يريد القتال بل لعرض جيشه العظيم أمام المشركين ليروا قوة الاسلام وقد أصبحوا كثرة ترهب العدو ويؤكد لهم أن الله لا بد أن ينجز وعده وينصر رسوله ٠

وبذلك حقق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ رغبته وخرجت جموع المسلمين عبر الصحراء الى قريش ٠ وخرج محمد ومعه زوجته أم سلمة وكان النبى قبل أن يبدأ جيشه بالسير أرسل رسولا يتطلع له الأنباء ٠

غادر الرسول يخبر النبى بأن قريشا سمعت بنبأ خروجه وأنهم أعدوا العدة للقائه ومنعه من الوصول الى البيت العتيق ، وكان رأى أبى بكر فى ذلك بأنهم يخرجون قاصدين البيت العتيق لا يقاتلون أحدا الا من يصدهم فتكون الحرب بينه وبينهم ، ووافق النبى على ذلك ولكن ما أن وصلوا الى الثنية التى يهبط منها الى مكة ٠٠ حتى بركت ناقة الرسول فأمر النبى بربطها ٠٠ وكان فى ذلك حكمة بالغة لأنه لو سارت الناقة وتبعها المسلمون لقام المشركون وصدوا النبى عن دخول الحرم ، واطمأن محمد لذلك لأنه لم يخرج قاصدا حربا بل أراد العمرة ٠ كما أنه أراد أن يبين لأعدائه قوة جيشه حتى يطمئن المستضعفين بأن هناك قوة تحميهم ٠٠

ارتجفت قريش بقدوم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجاله وأرسلت تستطلع خبر قدومه وقوة جيشه ، ولكن النبى طمأنهم بأنه قاصد زيارة البيت العتيق وأداء شعائر الحج ٠ فأرسلوا اليه الرسل يسألونه عما يريد فيملى عليهم رغباته ويقبلونها ، وبذلك كان صلح الحديبية بينه وبين المشركين ٠

وأهم ما جاء فيه أن ينصرف المسلمون عن مكة عامهم هذا على أن يأتوا حاجين فى العام التالى فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى أغمادها ٠٠ ولا سلاح غيرها ٠٠ كما اتفق الطرفان على أن يكون لكل منهما حق التحالف مع أية قبيلة تقبل ذلك وأن يرد محمد من يأتيه من قريش بغير اذن وليه ٠ أما من يأتيهم من رجال محمد فلا يردونه اليه ٠

والذى نستدله من ذلك بأن النبى كان يرفض ضعاف الاسلام وصغار النفوس ٠

وبذلك أقاموا فى الحديبية أياما ليرجعوا بعدها الى المدينة فى انتظار العودة الى مكة فى العام المقبل ٠ وفى طريقهم للعودة نزل الوحى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله تعالى :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » ٠

نستدل على هذا أن صلح الحديبية كان فتحا مبينا ٠٠ استطاع فيه النبى أن يأمن غدر قريش وأن يعزز مركز المسلمين ٠

استقر رأى المشركين على أن يوفدوا رسولا منهم الى المدينة يفاوض محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين ، وكان هذا الرسول أبا سفيان ابن حرب ٠

خرج أبو سفيان يريد المدينة وهو مكره وفوجئت به أم المؤمنين يدخل بيتها ولم تكن قد رأته منذ أن هاجرت مع زوجها ٠

وهنا يتضح لنا شخصية أم حبيبة وحبها للاسلام ٠

أدرك أبو سفيان ذلك وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش « فراش رسول الله » ، فطوته عنه ٠ فقال : يا بنية والله ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس فلا أحب أن تجلس عليه ٠ قال أبو سفيان : والله قد أصابك يا بنية بعدى شر ٠٠ ثم خرج غاضبا ٠

ذهب الى النبى فكلمه فى العهد فلم يجبه بشىء ٠٠ فلجأ الى أبى بكر يتوسل به ولكنه رفض ٠٠ كما لجأ الى عمر فرد عليه فى غلظة وجفاء :

« أنا أشفع لكم ، أمام رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به ! »

ثم لجأ الى على بن أبى طالب والى زوجته فاطمة ابنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن بدون جدوى .

وما سمعت بذلك أم حبيبـة حتى أيدت رسول الله ودعت له بالنصر . فقد كانت من خير الأزواج قوية الايمان بالله ورسوله .. فوقفت بجانب زوجها بايمان وعـزم تؤيده على أداء رسالته ورفع راية الاسـلام أمام أبيها عدو الاسلام وقومها المشركين .

وفى شدة حيرتها ودقة معرفتهـا توجهت أم المؤمنين الى السماء تدعو الله أن يهـدى أبا سفيان الى الاسلام !

وتذكرت ما نزل من آى الكتـاب الكريم حين تزوجها رسول الله :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذيـن عاديتم منهم مودة » .

ثم شاعت البشرى الى المدينة بما حققه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من نصر ، وترقب أبو سفيان مصيره وظل فى حيرة .. ولكن رسول الله كان أحلم منه فأمر بمجيئـه - حضوره - الى مجلسه وكان فيه كبـار المهاجرين والأنصار . وقال له النبى :

« ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا اله الا الله ؟

فأجاب : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمـك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره ما أغنى عنى شيئا بعد » !

قال الرسول : ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

فأجاب أبو سـفيان : بأبى أنت وأمى .. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هـذه ، ففى النفس منها شئ .

وأعلن أبو سفيان اسلامه .. فقال النبى : نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسـجد الحرام فهو آمن » .

وبعث بمن نادى فى مكة هذا النداء :

وبذلك دخل الفرح قلب أم حبيبـة وأحست بأن أزيح عنها عبء ثقيل فهـا هو أبوها الذى كان عدو رسول الله - عليـه الصلاة والسلام - أعلن اسـلامه وكرمه الرسول باعلانه « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. »

وفاتهـا :

وحين حضرتها الوفاة دعت عائشة - زوج النبى فقالت : قد يكون بيننا ما بين الضرائر فغفر لى ولك ما كان من ذلك . فقالت عائشة : غفر الله لك ذلك كله وتجاوز وحلك من ذلك . فقالت لها أم حبيبـة سررتنى سرك الله .. وأرسلت الى أم سلمة فقالت لها مثل ما قالت لعائشة ..

وهنا تتضح لنا شخصية أم حبيبة الطاهـ الحليمة ... وتوفيت بالمدينة سـنة ٤٤ .. وقيل سنة ٤٢ هـ ، كما قيل غيـر ذلك ..

دور المرأة السورية في حركة الاستقلال

لقاء مع الأستاذة عزيزة مريدن

إعداد نجاة الزنيري

لسوريا الشقيقة تاريخ مجيد سطرته بجهاد ابنائها البواسل وتضحياتهم الخالدة ٠٠فمنذ ان دخل الفرنسيون دمشق وفرضوا حمايتهم على سوريا بعد معركة (ميسلون) ١٩٢٠ ٠ وشعب سوريا فى صراع مرير ضد الغاصبين٠ صراع تشترك فيه جميع مدن سوريا بالمقاومة العنيفة والثورات معلنة غضبتها على المستعمرين ٠٠ حتى اذا جاء عام ١٩٢٢ اندلعت شرارة الثورة الشاملة ضد قوى الاحتلال فى معركة كبرى بقيادة (سلطان باشا الأطرش) زعيم الدروز ـ وتغلب الثوار الأحرار على الجيوش الفرنسية المحلية وأنزلوا بهم الهزائم المتلاحقة. وفى خلال سنوات من هذا الكفاح استطاعت ان تستخلص بعض حقوقها ٠٠ ومرة أخرى عادت قوات الاحتلال الفرنسى الى انتقامها الوحشى الرهيب فقامت بضرب دمشق بالقنابل ودمرتها فى عام ١٩٤٥ ٠ وفى هذه المرة كانت مقاومة سوريا وشعبها الباسل لهذا العدوان بداية لانتصار الحرية ٠ فلم يمض عام واحد حتى ظفرت سوريا بحريتها وجلا المستعمرون عن أرضها فى عام ١٩٤٦ ٠

وكان للمرأة السورية دورها الايجابى فى حركة الاستقلال ، فقد خاضت غمار الحرب ضد الاتراك فى الثورة العربية ، وضد الفرنسيين فى عشرين ثورة سورية وضد الانجليز فى أرض فلسطين ٠٠ وبعد الاستقلال اتجهت المرأة السورية لخدمة وطنها بالعمل فى خدمة مجتمعها فأنشأت الجمعيات النسائية التى تسهم فى الخدمات الاجتماعية وتنشر الوعى الثقافى والفنى والسياسى ٠٠ وتبذل نشاطا كبيرا مثمرا فى مجالات رعاية الطفولة ومحو الأمية ونشر الصناعات اليدوية واحياء الفنون العربية ٠

وهنا فى القاهرة ٠٠ وفى مكتبة معهد الدراسات العربية العليا .. التقيت بالاستاذة عزيزة مريدن ـ جاءت من سوريا منذ ثلاثة أعوام لتواصل جهادها فى ميدان العلم ٠

تخرجت من الجامعة السورية بكلية الآداب عام ١٩٥٢ ـ قسم اللغة العربية ٠ ٠ثم حصلت على دبلوم المعهد العالى للمعلمين لأهلية التعليم

الثانوى .. ثم دبلوم آخر فى التربية والتعليم .. بعد ذلك .. أوفدتها وزارة التربية والتعليم السورية الى القاهرة للحصول على درجة الماجستير فى الأدب العربى من معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية . فحصلت على الدبلوم من هذا المعهد عام ١٩٦٢ ـ ثم أعدت رسالة الماجستير فى الأدب العربى من جامعة القاهرة .. وكان موضوعها : (القومية والانسانية فى شعر المهجر الجنوبى)

وفى يونيو ١٩٦٤ . حصلت على الماجستير بدرجة امتياز .

وهى الآن تعد رسالة الدكتوراه فى جامعة القاهرة .. وموضوعها : (النزعة القصصية فى الشعر العربى الحديث) .. وستحصل عليها خلال عامين .. ان شاء الله .

وينقضى وقت الاستاذة عزيزة مريدن مابين مكتبة معهد الدراسات العربية وجمعية خريجات الجامعة .والرابطة الاسلامية .ونادى القصة .. والندوات الأدبية ..

وهذا كله امتداد طبيعى للخط الذى ابتدأته فى سوريا . فقد كان لها نشاط أدبى خصب فى أندية سوريا الثقافية .. ولها دراسات نقدية حول أدب المهجر الشمالى ..ودراسات عن المرأة .. ولها أحاديث اذاعية أذيعت لها من اذاعة دمشق .

استطعت ان اخرجها من صمت الكتاب .. **وسألتها عن دور المرأة السورية فى حركة الاستقلال فقالت :**

قبل أن أجيب على هذا السؤال أرى من الواجب الاشارة الى أننى حين اسأل عن المرأة السورية فاننى أتمثل بها المرأة العربية عامه . لأن الوطن العربى واحد والروابط القومية العربية واحدة من لغة وتاريخ وتراث عربى أصيل . وبالتالى فان العادات والتقاليد تكاد تكون واحدة .. ولذلك حينما أتحدث عن المرأة السورية فانما أتحدث عن اختها المصرية أو العراقية أو الفلسطينية .. مع بعض الفروق البسيطة التى توجد عادة فى القطر الواحد بين مدينة ومدينة أو قرية وقرية وقد توجد أحيانا بين حى وحى ..

ولعل لا أغالى حين أقول : ان للمرأة السورية دورا فعالا واضحا ونصيبا وافرا فى بناء وطنها الصغير ، فقد ناضلت خلال القرون الماضية نضالا صامتا فكانت ـ من وراء الحجاب ـ الجندى المجهول الذى يجاهد بصمت واخلاص دون أن يذكر له اسم فى تاريخ النضال بل يبقى رمزا للتضحية والفداء .. وربما كان السبب فى ذلك يعود الى ان دورها كان يتمثل فى أنها القوة الدافعة الحافزة والعنصر المحرض بما بثته فى نفوس المناضلين من العزيمة وما أثارته فيهم من نخوة وحمية وهى وأن لم تنزل الى ميدان المعركة فانها تدرجت فى نضالها وارتقت بعد تعليمها وتحررها من الحجاب حتى أصبحت تقود المظاهرات وترفع عقيرتها بالأناشيد الوطنية وتلهب الحماسة فى نفوس الثائرين ضد الاستعمار وخاصة زمن الفرنسيين الذى يعتبر فترة زاخرة بالنضال القومى ، زاهرة بالكفاح النسوى خاصة .

وماذا بعد الاستقلال ؟

أما بعد استقلال سورية وتحررها منذ عام ١٩٤٥ فقد أصبح للمرأة السورية دور آخر فى المعركة السياسية فأصبح لها مكان فى فرق المقاومة الشعبية وخاصة أيام العدوان الثلاثى على مصر .

وأصبحت معركة فلسطين أو قضايا العروبة الكبرى تشغل بالها فتشارك فى المنظمات العامة السياسية والاجتماعية التى لايقتصر نشاطها على القطر السورى فحسب بل يضم الاقطار العربية كلها .. ولقد منحت المرأة السورية حق الانتخاب . كما منحت حق الترشيح . وفازت فى كثير من انتخابات المجلس النيابى لاسيما أيام الوحدة بين مصر وسوريا فأثبتت جدارة واضحة فى هذا الميدان لما تحلت به من قدرة على استيعاب الأمور السياسية وتفهم القضايا القومية والوطنية .

الى أى مدى ساهمت المرأة السورية فى بناء المجتمع ؟.

أما فى الميادين الاجتماعية المختلفة فللمرأة السورية دور واضح فى بناء المجتمع عن طريق مشاركتها فى الجمعيات العامة الخيرية

منها والأدبية والعلمية • وفى سورية كثير من هذه الجمعيات منها النسوية الخاصة ومنها التى تجمع بين الجنسين •• وأذكر لـك على سبيل المثال :

– جمعية (المبرة) وهى التى تعنى بالأطفال اللقطاء والأيتام •

– جمعية « قطرة الحليب » • وقد أخذت على عاتقها تقديم وجبة من اللبن الحليب فى كل يوم لأطفال الفقراء وارشاد الأمهات الى السبل القويمة فى تربية أطفالهن •

– جمعية (حماية الأحداث) ومهمتها تقويم الأحداث المنحرفين الذين تدفعهم الأقدار لأسباب مادية واجتماعية كثيرة الى الجنوح وارتكاب الجرائم •

– جمعية (خريجات دار المعلمات الابتدائية) وهى تسهم فى توزيع الصدقات والتبرعات على الاسر الفقيرة كما تقدم وجبات من الطعام يوميا لبعض المستحقين •

والى جانب هذه الجمعيات النسوية الخاصة تسهم المرأة السورية فى النوادى والجمعيات الأدبية – كما ذكرت • ومنها (النادى العربى – والمنتدى الأدبى – ونادى خريجات الجامعات ••) هذا بالاضافة الى الجمعيات الفنية المختلفة الخاصة بالرسم والنحت والتصوير والتمثيل •• والى جانب هذا وذاك أسهمت المرأة السورية وما تزال تسهم فى بناء المجتمع عن طريق تربية أجيال المستقبل بما امتازت به من اخلاصها لأسرتها وعنايتها بزوجها وتربيتها لاولادها • وتنشئتهم تنشئة خيره بدافع من أمومتها الفطرية السليمة •

من هنا ندرك أن المرأة السورية قد أسهمت فى الميادين المختلفة فى سبيل بناء أمتها ووطنها سياسيا واجتماعيا وثقافيا •

ما وصلت اليه فى الحاضر • وما تستهدفه فى المستقبل

أما فيما يتعلق بالمرأة السورية فى الوقت الحاضر فقد سارت بخطوات حثيثة نحو التقدم وقد لا أكون مغالية اذا قلت : انها قفزت فى السنوات العشر الأخيرة قفزات حرة فبعد ان كانت تطرق ميادين معينة من الاختصاص زاعمة أنها تتناسب مع ميولها الانثوى وكان التعليم فى مقدمتها – أصبحت اليوم تجوب كل الميادين وتطرق أبواب جميع الكليات النظرية منها والعملية لايمانها بأنها تساوى الرجل فى القدرات والامكانيات والاستعدادات الفطرية فأصبح لدينا عدد كبير من الطبيبات والمهندسات والمتخصصات فى الصيدلة والزراعة والاقتصاد وغيرها •

وهناك ملاحظة واحدة أحب أن أشير اليها – والأسف يملأ نفسى – هى أن المرأة السورية لم تصل بعد الى منصب الوزارة الذى وصلت اليه أختها فى الجمهورية العربية المتحدة ، كما أنها لم تؤيد بعد التأييد الكافى الذى يمكنها من اعتلاء كرسى الاستاذية فى الجامعة الا فى القليل النادر •• ولعلها فى السنين المقبلة ستثبت جدارتها اكثر فيبتسم لها المستقبل وتتفتح أمامها الأبواب المغلقة وتقتحم الميادين المختلفة متفائلة ومطمئنة الى أنها ستسهم لا فى بناء الوطن العربى فحسب بل فى بناء الحضارة الانسانية •

هل هناك فارق فى تقاليد الأخت السورية عن أختها فى البلاد العربية الأخرى ؟

اذا ذكرت العادات والتقاليد فى الأعياد الدينية وحفلات الزواج فى سورية فأحسب أنها لاتحتاج الى ايضاح كبير ، اذ أعتقد أنها تكاد تشبه التقاليد العربية والعادات المتبعة فى معظم أقطار العروبة مع بعض الفروق البسيطة التى ترجع – فى الغالب – الى مقدار تحرر القطر أو محافظته من ناحية والى ما يتوفر فى كل بيئة محلية من امكانيات مادية لها أثر كبير فى تطبيق هذه العادات والتقاليد من ناحية ثانية •

ففيما يتعلق بالأعياد الدينية مثلا : جرت العادة أن يقدم نوع من الحلوى فى كل من عيدى الفطر والأضحى يسمى (بالمعمول) وهو أشبه (بكعك العيد) عندكم ومحشو بالفستق أو الجوز أو اللوز ••

وفى الأعياد الدينية الأخرى : يقدم فى شهر شعبان مثلا نوع من الكعك يصنع من الدقيق والسمن والسكر ويزين بالفستق •

وفى شهر رمضان المبارك يعنى السوريون (بالبرازق) الذى يصنع من الدقيق والسمن والسمسم والفستق ..أما ما سوى هذه التقاليد فى الأعياد والمواسم فهى التقاليد المعروفة عندكم من القيام بالزيارات الودية والسهرات العائلية للأهل والأقارب .. أضف الى هذا ما يقام فى الشوارع والأسواق من زينات خلابة يتفنن فيها الباعة خاصة فى عرض بضائعهم المختلفة مع طرائف متنوعة وألوان من الأهازيج والأزجال ينادون بها اجتذابا للزبائن كما يفعل اخوانهم فى بقية البلاد •

وعن حفلات الزواج ؟

ولعل حفلات الزواج خاصة تمتاز بطابع مختلف عما هو عندكم • اذ قلما يحتفل بالزواج احتفالا مختلطا يضم المدعوين والمدعوات بل يحدد موعد حفلة عقد القران للرجال مثلا فى الساعة الخامسة مساء • بينما يحدد موعد حفلة النساء فى الساعة السابعة أو الثامنة أى عقب انتهاء حفلة الرجال • وفى حفلة النساء فقط تتهادى العروس بثوبها الأبيض الى مكان مرتفع يسمى (الأسكى) ـ ولعلها كلمة تركية الأصل ـ يضم مقعدين تجلس العروس على أحدهما وبعد قليل يأتى العريس فيجلس الى جانبها ويلبسها بعض الحلى المعدة هدية لها فى يوم الزفاف .. واثناء الحفله يقدم لون من الحلوى يختلف صيفا وشتاء .. ففى الصيف يقدم نوع مما يعرف عندكم (بالجلاس أو الجيلاتى) ويسمى عندنا (البوظة)وتصنع من اللبن المحلى والثلج الممزوج بالفستق المحمص •

اما فى الشتاء فيقدم « كشك الفقراء » وهو أشبه (بالمهلبية) عندكم ومزينه باللوز والفستق .. ومع كل من اللونين يقدم (البوتى فور) ويليه علبة معدنية أو زجاجية صغيرة مملوءة (بالملبس) وهو اللوز الملبس بالسكر • وتقدم لكل مدعوة •

هذا كله من تقاليد الطبقة المتوسطة • اما الطبقات الميسورة فتدعو المدعوات الى مائدة (بوفيه) تحوى أنواعا من الأطعمة كالتى تقدم فى الاحتفالات الرسميه من اللحوم الباردة الى الخراف المحشوة والدجاج والكبيبة والحلوى والفواكه . و (المكسرات المحمصة) وغيرها وتنتهى الحفلة بعد ساعات حين يصحب العريس عروسه الى بيت الزوجية •

وأخيرا .. ربما كان من الطريف أن أذكر أن هناك تقاليد أخرى للزواج كانت قبل أجيال عديدة ولانزال نسمع وصفها يدور على السنة جداتنا وأمهاتنا فى اسمارهن ، من ذلك أن حفلات الزواج كانت تجرى فى البيوت السورية القديمة التى تسمى بالبيوت (العربية) ذات الأبهاء الواسعة وصحون الدار التى تزينها الحدائق الجميله والنافورات الدافقة• اقول : تجرى احتفالات الزواج على الصورة التى وصفت ولكنها كانت أشبه بمهرجان غنائى تدعى اليه بعض المغنيات الشهيرات والراقصات الرشيقات .. ويظل هذا الحفل الساهر من المساء حتى الصباح والعروس بين ذلك لاتكتفى بالثوب الأبيض بل تروح وتغدو باثواب مختلفة تغيرها بين فترة وأخرى فيكون من ذلك عرض للأزياء ومجال للزهو والتفاخر .. ويستمر الاحتفال بالعرس سبعة أيام كاملة تقدم خلالها للمدعوات الذبائح الكبيرة والأطعمة اللذيذة..! ولكن هذه التقاليد راحت تتضاءل وتنقرض سنة بعد سنة وجيلا بعد جيل حتى لم يبق منها الآن سوى أحاديث السمار • »

هذا والأستاذه عزيزة مريدان عميقة الايمان شديدة الحرص على أداء واجبها الدينى .. وتتمتع بنظرة أدبية نقدية حساسة لكل أمور الحياة تسجلها فى كتابات ويوميات أرجو أن ترى النور قريبا فى ميدان النشر •

تركتها فى مكتبة معهد الدراسات العربية لتستكمل قراءتها ودراساتها متمنية لها التوفيق فى الحصول على درجة الامتياز فى الدكتوراه ، فهى نموذج رائع للفتاة العربية دينا وخلقا وثقافة •

أدزد بلاهمان
التي أصبحت
سامية جمان

انني استعجل أول كل شهر عربى لأقدم للعالم الاسلامى هديتى فى كل شهر .. ألا وهى قصة جديدة لأخ أو أخت انضموا الى الدين الاسلامى .. ذلك الدين الذى جعله الله خاتم الاديان ومتمم رسالة السماء . ومن يبتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه .

انني حينما أسطر هذا المقال أحس باننى أقدم كل شهر برهانا على أن الاسلام هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها فهو الدين الذى يلائم طبائع البشر . دين صالح لكل زمان ومكان . فقدمت قصصا من اليابان ، ويوغوسلافيا ، الكونغو ، لندن ، فرنسا ..

واليوم أقدم قصة من ألمانيا ..
أخت درست الديانات بفهم وتعمـق وبنظرة تجريدية عرفت بها طريق الحق والصواب والرشد فاهتدت بهدى الله وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

تلكم هى الدكتورة سـامية التى زارت القاهرة ثلاث مرات ، فى خلال سنة ١٩٦٠ جاءت الى القاهرة لـكى تشهر اسلامها .

وفى هذا الشهر التقت مجلة منبر الاسلام مع الدكتورة سامية وروت لنا قصة اسلامها ..

قالت :

درست وقرأت كتبا كثيرة فى الادب لشغفى به وعن طريق الادب توصلت لمعرفة شىء عن الاسلام . فقرأت بعض الكتب الاسلامية فى ألمانيا الغربية ، وأخذت اقرأ وأزداد معرفة وفى كل يوم أكتسب علما ونورا وهداية .

وقد قمت بزيارات عديدة لبلاد عربيـة كثيرة وفى وفى أثناء زيارتى لهـذه الدول كنت أقف على أحوال المسلمين وازداد اعجابا بهم ، بل أقول أجد رغبة شديدة رحلاتى كنت أجمع قصصا شعبية وأترجمها الى لغة الايدو فى التعرف عليهم .

ولقد ربطتنى صداقات عديدة ببعض المصريين الذين توافدوا على ألمانيا الغربية وكان لهم الفضل فى تقديم كل مساعدة فى سبيل التعرف على حقيقة الاسلام وقد تبلورت فكرة الاسلام لدى ففهمت أحكامه التى تنظم الحياة وتسعد الانسـانية ولم أتمهـل فى أن أشهر اسلامى .

وكانت الدوافع لذلك كثيرة فانا بحكم عملى كأستاذة فى الجامعة أدرس وأطلع وأعيش فى جو من الحقيقـة الناصعة لا الخداع الزائف .

وقد رأيت فى دراستى للاسلام أشياء عديدة .براهين ثابتة ودلائل قاطعـة . أحكام مبسطة سـهلة . يسر فى المعاملة . مساواة وعدل . احسان ورحمة . حق وهداية تسامح واخاء .

ودين هكذا جدير به وخليق أن يـكون دين البشرية جمعاء ..

كنتم خير أمة أخرجت للناس .

ومرحبا بالدكتورة سامية وبكل من يعرف الحقيقـة فيسارع باتباعها ..
وسلام على من اتبع الهدى .

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة
تقدم
أمهات الكتب العربية بأسعار
فى متناول كل فرد خدمة
لاشتراكية الثقافة ..
الأغانى
لأبى الفرج الأصفهانى
١٦ جزءا
ثمن الجزء ٢٠ قرشا
عيون الأخبار
لابن قتيبة الدينورى
٤ أجزاء
ثمن الجزء ٢٠ قرشا
نهاية الأرب
لشهاب الدين النويرى
١٨ جزءا
ثمن الجزء ٢٠ قرشا
النجوم الزاهرة
لابن تغرى بردى
١٢ جزءا
ثمن الجزء ٢٠ قرشا
صبح الأعشى
للقلقشندى
١٤ جزءا
ثمن الجزء ٢٠ قرشا
تصدر قريبا

أنت تسأل ... ؟
والمفتى يجيب ...

فضيلة الامام الأكبر الشيخ حسن مأمون

س ١ – من السيد / على مصيلحى عبد الرازق – امام مسجد أم الحويطاط – البحر الأحمر .

يقول السائل :

انه سمع فى درس الجمعة بالاذاعة جوابا عن سؤال وجهه أحد السامعين عن حكم الطلاق المعلق المراد منه المنع أو الاجبار على فعل شىء أو تركه هل يقع هذا الطلاق أم لا ؟ علما أن السائل مالكى المذهب .

وقد تضمنت الاجابة فى درس الجمعة المذكور أن القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ م ينص على أن الطلاق غير المنجز ، وهو المعلق لا يعتد به وبالتالى لا يقع هذا الطلاق ولو وجد المعلق عليه عمدا أو غير عمد . وعقب المجيب على هذا السؤال بأن هذا القانون مأخوذ من مجموعة آراء ناضجة فى الشريعة الاسلامية . ونحن مقتنعون بهذه الاجابة لكن الجزء الباقى من الاجابة لا نطمئن اليه لأنه أوقع السائل فى حيرة . والجزء الباقى من الاجابة يتضمن قول المجيب أن المذهب المالكى يقضى بوقوع الطلاق فى مثل هذه الحالة اذا وجد المعلق عليه أو أتى الحالف ما منع نفسه منه . وبذلك يقع الطلاق طلقة رجعية واحدة .

ثم قال السائل فى سؤاله هل من روح الاسلام أن نوقع السائل فى ورطة عقلية بين المذاهب أم المعقول أن نفتى السائل بالايسر المتمشى مع روح الدين والذى يكون أصون للاسرة من الهدم والضياع بصرف النظر عن مذهب السائل .

ج ١ – اننا نوافق السائل على وجهة نظره ونرى أنه كان ينبغى الاختصار فى الاجابة على حكم المادة الثانية من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ م والتى تنص على أن الطلاق غير المنجز لا يقع اذا قصد به الحمل على فعل شىء و تركه لا غير . وعلى بيان أن الطلاق المعلق فى هذه الحالة يكون فى معنى اليمين بالطلاق وانه أخذ فى الغاء اليمين بالطلاق برأى متقدمى الحنفية وبعض متأخريه وانه موافق لرأى الامام على وشريح وداود وأصحابه وطائفة من الشافعية والمالكية وأخذ

فى الفاء المعلق الذى فى معنى اليمين برأى الامام على وشريح وعطا والحكم بن عتبة وداود وأصحابه وابن حزم . ولا ضرورة تدعو السيد المجيب الى بيان حكم الطلاق فى مذهب الامام مالك لأن المحاكم تطبق احكام القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ م ولا تطبق مذهب الامام أبى حنيفة أو الامام مالك فى الطلاق المعلق .

والله أعلم .

++++++++++++++++++++++++++++++++++++

س ٢ - من السيد / محمود لبيب - حارة الوزان - بولاق .

يقول السائل فى سؤاله :

ان الست بهية ابراهيم موسى توفيت فى ٤ اغسطس سنة ١٩٦٤ عن زوجها محمود محمد لبيب وكان عمرها ٦٠ سنة وعن ابنتين لأخيها عبد الرحيم من أبيها وعن ابن عم لها (على عودة) غير شقيق فمن الوارث حتى تقسم تريكتها عليهم ؟ .

ج ٢ - انه اذا كان ابن العم الذى يدعى على عودة والذى يقول السائل عنه انه غير شقيق ابن عم من الأب ، فان ميراث المرحومة بهية ابراهيم موسى يكون لزوجها فيه النصف فرضا لعدم وجود فرع وارث والباقى بعد نصيب الزوج لابن عمها لأبيها على عودة تعصيبا ولا شىء من الارث لبنتى أخيها من أبيها - لأنهما من ذوى الأرحام المؤخرين فى الارث عن أصحاب الفروض والعصبات .

واذا كان على عودة ابن عم للمتوفاة من والدتها فان ميراث المتوفاة يكون لزوجها فيه النصف فرضا كما سبق بيانه لعدم وجود الفرع الوارث والباقى بعد نصيب الزوج يكون لبنت أخيها لأبيها لأنها من الصنف الثالث من أصناف ذوى الأرحام المقدمين على الصنف الرابع ، ومن بينهم أولاد أعمام الميت لأم - والله أعلم .

س ٣ - من السيد / أمين عبد المعبود محمد زغلول - ابو سنيطة مركز الباجور منوفية .

يقول السائل :

انه كان يوجد رجل فى الأرياف (القرى) متزوج وفى يوم من الايام حصل بينه وبين زوجته خلاف فهرب الرجل وخرج من بلده ومكث خمس سنوات بعيدا عن بلده ولم تعلم أسرته بأى مكان هو فيه ولطول غيابه ظنت زوجته انه مات، وفعلا اعتدت عليه عدة الوفاة، وبعد انتهاء العدة تزوجت بزوج آخر بعد توزيع تركة الزوج الأول وأخذها نصيبها منها. ثم بعد دخول الزوج الثانى بها عاد الزوج الاول الى بلده ووجد زوجته قد تزوجت برجل آخر فما الحكم فى هذه المسالة . هل تكون هذه المرأة للزوج الاول أم للزوج الثانى؟

ج ٣ - ان المادة (٢١) من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ تنص على أنه يحكم بموت المفقود الذى يغلب عليه الهلاك بعد أربع سنين من تاريخ فقده .

وأما فى جميع الأحوال الأخرى فيفوض أمر المدة التى يحكم بموت المفقود بعدها الى القاضى لذلك كله بعد التحرى عنه بجميع الطرق الممكنة الموصلة الى معرفة ان كان المفقود حيا أم ميتا .

وتنص المادة (٢٢) من القانون المذكور على انه بعد الحكم بموت المفقود بالصفة المبينة فى المادة السابقة تعتد زوجته عدة الوفاة وتقسم تركته بين ورثته الموجودين وقت الحكم . كما نصت المادة رقم (٨) من القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ م على أنه اذا جاء المفقود او لم يجد وتبين أنه حى فزوجته له ما لم يتمتع الثانى بها غير عالم بحياة الاول . فان تمتع بها الثانى غير عالم بحياته كانت للثانى ما لم تكن عقده فى عدة وفاة الاول .

وتطبيقا لهذه الأحكام تقول انه اذا كانت الزوجة قد اعتدت عدة الوفاة بناء على ظنها

أن زوجها الغائب قد توفى ولم تستصدر حكما من المحكمة المختصة بموته فانه لا يجوز لها ان تتزوج بغيره ولا تقسم تركته لأن ذلك كله متوقف على صدور الحكم النهائى بموته بعد فقده . وفى هذه الحالة يكون زواجها بالثانى غير صحيح وتستمر على زواجها بالاول مطلقا، واذا كانت هذه الزوجة قد استصدرت حكما بموت زوجها الغائب فانه يجوز لها ان تعتد من تاريخ صدوره عدة الوفاة اربعة اشهر وعشرة أيام . واذا انقضت عدتها جاز لها ان تتزوج بغيره وفى هذه الحالة اذا دخل بها زوجها وعاشرها معاشرة الأزواج غير عالم بحياة الأول . فانه اذا عاد الأول الى بلده تكون زوجته للثانى ولا تكون للزوج الأول اما اذا دخل بها الثانى وهو يعلم بحياة زوجها الاول فانها تكون للزوج الأول . والله اعلم .

++++++++++++++++++++++++

س ٤ – من السيد / مصطفى عبد الهادى الصفطى من مدرسة كفر الدوار التجارية الثانوية .

يقول السائل :

ان فتحى عاطف توفى عن زوجته وبنتيه واخوات ذكور واناث من والدهم وعن ولدين من ابنه المتوفى فى سنة ١٩٥٦ . فهل لأبناء الابن المتوفى ارث وان كان لهم ارث ، فما نصيبهم فى جدهم ؟

جـ ٤ – ان ميراث المتوفى فتحى عاطف لزوجته منه الثمن فرضا من تركته ، ولبنتيه الثلثان فرضا بالسوية بينهما ، والباقى بعد نصيب زوجته وبنتيه لابنى ابنه المتوفى قبله بالسوية بينهما ولا شىء من الارث لأخوات المتوفى الذكور والاناث لحجبهم جميعا بالفرع الوارث وهو ابن الابن . والله اعلم .

++++++++++++++++++++++++

س ٥ – من السيد / محمد عبد الهادى – بسكة حديد قنطرة غرب .

يقول السائل :

ان رجلا يعمل خادما باحد المساجد التابعة لوزارة الأوقاف ، ويتقاضى على عمله مرتبا فى نهاية كل شهر كموظف ، وان هذا الرجل يبيع المياه الموقوفة على المسجد لبيوت المواطنين – مع العلم بان أنابيب المياه الصالحة للشرب متوفرة بالبلد التى بها المسجد .

فهل التصرف فى مياه المسجد على هذه الكيفية حلال أم حرام ؟ – وما الحكم فيمن يستعمل هذا الماء بمنزله ويعلم أنه ماء المسجد ؟ .

جـ ٥ – ان صرف المياه الموقوفة على المسجد لبيوت المواطنين عمل غير مشروع ، وانه تصرف فى مياه الغير بدون حق ولذلك يكون هذا التصرف غير جائز شرعا وما يأخذه ثمنا لهذه المياه لا حق له فيه وهو مال حرام. ومن يستعمل هذا الماء فى منزله وهو يعلم انه الماء الموقوف على المسجد آثم لأنه ماء مغتصب والمغصوب لا يجوز الانتفاع به شرعا – وننصح خادم المسجد بأن يكف عن بيع مياه المسجد ويكتفى بمرتبه الذى يتقاضاه من وزارة الاوقاف أجرا على عمله لانه مال حلال . والله اعلم .

++++++++++++++++++++++++

س ٦ – من السيد / محمد عبد السميع السيد سالم – الطالب بمعهد الزقازيق الدينى الثانوى .

يقول السائل

ان رجلا تزوج امراة ولم تمكث معه الابضعة أيام ، ثم ذهبت الى بيت أبيها بتحريض من أهلها وعرض الزوج عليها الصلح عدة مرات فرفضت ، ثم طلب أهلها من الزوج أن يطلقها وأن يردوا اليه المهر الذى دفعه اليهم فرفض الزوج الطلاق ببدل أو بغير بدل . فهل هذا الرفض جائز شرعا أو غير جائز ؟ وهل القانون يبيح للقاضى أن يطلق زوجته فى هذه الحالة مع العلم بانه ليس كارها ولا فقيرا ولا معسرا ،

وان الزوجة هى الكارهة ؟ وهل يعتبر كرهها مبررا للطلاق ؟ ما الحكم اذا أراد أهلها أن يزوجوها الى غيره . مع اصراره على عدم الطلاق وبقائها فى عصمته ؟ وما الحكم اذا تزوج غيرها ؟ وهل يعطى زواجه حقا للزوجة الأولى فى أن تتزوج غيره أو فى أن تطلقها عليه المحكمة . وما الذى يفعله لو أن أهل الزوجة الأولى قالوا له طلق زوجتك الجديدة ونحن على استعداد لأن نرجع لك زوجتك مع العلم بان الزوج يشعر بميل شديد الى زوجته القديمة، كذلك الزوجة وهل من الدين أن يطلق زوجته الجديدة ويرد القديمة علما بانه اذا لم يرجع المراة القديمة سيلحقه ضرر ويحصل من الزوجة الجديدة بعض المشاغبات ؟.

جـ ٦ – ان رفض الزوج الطلاق فى هذه الحالة ما دام انه لم يسىء الى زوجته ولم يضارها والكراهية من جانب الزوجة وحدها لا شىء فيه شرعا ، بل انه يتمشى مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان أبغض الحلال عند الله الطلاق » وفى حالة رفضه الطلاق لا يطلق عليه قاض لعدم وجود سبب من أسباب الطلاق ولأن كره الزوجة للزوج لا يبرر طلاقها عليه . واذا أصر على عدم الطلاق ولم يدونه أمام المأذون فانه لا يجوز للمأذون أن يزوجها لغيره ما دام يعلم أنها سبق لها الزواج وانها لا تزال فى عصمة زوجها واذا فعل ذلك أو زوجها بغيره كان زواجا باطلا لا يترتب عليه أثره شرعا – وننصح الزوج بأن يلجأ الى التحكيم فيتفق مع أهل الزوجة على أن يحكما واحدا من اهله وواحدا من اهلها وينزلا على حكمهما حسما للخلاف ولا نوافق على الحل الذى يقترحه وهو أن يتزوج بغيرها لأن الزواج بغيرها لا ينهى علاقته بزوجته ويزيد متاعبه ، وأولى له الا يلجأ اليه الا بعد أن ييأس من عودة زوجته الى حياتها الزوجية معه ، واذا فعل وتزوج غيرها فانه لا يجوز له أن يضار زوجته الجديدة ويطلقها بمجرد رغبة أهل الزوجة الأولى فى ذلك لأنه اذا فعل ذلك يكون قد أضر بالزوجة الجديدة بدون مبرر . واذا كان ما يقوله صحيحا من انه يميل الى زوجته الاولى ميلا شديدا وكذلك الزوجة تميل اليه بعد الكراهية التى بدت منها أولا فان الحل الوحيد فى نظرى أن يسعى ويستمر فى مسعاه ليرد زوجته اليه وان يمتنع عن الزواج بغيرها . والله أعلم .

++++++++++++++++++++++++++++

س ٧ – من السيد / زغلول مسعود – من سوهاج .

يقول السائل :

هل هناك فرق بين الضرائب الحالية التى تفرضها الدولة وبين الزكاة التى تفرضها الشريعة . واذا كان شخص يملك شركة حصلت عنها الحكومة الضرائب وفى نفس الوقت وجبت الزكاة على هذه الشركة . فهل تغنى الضريبة عن الزكاة ؟

جـ ٧ – سبق أن بينت فى أحد اعداد مجلة منبر الاسلام السابقة أن الضرائب التى تفرضها الحكومة لتصرفها فى المصالح العامة كبناء القناطر ومد الطرق والانفاق على التعليم ونحو ذلك لا يسقط فريضة الزكاة التى فرضها الله شرعا على كل من يملك نصابا حال عليه الحول لأن مصاريف الزكاة غير مصاريف الضرائب التى تفرضها الحكومة ولذلك يكون الواجب على من يملك شركة دفع الضرائب المطلوبة عليها وان يخرج الزكاة على ما تبقى بعد ذلك من أموال الشركة التى يملكها متى بلغت هذه الأموال نصاب الزكاة وحال عليها الحول وكانت خالية عن ديون لها مطالب من العباد . والله أعلم .

++++++++++++++++++++++++++++

س ٨ – من السيد / احمد ابراهيم احمد زيدان – بلقينا – مركز المحلة الكبرى .

يقول السائل :

هل الموالد التى تعمل بالقرى لاحياء ذكرى سيدى فلان وسيدى فلان حلال مع العلم بأن هذه الموالد يكثر فيها الطبل والزمر وتختلط النساء بالرجال ويكثر فيها تجمع الشباب الفاسد الذى يسب الدين . وهل يرضى الله عن اقامة هذه الموالد ؟.

ج ٨ – ان احياء هذه الموالد فيه تكريم لرجال خدموا الاسلام خدمات جليلة وكانوا أمثلة صالحة وقدوة طيبة وعليه فان احياء ذكرى ميلادهم لا يكون حراما شرعا . واما ما يتخلل الموالد من الأعمال والاقوال الماجنة التى لا يقرها الدين ، فانه يجب على السلطة التنفيذية منعها حتى تخلص هذه الموالد من جميع المفاسد ولا يبقى فيها الا فرصة معرفة الأهالى سيرة المحتفل بهم وتاريخهم واعمالهم المجيدة وهو ما نلتزم به فى احياء ذكرى مولد الامام الشافعى رضى الله عنه الذى تتاح لنا فرصة الاشراف عليه لتولينا رئاسة مجلس ادارته . وحبذا لو اتيح فى غيره ما يتبع فيه . فان ليالى الموالد تعمر بالذاكرين وتحيى بدروس علمية من بعض العلماء والوعاظ الذين يفيدون الناس ويوجهونهم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم . والله اعلم .

++++++++++++++++++++++++++++++++++++++

س ٩ – من السيد / مصطفى حسن درويش بشركة الاعلانات الشرقية .

يقول : توفيت سيدة عن زوج وأولاد اخوة ، وأولاد أخوات أشقاء فيسال عن التوريث .

ج ٩ – للزوج النصف فرضا والباقى لابناء الأخوة الذكور تعصيبا بالتساوى بينهم ولا شىء لاولاد الاخوات ولا لبنات الاخوة لأنهم من ذوى الأرحام فلا ميراث لهم مع أصحاب الفروض والعصبية . والله اعلم .

س ١٠ – من السيد / الحاج محمد سليمان العواقى الزعفرانى – بيلا .

يرجو السائل افادته عن حكم قراءة القرآن هل يلحق ثوابها بالميت أو لا ؟

ج – ١٠ ان الله سبحانه وتعالى تعبدنا بالصلاة والصيام والزكاة والحج وفرضها علينا وعلى جميع المكلفين ذكورا واناثا . ومن أركان الصلاة قراءة ما تيسر من القرآن الكريم قال الله تعالى : « ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك . والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه ، فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ماتيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا ، واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » .

والمفسرون لهذه الآية يقررون أن الامر بالقراءة فيها لصحة الصلاة .

وقراءة القرآن وتدبر احكامه من القرب التى يتقرب بها العبد الى ربه . واتفق العلماء على أن الدعاء للميت بعد موته ينفعه ، فقد ورد عن عثمان أنه قال « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت » ونقل الامام الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار انه اختلف فى غير الصدقة من اعمال البر هل يصل الى الميت فذهبت المعتزلة الى انه لايصل اليه شىء واستدلوا بعموم الآية وهى قوله تعالى : « وان ليس للانسان الا ما سعى » وقال فى شرح الكنز أن للانسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صلاة كان أوصوما او حجا او صدقة او قراءة قرآن او غير ذلك من اعمال البر ويصل ذلك الى الميت عند أهل السنة .

ثم قال: والمشهور من مذهب الشـــافعى وجماعة من أصحابه انه لا يصل الـى الميت ثواب قراءة القرآن . وذهب أحمد بن حنبل وطائفة من العلماء وجماعة من الشافعيين الى انه يصل ـ كذا ذكره النووى فى الاذكار وفى شرح المنهاج لابن النحوى لا يصل الى الميت عندنا ثواب القراءة على القول المشـــهور ـ والمختار الوصول اذا سأل الله ايصـال ثواب قراءته وينبغى الجزم به لأنه دعاء ، فاذا جاز الدعاء للميت بما ليس للداعى فلأن يجوز لما هو له اولى . ويبقى الامر فيه موقوفا على استجابة الدعاء وهذا المعنى لا يختص بالقراءة بل يجرى فى سائر الأعمال ـ والظـاهر ان الدعاء متفق عليه وانه ينفع الميت والحى القريب والبعيد وغيرهم .

وعلى ذلك احاديث كثيرة ، وقد كان افضل الدعاء ان يدعو لأخيه بظهر الغيب . وقـد حكى النووى فى شرح مسلم الاجمـاع على وصول الدعاء للميت وكذا حكى الاجماع على ان الصدقة تنفع عن الميت ويصل ثوابها ولم يقيد ذلك بالولد . وحكى ايضا الاجماع على لحوق قضاء الدين والحق انه يخصص عموم الآية بالصدقة من الولد كما فى احاديث الباب وبالحج من الولد كما فى خبر الخثعمية ومن غير الولد ايضا كما فى حديث المحرم عن اخيه شبرمة ولم يستفض صلى الله عليـه وسلم هل أوصى شبرمة ام لا ؟ ـ الخ هذا البحث الذى ذكره الشوكانى فى الجـــزء الرابع من كتابه نيل الأوطار .

ونختار ان قراءة القرآن يلحق ثوابها الميت اذا سأل القارىء ربه ايصال ثواب قراءته الى الميت ويكون ذلك مما يبر به القارىء والده أو من له فضل عليه كأساتذته واخوانه الذين انتفع منهم قبل وفاته ـ والله أعلم .

++++++++++++++++++++++++++++++++++++

س ١١ ـ من احد المواطنين :

جاء فى سؤاله انه يسافر من اسنا الساعة الثانية بعد الظهر الى الأقصر بالسيارة ويصل الأقصر حوالى الساعة الثالثة والنصف تقريبا وانه يتعذر عليه الوضوء لصـلاة العصر ، ثم يسافر بالطائرة من الأقصر الساعة الخامسة مساء ويصل القاهرة الساعة السادســة والنصف ـ ويسأل عن كيفية أداء الصلاة هل يجوز له أن يؤديها قبل السفر وهو باسـنا فيصلى فيها الظهر فى موعده والعصر قبـل دخول وقته جامعا بينهما جمع تقديم ؟ وهـل يمكن الجمع وخاصة وان الســائل مريض بمرض السكر ولا يقدر على أن يحافظ علـى وضوئه مدة طويلة فهو يتوضأ لكل صـلاة فى غير حالات السفر ؟

جـ ١١ ـ اجاز الفقهاء الجمع بين الظهر والعصر تقديما فى وقت الظهر وتأخيرا فى وقت العصر كما أجازوا الجمع بين المغرب والعشاء كذلك .

فذهب المالكية الى أن أسباب الجمع السفر والمرض والمطر والطين مع الظلمة فى آخر الشهر ووجود الحاج بعرفة أو مكة أو المزدلفة واطلقوا فى السفر فقالوا انه مطلق السفر سواء كان مسافة قصر أو لا ، واشترطوا ان يكون السفر لغير محرم ولا مكروه فيجوز لمن يسافر سفرا مباحا ان يجمع بين الظهر والعصر جمع تقديم بشرطين أحدهما أن تزول عليه الشمس حال نزوله بالمكان الذى ينزل فيه ـ والثانى أن ينوى الارتحال قبل دخول وقت العصر ـ والنزول للاستراحة مرة أخرى بعـد غروب الشمس فان نوى النزول قبـل اصفرار الشمس صلى الظهر فى وقته واخـر العصر وجوبا الى وقته حتى ينزل . فان قدمها مع الظهر صحت مع الاثم . ومثل ذلك يقال فى المغرب والعشاء .

وتطبيقا لهذه الأحكام فى الحادثة المسئول عنها يتوضأ للظهر بعد دخول وقته ثم يصليه فى وقته قبل سفره من اسنا الساعة الثانية بعد الظهر كما يصلى بهذا الوضـــوء نفسه

صلاة العصر مقدمة عن وقتها وذلك كله قبل سفره من اسنا ولا يصلى شيئا فى الأقصر لأنه سيفارقها قبل دخول وقت المغرب . ثم بعد وصوله الى القاهرة يصلى المغرب فى وقتها اذا كان وصوله الى القاهرة قبل وقت العشاء وبعد دخول وقت العشاء يصلى العشاء كل منهما فى وقته فان وصل الى القاهرة بعد حلول وقت العشاء جمع بين صلاة المغرب والعشاء جمع تأخير ويبدأ بصلاة المغرب ثم العشاء ذلك بوضوء يتوضؤه بعد المغرب لا قبله .

كما أجاز المالكية لمن كان مريضا يشق عليه القيام لكل صلاة أو الوضوء كذلك كالمبطون الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء جمعا صوريا بأن يصلى الظهر فى آخر وقتها الاختيارى ، والعصر فى أول وقتها الاختيارى ويصلى المغرب قبيل مغيب الشفق والعشاء فى أول مغيبه وليس هذا جمعا حقيقيا لوقوع كل صلاة فى وقتها وهو جائز عندهم بلا كراهة والله أعلم .

بقية مقال (الإسلام بين العقل والنقل

وعقولكم وغرائزكم جميعا ، وتعنى الآية الثانية ، أن اطيعوا الله فيما جاء من كتابه ، الذى اوحى به الى رسوله ، وأطيعوا الرسول فى سنته القوليه والعملية ، وهى تارة تكون مفسرة للقرآن ، أو مفصلة لمجمله ، أو مخصصة لآية وأولى الأمر منكم أى أولى العلم بالكتاب والسنة من جماعة المسلمين وفضلائهم وحكامهم ، وهو الاجماع — اجماع الأمة من الصحابة والعلماء العدول والحكام المقسطين ، والأئمة المهتدين ، ويسمى ذلك اجماع الأمة المحمدية ، والأمة لا تجمع على باطل قط ، ثم الاجتهاد بالرأى والقياس .

ويكون أول اصول هذا الدين كتاب الله الكريم الذى يقول فيه « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » .

وثانى الأصول : السنة المطهرة ، التى يقول صاحبها عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع « انى تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنتى » ثم الاجماع ، اجماع الامة وهذه الامة لاتجمع على ضلال قط

فالاجماع طريق من طرق الأحكام الشرعية والأصول الدينية ، وان كان يجىء بعد الكتاب والسنة ، وذلك ما كان عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الاجتهاد بالرأى ، ثم القياس وهو قياس الغائب من الأحكام على ما علم من الكتاب والسنة ، وتلك هى الحدود التى تدور فى دائرتها سائر احكام الاسلام ، ومنها الرأى بالعقل طبعا ، على أن يتقيد العقل باحكام الوحى وبعبارة أخرى بكل أصول هذا الدين أن كان عقلا مسلما ، والا فلا ندرى . ايكون رجل مسلم أم لا .

« أفمن يمشى مكبا على وجهه اهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » .

فهل هذا كله خير واهدى ، أم تبلبل الفكر وان استند الى منطق العقل ، وبعبارة أوضح أم اتباع اقوام اخذوا بقول واحد منهم مغرض غير معصوم ، وانتموا اليه وقبلوا كل ما جاء به من حق أو باطل ، كالمذاهب التى تكلمنا عنها ، والتى سنعددها ونناقشها ، وقد ضاعت الحقيقة الدينية وضاع روح اليقين الاسلامى بين جماهير تلك الأقوال الباطلة ، وحتى من يؤرخ لهم فقد يذكر كتابا فى مقالات أهل الفرق من أهل الاسلام ، فيذكر كل مقالاتهم ، ويغض من القول الصحيح الوارد فى الكتاب والسنة ، والذى أقره الاجماع ، اجماع اهل الاسلام من النبى وأصحابه ، وسائر السلف الصالح .

كل تلك الحقائق وهى الاسلام نفسه ، كانها لا تضارع فى نظر المؤرخ المغرض لهذه المذاهب اشنع مقالة من المقالات التى يذكرها فى كتابه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول عن ذلك كله « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

شركة مصر
لتجارة السيارات

احدى شركات المؤسسة المصرية العامة للتجارة

١٢ شارع عبد الخالق ثروت .. القاهرة

تعتبر أولى شركات القطاع العام المصرح لها بالاستيراد والوكيلة عن الشركات العالمية الآتية :-

توكيلات عالمية

مصانع سيارات فولكس واجن — مصانع أوفاش بيل

مصانع سيارات مرسيدس — مصانع موتورات كمنز

مصانع سيارات فولفو — مصانع موجارت بالمجر

مصانع س. أ. ف ولوكاس — مصانع موتوكوف بتشيكوسلوفاكيا

مصانع جرارات دافيد براون

محطات الخدمة :

• ورشة مرسيدس
١٠ شارع الجلاء ت ٧٣١٣٢ - ٢١ - ٧٣٠
بالقاهرة

• محطة خدمة سيارات نصر بالقاهرة
١٢ شارع عبد الخالق ثروت - ت ٤٩٧١٠

ورش فولكس فاجن
٥ شارع النيل بإمبابة ت ٨٠٠٦٨٢ - ٨٠٩٨٤٩
٤ شارع الادريسي بمنشية البكري بمصر الجديدة
تليفون ٦٠٤٠٦
٣ شارع رياض بالأزاريطة بالإسكندرية
تليفون ٢٥٨٩٦

يصدر قريبا
فى أول رمضان
القرآن المرتل
رواية ورش عن نافع
تلاوة فضيلة الشيخ محمود الحصرى
شيخ عموم المقارئ بالجمهورية العربية المتحدة
فى ٦٨ إسطوانة
كل اسطوانة فى اربعين دقيقة تقريبا
وذلك تلبية لرغبة شمال افريقيا
مقر البيع ٧٦ شارع الجمهورية القاهرة

مع القراء

اعداد : فؤاد هيبة

عزيزى القارىء :

ان الصوم انتصار لارادة الحق على رغائب النفوس .. انتصار للمبادىء الحقة على متع الغرائز وشهوات الحواس ، وتدريب للمؤمن على القيام بالواجب والثقة بحسن الجزاء مما يربى وينمى فيه حب التضحية والمغامرة فى سبيل المجد ، ويقوى فيه بواعث الخير ، ويميت فى نفسه عوامل الاستكانة والخلود الى الأرض ، فهو بحق تحرير للعقل من آفة السطحية والشهوة الحسية بتحقيق مثل الصبر والبذل والتعاطف وصون اللسان وضبط النفس بالحلم والسماحة ، فمن سمات شهر رمضان المعظم أنه برهان عملى على أن الاسلام قد شرع احكامه على أساس من الجمع بين الحياتين : المادية والروحية فى اعتدال ، وأن سعادة الانسان تكون بتوخى الخير من الجانبين : بتقوية العلم وادراك الحق - ماديا - وتقوية الارادة ومحبة الحق - روحيا - فمرحبا بشهر رمضان المعظم ، وكل عام والأمة الاسلامية فى ارتقاء دائم ، وتقدم مضطرد فى طريق الكمال العلمى والتطبيق العملى من أجل حياة طيبة ونعيم مقيم .

الصراع النفسى .. وبلوغ الهدف !

السيد/محمد عبد المعطى محمد يوسف - ظنيخ - طلخا - دقهلية .

عليك يا أخى أن تتغلب على هذا القلق والصراع النفسى حتى لا يكون هو المانع العائق دون تحقيق أهدافك .

فدخول الجامعة أصبح سهلا ميسورا - من الناحية العامة - فى ظل ثورتنا المباركة ، والى ان يصلنا رد ادارة جامعة الأزهر على استفسارك - فى القريب العاجل ان شاء الله - يسرنا أن يكون رائد تفكيرك الصبر والشجاعة العلمية حتى تكون متأهبا لمواصلة الكفاح .. والى اللقاء مع أطيب التمنيات .

تحقيق النجاح .. وزيادة المسئولية :

السيد/زغلول مسعود - سوهاج - ميدان العارف

ان رسالتك الرقيقة بما تضمنته من معان كريمة .. تعبيرا عن مدى ما أحرزته مجلتنا من نجاح منقطع النظير بفضل جهود السيد رئيس التحرير ، وجميع العاملين بها لمن العوامل التى تدفعنا الى مزيد من الكفاح .. وتشعرنا بعظم المسئولية .. فالنجاح يتطلب - من أجل الابقاء عليه واطراده - تضحية وفداء أقوى وأعظم من تلك التى بذلت من أجل تحقيقه ، والله نسأل السداد والتوفيق .

السودان الشقيق .. وانتصار الحرية :

السيد/خالد على . شيرين - طالب بدار العلوم - وعضو جمعية الاصلاح بالسودان .

يسجل لنا خواطره الأدبية نحو انتصار ارادة الشعب الحر فى السودان الشقيق - شعر - والقصيدة مرآة صادقة لانطباعاته وعمق ايمانه بالواجب الوطنى ، والمجلة اذ تنشر بعضها تشاركه تأملاته السامية ..

سجل يا زمان فى بيض الصحائف فخرا
وقل للمؤرخ ضمن أخبارك العطرا
انصت يا رفيقى أعرنى أسماعك
شاركنى أفراحى نظمتها شعرا
من شرقنا الثائر نبه الغرب
احذر الصبار لا تلعق المر
غدر أهدافهم فتن وتفريق
كيد منوع أضمروا الضرا
تسلمى أوطانى ونامرك يا غرب
لا تتنمر رآك الشرق هرا
هنا مهبط الوحى مشعل الحضارة
الوضاء وتعلم زحفنا مرا

بريد التعارف

الاسم : نبيل محمد الفحل
البلد : الجمهورية العربية المتحدة
السن : ١٧ سنة
المهنة : موظف بالمحلة الكبرى
الهواية : قراءة الكتب الدينية ومراسلة الشباب المسلم
العنوان : شركة نسيج الغربية «اخوان عيد سابقا»

الاسم : محمد أحجرة
البلد : المغرب
السن : ٣٠ سنة
المهنة : كاتب عام للمدرسة الليلية
الهواية : قراءة الكتب الدينية والابحاث العلمية
العنوان : الرباط — مدارس محمد الخامس الليلية

الاسم : محمد شعراوى ابراهيم
البلد : الجمهورية العربية المتحدة
السن : ١٥ سنة
المهنة : طالب بمدرسة الترعة البولاقية الاعدادية
الهواية : جمع الطوابع وقراءة الكتب الدينية
العنوان : شارع البرارد رقم ٢٩ شبرا مصر

الاسم : السيد زكى محمود
البلد : الجمهورية العربية المتحدة
السن : ٢٢ سنة
المهنة : موظف بالشركة الاهلية للغزل والنسيج
الهواية : قراءة الكتب الدينية ومراسلة الشباب العربى
العنوان : الاسكندرية ـ محرم بك ش البكرى رقم ٢

الاسم : رالج بوجناح
البلد : الجمهورية العربية الجزائرية
السن : ١٨ سنة
المهنة : طالب بكلية العلوم
الهواية : تبادل الصور — قراءة الكتب الادبية ومراسلة الشباب العربى
العنوان : نادى الطلبة الوافدين ٥٤ ش القصر العينى — القاهرة

الاسم : أحمد عبد السلام على عياد
البلد : الجمهورية العربية المتحدة
السن : ٢٥ سنة
المهنة : طالب بكلية التجارة — جامعة الازهر
الهواية : القراءة والاطلاع وجمع الصور
العنوان : حارة الشماشرجى بشارع القلعة القاهرة

الاسـم : احمد فهمى احمد
البـلد : الجمهورية العربية المتحدة
السن : ١٦ سنة
المهنة : طالب بمدرسة الخديوى اسماعيل الثانوية
الهواية : المراسلة ـ الاطلاع
العنوان : ميدان سيف اليزن رقم ٢ القاهرة

الاسـم : عثمان عبد المنعم حسين
البـلد : الجمهورية العربية المتحدة
السن : ١٧ سنة
المهنة : طالـب صناعى دبلوم كرباء
الهواية : كرة القدم
العنوان : دراو النـادى الريفى

الاسم : بنسالم السفاطى
البـلد : المغرب
السن : ١٨ سنة
المهنة : طالب بقسـم البكالوريا
الهواية : الادب ـ السياحة ـ المراسلة
العنوان : رعوس رقم ١٩ فاس المغرب

الاسم : الوقتى الحسينى
البـلد : المغرب
السن : ٢٠ سنة
المهنة : العمل فى التجارة فى التجارة
الهواية : التعارف مع شباب العالم العربى
العنوان : ٣٢١ العسبات ـ مكناس ـ المغرب

الاسـم : الادريسى القيطوفى احمد
البـلد : المغرب
السن : ١٩ سنة
المهنة : موظـف بـوزارة الصحة
الهواية : قراءة الاشعار
العنوان : ٢٣ مكرر زنقـة لانسكوموال ملحقة الحى الجامعى ـ الرباط ـ المغرب

الاسـم : محمد بن احمد عمره
البـلد : المغرب
السن : ٢٥ سنة
المهنة : عامل تجارى
الهواية : مطالعة الكتب الدينية والمراسلات
العنوان : دربالفاس ـ زنقة سيدىبلال رقم ١٩ مكناس ـ المغرب

الاسم : عبد الغفار عبد العليم ابراهيم
البـلد : الجمهورية العربية المتحدة
السن : ٢٠ سنة
المهنة : دبلوم الزراعـة الثانوية
الهواية : قراءة الكتـب الدينية والمراسلة
العنوان : سبك الضـماك منوفية تلنيت أنشين

الاسم : محمد أبو بكر غرامه
البـلد : الجمهورية العربية اليمنية
السن : ٣٠ سنة
المهنة : عامل قراءة الكتب
الهواية : والابحاث العلمية
العنوان : اغرادة اثيوبياء

فى هذا العدد

		صفحة
معالم الطريق		٣
زعماء العالم الاسلامى فى القاهرة		٨
لقاء الاحرار	السيد الاستاذ حسين الشافعى	١٠
فضل عمر	فضيلة الشيخ محمد محمد المدنى	١٢
باب السنة	فضيلة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد	١٦
الاسلام والقومية العربية	الدكتور أحمد الحوفى	٢٢
وقفات هادئة	فضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكى	٢٥
اعجاز القرآن فى أصول الاحكام	الاستاذ محمود كمال	٣٠
ما لا يجوز الخلاف فيه	فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى	٣٥
الروح والنفس	الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى	٣٨
من حضارة الاسلام	الاستاذ عبد العزيز سيد الاهل	٤٢
دعوة الميثاق الوطنى	الاستاذ حسنى عبد المجيد	٤٨
الارض المقدسة	فضيلة الشيخ مشهور بركات	٥٢
رمضان فى مكة	الدكتور حسين نصار	٥٩
عناصر الحيوية فى الدين الاسلامى	فضيلة الشيخ عبد الله المشد	٦٢
الأمم المتحدة	الدكتورة عائشة راتب	٦٥
هلموا الى الينابيع التشريعية	فضيلة الشيخ عبد الله المراغى	٦٨
أثر الصيام فى سلوك الانسان	الاستاذ أحمد غنيم	٧٠
الله والانسان فى القرآن	الدكتور اسحق الحسينى	٧٤
نفحات الرحمن فى شهر رمضان	الاستاذ عبد الرحيم فرغل البلينى	٧٧
الوقف على النفس	المستشار عبد الستار آدم	٨١
فريضة الصوم	الاستاذ ناجى على أحمد	٨٤
من قصص القرآن	الاستاذ البهى الخولى	٨٧
فريضة صيام رمضان	الاستاذ مبشر الحسينى	٩٣
حديث السيف	الاستاذ محمد فرج	٩٦
موقف الاسلام من الرق	الاستاذ محمد محمد الشرقاوى	٩٨
التعاون الاقتصادى فى الاسلام	الاستاذ احمد بديع مصطفى	١٠٠
انسان الاسلام مزاج بين الروح والجسد	الاستاذ ابراهيم عوضين	١٠٣
الصوم ظاهرة حيوية	الاستاذ أحمد ابراهيم الشعراوى	١٠٧
بين أسماء وعبد الله فى شعر المنفلوطى	الاستاذ على الجمبلاطى	١١٠

اللغة العربية وافريقية ... ... الاستاذ عبده بدوى ١١٤

من وحى رمضان ... ... الدكتور محمد مظهر سعيد ١١٦

قاهرة المعز ... ... الدكتور فريد شافعى ١١٩

رمضان بين السلوك والعقيدة ... ... الاستاذ منصور نسيم ١٢٢

من فضائل الاسلام ... ... الاستاذ عبد العال شعيب ١٢٤

رمضان شهر الذكريات الخالدة ... ... الاستاذ عبد الحميد بليع ١٢٦

الاديب الذى وقف أدبه ... ... الاستاذ حسن الشيخه ١٣٢

رمضان شهر الفرقان ... ... الاستاذ محمود لطفى عبد الكريم ١٣٤

من اعلام الاسلام ... ... الاستاذ عبد العزيز الاسلامبولى ... ١٣٨

حياة المقر الشهابى ... ... الاستاذ محمد عبد الجواد الاصمعى ١٤٠

الاحامس ... ... الاستاذ أحمد محمد بريرى ١٤٣

القيادة الجماعية ... ... الاستاذ عبد المنعم الادفوى ١٤٦

معجزة الكون ... ... الدكتور عبد الحليم كامل ١٤٨

دراسات فى التاريخ الاسلامى ... ... الاستاذ احمد ابراهيم الشريف ... ١٥١

رمضان فى ليبيـــا ... ... الاستاذ محمد أمين هلال ١٥٤

الاسلام بين العقل والنقـل ... ... الاستاذ محمود ابو الفيض المنوفى ... ١٥٦

من ذخائر المكتبة الاسلامية ... ... عرض الاستاذ ابراهيم الفحام ١٥٨

الشعر الدينى ... ... الاستاذ عبد العزيز سيد الاهل ١٦٢

تسابيح « شعر » ... ... الشاعر عبد الله شمس الدين ١٦٦

نور على نور ... ... الشاعر محمد هارون الحلو ١٧٠

فانوس رمضان « قصة العدد » ... ... الاستاذ حسين القبانى ١٧١

باب الرياضة ... ... الاستاذ ناصف سليم ١٧٤

ندوة الشهر ... ... الاستاذ عبد الرحمن الشربينى ١٧٨

وسع كرسيه السموات والارض ... ... الدكتور محمد جمال الفندى ١٨١

كتاب السبعين الموازينية ... ... الاستاذ احمد سعيد الدمرداش ١٨٣

الامام الشافعى ومقامه ... ... الدكتور محمود وصفى ١٨٧

باب التحقيقات ... ... اعداد رياض خليفة ١٩٣

ام حبيبة رضى الله عنها ... ... اعداد : عائشة حسنى ٢٠١

دور المرأة فى حركة الاستقلال ... ... اعداد : نجاة الزنيرى ٢٠٥

لماذا أسلمت ٢٠٩

انت تسأل والمفتى يجيب ... ... فضيلة الامام الاكبر الشيخ حسن مأمون ٢١١

مع القراء ... ... اعداد : فؤاد وهبة ٢٢٠

بريد التعارف ٢٢١

مجموعة اسطوانات

الصلاة

وتحتوى على ٧ اسطوانات شاملة
الأذان * الوضوء
الصلوات الخمس

اسطوانات

المصحف المرتل

فى ٤٤ اسطوانة

ترقبوا فى منتصف كل شهر عربى

سلسلتى

كتب إسلامية

و

دراسات فى الإسلام

تضمن الحصول على
مكتبة اسلامية جامعة
باقلام كتاب متخصصين

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية